هيـام الملقي

دراسة في الفولكلور والثقافة

(نحو تأصيل لعلم الإنسان)

دار الشواف للنشر والتوزيع
الرياض

دراسة
في الفولكلور والثقافة
(نحو تأصيل لعلم الإنسان)

دراسة

في الفولكلور والثقافة

(نحو تأصيل لعلم الإنسان)

تأليف

هيام الملقي

دار الشواف للنشر والتوزيع
الرياض

١٤١١هـ - ١٩٩٠ م

دار الشواف للنشر والتوزيع شارع الثلاثين - العليا
الرياض - المملكة العربية السعودية - هاتف: ٤٦٢٢٦٣٠ - ٤٦٢٢٦٦٧

إهداء

إلى زوجي

تسجيلاً لما يمدني به من عون

وتشجيع على المثابرة..

.. أقدم له شكري

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم د . عبد الحليم عويس

لاشك أن قضية تأصيل المعرفة الإنسانية – بكل جوانبها – من أبرز القضايا التي تطرح نفسها على الإنسان المسلم اليوم .

وفي هذا العالم الذي تتصارع فيه الكيانات ، ويقدم الإعلام – بوسائله المختلفة – الصيغ المعاشية والأنماط الاجتماعية من خلال الفنون المختلفة (الإعلامية غير المباشرة) أو من خلال الإعلام المباشر. . في هذا العالم الذي تتجاور فيه عوامل التأثير والتأثر ، ولا مكان فيه للعزلة أو الانزواء على الذات – يجب ، ديناً وحضارة ، أن نجاهد في مجال تأصيل معارفنا ، وطرح صيغنا المعاشية ، وأنماطنا الاجتماعية الخاصة النابعة من أصولنا ومبادئنا وقيمنا ، كبديل لابد منه ، حتى لا نذوب في الحضارة الأوربية التي تحاول بكل ما تستطيع أن تصنع واحديّة حضارية ، وأن تلغي الآخرين تماماً ، وأن تجعل فكرة التعددية الحضارية والصيغ المعاشية المختلفة فكرة متخلفة يجب أن تزول تماماً ، لتبقى الصيغة الأوربية وحدها – بكل سلبياتها وضغوطها على الجانب الإنساني والأخلاقي والعقيدي – هي القدر الذي لا مفرّ منه أمام مليارات البشرية الكثيرة وقاراتها الخمس وشعوبها المتعددة ، التي قال فيها الله سبحانه وتعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ مبيناً سبحانه أهمية التعددية الحضارية ، ومبيناً حق كل شعب في التعبير عن ذاته – في إطار قواسم إنسانية مشتركة. ومحدداً هدف هذا التعدد وهو التكامل والتعارف والتعاون. .

وويل للحضارة الإنسانية إن أخضعتها الحضارة الغربية لهذا المسخ ، وجعلتها

طبعة واحدة كثيفة في ظلالها المادية ، هشة في معطياتها الأخلاقية ، مبتوتة الصلة بخالق السموات والأرض .

* * *

ومن هنا يأتي الدور العظيم لهذه البحوث والجهود التي تجاهد في مجال تأصيل العلوم الإنسانية تأصيلاً قائماً على أصول الإسلام وتجربتنا الحضارية .

وقد أعجبني من الباحثة الكريمة الأخت هيام الملقي أنها تقيم أصول التأصيل على قواعد علمية لا على عواطف انفعالية ، وأنها تطرق مجالات ظنّها بعض السذج لغيبتهم عنها بعيدة عن أن تقوم على قواعد التأصيل الإسلامي . ويأتي الفولكلور على رأس هذه المجالات التي حاول المستشرقون والمستغربون إبعادها عن التأصيل ، والانفراد الاستغرابي بها ، ومن خلالها سعوا إلى تدمير كثير من عوامل الذاتية الإسلامية .

لكن الباحثة دخلت الميدان من بابه العلمي ، وتتبعت جهودنا الثقافية والأنثروبولوجية والفولكلورية التي قام بها أعلام تراثنا ، وقصرنا نحن في الغوص في تراثهم واستخلاص مناهجهم والقيم التي غرسوها والإبداعات التي أبدعوها.

وقد مزجت الباحثة بين جهودها تلك والتزامها بمنهج علمي رصين في البحث الأنثروبولوجي والإنساني بعامة. ومن هنا تجاوزت محاولات التلفيق والترقيع التي كانت سمة محاولات التأصيل في بعض المراحل. وقدمت جهداً علميا رصيناً .

وقد امتدت المساحات التي عالجتها الباحثة بدرجة كبيرة ، وربما توجب عليها أن تعود لعلاج بعض القضايا ، من خلال التأصيل – في المستقبل إن شاء الله – . وأنا أعذرها في ذلك ؛ فقد وجدت الباحثة نفسها تقف في معركة كبيرة أهملها الباحثون . –أو كادوا – وجدت أنه لابد من القيام بوضع الأصول والقواعد وإثبات أهمية التأصيل ، ووجود مبرراته العلمية والفكرية. .

ولهذا فأنا واثق أن هذا البحث سيخدم كثيرا من الباحثين ، وسيكون - بإذن الله - نقطة انطلاق نحو تيار تأصيلي واثق وواعٍ في مجالات كاد يضمر التأصيل فيها ، وأبرزها - كما ألمعت - مجال الفولكلور وتراثنا الشعبي .

وجزى الله الباحثة خير الجزاء على دخولها هذا الميدان البكر الطيب ، وعلى ما ألزمت نفسها به من جهد ، مع أعبائها الأسرية الكثيرة .

في يقيني أن الدعاء بالخير يجب أن يتجه كذلك لأسرتها الكريمة التي ساعدتها في جهادها - زوجاً وأبناء - ! ! وكم نحن في حاجة إلى أن تعود حياتنا الأسرية إلى هذا النسق العلمي الكريم ، وإلى هذه الروح الإيجابية والمتعاونة ، بعيداً عن استلابات الحضارة الحديثة ، وبعيداً عن برنامج هذه الحضارة المعاش ، الذي يسعى إلى تفكيك الأواصر وإلى بعثرة الوقت في المجالات الترفيهية على حساب الأساسات ، وإلى اغتراب الإنسان عن دينه ووطنه. مع أنه يعيش في دينه ووطنه. .

وأسأل الله أن يعين الباحثة على مواصلة جهادها الكريم في الميدان نفسه. وهو نعم المولى ونعم النصير .

د / عبد الحليم عويس

المقـدمـة

ابتدأت ظاهرة إعراض الناس عن تطبيق أحكام الله وشريعته في حياتهم ، منذ أن دعا نبينا محمد ﷺ قومه إلى دين الإسلام واتباع أوامره في أعمالهم وأمور معاشهم في دنياهم ، أي إقامة عمرانهم بصناعتهم لكي تكون مستهدية بتوجيهات شريعتهم واستبعاد أهوائهم وأفكارهم التي تشذ عن هذه الشريعة وتخالفها .

وأوضح لنا قرآننا هذه الظاهرة لنتنبه إليها ولا نقع في منزلقها الخطير الذي يبعد الإنسان عن ربه ، فيختلط العلم بالجهل في اتباع الطريق القويم ، فيزداد الإنسان يوماً بعد يوم في الإساءة لنفسه ولأخيه ولبيئته أي لكل أعماله في بناء الحضارة في هذا الكون. ومن ثم تصبح إنسانيته ووجوده في خطر .

لقد نزل الوحي بالآية القرآنية التي توضح شكوى الرسول ﷺ من هذه الظاهرة التي بدأت ملامحها تظهر على قومه ؛ لتظل هذه الآية القرآنية منبهةلنا – نحن المسلمين – لإصلاح أنفسنا ومعالجة تقصيرنا نحو ديننا ولنتذكر هذا الأمر خصوصاً في وقت محنة هذه الأمة . يقول تعالى على لسان نبيه الذي يخاطبه شاكياً له أفعال قومه : ﴿ **وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ، وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين ، وكفى بربك هادياً ونصيراً** ﴾[1] .

إن أعداء هذا الدين وهذه الأمة ما لبثوا يَنْفذُون من نقاط ضعفها وتقصيرها في أمور دينها فيكيدون لها ليزيدوا في إبعادها عن عقيدتها ؛ لما يتحقق به ضعفها

---

(١) سورة الفرقان : الآيتان ٣٠ – ٣١ .

والقضاء عليها ، وذلك عندما يصبح أمر هذا الدين بعيداً أكثر فأكثر عن تصحيح اعوجاج الأمة وتقويم أمرها ، وبذلك يتم لهم استمرار تحقيق ضعفها الفكري ثم الاقتصادي والاجتماعي .

لقد وجد الاستعمار وأعداء الأمة منفذاً يدخلون من خلاله إلى حصون الأمة الفكرية فيشوهون أثر هذا الدين في صبغه لأعمال الأمة ونشاطاتها ، ذلك عن طريق تحريف مفهوم الدين وتوجيه العلوم الحديثة استعمارياً ، أي عن طريق صناعة الفكر وصناعة العمل ، حسب التعبير الذي كان يستخدمه أجدادنا من واقع أصولنا الفكرية .

وقد ساعد الاستعمار على تحقيق بغيته فينا ، ما كانت عليه الخلافة الإسلامية من ضعف في أواخر عهدها. هذا من جهة ومن جهة أخرى وبتأثير ما حققته النهضة الأوربية الحديثة بعد امتلاكها للمعرفة – من قفزات علمية وفكرية في مجالات العلوم والفنون والصناعة .

لقد كانت هذه التطورات الفكرية الهامة التي تمثلت بالعلوم الجديدة ومجالات الفكر الحديث سبيلاً لأن تكون خاضعة لسيطرته ، ومن ثم صياغتها بالشكل الذي يحقق أغراض الاستعمار وأهدافه للنيل من أمتنا ، وخصوصاًفيما يتعلق بالعلوم الاجتماعية والنفس البشرية وتوجيه خبراتها في هذا الكون .

إن ما أصاب الأمة حاليا هو من جراء ما دسه الاستشراق في تاريخ العرب والإسلام من سموم وما اخترعه الاستعمار من شبهات ونظريات مادية ومخترعات مزيفة تسربت إلى علومنا الحديثة وما زالت تتوافد علينا على شكل تيارات فكرية تساهم في تكريس اغتراب فكرنا وجمود فاعليته الوظيفية .

إن هذه المحنة التي نعيشها لم تكن المحنة الأولى التي عانت منها الأمة الإسلامية فقد سبق أن عانت من محنة أخرى أصيبت بها في تغريب فكرها الإسلامي بعد أن أقدم المسلمون على ترجمة العلوم والمعارف للحضارات المجاورة في عهد الخليفة

المأمون (الدولة الأموية) حيث تسربت إلى فكر الأمة أثناء ذلك الفلسفة المادية ذات الأصل اليوناني وغيرها القائم على الوثنية وتعدد الآلهة والعبودية من ناحية الاجتماع ، وأشاعت مثل هذه الفلسفات وقتئذ الاضطراب والضعف في الفكر الإسلامي والبلبلة والانقسام بين صفوف علماء الأمة وبين ظهراني مجتمعها .

وقد عمد كثير من علماء الأمة ومفكريها إلى دراسة هذا العلم الجديد عليهم وهو الفلسفة ، وقام الفقيه الإسلامي ابن تيمية بعد استيعابه لهذا العلم بتحرير الفلسفة الإسلامية من تشويهات وأمراض الفلسفات المادية . فقد رأى العلماء أن منهج القرآن قد منح الفلسفة الإسلامية منهجاً متكاملاً للميتافيزيقا الإسلامية والتصور للكون وعالم الغيب بعيداً كل البعد ومختلفاً عما جاءت به تلك الفلسفات وادعاءاتها . حتى يقال إن الإمام الغزالي كان قد هجر الأستاذية ورئاسة العلم ليتفرغ لدراسة علوم عصره فتفهم الفلسفة اليونانية حتى صارت معرفته بها أسهل عليه من شرب الماء وبعد ذلك قارع خصومه ورد عليهم وكشف مقاصد الفلاسفة وأظهرها موضحاً لها أكثر من أهلها .

وإذا اطلعنا على فكر العلامة ابن خلدون نلاحظ أنه في كتابته لمقدمته في علم العمران البشري وما جاء فيها حول تلك الفلسفات ، وعلى منهجها الفكري بشكل عام ، نجد أن ابن خلدون قد استفاد من فكر العلماء الذين سبقوه في ردهم على شبهات الفلاسفة وضلالاتهم حيث كان منهجه في كتابته لمقدمته في علم العمران متواصلاً مع موقف العلماء الذين سبقوه من الفلسفة وطبيعتها وكانت له رؤيته السديدة في الاقتصار على الاستفادة منها ومن منطقها في وزن الأمور بها فقط لتحقق الفائدة منها مع ضرورة استبعاد أغراضها ومنطلقاتها وتصوراتها التي هي بعيدة كل البعد عما جاء به الإسلام .

لكن هجمة الاستعمار هذه المرة ، بعلومه الجديدة ونظرياته المخترعة ، وتدعيمه لهذا الفكر الاستعماري بتفوقه الصناعي التكنولوجي ، هي أقوى من كل محاولاته السابقة ؛ فقد استغل متغيرات الحضارة وتبدل الأحوال واختلاف أساليب المعيشة

وانفتاح الثقافات ؛ لإنجاح هجمته الأخيرة .

لقد كانت هذه العلوم الجديدة والنظريات الفكرية المخترعة التي أتتنا من الغرب ، بكل اتجاهاتها العلمية منفصلة تماماً عما جاء به قرآننا الكريم في مبادئها ومنطلقاتها التي تختلف معه في الأسس الفكرية ، ومصادر المعرفة والنظرة إلى الإنسان والكون .

ثم أقبلنا على هذه العلوم والمعارف الجديدة وتعلمناها على يد الغرب وإذا بالمسلمين يزيد هجرهم للقرآن ، ليس في أمر تلاوته فقط ، ولكن أيضا في فهم معانيه وتطبيق ما جاء فيه على حياة أمور المسلمين في معاشهم وتنظيم علاقاتهم. لقد تحقق لهم ذلك عندما تسربت إلينا ازدواجية التعليم الغربي في فصل الدين عن الحياة ، وأصبح القرآن بعيداً جداً عن أن يكون دستوراً ينظم حياة المسلمين أفراداً وجماعات ، فضلاً عن توجيه القرآن لنشاطاتهم وصناعاتهم وعلاقاتهم .

وكان من نتيجة ذلك أنْ وصل المسلمون إلى حال قصرت معها صناعاتهم الفكرية والعملية عن أن تحقق وظيفتها باعتبارها وسيلة فاعلة تساعدهم على تحقيق قوتهم وحل مشكلاتهم .

وبمعنى آخر ، فقد افتقد المسلمون صناعاتهم الفكرية والعملية التي تمثل وسائلهم المرتبطة ببيئتهم وتاريخهم وثقافتهم والتي تبني حضارتهم المتميزة فتلبي احتياجاتهم ، وتصوغ أساليبهم ، وتكون مرتبطة بالقيم التي تحقق أهدافهم ؛ ومن ثمَّ فقد أصبحت توقعاتهم – نتيجة فقدان وسائلهم فاعليتها – للوصول إلى أهدافهم عاجزة وغير مضمونة أو غامضة المعنى بالنسبة للوظيفة التي تربطهم ببنائهم الاجتماعي المطلوب . أي أنهم أخذوا يعيشون حالة الاغتراب الثقافي والاجتماعي بسبب اغتراب وسائلهم المتمثلة بصناعاتهم الفكرية والعملية ومن ثمَّ عجزها عن أن تكون قادرة على أداء وظيفتها داخل الكل الشامل الذي يتفاعل متعاوناً على تحقيق الغايات من رسالة أمتهم .

وبذلك تحقق (لغلادستون)(*) أمنيته في إبعاد هذا القرآن عن أن يكون دستوراً لحياة المسلمين وبالتالي فقد تحققت أغراض أمة الشرك في كسر شوكة أمة الإسلام وإضعاف عزيمتها ، عن طريق إبعاد صناعاتنا الفكرية والعملية عن أن يكون لها جانبها الثقافي المتميز ، الذي يربطها بالغايات السامية لهذه المجتمعات .

لقد تحقق لهم ذلك عن طريق سلب المعرفة الحقيقية لعلوم المسلمين ، وتشويهها ، وإفراغ محتواها وفصلها عن غاياتها ؛ إذ إن من عادة الاستعمار أن يسلب الأشياء معناها الحقيقي الذي يحقق روابطها داخل الكل الشامل[1] .

لقد كان من الأجدر لعلومنا الحديثة أن تزيد الإنسان إيماناً بما جاء في كتاب الله تعالى ، ولكن ما حدث هو العكس تماما إذ إن هذه العلوم عملت على أن تطفئ جذوة الإيمان في نفس طالب المعرفة ، كلما تدرج في مسالكها كما أخذت تُفقده شيئاً فشيئا عاطفته نحو عقيدته ، وما تتطلبه هذه العقيدة من التزام بأخلاق دينه ومبادئه وآدابه ، بل إن ما حدث هو العكس تماماً ، فقد أخذت ترجعه إلى الوراء شيئاً فشيئاً ، فجعلته يفتقد العادات الإسلامية التي أخذها عن أسرته وبيئته ، من التزام بشؤون دينه وعبادته ، وقادتْه إلى الضياع ! !

إن الاستعمار عندما أقدم على إنشاء هذه العلوم الحديثة ، وخصوصاً ما يتعلق منها بالأمور الاجتماعية والإنسانية ، فإنه كان يدرك تماماً أن العرب لن تقوم لهم قائمة إلا بسلطان من الإسلام ، وما سبب ضعفهم وطمع الأعداء بهم في النيل منهم خلال فترات التاريخ المختلفة ، إلا لتركهم بعض ما جاء به قرآنهم .

ونحن نجد أن الغرب عندما صاغ علومه ونظرياته الفكرية وأنشأ على أساسها

(*) غلادستون : شخصية انجليزية احتلت منصب وزير خارجية بريطانيا سابقاً ، وكانت أمنيته التي تمنّاها : إبعاد القرآن عن أن يكون دستوراً لحياة المسلمين ، وتوعّد فيها أوربا بالفناء ، إن هي سمحت للدستور القرآني أن يحكم حياة المسلمين .

(١) مالك بن نبي (في مهب المعركة) دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨١ م ص٥٤ .

أنظمته الاقتصادية والاجتماعية ، فإن كل هذه كانت مناقضة – في كثير من الأحيان – لما جاءت به الأديان السماوية ، ومخالفة لها ؛ كما كانت مدعمة لفكرة تفوقه العنصري ؛ ومن ثمّ فقد كانت هذه العلوم باعتبارها وسائل للحضارة ، لا تصلح لنا ؛ لأن تشكيلها كان مفصولا عن الحكمة والغايات ! !

وقد لخص علماؤنا الذين أدركوا محنة هذه الأمة ورأوا ضرورة تأصيل المعرفة لكي تجتاز الأمة محنتها الفكرية هذه – لخصوا ما لحق بهذه الأمة ، في بعدين رئيسيين[1] :

البعد الأول : يتمثل بالغزو الثقافي في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية ، خاصة ذلك التبديل الذي جعل عقول أبناء الأمة الإسلامية تبتعد عن دراسة الفكر الإسلامي والتراث الإسلامي ، ناظرين إليه على أنه ظواهر قد اندثرت ولا علاقة لها بالحياة المعاصرة ، ولا حاجة بنا إليها . ولذلك صار المثقفون المسلمون يأخذون حاجاتهم من جوانب المعرفة الإنسانية المختلفة من معين الغرب ، الذي شاد كيان هذه العلوم وبناها على أساس من مفاهيمه ووفقاً لظروفه وحاجاته وأهدافه ومصالحه . وتشكلت من ثمّ – وفقا لتلك الأسس والغايات الغربية – مختلف وجوه السلوك والنشاطات والمؤسسات الاجتماعية .

وإذا كانت هذه الانعكاسات على جوانب الحياة المختلفة مما يتقبله الإنسان الغربي ويتناسب مع أهدافه وغاياته ، فإنه مما لا شك فيه أن هذه الانعكاسات تُحْدث لدى المسلم نوعاً من التمزق والانفصام بين هذه القيم والمنطلقات والغايات الغربية ، وبين معتقداته وقيمه وغاياته الإسلامية .

والبعد الثاني : يكمن في قطع صلة هذه الأمة بتراثها الإسلامي ، وتحويله إلى مجرد إرث تاريخي ، يُفتخر به ، ويُتغنى بأمجاده ، وتختار منه النماذج (الفولكلورية) التي تكرسها النظرة الغربية إلى هذا التراث .

(١) المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، سلسلة إسلامية المعرفة-٣ ، (الوجيز في إسلامية المعرفة) ، الولايات المتحدة الأمريكية ، ١٤٠٨ هـ/١٩٨٧ م ، ص١٥-١٦ .

أما أن يكون التراث أساساً للبناء ، وقاعدة للتفاعل الحي ، بإبقاء المفيد ، وتنمية النافع ، وإحياء الجيد ؛ فذلك – مع الأسف – موضع الرفض ، لا موضع القبول والاعتبار ، عند الكثيرين .

فمن أجل تحقيق تأصيل هذه العلوم لابد لنا من أن ندرسها ونخص بالاهتمام الجديد منها ، شريطة أن تكون الدراسة واعية وأن نضع أيدينا على آثار هذه العلوم ونتائجها ، وما تؤديه من وظائف داخل الظواهر الاجتماعية في مجتمعاتنا هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن من واجبنا أن نكتشف صلتها الحقيقية مع العلوم الإنسانية الأخرى ، القديم منها والحديث التي أجرى الاستعمار التعتيم والتضليل وإخفاء بعض حلقات تطور العلم ، لكي يخضع توظيفها لأغراضه ؛ ومن ثم فإن من واجبنا أن نقوم نتسليط الأضواء عليها لنكتشف وظيفتها الإيجابية التي يمكن أن تؤديها ، بعد أن نخضعها لمبادئنا ، ونزن آثارها ونتائجها ووظائفها بميزان قيمنا ، وما جاءت به أصول شريعتنا ، وذلك تمهيداً للسيطرة على هذه العلوم ، وإخضاعها للاستخدام علمياً ووظيفياً بما ينسجم مع قيمنا وأهدافنا وبيئتنا .

وهذا ما حاولت أن أقوم به في بحثي هذا عند دراستي للمعرفة الفولكلورية والثقافية . مبتدئة بدراسة تطور حضارة الإنسان وتطور صناعاته ، ومساهمة حضارتنا في نشأة علم العمران البشري ونشأة علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) وعلم الفولكلور وعلم الثقافة ، ومن ثم دراسة التغيرات التي أحدثتها نزعة التحديث في طبيعة البناء الحضاري للإنسان . والتي أتت مخالفة تماماً لما كانت عليه الحضارات الفولكلورية السابقة لمرحلة التحديث ، عندما كان الإنسان مسيطراً على صناعاته وآلاته ، بعكس ما هي عليه الحال في الحضارة الأوربية ، عندما أصبح الإنسان أسيراً لهذه الآلية المعاصرة .

وإنه لمن الجدير بالذكر أن نوضح أن علم الثقافة الجديد قد أصبح من العلوم الهامة التي من الممكن عن طريق حسن استغلال المعرفة فيه توظيفه في صنع حضارة

الإنسان ، فهو من العلوم التي تلقي عليه الإنسانية آمالها في استعادة توازن الإنسان بالإضافة إلى تطويع هذا العلم لخدمة الثقافة البشرية وخدمة الحضارة الإنسانية .

إن من الحكمة أن يكون من مبادىء منهجنا في التصحيح – نحن المسلمين – عدم مخالفة الأفكار والحلول المطروحة مخالفة صريحة ، بل علينا أن نقوم بالمقارنة وبإيضاح الإيجابيات التي يمتلكها الفكر الإسلامي ، والتي تساعد على حل مشاكل الشعوب ، التي نتجت عن اتباعها للمناهج الوضعية في الاقتصاد والاجتماع ، كما هو الحال في الرأسمالية والشيوعية .

إن إبراز هذه الإيجابيات والحلول العملية الناجحة التي قدمها الإسلام يدعم المكانة العليا له في كونه منهجاً متكاملاً في جميع جوانب الحياة ، كما تتكامل فيه جيمع جوانب المعرفة البشرية ، وما ينبغي أن تكون عليه نظرة الإنسان إلى الحياة والكون وتدعيم سعادة الأفراد والمجتمعات وتنظيم العلاقة بينهم أثناء أداء رسالة الإنسان في إعمار الأرض بالعلم والعمل الصالح .

وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

هيام الملقي

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

الباب الأول

الفصل الأول
حضارة المجتمعات قبل النهضة العلمية الحديثة

المجتمعات قبل النهضة العلمية الحديثة :

تتميز أساليب المعيشة لمختلف الحضارات التي سبقت عمليات التحديث ، ببساطة الوسائل ، وعدم تعقيدها إذا قورنت بما هي عليه الآن في الحضارة المعاصرة .

ومن المعروف أن أساليب المعيشة إما متأخرة بدائية أو متقدمة وتسمى « حضارية » .

وبمقارنة الحضارات المختلفة ، نجد أن هناك اختلافاً أو تشابهاً في هذه الأساليب ، ويرجع ذلك إلى عدة عوامل منها : اختلاف طرق تفكير الإنسان ، واختلاف العقائد ، وتعدد إمكانيات البيئة الطبيعية والمناخ ، والثروات الطبيعية ، واختلاف عوامل انتشار الثقافات البشرية والجوانب الحضارية ، أو انغلاق الجماعات البشرية على نفسها ، واقتصارها على الوسائل الضرورية البسيطة كما في « الجماعات البدائية » .

ونستطيع أن نأتي بأمثلة على الوسائل المتقدمة التي وجدت في بعض الحضارات ، مثل حضارة البلاد الصينية أو حضارة البلاد الهندية ، أو حضارة بلاد الفرس. . نستطيع ذلك إذا تتبعنا الحياة الاجتماعية لهذه الحضارات .

ومن الحضارات حضارات عاشت فترة من الزمن ثم بادت ، كما هو الحال بالنسبة للحضارة البابلية والحضارة الأشورية ، والحضارة الفرعونية . ويذكر القرآن الكريم شيئاً عن قصص حضارة قوم عاد وثمود وغيرهما لأخذ العبرة والعظة من الوجهة التي اتجهت إليها غايات هذه الحضارات وصناعاتها[1] .

وبعض الحضارات تمر بفترة ازدهار وتقدم ، ثم تتجه إلى التأخر والانحطاط ،

---

(١) ارجع إلى الفصل الثاني من هذا الباب في موضوع : (صناعات الإنسان وارتباطها بعمليات التغيير الاجتماعي عند ابن خلدون).

أو تبقى في فترة كمون ثم تستعيد ثقافتها ونهضتها لترجع إليها الحياة من جديد ، كما هو الحال في آثار الصحوة الإسلامية المعاصرة .

ويتم أمر التلاقح بين الثقافات والحضارات المختلفة عن طريق وسائل الاتصال ، كالسفر والرحلات والتجارة والحروب ، وغير ذلك من وسائل الاتصال بين الناس . وقد تقدمت هذه الوسائل في الوقت الحاضر تقدماً كبيراً ، وعلى كل حال فالمعرفة ملك للبشرية جمعاء ، وليست ملكاً لقوم من الأقوام أو شعب من الشعوب .

العادات التقليدية للمجتمعات القديمة :

لقد تطورت معرفة الإنسان وخبرته البشرية في بناء المدن وتخطيطها عبر الأزمنة المختلفة وحتى العصر الحديث ، وذلك من حيث طريقة بناء مساكنه وأسواقه ، وطريقته في بناء مؤسساته العامة وتحصين مدنه ، وجمع ما يتعلق بمجالات صناعاته التي تتميز بخاصية فكره وعلومه .

وكانت هذه الخبرة البشرية تنهض معتمدة على الإدارة الطبيعية في الأصل ، والتي تصدر عن تفاعل ذات الإنسان وفطرته من جهة وطبيعة ما وصلت إليه المعرفة أو الثقافة في عصرها وبيئتها من جهة أخرى ، كما أنها ترتبط بعوامل الزمان ، والمكان والخبرة .

وقد سمي ما تعارف عليه الناس من عادات ، نتيجة تجارب السنين الطويلة وخلال العصور المختلفة ، بالعادات التقليدية أو « السنن الاجتماعية » .

وقد شملت هذه الخبرات جميع جوانب حياة الإنسان الحضارية المختلفة ، سواء في جوانبها المعنوية أو المادية ، فقد تعارف الإنسان في مسألة زراعة القمح مثلاً في بلدٍ من البلدان على نوعية من البذور الصغيرة التي تلائم تربة هذه الأراضي دون غيرها ، كما تعارف على طريقة في الري أو تخزين المياه ، لكي تساعده على تلافي أخطار سنين الجفاف والقحط ، وتتلاءم هذه الطريقة مع إمكانياته وطبيعة

المناخ في بلده .

ونحن نرى مثلاً من العادات التقليدية للشعوب ، أن إقليماً من الأقاليم اعتاد ارتداء نوع من الثياب ذات الخيوط القطنية أو الصوفية المعينة ، أو أن له طريقة خاصة في حياكة أزيائه ، وكل ذلك بحيث يتناسب مع طبيعة حرارة صيفه أو برودة شتائه أو معطيات بيئته .

وما ينطبق على الثياب ينطبق على نوعية أغطية الرأس أو الجوارب أو الأحذية التي يلبسها الإنسان في عدة مناسبات ، كمناسبات العمل وغيره .

ونجد الأمثلة على ذلك واضحة في بعض الجماعات البشرية الحالية كما نراه في الآثار التاريخية والمتاحف ، بالنسبة للحضارة الفرعونية ، أو الحضارة الرومانية أو ما نقرأ عنه في الكتب ، أو ما نجده مصوراً على تلك الآثار على حد سواء .

وإن ما ينطبق على صناعة الملابس ينطبق على صناعة الإنسان في بناء أشكال مساكنه أو كيف يكون نظام مجموعاتها ؛ فكثيراً ما تختلف أشكال هذه المساكن وطرق تنظيمها ، ولكن الإنسان منذ القديم تعارف على أن تكون مساكنه عبارة عن مجموعات تكون فيما بينها علاقات الجيرة وتسمى « المجتمع المحلي » ويلي ذلك مجموعة من المساكن لعديد من الأسر الأخرى تكون فيما بينها مجتمعاً محلياً آخر ، وهكذا دواليك . وقد تعارف الإنسان على أن يكون لمجموعة هذه المساكن بوابة كبيرة تحمي سكانها من لصوص الليل أو قطاع الطرق .

وتكون العلاقات البشرية داخل المجتمع المحلي قائمة على الرغبة الطبيعية المتبادلة بين الفرد والآخر ، كما تستند إلى عامل الصداقة التي ترتكز على مبادىء الأخلاق والقيم والعقيدة التي تعارف عليها الناس في هذه المجتمعات .

وقد كان للأديان السماوية « عقيدة التوحيد » أثرها الكبير في وجود هذه القيم ومعانيها الأخلاقية في تلك العادات التقليدية سواء في جوانبها المادية أم غير المادية وذلك بالطبع في الأمم التي تدين بعقيدة التوحيد ؛ فقد كانت الأمم قبل

الإسلام قد تعارفت على الأخلاق والفضائل سواء في الجزيرة العربية أم فيما حولها من الأمم . يتبين هذا من قول رسول الله ﷺ : « خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا » أخرجه الترمذي .

قد يشتم هذا أيضاً من الحديث الشريف : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » أخرجه أحمد بن حنبل .

لقد أتى الإسلام إلى الجاهلية ، حيث كان الناس في الجزيرة العربية وما حولها يعيشون في ضلالات بشرية ، فقام الإسلام بتصحيح انحرافاتها ، وأضاف وتمم ما نقص من رسالات السماء السابقة ، ومن ثم كانت شريعة الإسلام أتم وأكمل وأشمل رسالة سماوية نزلت إلى البشر ، كما أنها كانت رسالة عالمية ، لا تختص بقوم من الأقوام أو جماعة من الجماعات ، فهي للبشرية جمعاء .

الحضارة قبل عملية التحديث

يصنف علماء الاجتماع العرب المسلمون المجتمعات في الفترة التي سبقت مرحلة التحديث المعاصرة إلى نوعين :

-**النوع الأول** : هو النوع البدائي ، كما هو الحال في الأمم الوحشية أو البداوة فيرى العلامة ابن خلدون أنّ مجتمعات البداوة مثلاً يكون همها الضروري هو المعاش ممثلا في تحصيل الأقوات من خلال الزراعة والرعي والصيد وغيرها .

ولا تحتاج الجماعات البدائية من الصناع إلا إلى القدر المستعمل في الضروريات . وتكون هذه الصنائع غير مستجادة لأنها تعتبر كلها وسائل إلى غيرها . يرى ابن خلدون أيضا أن العمران البدوي لا يحتاج من الصنائع إلا إلى البسيط الذي يلبي الحاجات الضرورية من نجارة أو حدادة أو حياكة أو جزارة وحتى هذه الحرف إذا وجدت فلا توجد كاملة ولا مستجادة ، إنما يوجد منها بمقدار الضرورة ؛ إذ هي كلها وسائل إلى غيرها[1] .

- **النوع الثاني** : هو المجتمعات المستبحرة في العمران ، التي تأخذ بأصناف الصناعات الضروري منها والكمالي ، كما أنها تتجه إلى إحكام الصنعة فيها من جهة ، كذلك إلى زيادة الترف والتأنق من جهة أخرى . ويشير العلامة ابن خلدن إلى العلوم في مقدمته بقوله : « والعلوم إنما هي للإنسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات ، والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية ، فهو مقدَّم لضروريته على العلوم والصنائع ، وتأتي هذه متأخرة عن الضروري . وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق منها حينئذ ، واستجادة ما يطلب منها ؛ بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة »[2] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون – دار العودة بيروت – باب (في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل) ص ٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ، باب : (الصنائع تكمل بكمال العمران الحضري ..) ص ٣١٨ .

ويبين ابن خلدون هنا ، العلاقة بين هذين النوعين من المجتمعات فيعتبر البدو أقدم من الحضر وسابقين عليهم ، كما يعتبر البادية أصل العمران ، والأمصار مدداً لها ، وقد أدرك ابن خلدون ، بثاقب فكره ، ما للمجتمعات البدائية من أهمية ، فأفرد في مقدمته باباً بعنوان « في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل » . ونرى في المقابل اهتمام علم الأنثروبولوجيا الحديث بدراستها دراسة حقلية منهجية ، بغية الوصول إلى القوانين العامة لطبيعة بناء هذه المجتمعات ، ونجد أن هذا التصنيف يختلف عن التصنيف الأوربي الحديث فكل المجتمعات عندهم التي تسبق الآلية الحديثة ، أو لم يتم أخذها بالآليات هي مجتمعات بدائية ، وهو تصنيف استعماري يقصد به طمس المعرفة الحقيقية لدى الشعوب العربية الإسلامية وما يتعلق بحضارتها المتقدمة .

الأسرة والصناعات الضرورية :

كانت الأسرة قبل نزعة التحديث تزاول بعضاً من الصناعات داخل نطاقها ، كما هو الحال بالنسبة لصناعة التعليم أو الحياكة ، أو بعض ما تحتاج إليه الأسرة من أمور النجارة .

ومع تطور الحال ، بالنسبة للمجتمع المحلي ، تظهر بعض الحرف الصغيرة المناسبة للبيئة .

أما على مستوى المجتمع الكبير فتظهر الأسواق والأماكن المتخصصة لهذه الصناعات أو الحرف .

وحول وظيفة الأسرة تجاه صناعة التعليم الخلقي يقول الله تعالى على لسان لقمان وهو يعظ ابنه :

﴿ يا بني أقم الصلاةَ وأْمُرْ بالمعروف وانْهَ عن المنكر واصبرْ على ما أصابك إنَّ ذلك من عزم الأمور ﴾[1] .

---

(١) سورة لقمان ، الآية ١٧ .

ومن الصناعات المنزلية التي كان يزاولها أفراد الأسرة إعداد الطعام وحفظ بعض المنتجات الزراعية (إعداد المؤونة الغذائية) بالإضافة إلى صنع الخبز وكثير من الأمور المتعلقة بإعداد الأغذية وحفظها .

وكثيرا ما كانت تقوم الأسرة بصناعة بعض الأقمشة البسيطة ، وحياكة الملابس ، وصنع البسط . ويعتبر أفراد الأسرة هنا طاقات منتجة للمجتمع تكفيه بعض احتياجاته منها .

أما بالنسبة لصناعة النجارة أو البناء ، ونظرا لبساطتها في المجتمع ، فمن الطبيعي أن يقوم بعض الأفراد الذين يملكون مهارتها بتأدية بعض الاحتياجات المنزلية ، وقد تتفوق[1] بعض البلدان على غيرها في صناعة ما ، حين ينبغ عدد من أفرادها في إتقانها . وكلما كانت البلاد متحضرة أكثر ، اشتهرت مؤسساتها الصناعية التي تقوم بالأداء الماهر وإحكام الصنعة فالعوامل الحضارية في الطلب على الصنعة ، هي التي تسبب ازدهارها ونبوغ أفرادها فيها .

ويقوم المجتمع بالدور المكمل لدور الأسرة ، في رفع الأعباء عنها ، التي ترهق وظيفتها الأسرية ، فنجد أن التعليم في الإسلام أخذ في بداية الدعوة الإسلامية برفع هذه المهمة عن الأسر ، فقام المسجد[2] بأداء هذا الدور ، ومن ثم تطور الأمر مع تقدم الدولة الحضاري بافتتاح المدارس لتلبية مستلزمات ذلك التقدم ، وتخفيفاً لأعباء المسجد وأموره التعبدية .

وموجز ما سبق ، أن الصناعات تبدأ من الفردية ومن الأسرة أولاً ، ثم يقوم المجتمع برفع أعباء ذلك عن الأسرة ، وإذا قامت المجتمعات بتحمل أغلب الأعباء ، وخصوصاً بعد تطور المجتمعات نحو العمران ، فإن الفردية والأسرة هي الأصل في انطلاق الخبرة البشرية وفاعلية العوامل الإنسانية .

(١) (فصل الصنائع إنما تستجاد وتكثر) ص ٣٢٠ .
(٢) محمد عطية الأبراشي (التربية الاسلامية وفلاسفتها) مطبعة عيسى البابي الحلبي ، مصر ١٣٩٥ - ١٩٧٥ ، الطبعة الثالثة ، ص ٧٠ - ٨٠ .

الصناعة والفن
قبل عملية التحديث وبعدها

تتميز الصناعات وفنونها عموما ، قبل عصر التحديث ، بآلياتها غير المعقدة ؛ مما كان يساعد الإنسان في التحكّم والسيطرة على إيقاعات عمله وذبذباته ؛ ومن ثم سيطرته على حصاد إنتاجه .

وكان العديد من الحرفيين ، المشتغلين في عصر ماقبل الصناعة ، يزاول كل منهم مختلف جوانب الإنتاج بنفسه ، ابتداءً من الخطوة الأولى في عملية إنتاجه حتى نهايتها[1] .

لقد نشأت كل صناعة في وسط اجتماعي ، يؤكد فردية الإنسان ، ويحافظ على هذه الفردية ، التي تتضمن عقل الإنسان وحريته وإرادته .. فجميع هذه الأمور كانت مؤكَّدة من خلال عمله هذا وإنتاجه .

وكان مما يرعى فرديته هذه ، أنه كان يعيش وسط الكيانات السليمة للجماعات الفطرية[2] التي ذكرناها ، وهي الأسرة والمجتمع المحلي .. وكان لهذا الوسط الاجتماعي الفطري تأثيره في سلامة هذه الفردية وسلامة معطياتها التي أوجدها لتكون مؤكدة بها ، وهي : الإرادة والعقل والحرية .

ونشأ في هذا الوسط الاجتماعي ، وذلك المناخ الفكري القائم على القواعد الاجتماعية ، مايسمى بظاهرة « الفنان الشعبي » . وكان هذا الفنان الشعبي ابن بيئته ، محافظاً على جذور ثقافته التي ترتبط فنونها وأفكارها بالعقائد الدينية والقواعد الاجتماعية القائمة على الخبرة الاجتماعية .

---

(١) د / السيد علي شتا (نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع) دار عالم الكتب للنشر والتوزيع الرياض ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

(٢) المصدر نفسه ، رؤية توكفيل للاغتراب ، ص ٧٨ – ٧٩ .

وكان من صفات هذا الفن ، أنه عفوي[1] وصادق وأخلاقي ، ومدعم بالأخلاق الفردية والجماعية ؛ لأنه نشأ عن فطرة الإنسان عندما كانت فرديته مؤكّدة ، بالإضافة إلى تأكيد المجتمع لطبيعة الجماعات الفطرية التي تبادله الأخذ والعطاء .

وهذا الفن يكون مرتبطاً بالعلم والخبرة من جهة وبالقيم الدينية وبجذور ثقافة المجتمع عبر السنين من جهة أخرى ، كما أن هذا الفن لا يعبر عن جانب واحد من جوانب حياة الإنسان دون الجوانب الأخرى ، بل يتناول جميع نشاطات الحياة ، ليعطي خبرة الإنسان في الحياة نوعاً من الجمالية ، في جميع أنواع صناعاته : في فنون القول كالشعر أو النثر ، او فنون العمل والإنتاج ، ومن ثم الترويح .

ويتبين هنا أن هذا الفن يتناول جميع جوانب الحياة ، وكل مجالات الإبداع في أعمال الإنسان ونشاطاته ، بالإضافة إلى الموازنة بين ممارسة الإنسان لعمله ، وخبرته في جميع جوانب حياته .

---

(١) التصرف العفوي مرتبط بالإرادة العفوية يسميها العلماء « بالإرادة الطبيعية أو الإرادة المتكاملة » والإرادة العفوية : هي التي تكون صادرة عن النفس دون تكلف بعكس ما هو عليه الحال في الإرادة العاقلة التي تفتقد للتلقائية والدافعية التي تصاحب الإرادة الطبيعية .

والعفوية لها أصل في لغتنا ، ويأتي أحد استعمالات كلمة العفو : بمعنى الأرض الغفل التي لم توطأ ، وليس بها آثار ، تأتي أيضا بمعنى ما أخذ من غير كلفة أو مزاحمة وهو الأمر الميسر السهل الذي ليس فيه تعب أو مشقة . ويقال أيضا : جاءت الفكرة لي عفو الخاطر ، أي جاءت لي بشكل عفوي دون تكلف ويقول تعالى : أيضا : ﴿ **قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين** ﴾ (٨٦/ ص ٣٨) .

ويقول تعالى : ﴿ **خذ العفو وأمرْ بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ والعرف هنا هو مصدر من مصادر الأحكام ؛ وهو أمر تعرفه العقول وتطمئن إليه النفوس لا يخالف ما شرع الله ، والناس لا تستحي منه للتعارف عليه وعدم الحرج منه. والإعراض عن الجاهلين : أي عدم مجاراة السفهاء بسفههم وعدم مماراتهم والجاهل :الذي يعرف الأمور بما يخالف الواقع ويحتاج إلى أن تنزع منه الفكرة الخطأ ، وهو غير الأمي الذي لا يحتاج إلا إلى عملية المعرفة .

وسنرى أن الحال أصبح مختلفاً تماماً في نوعية الفن الجديد ، الذي أصبح مرتبطاً بالصناعة أكثر من ارتباطه بالشخصية الإنسانية وعطائها فقد ارتبط الفن الجديد بالإنتاجية وتسويقها التجاري ، أكثر من ارتباطه بحاجة الإنسان الحقيقية وبالعطاء الإنساني وإبداعاته ، من خلال نظرته المتكاملة عن الحياة .

لقد انقطع الفنان عن جذور ثقافته القديمة ، وأصبح يخضع للثقافة الجديدة وفلسفاتها التي تتنكر للقيم الدينية ، وتطمس طبيعة الجوانب الاجتماعية ، عندما طمست الثقافة الجديدة ، وتكنولوجيتها الطاغية ، طبيعة الأسرة والمجتمع المحلي ، وانتزعت منهما دورهما[1] .

وقد ظهر نوع آخر من الفن من خلال المجتمع الكبير ، وأبرز مثال عليه مجتمع المدينة الكبيرة ، أو مجتمع العاصمة الذي كان مدعوماً بتكنولوجيته متنكراً لما ذكرنا من وظائف الجماعات الفطرية ، وبرزت ظاهرة الفنان المصمم[2] في الصناعة الحديثة وإنتاجها الآلي « إنتاج الجملة » وذلك بديلا عن الفنان الشعبي الشمولي في المجتمع القديم .

إن الفلسفات الفكرية والتغيرات التكنولوجية الكبيرة هي المسؤولة عن انفصال الفن عن جذوره الثقافية ، ومن ثمَّ فإن الفن فَقَدَ وحدته الفكرية التي كان يعيشها سابقاً ، عندما كان الإبداع الفني مرتبطاً بأهداف الحياة وغاياتها . وجاء التقسيم الأوربي للفن إلى نوع مرتبط بالأعمال الحرفية والصناعية ، ونوع آخر يسمو عليه ويرتبط بأهداف الحياة وغاياتها . ومن هنا جاءت النظرية الانعزالية في الفن ، التي ارتبطت بأهداف استعمارية ، فعزلت النظرة إلى الفن عن شتى ضروب الحياة العملية ، ومن ثم أخضعتها إلى مفاهيم ومقاييس يونانية ، تخالف تماماً مقاييسنا الإسلامية وأصولها العقائدية . وهذه النظرة

(١) المصدر السابق – انظر (فكر توكفيل نحو ظاهرة الاغتراب) .

(٢) (الفنون التشكيلية في الوطن العربي) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالقاهرة ، ١٩٧٥ ، ص٣٢ – ٣٣ .

مستمدة من الفلسفات اليونانية التي تحتقر أعمال المهن والصناعات .

وهكذا مارس الغرب فنون الصناعة والتأنق فيها من أوسع أبوابها الآلية بما يجعل الإنسان مغترباً عن إنتاجه ، وبما يجعل هذا الطغيان التكنولوجي يقضي على كثير من الصناعات اليدوية وفنونها في الجماعات البشرية ويسير بالإنسان إلى الترف الحضاري الذي نهى عنه الإسلام ،هذا من جهة . .

ومن جهة أخرى ، فقد أورثنا بفكره المعاصر وفلسفاته الفنية ، عقم التفكير اليوناني والإغريقي ، في نظرته إلى الفن الجميل ، واحتقاره للحرف والمهن الصناعية واليدوية وفنونها ، بينما مارس هو ، في واقعه ، كل أنواع الفنون الصناعية ومن أوسع الأبواب .

وأصبح الإنسان ، عامة – نتيجة لذلك – استهلاكيا ؛ حيث قامت التقنية الحديثة بتدعيم استهلاكيته هذه بإغراق الفكر الفردي بوسائل الاتصال الجماهيري ، ووسائل التربية غير المباشرة عن طريق صياغة الرأي العام ، وسلبه المعرفة بالحاجات الحقيقية للإنسان[1] والمبالغة في تقديم احتياجات كاذبة له ؛ مما أوصله إلى مأزق الاغتراب؛ اغتراب الإنسان عن ذاته .

(١) د / السيد علي شتا (نظرية الاغتراب) فكر ماركيوز في الاغتراب (ص ١٧٢ – ١٧٩) .

الحكمة من اختلاف الجماعات البشرية وأسبابه

يمكن أن نقسم اختلاف طرق الجماعات البشرية وما ينشأ عنها من عادات وطبائع إلى نوعين:**نوع سلبي** يتعلق بانحراف العقائد البشرية عن رسالة التوحيد **ونوع آخر إيجابي** يتعلق بالطبائع والعادات التي تمس مباشرة طرق التفكير في الحياة وأساليب المعيشة .

إن لهذا التنوع في ابتكار الناس لهذه الطرق والوسائل والتنوع في الإمكانيات البيئية والبشرية ، وما فطرهم الله تعالى عليه من طبيعة الاختلاف.. إن لهذا كله حكمة إلهية أرادها تعالى في الجماعات البشرية .

أولاً – النوع السلبي : الاختلاف حول العقائد والقيم الثابتة :

لقد وردت في القرآن الكريم آية توضح هذا الاختلاف ؛ حيث يقول تعالى في سورة هود (١١٨) ﴿ **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين.** ﴾وتفسير ذلك أنه لو شاء ربك أيها الرسول الكريم – الشديد الحرص على إيمان قومك ، والحزين من أجل إعراض أكثرهم عن إجابة دعوتك واتباع هديك – لجعل الناس على دين واحد بمقتضى الغريزة والفطرة لا اختيار لهم فيما يفعلون ، فكانوا في حياتهم الاجتماعية أشبه بالنمل أو النحل[1] ، وفي حياتهم الروحية أشبه بالملائكة مفطورين على طاعة الله واعتقاد الحق ، وعدم الميل إلى الزيغ والجور . لكنه تعالى خلقهم كاسبين لا ملهمين ، وعاملين بالاختيار لا مجبورين ولا مضطرين ، جعلهم متفاوتين في الاستعداد وكسب العلم ، وكانوا في أطوارهم الأولى لا اختلاف يذكر بينهم ، ثم لما كثرت وتنوعت حاجاتهم وكثرت مطالبهم ظهر فيهم الاستعداد للاختلاف كما قال تعالى : ﴿ **وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا** ﴾ (سورة يونس : ١٩) .

---

(١) تفســـير المــراغي ، أحمد مصطفي المراغي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ط ٢ ، ١٩٨٥م . سورة هود ، المجلد الرابع – الجزء الثاني عشر ، ص ٩٨ .

ونعود إلى الآية التي صدّرنا بها الحديث وتتمتها : ﴿ . .**ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك** ﴾ (سورة هود : ١١٨) ؛ أي ولا يزالون مختلفين في شؤونهم الدينية ، وما يرتبط بذلك من أمور دنيوية تجسّد معاني هذا الدين وأحكامه ، إلا من رحم الله منهم فإنهم يتفقون على حكم كتابه فيهم ، وهو الذي عليه مدار جمع كلمة الأمة ووحدتها[1] ، ونبذ الاختلاف في الدين والإيمان ، والتمسك بالطاعة والبعد عن العصيان .

يقول تعالى في كتابه العزيز : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلامُ ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم** ﴾ (سورة آل عمران ١٩)

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « خلقهم فريقين : فريقاً يُرحم فلا يختلف ، وفريقاً لا يُرحم فيختلف ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ **فمنهم شقِي وسعيد** ﴾

والناس على هذا ، فريقان : فريق اتفقوا في الدين فجعلوا كتاب الله حكماً بينهم فيما اختلفوا فيه فاجتمعت كلمتهم ، وكانوا أمة واحدة ، فرحمهم الله تعالى ووقاهم شر الاختلاف في الدنيا وعذاب الآخرة ؛ وفريق اختلفوا في الدين[2] إلى يهودي ونصراني ومجوسي كما اختلفوا في منافع الدنيا ، فكان بأسهم بينهم شديداً ، فذاقوا عقاب الاختلاف في الدنيا ، وأعقبه جزاؤهم في الآخرة ، فحرموا من رحمة الله ؛ بظلمهم لأنفسهم ، لا بظلم منه تعالى لهم .

وقال تعالى : ﴿ **وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾ أي قد سبق في قضائه وقدره وحكمته النافذة أن من خلقه مَن يستحق الجنة ومنهم من يستحق النار ، وأن **النار لابد أن تمتلىء من عالمي الجن والإنس ، الذين لا يهتدون** بما أرسل به رسله وبما أنزل عليهم من كتبه لهداية المكلفين والحكم

---

(١) المصدر السابق .

(٢) محمد علي الصابوني (صفوة التفاسير) ، دار القرآن ، بيروت ، ط٤ ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م ، المجلد الثاني ، ص ٣٧ .

بين المختلفين[١] .

هذا من حيث القيم الثابتة في عقيدة التوحيد على دين الإسلام الواحد ، الذي أرسله الله تعالى للبشرية بواسطة أنبيائه ، وما يتعلق بهذه العقيدة من قيم الخير والشر والحق والباطل والإيمان بالبعث والجزاء ، وما يرتبط بذلك من سنن عامة تقترن بإهلاك الأمم لاتباعها طرق الفساد وانغماسها في الترف والنعيم دون قيود أو ضوابط إلهية .

إن اتباع الترف وما فيه من الفساد والإجرام يعتبر طريقاً للظلم والإجرام الواجب لهلاك الأمم ، وهو اتباع أكثرها لما أُترفوا فيه من أسباب النعيم والشهوات واللذات ، والمترفون هم مفسدو الأمم ومهلكوها[٢] .

وقد تعلم الخلفاء الراشدون والسلف الصالح في مدرسة الإسلام الاعتدال في المعيشة ، وتغليب جانب الخشونة والشدة على الإتراف والنعمة ، ففتحوا الأمصار وأقاموا دولة ، عَزَّ على التاريخ أن يقيم مثلها ، باتباع هدي القرآن وبيان السنة له ، وبذلك خرجوا من ظلمات الجهالة إلى نور العلم والعرفان ، ثم أضاعها من خلف من بعدهم من متبعي السرف والاستعلاء ، وبالتالي فقد ضلوا بعد أن كان أسلافهم قد أمسكوا بناصية العلوم والفنون والملك والسلطان ، ولله الأمر من قبل ومن بعد[٣] .

وإن الله تعالى لا يهلك أمة لشركها ما دام أهلها مصلحين ، ويتبين هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ **فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** ﴾[٤]

---

(١) (٢) تفسير المراغي ، المجلد الرابع ، سورة هود ، الجزء الثاني عشر ، ص (١٠٤) ، و ص (٩٦ - ٩٩) .

(٣) تفسير المراغي ، سورة هود ،الجزء الثاني عشر ، ص ١٠٤ .

(٤) سورة هود ، الآيتان : (١١٦ - ١١٧) .

إن الإنسان عندما لا يسترشد بهدي الله في بناء حضارته يكون ظالماً لنفسه ، وإن انغماس المجتمعات في الترف ، واتباعها الطرق الفاسدة في تصريف أمورها كفساد العلم والمعرفة والتربية والترويح عن النفس وإشباع الشهوات. كل ذلك مؤشر ودليل على قرب نهاية أجل هذه الحضارة . وهذا من سنن الكون التي تقوم مسيرتها وفق نظام إلهي واضح ومعروف .

وقد كان سبب نزول الأديان السماوية هداية البشر إلى سواء السبيل ، وتبيان الحق والباطل لهم ؛ لكي يتجنبوا ظلم أنفسهم والإساءة لها ولكي تكون هذه الشريعة غطاءً أيضاً يحمي الإنسان من استغلال أخيه الإنسان وظلمه لنفسه .

ثانياً - النوع الإيجابي : الاختلاف المرتبط بالمتغيرات الطبيعية :

وهو نوعان الأول : اختلاف يرتبط بمخلوقات الله تعالى ، والثاني : مرتبط بحركة الحياة وتبدل الأحوال والأزمان . فقد خلق الله تعالى الناس جماعات على اختلاف في الألوان والأجناس واللغات قال تعالى : ﴿ **ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم** ﴾ ؛ فالآية الكريمة ربطت بين خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتنا ولغاتنا وألواننا وهيئاتنا ؛ فالقمر لا يشبه الشمس ، ولا الأرض كلها أرض ، ولا البحار كلها بحار ، ولا الأرض متشابهة بعضها مع بعض ، ولا البحار يشبه بعضها بعضاً. . ولكن كل هؤلاء أجزاء من نظام متكامل.كل جزء ناقص لو نظرت إليه وحده. . ولكن ضعه مع الجزء المكمل له تجد أن النظام قد اكتمل .

وهكذا في خلق الإنسان ، لم يجعل الله الناس أمة واحدة ، وكان بوسعه تعالى أن يفعل هذا ، ولم يجعل لغتهم لغة واحدةً ، وقد اشتركوا جميعاً في أب واحد وأم واحدة ، بل جعلهم على اختلاف في الألوان والألسن ، لا ليستعلي أحدهم على آخر كما استعلى اليهود على الأميين ، أو كما استعلى اليونانيون على البرابرة ، أو الرومان على الآسيويين ، أو الفرس على غير الفرس ، أو العرب على غير العرب ، أو الألمان الآريون على غير الآريين. ليس لهذا كان الاختلاف ؛ إنما

جعل – تعالى – اختلافنا ابتلاءً واختباراً وفتنة ؛ وفي الوقت ذاته طريقاً للتعارف بيننا ، وللألفة بين الأجناس ، وليتعاون الأبيض مع الأسود ، ويستفيد كل منهم بما عند الآخر من مواهب ، ويتكامل كل جنس ونوع بما أعطاه الله من علم مع بقية الأجناس ؛ لأن الله قسم المواهب والأرزاق بين الناس ، وأيضاً لتكون هناك حركة في الحياة ، وإثارة وشغف وهواية وسهولة ومتعة ، ولذلك كانت السياحة مصدر راحة واستمتاع ؛ لما فيها من رؤية قومٍ آخرين ، وثقافة أخرى ، ومناخ آخر ، وطريقة أخرى للعيش ، وطرق للبناء ، وطرق للانتقال وطرق للطعام .

وما كانت المتعة لتتحقق في الحياة مطلقاً ، لو أن كل واحدٍمنا كان صورة طبق الأصل من الآخر ، يتحدث كما يتحدث ، ويتحرك كما يتحرك ، ويبدو كما يبدو ، ويفكر كل واحد كما يفكر الآخر ، ويدبر كل واحد مثل تدبير الآخر .

وكما خلق الله تعالى القوة الجاذبية في المعدن المغناطيسي إذا اتفق القطبان تنافرا وإذا اختلفا تجاذبا فكذلك بكثير من الأحيان ينطبق نظام الله في الأرض ، وإن اختلاف الأقطاب لا ليعلو أحدهما على الآخر وإنما لينجذب أحدهما إلى الآخر ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** ﴾(1).

أما التفاضل بين القبائل والشعوب والأفراد ، ومن الذي يكون أفضل من الآخرين ، فإن المعتمد في ذلك هو مقياس التقوى والإيمان ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ فالناس متساوون عند الله كأسنان المشط ، ليس الغني بأفضل من الفقير ، ولا الجميل بخير من القبيح ، ولا لأسود فضل على أبيض ولا لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بمقياس التقوى ، قال تعالى : ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى** ﴾(2) .

---

(1) سورة الحجرات ، الآية (١٣) .

(2) سورة النجم ، الآية (٣٢) .

ومن المتغيرات المرتبطة باختلاف العادات والتقاليد مع الأزمنة قاعدة: تغير المجتمع بتغير الأحوال والأزمان والأشخاص ؛ فالحال لا تبقى على وتيرة واحدة ؛ ومن ثم فإن العادات والتقاليد تتغيّر بتغير الأحوال وما يطرأ عليها من متغيرات. قد أشار ابن خلدون إلى ذلك في مقدمته بقوله : « إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونِحَلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ؛ إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة ، وانتقال من حال إلى حال . وكما يكون في الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول »[1] .

---

(١) (مقدمة ابن خلدون) - شرح وتعليق د / علي عبد الواحد وافي دار نهضة مصر ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ص ٢٠١

سنن تغير الحضارات :

إن القيم الأخلاقية العليا التي جاء بها الدين الحق تحتاج إلى تدعيمها بأن نحافظ عليها ولا نتركها عرضة للتغير ؛ لأنها توافق فطرة الإنسان التي لا تتغير ؛ فهي من الثوابت القائمة التي تتحرك من حولها الأشياء والناس . وليس من المعقول أن نطالب بأن تتواءم قيم العقائد والأخلاق مع متغيرات الحضارة والمجتمعات بل على المجتمعات أن تتواءم مع تلك القيم الخالدة الثابتة القائمة على التوحيد ، قال تعالى : ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله** ﴾[1].

وفي مجال التغيير ، فقد رسم القرآن الكريم في كلماته المحكمات قانون قيام الحضارات والمدنيات وسقوطها فقال تعالى : ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[2] فالله تبارك وتعالى يدعونا إلى أن نغير أنفسنا إذا أردنا أن نغير مجتمعنا وأوضاعنا ، فمنطلق الإصلاح والنصر والتحول من الضعف إلى القوة ، يتمثل في إرادة التغيير ، والتغيير يكون هو التحرك في إطار الثوابت من أصول الإيمان أساساً ، وليس التغيير بالحركة خارجه أو ضده .

إن هزيمة الحضارة واندثارها إنما يأتي من مجاوزة الإطار الثابت المحكم الذي رسمه الحق تبارك وتعالى لحركة الحياة بما يتضمن من مفهوم رسالة الإنسان في الكون ، ومسؤوليته الفردية ، والتزامه الأخلاقي.وهي أشبه بالقوانين التي تصنع الحضارة وتعتبر مخالفتها سبل هدم للحضارة .

وتحدث الأزمة في المجتمع أو الحضارة نتيجة هذا التجاوز ، ونتيجة مجافاة نواميس الله في الكون والمجتمعات ، وهي أداء رسالة الحياة ، وأداء أمانتها وحقها ، قال تعالى : ﴿ **كلوا واشربوا ولا تسرفوا** ﴾[3] .

---

(١) سورة الروم ، الآية (٣٠) .
(٢) سورة الرعد ، الآية (١١) .
(٣) سورة الأعراف ، الآية (٣١) .

وتوجيه النفس نحو الحق هو محور العمل من أجل تصحيح مسار الأمة كلها والحضارة بأكملها ، قال تعالى : ﴿ **ومن يتعدَّ حدود الله فقد ظلم نفسه** ﴾ ﴿ **ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ .

تعليق :

كما رأينا سابقاً ، اعتراف الإسلام باختلاف الجماعات البشرية في الأشكال والألوان واختلاف الألسن ، فإنه يدعو إلى أن تجمعهم أخلاق الإيمان والتوحيد والتقوى .

هذا وقد ركز الإسلام على أهمية فردية الإنسان وإرادته في التغيير ، وصان عقله وحريته وإرادته ؛ لأن رعاية الفطرة السليمة مع بيان منهج الحق ، يقود إرادة التغيير إلى العلم الحق ، أي العلم الحقيقي غير المنقوص . وأن مثل هذا يختلف عن أسلوب بعض الأمم التي بنت مجدها المادي وجعلت إرادة التغيير للإنسان مبنية على منهج وضعي من فعل البشر ، كما حدث بالنسبة لإرادة التغيير للإنسان في المجتمع الألماني على إرادة الفلاسفة الألمان الذين رسموا للتاريخ ديناميته وفق منهجهم البشري[(١)] .

وبشكل عام فإننا نجد أن إرادة التغيير والفلسفة الوضعية في المجتمع الأوربي قد جعلت فلسفتها هذه تغلب فكرة الفردية عند الإنسان وما يسمى بتغليب ثقافة المجتمع (الموضوع) على الذات (فردية الإنسان) وكان من نتيجة ذلك تقديم هذه الحضارة وسائل هائلة ومتقدمة حققت درجة كبيرة من الرفاهية ولكنها لم تهيئ للإنسان الطمأنينة والسكينة بل جلبت له التعاسة واغتراب ذاته عن حاجاتها الحقيقية .

إن رسالة الإسلام تعطي للإنسان الإيمان ولا تنتزع منه العلم ، تعطيه الآخرة ولا تحرمه من الدنيا ، وقد نقل الإسلام معتنقيه إلى عصر العلم لأن مجيء الإسلام

---

(١) د . السيد على شتا (نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع ص٤٢ .

كان يمثل مولد العقل الاستدلالي[1] الذي يقود الإنسان إلى العلم الحقيقي الذي ينفتح على الواقع ولا يسعى لتغليب جانب على حساب آخر ، كما يحث الإسلام الإنسان للسعي لبلوغ الحضارة وأسبابها ، ولكن دون إسراف أو غرور أو ترف أو فساد في الأرض أو تمزق واختلاف وظلم للنفس وللآخرين .

إن الله عز جل قد صان فردية الإنسان وعقله وحريته وإرادته من أن تستعبد أو تستغل أو يستهان بها وفي المقابل فقد دعانا عز وجل إلى اتباع منهج الحق والتغلب على النفس وشهواتها وعدم مخالفة المنهج الإلهي في اتباع قاعدة الحلال والحرام وقاعدة الحق والباطل ؛ لأن اتباع مثل هذا يقود إلى بناء الحضارة الحقيقية دون مفسدةٍ ، و الوصول إلى العلم الحقيقي المتكامل الذي ليس فيه نقصان أو عدم توازن مع الواقع كأن يسعى لتغليب جانب في الحياة وطمس جوانب أخرى موجودة في ظواهر الحياة والوجود السنني[2] للواقع الاجتماعي . إن منهج الحق دون المنهج البشري – هو الذي يصون إنسانية الإنسان من أن تخضع للاستغلال عما يصون عقله وإرادته في أن تكون مستعبدةً مادياً عند خضوعها لطاعة الشهوات .

ومن أصناف هذه الشهوات أن يستعبد الإنسان أخاه الإنسان أو يستغله استغلالاً أنانياً ، كما فعل الاستعمار الحالي .

إن المنهج الإلهي يتميز بأن يجعل الإنسان باحثاً عن إعمار الأرض وإقامة المجتمعات بالعلم والعمل الصالح الذي يهتدي إليه بهدي الله سبحانه وتعالى ، فينير له جوانب معرفته وعلمه وطريقة استخدامه لعَقْله ومن ثم توجه أعماله فيما يقيم عمرانه ويشبع حاجاته الروحية والمادية معاً ، وتتحقق به إنسانيته .

والآيات القرآنية التي تحث على تسخير ما خلقه الله في الأرض والسماء

---

(١) جودت سعيد (اقرأوربك الأكرم) دمشق ، ط١ ، ١٩٨٨م –١٤٠٨هـ ، ص٩٢ .
(٢) المرجع السابق ص٨٦ .

للإنسان كثيرة وشاملة كالليل والنهار والشمس والقمر والرياح والأنهار وخيرات البحر والفلك التي تجري في البحر، غايتها كلها، توضيح وجهة الإنسان لعمارة الأرض وشكر الله على نعمه الكثيرة. يقول تعالى: **﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾**(1)

إن الإسلام كما يدعو إلى الاهتمام بالجزء فهو يدعو إلى العلم الشمولي الذي يسخر العلوم كلها وينظم وظائفها جميعاً لتنتظم في علاقات متشابكة متعاونة تسعى جميعها لتحقيق الحضارة كواقع، وتدفعها إلى التقدم وتحقيق فاعلية التغيير والبناء الحضاري وفق السنن التي تنسجم مع المنهج الإلهي.

وقد كان للمسلمين فكر أصيل في خدمة العلوم الشمولية مستوحى من هدي القرآن، كما هو الحال في علم العمران البشري عند ابن خلدون وما يتفرع عنه من علوم أخرى أصبح لها أسماء حديثة كعلم الثقافة وعلم الفولكلور.

إن مثل هذه العلوم عند المسلمين تجعل الأخلاق وقوانين الإيمان والتحقق العلمي في آيات النفس وعواقب أعمالها. كلها تدخل دائرة العلم ودائرة الكل في البناء الحضاري بما يحقق شمولية المعرفة داخل البناء الحضاري.

ومن الأهمية أن نوضح أن الإسلام يُقِر تعدد الجماعات واختلاف الألسن من جانب ولكنه من جانب آخر يرفض أن نقسم وحدته داخل قوميات وعصبيات تُضعف مقومات وحدته وتفكك أواصرها الفكرية والاجتماعية والشخصية، كما يرفض فكرة الأممية والعالمية التي تسعى لتذويب شخصيته داخل أُتونها بما يشتت من فعاليتها ويسعى إلى تذويب شخصيتها، ويضعف أيضاً من دعوة الإسلام العالمية. وإن وقوفه بين هذين الحدين ومحاربته لهاتين الدعوتين يكفلان للإسلام أسباب قوته ووحدته وفعاليته، كما يكفلان للإسلام ضمان تسلسل قوته ابتداءً من الفردية والجماعية وصولاً إلى دعوته العالمية. يقول تعالى مخاطباً نبيه نوحاً في

---

(1) سورة لقمان، الآية ٢٠.

عمل ابنه : ﴿ **قال يا نوح إنه عمل غير صالح فلا تسألنِ ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين** ﴾[1] . هذا من ناحية علاقة القربى أو العشيرة أو القومية . ومن ناحية الأممية والعالمية نجد قوله تعالى : ﴿ **وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ .

(١) سورة هود ، الآية ٤٦ .

أثر التربية قبل نزعة التحديث وبعدها

الجماعات الفطرية (الأسرة ، المجتمع المحلي) :

يحتاج الإنسان بفطرته إلى أن تكون فرديته مؤكدة ، من خلال استخدامه لعقله وإرادته وحريته في ممارسة أعماله . وكانت الأسرة باعتبارها جماعة فطرية ، ترعى للإنسان هذه القدرات أو النعم التي أنعم الله بها على الإنسان ، فتقوم الأسرة برعاية هذه الحاجة وتلك الإمكانيات ، فتدرب الطفل وتسمي هذه العملية بالتربية أو « التنشئة الاجتماعية » . وهي الوظيفة الأولى التي تقوم بها الأسرة ! !

ويكمل عمل الأسرة ووظيفتها ، جماعة أكبر وأوسع ، يطلق عليها عبارة « المجتمع المحلي »[1] وهو يتكون من مجموعات عدة من الأسر ، تتشكل فيما بينها روابط الجيرة والصداقة ؛ فكل فرد يعرف الآخر ، لا تتجاوز مجموعات هذا المجتمع عدداً معيناً قدره علماء « علم الإنسان » بناءً على دراساتهم الحقلية للمجتمعات الفطرية التي يسمونها بالبدائية .

تقوم الأسرة بوظيفتها الاجتماعية في تربية النشء وإعداده للحياة ، وتتكامل وظيفتها هذه مع وظيفة الجماعة الفطرية الثانية ، وهي جماعة المجتمع المحلي ، في تجسيد تلك المعاني وتختلف طبيعة هذا الإعداد والوظيفة حسب الدرجة التي وصل إليها المجتمع بأفراده في السلم الحضاري من جهة ، وحسب طبيعة ثقافة المجتمع ومعتقداته وتتفاعل هذه الجوانب وتظهر على طبيعة العلاقات داخل البناء الاجتماعي .

وقد بينا سابقاً طبيعة الجماعات البدائية التي تأخذ بالضروريات ، وتكون الصناعات في المجتمع غير مستجادة . أما المجتمعات الحضرية القديمة فتكون

---

(١) د . حسين فهيم (قصة الأنثروبولوجيا) سلسلة المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والآداب — الكويت ص (٢٧٨) ١٩٨٦م .

صناعاتها مستجادة كما ينتشر فيها العلم ، والذي يصبح من عداد الصنائع في مثل هذه المجتمعات الحضرية القديمة ولا يختلف الوضع في الجماعات المتحضرة قبل نزعة التحديث عنه في الجماعات البدائية ، التي تكون فيها الصناعات بسيطة وغير متأنقة فقد كان للأسرة دور واضح في تدريب الطفل على بعض الصناعات الضرورية وإعداده للمجتمع تربوياً وخلقيا ومهنيا ففي المجتمعات القديمة التي عرفها ابن خلدون ، يكون للأسرة الأثر الكبير والوظيفة الهامة في إعداد الطفل وتدريبه على بعض الصناعات المنزلية التي هي من وظيفة الأسرة التي تأخذ ببعض الصناعات ، وهذا ما عرف عن مجتمعاتنا تاريخيا[1] منذ عهد قريب .

وينظر معظم الأنثروبولوجيين (علماء الإنسان) الذين يتناولون التربية في المجتمع البدائي إلى أفق أبعد من المؤسسات التعليمية ومن المدرسة ، ولهذا يعتبرون الأسرة أو العشيرة أو القبيلة هي المؤسسة الاجتماعية التي تضطلع بشؤون تنشئة الطفل وتربيته .

ومن الأدلة على بعض الصناعات التي كانت تزاولها الأسرة في العهد الإسلامي الأول مثلاً ، ما روي عن النبي ﷺ « أنه كان يخيط ثوبه ويخصف نعله ، ويحلب شاته ويعلف ناضحه » (مسند أحمد بن حنبل)

وورد عن صفات الرسول وشمائله المحمدية أنه كان ﷺ « يحلب شاته ويخصف نعله ويرقع ثوبه ، ويخدم نفسه ويقمّ البيت ، وما يُرى فارغاً قط في بيته ، ويأكل مع الخادم ، ويطحن معه ، ويحمل بضاعته من السوق »[2] .

وقد ورد عن الرسول ﷺ حول التربية والتنشئة الدينية والخلقية قوله ﷺ :

---

(١) انظر كتاب (الأزياء الشعبية في العراق) لوليد الجادر – السلسلة الفولكورية(١٧) – وزارة الثقافة والفنون دار الرشيد للنشر ١٩٧٩م – الجمهورية العراقية . وانظر أيضاً (موسوعة التراث الفلسطيني ١٩٨١ ، ط١ ، دار صامد ، بيروت .

(٢) من كتاب (المستطرف من كل فن مستظرف) باب الصناعات . لبهاء الدين الأبهشي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

« ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه » أخرجه البخاري وقد رأى الغزالي أن الطفل يتقبل الخير والشر ،و لا يدرك في طفولته الفرق بينهما . ويعتبر الغزالي مَن الأعلام الذين كتبوا في التربية الإسلامية .[1]

يرى العلماء أن المجتمعات المتخلفة التي لم تطرقها المؤسسات التعليمية بعد يزاول الطفل فيها المهن التقليدية من خلال عملية التقليد والمحاكاة للكبار في نطاق الأسرة والعشيرة[2] .

كما اعتبر العلماء أن ظاهرة التربية في المجتمعات البدائية ظاهرة اجتماعية ، لها صفة الإلزام والعمومية ؛ فالأب الذي يصطحب أبناءه في نشاطات الحياة المختلفة التي تتصل بإشباع حاجاتهم من الصيد أو الرعي أو الزراعة يقوم بنفس الأنماط المعيشية التي قام بها أسلافه ، وبهذا كانت حياة الجماعة ، على هذا النحو ، تشكل وحدة اقتصادية واجتماعية متماسكة ، لكل فرد منها دور خاص يؤثر في نشاط الجماعة كلها ثم يأخذ طابعاً جماعياً معيناً ، يتمثله كل من الكبار والصغار على السواء[3] .

وكانت المجتمعات الحضارية القديمة ، قبل نزعة التحديث ، تستعين بالمدارس من أجل التعليم ، كما يتوافر في مثل هذه المجتمعات المؤسسات والحرف الصناعية والإنتاجية المختلفة ، وذلك حسب درجة حضارتها .

وكان للتربية الإسلامية[4] طريقة متطورة وحضارية في تعليم الطفل أمور دينه ودنياه ، وما يمكن أن يكون له من صناعة في المستقبل فيما يخدم دينه ونفسه ، فكان المدرس يسبر غور ميوله ومواهبه ، ويوجهه إلى المهنة التي تناسب طبعه ، أو أنه يرى فيه الاستعداد لإكمال تعليمه والاستزادة من بحر العلم ، فيقوم بالرحلات

---

(١) محمد عطية الأبراشي (التربية الإسلامية وفلاسفتها) ص ٢٣٧ - ٢٧٢

(٢) و (٣) د / زكي محمد إسماعيل (الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي) مكتبات عكاظ ، جدة والرياض ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م ، ص ٧٣وما بعدها

(٤) محمد عطية الأبراشي (التربية الإسلاميةوفلاسفتها) ص ١٧٥ وما بعدها .

العلمية من أجل ذلك ، وقد يستعين بمزاولة بعض المهن والأعمال الأخرى ، إلى جانب طَلَبه للعلم ؛ لكي يكفي حاجته وقد قال رسول الله ﷺ : « ما كسب الرجل كسباً أطيب من عمل يده »[1] .

أثر التربية بعد نزعة التحديث الأوروبية :

تقوم نزعة التحديث الأوروبية التي عملت – وما زالت تعمل – بثقافتها الجديدة على احتواء الثقافات الأخرى في العالم – عاملة على تقويض فردية الإنسان من جهة ، وطمس وظائف الجماعات الفطرية[2] من جهة أخرى ، كالأسرة والمجتمع المحلي في المجتمع الحضري ، أو الأسرة والعشيرة والقبيلة في المجتمعات البدائية واحتواء الجماعات البشرية بشكل عام .

إن طغيان النسق التكنولوجي الحديث وعقلانية إنتاجه ، ينزع من الأسرة والمجتمع المحلي دورهما في التربية والتنشئة ، ويجعل الإنسان مغترباً عن ذاته ، كما يعمل على تفتيت الصناعات اليدوية ، وهجر المجتمع لها ؛ ومن ثم انقراضها ، لتنحسر إلى متحف التاريخ ، بعد أن كانت تدعم فردية الإنسان وعطاءه الذاتي ، الذي يشكل مع مجموعة الأفراد الآخرين ، قوة المجتمع وذاتيته .

وقد ساهم النسق الاجتماعي والاقتصادي الحديث ، في تفتيت الثقافة القديمة (الفولكلور) واقتلاعها من الواقع المعيش ، وجاء بدلاً منه التعليم المغّرب الحديث ، الذي دخلت من خلاله عوامل التنصير والاستعمار الفكري ، إنْ في مادته أو طبيعته . ويسمى هذا الجانب بالتربية الرسمية .

وهناك جانب ثانٍ ، يتعلق بالتربية غير الرسمية ، ويتصل بالتنشئة الاجتماعية[3] الحديثة ، التي تختص بالعديد من المؤسسات الثقافية المختلفة ، والتي استحدثت

---

(١) حديث شريف رواه ابن ماجة في سننه .

(٢) د / السيد علي شتا (نظرية الاغتراب) من فكر توكفيل وماركيوز بتصرف .

(٣) د / زكي محمد إسماعيل (الأنثربولجيا والفكر الإسلامي) ص ٧٦

وسائلها في عصر تطور التكنولوجيا ، كما هو الحال بالنسبة لدور الصحافة والإذاعة والأجهزة المرئية والمسرح والفن والسفر والرحلات.. التي يتخللها كلها ، عوامل الغزو الثقافي ، الذي يعمل على خلق الرأي العام ، ويحاول أن يميِّع سمات المجتمعات الأخرى ، ويذيب شخصيتها ؛ وذلك لكي يخضعها للثقافة الأوربية الحديثة ، ويحتوي ذاتيتها .

وهكذا نجد أنه عن طريق عوامل التغريب والغزو الثقافي ، سواء أكان ذلك عن طريق التربية الرسمية (التعليم المدني) أم عن طريق التربية غير الرسمية ، من خلال وسائل الثقافة الحديثة وصنع الرأي العام ، الذي يحاول أن يشكل عقول الناس مستعيناً بسيطرته وتفوقه التكنولوجي ، واحتوائه للعلوم الحديثة وطبعها بطابعه. كل ذلك ساعد على أن تنقطع التربية المعاصرة عن جذورها الثقافية ، فتنجرف في التيار الذي يساعد على التغلب على ذات الإنسان ، وطمس قواه الفردية الفاعلة في المجتمع ، واحتياجاته الحقيقية .

وهكذا ، سعت ظاهرة التوسع في التكنولوجيا الحديثة ، متعاونة مع ظاهرة الانفصال عن الثقافات القديمة ، إلى طمس فردية الإنسان ؛ ومن ثم وظيفة الأسرة والمجتمع المحلي .

وبمعنى آخر فقد عمل ذلك التفوق التكنولوجي وطغيانه وظاهرة التحدي في المدينة الكبيرة[1] ، على قتل الصناعات اليدوية (الفولكلورية) وطابعها الثقافي في المجتمعات التقليدية ، وذلك عن طريق جعل الفرد والأسرة والمجتمع عموماً ، استهلاكي الطبع يعيش عصر المجاراة ؛ ومن ثم تنحسر مثل هذه الأعمال لتستقر أخيرا في متاحف التاريخ جامدةً يتندر بها الإنسان. وقد ثبت أن طبيعة التكنولوجيا الصناعية الحديثة هي ، في الوقت نفسه ، ذات أهداف سياسية ، تسعى إلى تقويض فردية الإنسان ، ووقوعه أسير شباك الآلية الحديثة ، التي تستهلك قواه وتتحكم فيه وفي مصير حضارته الإنسانية لتحقيق رفاهيتها المعاصرة .

---

(١) ارجع إلى فكر توينز وزمل وتوكفيل في (نظرية الاغتراب)

موقف الإسلام من الحضارات الأخرى

بيـن اللـه تعالى لنا في كتابه العزيز أن الناس جميعاً كانوا في الأصل أمة واحدة ولكنهم تفرقوا بعد ذلك . يقول الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ﴾[1] .

فأرسل الله تعالى رسله مبشرين ومنذرين ليدعوا أقوامهم إلى الدين الحق ، وهو دين التوحيد ، ويصحح انحرافاتهم حيث بين لنا ذلك بقوله تعالى : **﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم. . ﴾**[2].

ونستشهد أيضاً بقوله تعالى : **﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ﴾**[3]

بل نجد في كتاب الله تعالى الكثير من سيرة الرسل وقصص الأنبياء ، الذين أرسلهم الله ليهدي بهم الناس إلى سواء السبيل ، عن طريق الرسالة التي قاموا بتبليغها إلى أقوامهم .

ولقد خص الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ – وهو خاتم الأنبياء والمرسلين جميعاً – برسالة الإسلام ، وكان النبي الكريم عربياً ، وأتت رسالته بلسان عربي مبين قال تعالى : **﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربيا ﴾**[4] .

وقال تعالى : **﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾**[5] .

ولم تكن رسالة الإسلام مختصة بقريش وحدها ، أو بالعرب وحدهم ، بل هي رسالة للناس أجمعين وللبشرية كافة ، لا فرق بين أسود وأبيض ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى .

قال تعالى : **﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾**[6] .

---

(١) سورة يونس الآية : ١٩
(٢) سورة إبراهيم الآية : ٤ .
(٣) سورة غافر الآية : ٣٤
(٤) سورة الشورى الآية : ٧
(٥) سورة الزخرف الآية : ٣
(٦) سورة سبأ الآية : ٢٨

ولو بحثنا في مفهوم علم الاجتماع في تراثنا الفكري نجده يتجسد في علم العمران البشري فالعمارة[1] في الإسلام هي عمارة نفوس وقلوب ، قبل أن تكون عمارة وسائل حضارية للمعيشة وصناعات وعمران مساكن وحضارة .

ولعل هناك حكمة ربانية في تأكيد الإسلام على عمران النفوس بالإيمان والتوحيد والخير في مبادىء هذه العقيدة وأخلاقياتها ؛ ليكون إشعاعها الإيماني نبراساً وهدياً يستنار به في عمارة الأرض وبناء الحضارة المادية واستخدام وسائلها .

وأكبر دليل على ذلك أن وحي هذه الرسالة قد بدأ إشعاعه من مدينة مكة المكرمة ، ثم انتقل الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة . وقد كان أهل الجزيرة العربية يعيشون عيشة بسيطة بالنسبة لأهل الحضارات الأخرى التي كانت تجاورهم . كما تكثر في أرض الجزيرة العربية الصحاري الشاسعة والكثبان الرملية الممتدة ، وتكون السماء صافية في أغلب أوقات السنة .

وكان نزول أعظم رسالة بشرية وأكملها في هذا المكان الذي لم تبلغ به الحضارة والعمران المادي كما بلغ به غيرها كما نزلت على الرسول محمد ﷺ وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب .

وفي نزول رسالة السماء حكمة ربانية في ذلك لتثبيت معاني الوحي حيث يقول الله عز وجل : ﴿ **وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم** ﴾[2] .

ويقول تعالى في كتابه العزيز : ﴿ **ما ضلّ صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى** ﴾[3] .

لقد أرسل الله الإسلام للناس عن طريق الوحي ، الذي كان ينزل على سيدنا

---

(١) العمارة علم وفن، رسالة الجامعة ، الرياض ، العدد ٣٦٨، ١٦ أبريل ١٩٨٨م

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٧

(٣) سورة النجم الآيات : ٢ - ٥

محمد ﷺ على شكل آيات قرآنية . وكذلك ما كان يصدر عن رسول الله عليه الصلاة والسلام من أحاديث شريفة وكان تعليما لأمور دينهم ودنياهم ، وبمعنى آخر علمهم أمر العبادات التي فيها توجيه لأعمالهم الدينية والدنيوية ، أن تكون خالصةً لوجه الله تعالى ، وفي ذلك منفعة لهم ؛ فهم بذلك يكسبون رضا الله تعالى ويحققون ما يضمن العدل والمنفعة بين الناس والسعادة في الدنيا والآخرة ، وما يقيهم من الانزلاق في الضلالات البشرية لما يؤذيهم في أنفسهم وفي غيرهم .

ومن بين ما وجههم الإسلام إليه في أمور دنياهم ، أنه صحح اتجاهات قومه الخاطئة وضلالاتهم البشرية تجاه الصنائع وعلومها الحقيقية . وكان الرسول ﷺ يضرب لهم دائماً الأمثال بالرسل والأنبياء عليهم السلام ، وأنهم كانوا يحترفون لأنفسهم ، ويطلبون العيش عن طريق بعض الحرف أو الصناعات اليدوية ، دون أن يأنفوا من ذلك ، وكان لدى أصحابه استجابة لهذه التوجيهات[1]

وقد ذكر الله تعالى في آياته الكريمة أن سيدنا زكريا كان نجاراً ، وكان سيدنا داوود حداداً ومن الآيات التي جاءت في ذكر داوود عليه الصلاة والسلام في ذلك قوله تعالى في سورة سبأ ﴿ **ولقد آتينا داوود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير ، وألنّا له الحديد** ﴾[2].

وكان الرسول ﷺ يعمل بيده الشريفة فقد بنى مع أصحابه مسجد قباء وكان عليه الصلاة والسلام يخصف نعله ويرقع ثوبه ويحلب شاته ، كما أعطى المثل والقدوة على تكريم الخياط والحداد ، وكانت أحاديثه الشريفة تحث على الاحتراف وإبعاد الاحترام عمّن ليس له حرفة يحترفها .

وكان ذلك علاجاً للوضع السيء الذي كان عليه العرب من احتقار المهن والابتعاد عنها ، وقد أتتهم مثل هذه الضلالات من خارج بيئاتهم ، من الفكر

(١) عبد العزيز إبراهيم العمري (الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول ﷺ) (٥٦ - ٦٠)

(٢) سورة سبأ ، الآية : ١٠

اليوناني ، الذي كان يعتبر المهن تقتصر على أعمال العبيد ليس الأحرار ، وفي هذا مخالفة صريحة لرسالة الأنبياء ، مما كان يشكل ضعفاً لدى العرب وقتئذ ويجعل غيرهم من الأقوام يحتكرون تلك الصناعات ويكسبون منها المكاسب الطائلة ، كما كان يفعل اليهود في ذلك الوقت[1] .

لقد علم الرسول الناس أمور دينهم ودنياهم ، وأوضح لهم ذلك عندما أخبرهم في خطبة الوداع بقول الله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾[2].

وحمل الصحابة رضي الله عنهم والمسلمون الأوائل مشعل هذه الرسالة الربانية بكل قيمها وتوجهاتها وأخلاقياتها ، وطبقوها على أنفسهم ، فاكتمل عمار قلوبهم بالإيمان والتقوى فتحقق لهم النصر في نشر مبادىء هذه الرسالة السماوية على أمم أخرى مجاورة لهم ، كانت تملك بأساً شديداً في صناعاتها ووسائل عيشها ومدنيتها المادية وما يقال عن حضارتها وثقافة إنسانها .

ومن الصناعات التي كانت متقدمة في تلك الأمم صناعة العمار والأثاث والملابس والأزياء ووشيها ، وصناعة الدواوين والأعمال التي تختص بالدولة .

وكذلك عرفت لديهم صناعة الطب والكيمياء والفلك والزراعة ، وغيرها من مبادئ العلوم ودلالاتها – ومع ذلك مكن الله تعالى للمسلمين والإسلام أن تنتشر مبادئه في هذه الحضارات التي كانت تضرب أعماقها في التاريخ ، فأخذ المسلمون من هذه الحضارات ما ينفع في صنائعها العملية والعلمية وفنونها ،فقاموا بتوجيهها وجهتها السليمة وصبغ مفاهيمها لتكون في خدمة الإنسان وعمارة الأرض ولتكون هذه العلوم والصنائع وسائل إلى غيرها ، وليست غاية بحد ذاتها .

كما قاموا بتصحيح فاسدها وأضافوا إليها إضافات كبيرة من أعمالهم بعد أن

---

(١) انظر : الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول – (٥٦ – ٦٠) .
(٢) سورة المائدة الآية : ٣

استكملوا حلقاتها الناقصة وأسبغوا عليها معاني الإسلام ، لتكون جميعها مرتبطة في رسالتها ، وتنظر نظرة شمولية إلى الكون ووجود الإنسان فيه ، وما فيه من مفاهيم تتصل بالعلوم أو القيم ، مثل مفاهيم الجمال والحق والخير والشر والحب والعمل والعطاء ، وكل المعاني التي تؤثر في الإنسان وتتفاعل مع قدراته وميوله وغرائزه وفطرته وتشكل في نهاية الأمر سعيه لتحقيق خبرته البشرية في هذا الوجود .

موقف الإسلام من العلوم والفنون

العلم والفن يتبعان مصدراً واحداً :

قبل البدء في الحديث عن مصدر العلم والفن ، نحاول أن نعطي القارئ المعنى الأصيل لمفهوم الصناعة والعلم والفن .

لو رجعنا إلى تراث حضارتنا الفكري ، وما كتبه علماؤنا حول مسألة الصناعات والعلوم ، نجد أن مختلف أعمال الإنسان ، وجوانب سعيه في الحياة ، كانت تسمّى « صناعات » كما اعتبر أن تعليم العلم هو من جملة الصناعات .

والفن يدخل في ترتيب هذه الأمور ، وإعطائها جمالية ، باعتبارها تعبر عن سعي الإنسان لتقريب هذه الأعمال إلى النفوس ، كما أن الإنسان يحب الجمال بفطرته ويحب تقليد التنظيم والترتيب والانسجام الموجود في الكون ، وبهذا تتحقق منفعة الناس من هذه الصناعات ، ويطلق على العمل بأنواعه المختلفة اسم الفنون . ونرى مثلا في مقدمة ابن خلدون مثل هذا كأن يقال عن العلوم الدينية النقلية مثلاً : « وانتهت مدارك الناظرين إلى الغاية التي لا فوقها وهُذبت الاصطلاحات ، ورُتبت الفنون فجاءت من وراء الغاية في الحسن والتنميق وكان لكل فن رجال يرجع إليهم فيه »[1].

ويلاحظ مما سبق ، أنه يقصد بالفن نوع الفرع من ذلك العلم أو تلك الصناعة .

والفن في مفهومنا الإسلامي أصله هو إعطاء جمالية لنشاطات حياة الإنسان ، ونتاج خبرته البشرية ، باعتبار أن الإنسان هو جزء من هذا الكون ، فهو يتجاوب مع جمال وبديع صنعته ؛ إذ من أسماء الله وصفاته : البديع .كما أن من واجبه أن

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، دار العودة بيروت، فصل (أصناف العلوم الواقعة في العمران) ص ٣٤٦

يغوص في إدراك سر هذا الكون ويحاول بعد ذلك أن يسبغ على أعماله شيئاً من سرّ ذلك الجمال ، وذلك التناسق ، وذلك الترتيب والإبداع الكوني .

ونستطيع أن نقول بإيجاز ، إن علماءنا الأقدمين قد تعارفوا على تسمية أصناف أعمال الإنسان وأنواع الخبرة البشرية باسم « صناعة » وأن كل الصناعات – كما يذكر ابن خلدون – لها خاصيتها الفكرية ،[1] وأن تعلم العلم هو من جملة الصنائع ، كما يدرك من ذلك أن كل صناعة وكل علم يمكن أن يكون له خاصيته الفنية ، إذا أبدع الإنسان صنعه وأحسن ترتيبه وتنسيقه ، وأعطى نشاطه هذا لمسات جمالية وإبداعاً فنياً جميلاً .

موقف الإسلام من العلوم والفنون (الصناعات) :

أما موقف الإسلام من أنواع الفنون والعلوم المختلفة ، فإن الإسلام يعتبر العلماء ورثة الأنبياء ، وذلك مثل الطبيب الذي يفني عمره في معالجة الناس والقضاء على الأوبئة ، ومثل الكيميائي الذي يفحص المواد ويختبرها ومثل الفلكي الذي يبحث في السماوات وفي السحب ، وفي علم المجرات والكواكب. فالعالم فيها يبحث ويغوص في المعرفة من أجل الوصول إلى حقيقة الكون ، وهي الإله الواحد ؛ لأن كل ما يدرسه هذا هو من صنعه تعالى .

ومثله أيضا الفلاح والعامل الزراعي الذي يجرب في المشاتل ، ويجري التجارب على النباتات من أجل الإكثار في نسلها وإنتاجها وتحسين بذورها ، والتخلص من أمراضها .كما يماثله أيضاً العالم الذي يبحث عن كنوز الأرض واستكشاف المعادن ليقوي بهذا الاكتشاف المجتمع الإسلامي عن طريق زيادة ثروته من أجل أن يوجد أبواباً وموارد للإنفاق لتلبية حاجات الناس ومطالبهم. إن كل هؤلاء هم في نظر الإسلام علماء .

إن مفهوم الإسلام هو مفهوم واسع ، يشمل كل علم أو صناعة يتحقق فيها

(١) المصدر نفسه ، (فصل الصنائع تكسب صاحبها عقلاً ..) ص ٣٤٠

سعادة البشرية وخير الإنسان ومنفعته ، لكن بشروط أهمها : أن ترتبط هذه العلوم بالشريعة وتحقق عبادة الله وتكشف عن عظمته وتوجه – بعامة – لخدمة الحق الذي هو الإسلام ، وتعمل على تمكين هذا الدين في الأرض .

أما موقف الإسلام من العلوم التي لا تنفع البشرية فهو موقف واضح في رفضها وإنكارها . ونورد منها على سبيل المثال : علوم السحر ، وغيرها من العلوم والصناعات التي تخترع ويكون من اختراعها ما يسبب شقاء البشرية ، تعتبر في نظره أقل من مرتبة العلم ، بل هي مجرد فنون ضارة وإنما تخترع لفتنة الناس عن أمور دينهم . يقول الله عز وجل في محكم آياته : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم ، وأسروا النجوى الذين ظلموا : هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون** ﴾[1].

إن العلوم الأصيلة في الإسلام إنما تصدر عن علمين أساسيين ، أو مصدرين أساسيين ، تنسجم مع ما جاء فيهما ، وهما كتاب الله وسنة نبيه .

ومن الكتاب والسنة انبعثت العلوم عن طريق الاجتهاد والقياس ليس عن غيرهما . وهذه المصادر الأربعة فقط هي التي تمثل المصادر أو الأصول الإسلامية .

إن من صفة الإسلام أنه يقوم على ركيزتين أساسيتين هما الإيمان والتقوى . ومن هذا المنطلق فإن لكل علم – إذا صحّ أن يطلق عليه اسم علم – إذا لم يقم على هاتين الركيزتين لا يمكن له أن يُبجَّل في دائرة الإسلام ؛ لأنه لا يخضع لتقاليد الإسلام ولا لتعاليمه ، ومن هذا القبيل ما يسمى بعلم السحر أو علم استطلاع الغيب أو التنجيم . فمثل هذه العلوم لا يمكن أن نطلق عليها علماً ، إنما هي روايات أو فنون كهذه الفنون التي تنتشر أو يقصد من اختراعها في الحقيقة شغل الناس وإلهاؤهم عن غاياتهم الأساسية ومقاصدهم العظيمة .

---

(١) سورة الأنبياء ، الآيات : (١ – ٣)

يقول تعالى عن بعض هذه العلوم الضارة: ﴿ **فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم**[1] **ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون** ﴾[2] .

والإسلام يرفض كل مبدأ أو علم أو فن أو سلوك يخالف مبدأه القائم على التقوى وعلى الإيمان ؛ ذلك لأن المجتمع الإسلامي هو مجتمع فاضل يقوم على الفضل وأن الحياة نفسها عنده ليست أكثر من مجرد وسيلة ومعبر وممر لا غاية في نفسها ؛ ولهذا فقد تأخر المجتمع الإسلامي ؛ لإعراض المسلمين عن كتاب الله وعن سنة رسوله وعن هديه الكريم ، فقد اشتغلوا بنوع من الأشياء الجانبية التي لا تسمن ولا تغني من جوع ، التي أتتهم من خارج بيئاتهم ومن خارج تقاليد الإسلام النقية الصالحة النظيفة ، فشُغلوا بها ، وكان الذي يشغلهم فيها هو الاستعمار الذي ما زال يكيد للإسلام وبلاده في مناهجها التعليمية وفي عاداتها وفي حياتها مما نراه عالقاً في مجتمعاتنا الإسلامية .

كما أن انحراف المسلمين عن تطبيق شريعة الله قد أتاح الفرصة لقوى الاستعمار أن تنال من المسلمين وتضعف قواهم .

فضل الله الإنسان على الملائكة بقدرته على تحصيل العلوم لعمارة الأرض

في القرآن الكريم آيات كثيرة عن فضل العلم والعلماء . ونجد في البداية الإشارة إلى تعليم الله – عز وجل – لآدم عليه السلام الأسماء كلها ؛ أسماء العلوم والأشياء وغيرها قال تعالى : ﴿ **وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما**

---

(١) إن من عادات العلوم الاستعمارية تسخير المعرفة لما يفرق بين الأخوة الأشقاء أفراداً أو جماعات أو مجتمعات ، ويكون ذلك بين الجماعات والأخوة في البلد الواحد أو جماعات الجوار أوجماعات المصير المشترك .

(٢) سورة البقرة الآية : ١٠٢

علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾[1] .

هذه الآيات تدل على ما خص الله تعالى - الإنسان من العلم دون غيره من المخلوقات وأنه مستعد لبلوغ أقصى الغايات العلمية دون الملائكة ؛ ومن ثمَّ كان هو أجدر بالخلافة منهم . ويدل لفظ (أنبأ) على رفعة الأسماء وعظيم خطرها .

والمراد من الأسماء المسميات . وعبر بها عنها - سبحانه - للصلة الوثيقة بين الدال والمدلول ، وسرعة الانتقال من أحدهما إلى الآخر . وأياً ما كان ، فإن العلم الحقيقي إنما هو إدراك المعلومات والمعاني أما الألفاظ الدالة عليها فهي تختلف باختلاف اللغات التي تجري بالمواضعة والاصطلاح .

وقول الملائكة ﴿ **لا علم لنا إلا ما علمتنا** ﴾ يعني أن العلم الذي حملوه علم محدود لا يتناول جميع الأشياء ولا يحيط بجميع المسميات .

ومع العلم الذي وهبه الله تعالى للإنسان ، فإن عليه واجباً ألا يغفل عن نقصانه من العلم ، عن فضل الله تعالى عليه ، وإحسانه وعليه أن يفوض أمره إلى الله عز وجل ، وإلى واسع علمه وعظيم حكمته ، كما قالت الملائكة : ﴿ **سبحانك** . **إنك أنت العليم الحكيم** ﴾ . وعلى الإنسان ألا يأنف من قول « لا أعلم » إذا لم يكن يعلم فإن نصف العلم « لا أدري » ولا يكتم العلم الذي تعلمه ﴿ **قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم** ﴾ أي أعلمهم بأسمائهم التي عجزوا عن علمها واعترفوا بالقصور عن بلوغ مرتبتها .

وفي هذه الآيات دلالة على شرف الإنسان على غيره من المخلوقات ، وعلى فضل العلم على العبادة ، فإن الملائكة أكثر عبادة من آدم ، ولم يكونوا أهلاً لاستحقاق الخلافة .

---

(١) سورة البقرة الآيات : ٣٢ - ٣٣

وفي استخلاف آدم في الأرض معنىً سامٍ عن الحكمة الإلهية خفي على الملائكة ، فإنه تعالى لو استخلفهم فيها لما عرفوا أسرار هذا الكون ، وما أودع فيه من الخواص ، فإنهم ليسوا بقادرين على استخراج مافي الأرض من خيرات وكنوز ، إذ هم على حال يخالف حال الإنسان ، فما كانت الأرض لتزرع بمختلف الزروع ، ولا تستخرج المعادن من باطنها ، ولا تعرف خواصها الكيميائية والطبيعية ، ولا تعرف الأجرام الفلكية ، ولا المستحدثات الطبية ، ولا شيء من العلوم التي تفنى السنون ولا يدرك الإنسان لها غاية .

والإنسان صانع لحضارته ، فأعماله من صناعات عملية مختلفة ترتكز على علم ومعرفة نظرية تسمى بعلوم ، وقد أطلق في تراثنا على الأعمال العملية والنظرية اسم صناعات[1] ؛ والإنسان خليفة الله في الأرض ليعمرها بصناعاته ، ومهما صنع الإنسان فهو لا يساوي شيئاً أمام صنع الله تعالى :

﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون ﴾[2] .

كيف يكون العلم وزراً على صاحبه ؟

قد يكون العلم النافع ، بحد ذاته ، وزراً على صاحبه كأن يتعلم أمور الدين ليتحايل عليه ، حيث إن بعضاً ممن يملكون العلم أو الشهادة لا يكونون في خدمة الأغراض الشريفة لذلك العلم أو لا يستخدمونه في هذه الغاية .. وهذا ما ينطبق على حال بعض المتعلمين ذوي النفوس المريضة ، الذين تسيرهم أهواؤهم وشهواتهم . كما ينطبق على حال المستعمر الذي يتعرف من خلال علومنا على أسرار شخصيتنا : نقاط قوتها أو ضعفها ، أو من خلال تصديره إلينا بعضا من العلوم الجديدة ، التي انتزعها من تراثنا وقيمنا ومبادئنا المرتبطة

---

(١) مقدمة ابن خلدون – دار العودة. فصل: الصنائع تكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب. ص ٣٤ .

(٢) سورة النمل الآية ٨٨ .

بعقيدتنا ، ثم قام بوضعها وإيهامنا بأنها في منزلة التقديس والتمجيد من قبلنا ، كما يفعل بمعطيات علم الاجتماع أو الفولكلور ، التي ينطبق حال اغترابها عنا بما يشبه قوله تعالى :

﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزًّا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾(1) .

فلا يجوز التقديس إلا لله تعالى ، وإن كل العلوم إنما هي لمساعدة الإنسان لتكون نوراً لدربه في أعماله تلك ، أثناء إقامته للحضارة . وهذه كلها عبادة بحد ذاتها . لأن كل علم،يلامس جانباً من جوانب الإنسان أو خبرته في إقامة الحضارة التي تترابط فيما بينها .

وإن العلوم الشرعية تأتي بمرتبة أعلى ؛ لأنها توجه أعمال الإنسان وسلوكه وعلومه بما يحقق لنفسه ولأمته الخير ؛ كما تحقق الغايات العظيمة التي شرعها الله تعالى له من أعماله .

---

(1) سورة مريم الآية : ٨١ - ٨٢ .

- الفصل الثاني

الإسلام والمعرفة الأنثروبولوجية والفولكلورية

الفصل الثاني

علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) قبل الإسلام

الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) يعرفها العالمان الأمريكيان لينـون وهيرسكوفتش Herskovits, Rlainton بأنها « دراسة الإنسان وأعماله » . وكلمة الأنثروبولوجيا مشتقة من كلمتين يونانيتين هما أنثروبوس Anthropos بمعنى الإنسان ، ولوجوس Logos وتعني الكلمة أو الموضوع أو الدراسة ، فيصبح معناها « دراسة الإنسان » ، أو « علم الإنسان » على أساس أن المنهج المستخدم في الأنثروبولوجيا هو المنهج العلمي ، والإنسان هو محور هذا العلم ، بصرف النظر عن الزمان والمكان[1] .

ويبسط لنا الدكتور شاكر سليم ، في قاموس الأنثروبولوجيا ، التعريف بإيجاز ، ويحسم لنا مشكلة تعدد فروع الأنثروبولوجيا فيحددها في ثلاثة تخصصات رئيسية فقط ، وهي : الأنثروبولوجيا الطبيعية والثقافية والاجتماعية . يقول التعريف : « إن الأنثروبولوجيا هي علم الإنسان طبيعياً واجتماعياً وحضارياً » .

إن بدايات الفكر الأنثروبولوجي يمكن ردها إلى العصور القديمة ، فقد استطاع هيرودتس ، في ذلك الوقت المبكر من الفكر الإنساني أن يطرح فكرة وجود تنوع بين الشعوب في النواحي الثقافية واللغوية والسلالية والدينية ، كما وصف لنا الكثير من المظاهر المتعددة للحياة اليومية عند بعض الشعوب ، مثل ما يتصل بالبيئة والملبس والمأكل والطب ، وعادات الزواج والتقاليد المصاحبة لها.

(١) د . زكي محمد إسماعيل ، (الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي)) ص ١٢

وقد قدم معلومات في تسع فصول عن حوالي خمسين شعباً ومن خلال رحلاته وقراءاته إلى جانب وصفه الدقيق للحرب التي دارت بين الفرس والإغريق ، إبان القرن السادس قبل الميلاد ، كما قام بوصف مصر وصفاً دقيقاً شائقاً .

وتعرض هيرودتس لمسألة اقتباس الشعوب بعضها من بعض فقد ذكر أن الإغريق قد أخذوا عن الليبيين الثياب والغناء والعربات .

وقد كان للحروب والرحلات التجارية ، منذ عصور ما قبل الميلاد وما بعدها ، دور هام – ولا شك – في حدوث اتصال بين الشعوب ، والتعارف فيما بينها ، وخاصة فيما يتعلق باللغة والتقاليد والعادات[١] .

كما أن الرحلات التي كانت تقوم بها جماعات من الشعوب إلى بلاد أخرى ، بهدف تسويق بضائعهم النفيسة – كما هو الحال بالنسبة لرحلات القدماء التي تُرى صور نقوشها على الآثار التاريخية القديمة – هي أيضاًمن وسائل تعارف الشعوب بعضها ببعض .

ومن الأهمية ذكر أعمال لوكتريوس ، وما تضمنته أفكار نظرياته عن المادة ، وحركة وشكل الأجرام السماوية وتكوين العالم ، وتعرضه لفكرتي التطور والتقدم ، حين تحدث عن الإنسان الأول ، والعقد الاجتماعي ، ونظامي الملكية والحكومة ، إلى جانب مناقشته للعادات والتقاليد والفنون والأزياء والموسيقى ، ومجمل تصوراته عن مسار البشرية في العصور السابقة.وإن كانت مثل هذه الأفكار تردّ إلى عمليات وابتكارات عقلية . **علماً بأن فكر موريس مورجان حول هذا العلم كان متأثراً به**[٢] .

كان الوصف الإثنوجرافي ؛ فيما يتعلق بالتنظير بشأن الفروق القائمة بين البشر ، سواء في التكوين البدني أو الوضع الحضاري ؛ متجهاً إلى تقديم تفسيرات

(١) د. حسين فهيم (قصة الأنثروبولوجيا) ص٤٢ وما بعدها=

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٧

قائمة على الانحياز العنصري والديني ، فالشعوب التي اعتنقت المسيحية وامتثلت لتعاليم الكنيسة كانت تمثل أرقى أنواع الحياة الإنسانية وأكثرها تقدماً ، بعكس ما هو عليه من وصف أولئك الناس الذين يعيشون في أماكن نائية ؛ بأنهم سلالات غريبة الخلقة ، حيث تبدو وجوههم بلا أنوف .

وقد ظلت هذه المعلومات سائدة وشائعة حتى القرن الثالث عشر ، وتبعتها موسوعة الفرنسي باتولو ماكوس ، وهي لا تختلف عن سابقتها في خلط معلومات هذا العلم بشيء من الخيال والتصورات البشرية .

وبينما كانت أوربا تعيش ما يطلق عليه تاريخياً « بفترة العصور المظلمة » ازدهرت حضارتان رئيسيتان خارج القارة الأوربية ، وهما « الحضارة البيزنطية » و« الحضارة الإسلامية » . ورغم أن الحضارة البيزنطية هي ، في أساسها ، مسيحية وغربية فإن[1] انتقالها من غرب أوربا إلى الشرق ، قد أكسبها الكثير من خصائص الحضارات القديمة والتراث الشرقي . بصفة عامة ، ازدهرت الحضارة البيزنطية ، وتفوقت كثيراً على الحضارة الرومانية التي سادت في غرب أوربا عدة قرون .

ثم ظهر الإسلام في الجزيرة العربية ، في الفترة نفسها التي ازدهرت فيها الحضارة البيزنطية تقريباً ، وبدأ في الانتشار بعد فتح مكة المكرمة عام ٨هـ /٦٣٢م . بدأت بوادر الحضارة الإسلامية آنذاك بالتكون والازدهار ، منذ منتصف القرن السابع حتى[2] نهاية القرن الرابع عشر تقريباً .

ويذكر المؤرخون أن عظمة الحضارة الإسلامية وأهميتها لا تقتصران على أنها أتت بدين جديد آمن به الملايين من الناس في أماكن متعددة ومتفرقة ، وإنما أيضاً فيما أحدثته من تغيرات اجتماعية وسياسية كبيرة ونتج عنها إثراء فكري وحضاري

---

(١) و (٢) د. حسين فهيم (قصة الأنثروبولوجيا) ص ٥٢ وما بعدها

لم يسبق لهما مثيل .

وقد تضمنت الحضارة الإسلامية الآداب والأخلاق والفلسفة والمنطق ، كما كانت ذات تأثير خاص في الحياة السياسية والاجتماعية والعلاقات الدولية .

وقد بلغت الجغرافية العربية أوج نضجها في القرن الرابع الهجري (التاسع الميلادي) وذلك عقب الفتوح العربية الإسلامية ، والاهتمام بإدارة هذه البلاد .

أي إنه كانت هناك رحلات أنثروبولوجية لعلماء المسلمين ، دون أن يعرفوا هذا الاسم ، وقد تركوا آثاراً علمية قيمة في هذا المجال .

الإسلام وإشكالية تقدم الحضارات وانهيارها

وضع الإسلام للبشرية سنناً واضحة وأخلاقيات معينة لضبط عوامل نمو الحضارات وتقدم وجهتها لما يحقق الغاية منها لصالح الإنسان والمجتمع. وهناك دلائل كثيرة على هذا منها قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾[١] ﴿ **وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار** ﴾[٢].

يولد الإنسان على الفطرة، والمجتمعات البدائية تكون أقرب إلى فطرة الإنسان السليمة .و قد حث الإسلام على العلم؛ لكي تكون أعمال الإنسان مهتدية بهديه ومستضيئة به.

إن وظيفة العلوم الدينية هي توجيه مسيرة العلوم الأخرى وتوجيهها لما يحقق غاياتها؛ لكي لا تكون هذه العلوم سبباً لضرر الإنسان نحو نفسه أو نحو أخيه الإنسان أو نحو بيئته.

وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته أن الإنسان في مجتمع الحضارة يكون أكثر ذكاء، ويرجع ذلك إلى أنّ في الحضارة وتقدم صناعاتها تنميةً وتطوراً لملكاته الفكرية والعقلية إلى جانب الملكات الأخرى، ويعتبر العلامة ابن خلدون من أوائل من تكلم عن سنن تقدم الحضارات أو انهيارها .

الثوابت والمتغيرات :

عندما يعمل الإنسان وهو يبني حضارته، فإن الأمور في الحضارة تخضع لجانبين: الجانب الأول: يتعلق بالثوابت، وهي التي تتمثل في العقائد والقيم

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٣١

(٢) سورة غافر الآية : ٤٣

الدينية وأخلاقياتها . فمثلا بالنسبة لما يتعلق بعقيدة التوحيد ، نجد أنّ من القيم الدينية وأخلاقياتها اجتناب السرقة والأذى والزنا وأكل الربا ، والبُعد عن شرب الخمر والانغماس في الترف واللهوِ والفساد ؛ لما يسبب ذلك كله من إضاعة للنعم التي أنعم الله بها على الإنسان والمجتمع ، كنعمة العقل ، ونعمة الوقت ، ونعمة المال ، ونعمة العلم. فهذه كلها أمور ثابتة لا تغير فيها ، فإضاعتها أو إفسادها مؤشر على ضعف الحضارة وقرب أجلها وظلم أهل الحضارة لأنفسهم .

فكثيراً ما كانت الأسباب الدافعة لانقراض الشعوب ودمار الأمم ترجع لهبوط فاعلية العوامل الأخلاقية والعناصر الروحية ، فالمعنويات القومية التي شيدت الصروح وكانت سبباً لنهضة الشعوب واستئصال الصفات الغريزية العرقية،تواجه العناصر المنتنة ومقولاتها الفاسدة التي تنتهي باضمحلال الشعوب وتظفر بتقويض أركانها عاجلا ..

هذا عن الجانب المتعلق بالثوابت ! !

أما الجانب الآخر الذي يتعلق بالحضارة ، وهو جانب المتغيرات الطبيعية في السنن الكونية ، فقد سبق ابن خلدون كثيراً من علماء الاجتماع ، عندما قرر أن الاجتماع البشري لا يستقر على حالة واحدة وإنما يتغير ويتطور نتيجة لما يلحقه من الأحوال . وفي هذا يقول :

« إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونِحَلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ، ومنهاج مستقر . إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال . وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار ، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول »[1] ويعرّف ابن خلدون الحضارة بقوله :

« والحضارة الكاملة تفيد عقلاً ؛ لأنها مجتمعة من صنائع في شأن تدبير المنزل ، ومعاشرة أبناء الجنس وتحصيل الآداب في مخالطتهم ثم القيام بأمور الدين واعتبار

(١) مقدمة ابن خلدون ، دار نهضة مصر ، الطبعة الثانية ، ص ٢٠١

آدابها ، وشرائطها. وهذه كلها قوانين تنظم علوماً ، فيحصل منها زيادة عقل . والكتابة من بين الصنائع ، أكثر إفادة لذلك ؛ لأنها تشتمل على العلوم والأنظار »[1].

وقد وضع الإسلام للإنسان ، في بناء حضارته ، ضوابط وأصولاً وأخلاقيات معينة تتعلق بعمله وعلمه وصناعته وفنونها ، فمن بين ذلك أنها تقف بين حدّين : حدّ يشجعه الإسلام ويثيب فاعله على عمله ، وهو جانب اتقان الصنعة . وحدّ آخر ينهى عنه الإسلام ويؤنب فاعله ، بل ينذر من ينساق إليه من الأمم والأفراد ؛ بأشد العذاب والهلاك وسوء العاقبة ، وهو الانغماس في الترف والتأنق والرفاهية ؛ لأن ذلك مدعاة للظلم والجور والتعدي على حقوق الآخرين ، يقول تعالى في ذلك :

﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون * وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين * فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون * لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تُسألون * قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين * فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين * وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين * لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إنْ كنا فاعلين * بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون ﴾[2] .

وفي قصص القرآن الكريم أمثلة كثيرة عن مصير تلك الحضارات التي انغمست في الترف والفساد واللهو ، مثل قوم نوح ، ومثل عاد وثمود ، وغيرهم .

إن آيات الله تعالى واضحة في أمر الترف والمترفين يقول تعالى : **﴿ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون * لا تجأروا اليوم إنكم منا لا**

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، دار العودة (الصنائع تكسب صاحبها عقلاً) فصل ٣ ، ص ٢٣٩ .
(٢) سورة الأنبياء الآيات : ١٠ - ١٨

تنصرون ، قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون ﴾[1] ويقول تعالى : **﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ، فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين ، الذين يفسدون في الأرض ولايصلحون ﴾**[2] .

وقد سمى العلامة ابن خلدون حالة انغماس أهل الحضارة بالترف والملذات وشهوات النفس بحالة « إفراط الحضارة » ففي الفصل الثامن عشر ، وعنوانه : « فصل في أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره ، وأنها مؤذنة بفساد » تكلم عن مسألة النفس في الترف ، واستجادة أحواله ، والكلف بالصنائع التي تؤنق أصنافه وسائر فنونه ، من الأعمال المهنية للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية ، وسائر أحوال المنزل . ونذكر في هذا قوله :

« وإذا بلغ التأنق في هذه الأحوال المنزلية الغاية ، تبعه طاعة الشهوات ، فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة ، لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها : أما دينها ؛ فلاستحكام صبغة العوائد التي يعسر نزعها . وأما دنياها ؛ فلكثرة الحاجات والمؤونات التي تطالب بها العوائد ويعجز الكسب عن الوفاء بها . وبيان أن المِصْر ، بالتفنن في الحضارة ، تعظم نفقات أهله »[3] .

---

(١) سورة المؤمنون الآية : ٦٦

(٢) سورة الشعراء الآية : ١٥٢

(٣) مقدمة ابن خلدون ، دار العودة فصل ١٨ ، ص ٢٩٥ .

نشوء المعرفة الفولكلورية ومكانتها الثقافية في المجتمع الإسلامي

دور المسلمين في الدراسات الفولكلورية :

إذا بحثنا في بطون الكتب من تراثنا الفكري ، الذي خلفه لنا أجدادنا الأوائل ، فإننا نجد أن لعلم الفولكلور الحديث أصوله الهامة في تاريخنا العربي والإسلامي المجيد . وأنه قد احتل وظيفته الفكرية والاجتماعية الهامة في استخدامه داخل البناء الاجتماعي والثقافي . وقد جاء ذلك الاستخدام متناسباً مع المراحل الحضارية التي مرت بها الأمة الإسلامية ، التي تختلف في طبيعتها عن المرحلة التي نعيشها في عصرنا الحاضر .

ومن المهم أن نعرف « أن علم الفولكلور - مادة ومنهاجاً - ليس غريباً على الحضارة العربية الإسلامية ، وإن كان المصطلح المعاصر الذي يشير إلى هذا العلم مصطلحاً أجنبياً ؛ فالمؤلفون العرب على اختلاف مشاربهم وتباين مواقفهم خلال مختلف العصور والمراحل الحضارية للأمة العربية - كانت لهم نظرات ثاقبة وممارسات صائبة في التعامل مع المادة الشعبية التي تزخر بها كتبهم وموسوعاتهم اللغوية والأدبية والتاريخية »[1].

الرعيل الأول والمادة الفولكلورية :

إذا قمنا في العصر الحاضر بتتبع المناهج التي سار عليها الأقدمون في جمع التراث وكذلك في جمع الشعر الجاهلي من مصادره الشفهية في البادية ، للاسترشاد بها في عمليات الجمع الميداني ، فإننا نجد الكثيرين من هؤلاء كالأصمعي وأبي عبيدة والكسائي وأبي عمرو الشيباني وأبي عمرو بن العلاء وغيرهم حيث كانت لهم مناهج في جمع المادة الشفهية لا تختلف كثيراً عن مناهج علماء اللغة والفولكلور

---

(١) د . سعد الصويان (نحو تحديد مفهوم عربي للمأثور الشعبي) جريدة الرياض ، العدد (٦٨٤٧) ، ٢٣ رجب ١٤٠٧هـ .

المحدثين . لكن هؤلاء العلماء – وإن اتفقوا مع علماء الفولكلور المعاصرين في طريقة الجمع ومنهج العمل وبعض التوجهات النظرية – فإنهم يختلفون عنهم في الأهداف والغايات .

لقد كانت الدوافع التي دفعت علماء المسلمين إلى جمع الأدب الجاهلي دوافع دينية تنتهي إلى القرآن . فقد أحسوا منذ البداية أن واجبهم الديني يحتم عليهم المحافظة على اللغة الفصحى ، لغة القرآن الكريم والحديث الشريف فهبوا لجمع نماذج منها لدراستها واستنباط قواعدها . وكان هدفهم(١) الأساسي تفسير الغريب والمشتبه من معاني القرآن ، وتبيان أوجه المجاز والإعجاز فيه ، والمحافظة عليه من تسرب اللحن إليه .

ومما يؤثر عن عبد الله بن عباس – وهو أول من قام بتفسير القرآن – قوله : « إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب ، فإن الشعر ديوان العرب » . كان إذا سئل عن شيء من القرآن قال فيه شعراً . هكذا نرى أن فحص كل الشواهد هو من مناهج الرعيل الأول أثناء جمعهم الحديث الشريف والشعر والأدب الشفاهي من رواة البادية(٢) .

المصطلح العربي الأصيل للفولكلور :

من خلال البحث في كتب التراث عن معنى الفولكلور ، نجد أن باحثاً عربياً من الأوائل مثل القلقشندي قد أورد في (صبح الأعشى) رأيا في غاية الأهمية عن موضوع الفولكلور حيث استخدم مصطلحاً عربياً أصيلاً للدلالة على المادة الشعبية هو مصطلح « أوابد » الذي يقابل المصطلح المعاصر « الفولكلور » وعرّف الأوابد بأنها « أمور كانت للعرب في الجاهلية بعضها يجري مجرى الديانات وبعضها يجري مجرى الاصطلاحات (الأعراف) و (العادات) وبعضها يجري مجرى الخرافات(٣) » .

---

(١) (٢) و (٣) المرجع السابق نفسه .

ويورد القلقشندي رأياً طريفاً للوزير ضياء الدين بن الأثير ، ذكره في كتابه (المثل السائر) يقول فيه : « إن صاحب هذه الصناعة (الإنشاء) يحتاج إلى التشبث بكل فن من الفنون حتى إنه يحتاج إلى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء ، والماشطة عند جلوة العريس ، وإلى ما يقوله المنادي في السوق على السلعة . فما ظنك بما هو فوق هذا ؛ وذلك لأنه مؤهل أن يهيم في كل واد ، فيحتاج إلى أن يتعلق بكل فن »(١) .

ومن آراء الجاحظ المشهورة قوله في البيان والتبيين « ومتى ما سمعت – حفظك الله – نادرة من كلام الأعراب فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها خارج ألفاظها ، فإنك إن غيرتها بأن لحنت في إعرابها أو أخرجتها من مخارج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير . إن سمعت نادرة من نوادر العوام وملحة من ملحهم فإياك أن تستعمل لها الإعراب أو تتخير لها لفظاً حسناً ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ويخرجها من صورتها التي وضعت لها ، ويذهب استطابتهم إياها »(٢) .

مكانة الأدب الفصيح والأدب الشعبي في عصور الانحطاط :

يحدد المؤرخون عصر الفصاحة ، الذي يطلق عليه أيضاً عصر الاستشهاد أو عصر الاحتجاج فيرون أنه يبدأ من أول نص شعري وصل إلينا من نصوص العصر الجاهلي ، وينتهي بنهاية القرن الثاني الهجري(٣) .

وقد تركزت جهود العلماء العرب في جمع المادة الأدبية واللغوية ، خلال هذا العصر من أجل جمع الحديث الشريف ، هذا من حيث تحديد الزمان ، أما من حيث تحديد المكان فهو وسط الجزيرة العربية ، حيث تقطن القبائل المشهور لها بالفصاحة ، والتي ظلت – بحكم عزلتها وعدم اختلاطها مع العناصر الأجنبية – تتكلم الفصحى مدة طويلة . وفي الوقت ذاته نُظر إلى لغة الأمصار على أنها فسدت

(١)و(٢)و(٣) المرجع السابق نفسه

قياساً على سابقتها ، وبانتهاء هذا العصر الذي كان يتميز بأنه يمثل جذوة الإبداع الفكري والابتكار العلمي في مجال الدراسات اللغوية والأدبية والدينية . فقد بدأ وهج حرارته يضعف شيئاً فشيئاً ، و تنطفيء سلعته ، ليحل محلها التقليد وتتبع أثر السلف .

ولم يتمكن العرب من تطوير المناهج والنظريات التي استخدموها في دراسة الأدب الجاهلي وتطبيقها في دراسة اللهجات العامية وآدابها ؛ فالمكانة العالية التي تحظى بها اللغة العربية الفصحى عند العرب والمسلمين ، كرّست في أذهان الكثيرين الفكرة التي مؤداها أن اللغة هي المعيار الذي تقاس به جودتها . فجودة الأدب أصبحت في نظر الكثيرين رهناً بمدى قرب اللغة أو بعدها من لغة الأدب الجاهلي ، وإن التركيز على هذا الاتجاه دون النظر لمضامين الإبداع الشعبي ساعد على أن يكون مسار اللغة متجهاً نحو تقولب المعرفة في استخدامها ، فتصبح المحافظة على التأنق والوشي غاية بحد ذاتها دون وضوح وظيفتها وسيلةً للتعبير عن الأفكار التي تنمي الحضارة وتسير بها نحو البناء . وإن مثل هذا الاتجاه جعل علماء المسلمين (في الغالب) لا يهتمون بدراسة اللهجات وآدابها ، ويتخذون موقفاً خاطئاً في اعتبار أن مثل هذا لا يخدم غرضاً دينياً ، كما نظروا إليها بازدراء واستهجان ، واعتبروها فساداً وانحداراً وليس مجرد تغير لغوي يحتّمه الزمن — كما يرى اللغويون المحدثون[1] .

وكانت النتيجة أنه مع نهاية عصر الفصاحة (الاحتجاج) ، بدأ دور العربية الفصحى يتقلص واقتصر استعمالها على الكتابة والمخاطبات الرسمية ، وتغلبت عليها العاميات واللهجات التي حلت محلها في التخاطب اليومي والتعبير في الأدب الشعبي .

ولكن على الرغم من الحساسية المفرطة التي كانت تعاني منها الغالبية من أدبائنا وعلمائنا في العصور الماضية ضد المادة الشعبية ، وعلى الرغم من الرقابة الصارمة التي فرضوها على أنفسهم ، فإن هذه المادة تسربت إلى أعمالهم وتشربتها كتاباتهم

(١) المرجع السابق نفسه .

تشرب التربة للماء[1] ، ويظهر هذا في أمهات الكتب العربية سواء ما كان منها مناوئاً للمادة الشعبية وما كان متعاطفاً معها ؛ بحيث تزخر بالإشارات إلى المأثور الشعبي .

أي إنه على الرغم من وجود الاتجاه المغارض ، كان هناك فريق من الأدباء والعلماء الذين تنبهوا إلى قيمة المادة الشعبية ، ولم يروا غضاضة في جمعها والبحث في طبيعتها ومنشئها . وهناك من الكتاب من حاولوا تصوير مجتمعهم من جميع جوانبه ورأوا الأمانة تدعوهم إلى نقل كلام العامة والسوقة دون تفصيح ، ليس فقط لأن مهمة الأديب تصوير الواقع الاجتماعي والحضاري ، بل لأن في ذلك ما يضيف نكهة خاصة وطعماً متميزاً لعمل الكاتب[2] . أي إن هؤلاء الكتاب والأدباء كانوا يستلهمون الشعب في أعمالهم ، ويستمدون منه مادته الأدبية .

ومن أبرز من نادى بأهمية دراسة الأدب الشعبي : القلقشندي والتوحيدي وابن الأثير وابن خلدون الذي قال : إن البلاغة والجمال الفني أشياء مستقلة تماماً عن قواعد النحاة .

ويضاف إلى هذا التيار الشعبي شعراء الأزجال والموشحات الذين طبقت شهرتهم الآفاق ، مثل ابن قزمان ، وصفي الدين الحلي ؛ ناهيك عن علماء اللغة الذين صنفوا المؤلفات العديدة المفيدة من اللغة العامية[3] .

ونجد في كتاب (البصائر والذخائر) أن أبا حيان التوحيدي حاول أن يبرز ويفسر ما ضمنه كتابه من المادة الشعبية ، حيث يقول :

« وقد مرت من أمثال العامة أشياء تتصل بأغراض صحيحة ، على سوء التأليف وخبث اللفظ ، ومنها فوائد وأعجوبة ، فاعرف الخبيث واختر أنفعها لك في موضعه ، وأجداها عليك في استعماله . فلم ينبثّ هذا كله في العالم إلا ليعرف ويميز ، وليكون بعضه باعثاً على بعض وناهياً عن بعض . وباختلاف الأشياء

---

(١) (٢) (٣) المرجع السابق نفسه .

تختلف الظنون وتنقسم الأفكار في طلب الحق وتوخّي الصواب . وليس الحق شخصياً في محل يطوى إليه . فلا تَذو وجهك عن اللفظة السخيفة والكلمة الضعيفة ؛ فإن المعنى الذي فيها فوق كراهتك ، وليس العالم تابعاً لرأيك ، ولا محمولاً على استحسانك واستقباحك . بل يجلّ عن مَقَاحِم فكرك ، ويعلو على غايات فهمك . فإياك أن ترى لنفسك محلاً لست به فتقول هذا حسن وهذا قبيح ، دون أن تقف على حقائق ذلك الحسن والقُبْح »[1] .

أهمية الشعر العامي عند ابن خلدون :

يذكّرنا العلامة ابن خلدون في مقدمته بأهمية دراسة الشعر العامي حيث يقول : « والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد ، وخصوصاً علم اللسان ، يستنكر هذه الفنون التي لهم إذا سمعها ، يمج نظمهم إذا أنشد ، ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها . وهذا إنما أتى من فقدان الملكة في لغتهم . فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها ، إن كان سليما من الآفات في فطرته ونظره . وإلا فالإعراب لا مدخل له في البلاغة ، إنما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود فيه ، سواء كان الرفع دالاً على الفاعل ، والنصب دالاً على المفعول ، أو بالعكس . وإنما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو في لغتهم هذه فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة : فإذا عرِف اصطلاح في ملكَة واشتهر صحت الدلالة وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة[2] ، ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك .

من الجاحظ إلى ابن خلدون :

يرى الدكتور محمد رجب النجار : أننا مدينون لعالم موسوعي هو ابن خلدون

(١) (٢) المرجع السابق نفسه .

في مقدمته التي بوأته مركز الصدارة في فلسفة التاريخ ونشأة العلوم الاجتماعية[1] . فعلى يديه تأسس علم الفولكلور وعلى يديه أخذت المادة الفولكلورية الضخمة التي جمعها جيل الموسوعيين شكلها المنهجي وإطارها العلمي (ولأول مرة) في الفكر الغربي والعالمي.فهو أول عالم يقوم بدراسة العلوم الشعبية أو الفولكلورية من حيث هي أدب شعبي وعادات وتقاليد ومعتقدات ، ومعارف شعبية وحرف وصناعات وفنون جمعية في إطارها العلمي الصحيح ضمن دراسته عن علم العمران والاجتماع البشري.

وهو أول عالم يقوم بدراستها دراسة عقلانية طبق منهج علمي دقيق التزم به يقوم على تعريف المجال الفولكلوري ، ونشأته ومراحل تطوره وموضوعاته وأبرز علمائه وأهم الكتب المصنفة فيه. وهو في ذلك كله صاحب وجهة نظر تأسيسية داخل هذه المجالات العلمية الشعبية التي عرفتها أوربا بعد ذلك بثلاثة قرون تحت مصطلح « فولكلور » الذي صاغه سير جنز سنة ١٨٤١م .

وتتجلى وجهة النظر التأسيسية تلك في نقد المادة الفولكلورية وتمحيصها واتخاذ موقف عقلاني منها ، قد يقوم على الرفض أحياناً ، كما هو الحال في العلوم السحرية ، أو يقوم على تصحيح المفاهيم أحياناً أخرى ، كما هو الحال في الطب الشعبي أو البدوي ، الذي شاع خطأ كما يقول باسم (الطب النبوي) ، وقد تقوم أحياناً أخرى على التعاطف مع المادة الفولكلورية والدفاع عنها وتحليلها تحليلاً نقدياً يؤكد به آراءه ووجهة نظره التي تكون عندئذ خارجة عن العرف السائد بين علماء عصره ، ومألوف علومهم ومسلماتهم العلمية أو (المدرسية) كما فعل في دفاعه دفاعاً علمياً وفنياً - أول مرة - عن الأدب الشعبي عامة واللهجات والشعر الشعبي الخاص بها ، حيث تنفرد مقدمته بدراسة عن الشعر الشعبي وفنونه المتنوعة[2] في كثير من صفحاتها .

(١) د . محمد رجب النجار - جريدة الرياض ، العدد ٦٨٤٩ ، ص ٧ (ثقافة اليوم) .

(٢) مقدمة ابن خلدون (تحقيق د / علي عبد الواحد وافي) ص١٣٢٨ ومابعدها .

دور المسلمين في الدراسات الأنثروبولوجية والفولكلورية

ذكرنا ، فيما سبق أنه لا يمكن لنا أن نسمي أي علمٍ علماً نافعاً ، إلا إذا أباحه الإسلام ، وخضع لتعاليمه . وبمعنى أوضح ، أن يقوم العلم على الإيمان والتقوى ويَصْدُر – في نظرته للكون والإنسان وخالقهما – عن المصدرين الأساسين للإسلام ؛ وهما القرآن الكريم والسُّنة النبوية ؛ لأن الإسلام يحضّ على نفع البشرية ويرفض ضررها ﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** ﴾[1] ؛ ومن ثمَّ ، يجب ألا يُحترم أي علم إلا إذا حقق المنفعة للناس .

النظرة الشمولية إلى الكون والإنسان

وإذا نظرنا إلى علم الإنسان « الأنثروبولوجيا » في الإسلام ، فإننا نجد – في البداية – آيات كثيرة من القرآن الكريم ، يحث فيها الله تعالى عباده على السير في الأرض ، والتفكّر فيما خلق الله من كائنات ، بشرية أم غير بشرية ؛ فالله تعالى جعل الإنسان خليفة في الأرض ، وكرّمه بهذه المهمة ؛ ليرى ماذا سيعمل : قال تعالى : ﴿ **ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون** ﴾[2] ﴿ **أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض** ﴾[3].

وعلى اعتبار أن البشر جميعاً من أصل واحد ، ومن أب واحد هو آدم عليه السلام ، وأنهم جميعاً أخوة في البشرية فقد حثنا الله – عز وجل – في كثير من الآيات ، على النظر إلى عاقبة الأمم الأخرى : قال تعالى :

﴿ **فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾[4].

---

(١) الاسراء الآية : ٩

(٢) الأعراف : ١٢٩

(٣) الأعراف : ١٨٥

(٤) آل عمران : ١٣٧

﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ﴾[1].
﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾[2] .

كما حث – سبحانه تعالى – الإنسان أن يبحث في الكون عامة . قال تعالى :
﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾[3].
﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾[4] .

إن الفكر العربي والإسلامي ، في أساسه ، يقوم على شمولية النظرة إلى الكون والإنسان ، وإلى خبراته البشرية التي يقوم بأدائها في عمران الأرض . ومن هذا المنطلق ، فقد كانت الدراسات التي قام بها العلماء العرب في رحلاتهم ، تقوم على دراسة جميع جوانب الحضارة أو الثقافة التي رغبوا في دراستها . وقد استطاع هؤلاء العلماء ، بصبرهم وبإمكانات عصرهم البسيطة ، أن يقدموا للبشرية معرفة علمية ومنهجية عن المجتمعات التي مروا بها في رحلاتهم ، وكانت أعمالهم ، بهذا ، قد سبقت العصر الحديث بقرون ؛ حيث أضافوا إلى حقل المعرفة رصيداً هائلاً ساعد على فتح آفاقها وإغنائها بالثقافات المتنوعة .

مصادر[5] التراث الشعبي في مختلف المعارف والفنون

ومن هذا المنطلق ، نجد لدينا كماً هائلاً من المؤلفات في جميع مناحي الحياة ، منها ما يتعلق بالتراث الجغرافي من كتب الرحلات الجغرافية بعامة ، وما تتضمنه من كتب عن تفاصيل الرحلات الاستكشافية ، والعلمية ،

---

(١) الروم : ٤٢
(٢) النمل : ٦٩
(٣) يونس : ١٠١
(٤) العنكبوت : ٢٠
(٥) انظر في ذلك : د . محمد رجب النجار،مصادر الموروث الشعبي،جريدة الرياض ،العدد : ٦٨٥١ ، ٢٧ /٧/ ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧/٣/٢٧م ، ص٧

والتاريخية ؛ ومنها ما يتعلق بالتراث السياسي والأخلاقي والاقتصادي ؛ ومنها ما يتعلق بالتراث الطبي من كتب الأمراض والعقاقير والاستشفاء ، بما تشتمل عليه من كتب الطب العربي (الشعبي) والطب النبوي ؛ ومنها ما يتعلق بالتراث العلمي من كتب عن الكيمياء والملاحم وأسرار الحروف ، والتنجيم والسحر والكهانة والفراسة. ؛ ومنها ما يتعلق بالتراث الفروسي من كتب تتحدث عن الخيل وما يتصل به من وصف وعناية وعلاج (البيطرة) وأصول الصيد وشروطه والصيد بالجوارح (البيزرة). وغير هذا كثير .

الرحلات الاستكشافية (الجغرافية والعلمية والتاريخية)

هناك عدد كبير من كتب الرحلات والاستكشافات ، التي اهتم مؤلفوها بوصف الشعوب وطقوسها ومعتقداتها وأساطيرها وثقافاتها وآدابها القصصية ، وأعيادها ومواسمها ، وشعائرها. مما يوفر مادة علمية ضخمة لعلماء الأنثروبولوجيا والإثنوجرافيا ، والإثنولوجيا ، والفولكلور جميعاً مثل رحلات أسامة بن منقذ ، وابن جبير وابن خلدون ، وابن بطوطة .

كما يلحق بهذه الكتب ، وللغايات والأسباب السابقة نفسها ؛ كتب العجائب والغرائب (انظر كتاب « أدب الرحلات » باعتباره مصدراً إثنوجرافياً للتراث الشعبي ، تأليف د. حسين فهيم) .

ولا شك أن البحث الجغرافي المعاصر ، قد تجاوز ، كثيراً ، المادة العلمية التي وردت في هذه المؤلفات جميعاً ، مما تبدو معها كأنها أساطير أو أشباه أساطير ، ولكن أهميتها تكمن فيما تتضمنه من مادة إثنولوجية وإثنوجرافية وفولكلورية ، وهي التي تفسّر وتفنّد كثيراً من الترّهات والأساطير التي كانت تؤمن بها الشعوب آنذاك .

لمحة عن بعض كتب الرحلات

ونلقي هنا ، الضوء على بعض هذه الكتب ، التي أسهمت في نقل صورة حية عن الحياة والكون والإنسان في العصور المختلفة .

– **ابن خلدون :**

يصف لنا مؤرخ غربي كبير ، هو أرنولد توينبي ، مقدمة ابن خلدون المشهورة بقوله : « إنها – أي المقدمة – أعظم عمل من نوعه ، أمكن لأي عقل أن يجود بمثله في أي عصر أو أي مكان » .

وتعتبر مقدمته وما جاء فيها في العمران ، وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب المعاش والصنائع والعلوم ، وما إلى ذلك من العلل والأسباب. . تعتبر هذه المقدمة عملاً أصيلاً في تسجيل الحياة الاجتماعية لشعوب شمال قارة إفريقيابما لها من تقاليد وعادات وعلاقات اجتماعية إلى جانب بعض المحاولات النظرية لتفسير كل ما رآه من أنظمة اجتماعية مختلفة[1].

وقد أشار جون هونجيمان في كتابه « تاريخ الفكر الأنثروبولوجي » إلى أن ابن خلدون قد تناول في مقدمته بعض الأفكار ذات الصلة بنظرية مارفين هاريس عن « المادية الثقافية » . ونجد أن هاريس ذاته يذكر ابن خلدون ومن قبله الإدريسي ، بأنهما قدّما أفكاراً ومادة ساعدت على بلورة نظرية الحتمية الجغرافية التي سادت إبان القرن الثامن عشر .

ويستعرض الدكتور حسين فهيم في كتابه « قصة الأنثروبولوجيا » الموضوعات التي تطرق[2] إليها ابن خلدون في مقدمته ، وشكّلت فيما بعد اهتماماً رئيسياً في الدراسات الأنثروبولوجية ومن أهمها – كما يشير الدكتورأحمد أبو زيد – أن ابن

---

(١)و(٢) د. حسين فهيم (قصة الأنثروبولوجيا) ص٦٥ .

خلدون تنبّه ، منذ قرون إلى مبدأ العصبية وأهميته في فهم المجتمع القبلي .

وهذا الموضوع قد اهتم به العديد من المستشرقين ، وأفضل مثل لذلك هو روبرتسون سميث الذي أفرد كتاباً من أهم كتبه لدراسة القرابة والزواج في بلاد العرب القديمة ، مسترشداً بابن خلدون .

ثم انتقل ذلك الاهتمام إلى واحد من أكبر علماء الأنثروبولوجيا ، وهو الأستاذ إيفانز ريتشارد .

ومن الموضوعات الأخرى التي تناولها ابن خلدون والتي لها صلة بالاهتمامات الأنثروبولوجية في الماضي والحاضر على حد سواء ، تلك العلاقة القائمة بين البيئة الجغرافية وشئون الاجتماع .

أما من ناحية الفكر النظري ؛ فقد سبق ابن خلدون مفكري القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في بلورة نظرية متكاملة عن مراحل تطور الحضارة الإنسانية ، والمسار الذي يحكمها ، والدراسات المقارنة المتصلة بها ، وهو الموضوع الذي شغل الفكر الأوربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

وفي حقيقة الأمر ، فإن فكرة تغير الزمان والأشياء وتحوّلها ، قديمة قدم الوجود الإنساني ذاته ، إلا أن اليونانيين مثلاً ، نظروا إلى ظاهرة التغير والتحول هذه ، وفسروها في إطار فلسفي ، يقوم على الحركة في اتجاه واحد يربط بين الحياة والموت ، ووصل الأشياء بعضها ببعض .

أما العرب فقد رأوا في قيام الدول وتداعيها مدعاة لربط حياة المجتمعات الإنسانية بحياة الكائن الحي ، من حيث مروره بمراحل العمر المختلفة ، من الولادة حتى الممات[1] .

كما أن ابن خلدون ، قد بلور نظريته التي أسماها « دورة العمران ما بين البداوة

---

(١) د. حسين فهيم « قصة الأنثروبولوجيا » ص ٦٨

والحضارة » وقد ظلت فكرته تلك مسيطرة على الأذهان في الشرق والغرب على حد سواء ؛ فالتطور هو سنة الحياة الاجتماعية في نظر ابن خلدون ، وهو أساس بحثه في الظواهر الاجتماعية ؛ إذ يقول : « إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم وحالهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال ، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار ، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول[1] » .

المقدسي :

للمقدسي كتاب بعنوان « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » لم يعتمد فيه على طريقة النقل أو القراءة أو الحكاية أو الرواية ، كما فعل نظريو القرن التاسع عشر ، بل اعتمد على الدراسة الحقلية الجادة للأقاليم الإسلامية التي زارها . وقد خالط العلماء وجالس الفقهاء ، وناقش الأدباء ، وتعلم منهم ، وأخذ عنهم . وفي الوقت نفسه ، كان يعمل بالتجارة ويمسح الأرض ويتعلم لغة القوم .

وهو من الرواد الإثنوجرافيين العرب ، الذين وصفوا البحار والأنهار ، وتعرضوا لأسماء البلدان واختلافها ،والأقاليم وخصائصها ، والمواضع المختلف فيها ، وأقاليم العالم ، ومركز القبلة ، وجزيرة العرب ، والتي بدأ بها لأن فيها بيت الله الحرام ، ومدينة النبي عليه السلام[2] .

- البيروني :

عمل البيروني على التركيز ، في بعض مؤلفاته على دراسة الهند دراسة إثنوجرافية شاملة ، وذلك في كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة » . وفي كتابه وصف إثنوجرافي خصب وشامل لمختلف السمات والمركبات والخصوصيات والعموميات الثقافية للهند ؛ ما اتفق منها مع المنطق

---

(١) د / زكي محمد إسماعيل « الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي » ص ٤٨

(٢) د. حسين فهيم « قصة الأنثروبولوجيا » ، ص ٣٠ - ٣٩

العقلي أو ما لم يتفق ، فكتابه يحوي على مقدمة في ثمانين باباً أو بحثاً .

وكتاب البيروني يجمع بين « الإثنوجرافيا » و « الإثنولوجيا » و« الأنثروبولوجيا » ، حين يحلل البناء الاجتماعي للهند ، ونظمه المختلفة الدينية والقضائية والعائلية والطبيعية ، وأنماطه الثقافية المتعددة .

يتحدث عن الموجودات بأنواعها العقلية والحسية والروحية ، ولا يقف عند مجرد الوصف ، وإنما يستخدم منهجاً من أهم مناهج الأنثروبولوجيا وهو « المنهج المقارن » ، حين يقارن بين هذه الأنساق (SYSTEMS) والأطر الثقافية في الهند ، وما يشابهها أويتصل بها عند كل من اليونان والفرس والعرب ، محاولاً – بالمنهج الانتشاري التاريخي – إرجاعها إلى أصولها . ثم لا يقف عند حد المقارنة كفاية ، وإنما يستخلص من خلالها بعض التعميمات والنتائج ، لتفسير اختلاف اعتقاد الخاص والعام في كل أمة[1] .

كما يرجع اختلاف الأمم إلى اختلاف في الظروف الاجتماعية العامة كاللغة والدين والسياسة والعادات والرسوم ، وغير ذلك .

وقد حاول « البيروني » أن يربط سائر النظم الاجتماعية في الهند ، التي كانت سائدة في عهده بالدين ؛ وهي حقيقة أكدها العلماء الأنثروبولوجيون في دراساتهم للمجتمعات المختلفة ، البدائية منها وغير البدائية ، كما أكدها العلماء من بعده ، بالنسبة للمجتمع الهندي .

وحلل البيروني تحليلاً أنثروبولوجياً دقيقا، البناء في الهند ثم تناول البحث في آدابهم وكتبهم في النحو والشعر ، وفي ذكر معارف شتى عن بلادهم ، وأنهارهم وبعد المسافات بين ممالكهم وحدودهم .

وعلى أية حال ، فقد جمع البيروني ، في بحثه الميداني ، عن الهند كل ما يهم « الأنثروبولوجي أن يقف عليه ، من شتى النظم الاجتماعية والسمات الثقافية ،

---

(١) المرجع نفسه .

كما تعتبر مقدمة كتابه مقدمة رائعة في الميثودولوجي « علم المناهج » ونذكر جزءاً منها ، حيث يقول : إنما صدق القائل : « ليس الخبر كالعيان » ؛ لأن العيان هو إدراك عين الناظر عين المنظور إليه في زمان وجوده ، في مكان حصوله ، وبهذا يفضل الملاحظة أو العيان عن الخبر . فالخبر ليس صادقاً بالضرورة ؛ إذ كثيراً ما يلحقه التحريف أو الزيف والكذب عن قصد أو غير قصد » .

وللبيروني كتاب آخر بعنوان « الآثار الباقية عن القرون الخالية » يبدو فيه إثنولوجيّاً يتحدث عن التواريخ التي تستعملها الأمم ، والاختلاف الواقع في الأصول التي هي مبادئها ، والفروع التي هي شهورها وسنوها ، والأسباب الداعية لأهلها. إلى غير ذلك ، كما يتحدث عن الأعياد المشهورة ، والأيام المذكورة للأوقات والأعمال وغيرها ، مما يعمل عليه الأمم[1] دون بعض .

ابن جبير :

جاء كتاب ابن جبير الذي سمي باسمه « رحلة ابن جبير » ثمرة رحلات ثلاث قام بها ، أهمها رحلة استغرقت ثلاث سنوات ، ويعد هذا الكتاب « رحلة ابن جبير » سجلاً شاملاً لكل ما شاهد وعاين من عادات وقيم وثقافات البلدان التي زارها وطوّف بها ، وهو يسجل ما حدث في رحلته يوماً بعد يوم ، لا يترك شاردة ولا واردة مما رأى وعاين إلا كتب عنها وسجلها .

ولا يقتصر ابن جبير على الوصف بل كان ناقداً ومحللاً لما يكتب ويسجل ؛ فهو يعرض بحسّ الناقد الخبير المسلم ما علق بالدين الإسلامي من بدع وخرافات وأباطيل ليست من الإسلام في شيء. وقد وصف مكة المكرمة والبيت العتيق وأبواب الحرم الشريف ، وصفاً رائعاً وصل إلى غاية الإبداع والموضوعية .

زار ابن جبير الاسكندرية والقاهرة ،و التقى بالعلماء والأئمة ، وشاهد الآثار الإسلامية بالقاهرة ، كما زار العراق وسورية وصقلية وغيرها ، وكانت أعماله تدل

---

(١) « قصة الأنثروبولوجيا مرجع سابق ، ص ٤١

على سعة إطلاعه وعمق خبرته بالشئون والأحوال السياسية والاجتماعية والأخلاقية ، التي كانت سائدة في تلك الحقبة من الزمن . وقد استرعت رحلات ابن جبير اهتمام المستشرقين لقيمتها العلمية .

كان ابن جبير من الإثنوجرافيين المسلمين العرب ، الذين اهتموا في رحلاتهم بتسجيل ثقافة البلدان التي زاروها تسجيلاً ينم عن أصالة فهم ، ودقة وعي ، وإحاطة بطبيعة تلك المجتمعات[1] .

التراث السياسي والاقتصادي والأخلاقي :

في التراث العربي مجموعة من ذخائر الكتب التي تتعلق موضوعاتها بالسياسة والاقتصاد وما يرتبط بهما من أدبيات اجتماعية وأخلاقية عامة . فكتب السياسة تهتم ببيان العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وما يجب على الطبقة الحاكمة والسلطان ، وما يترتب على الطبقة المحكومة أو الأفراد من حقوق وواجبات . وما ينبغي أن يكون عليه « المواطن الصالح » من وجهة نظر الإمام الحاكم . وكتب الاقتصاد والمال – وأهمها كتب الخراج والحسبة – تبين الوضع الاقتصادي للدولة آنذاك ، وتكشف عن المهن والصناعات ، والطبقات الشعبية ، وسائر الأصناف والطبقات التي تخص هذه المهن أو الصناعات ، وعاداتها وأوضاعها الاجتماعية . وكذلك فإن الكتب التي تتعلق بالأخلاق العامة (للرعية الصالحة) تحتوي جملة من المفاهيم والقيم الاجتماعية التي كانت سائدة في تلك العصور .

التراث العلمي

وثمة طائفة كبرى من العلوم التراثية ، عُرفت باسم (العلوم العقلية) تفرقة لها عن العلوم الشرعية والنقلية ، كما عرفت أيضاً باسم العلوم الحكمية ، أو علوم الفلسفة والحكمة ، وهى تشمل أربعة أنواع : المنطق ، الرياضيات ،

---

(١) « قصة أنثروبولوجيا » مرجع سابق ، ص ٤٢ ، ٤٣

الطبيعيات ، الإلهيات . ومنها العلوم التي تتناول المُغَيبات من المرئيات والمسموعات ، التي وصفها ابن خلدون في مقدمته بأنها « كلها موجودة في عالم الإنسان ، لا يسع أحداً جحدها ولا إنكارها » .

ومن الجدير بالذكر أن هذه العلوم جميعاً ليست من العلوم المشروعة في الإسلام ، ومعظمها مستحدث بعده ، وما هي إلا « كالمصائد لأهل العقول المستضعفة. وقد ولع بها الخواص وأذاعوها بين الملوك والسوقة لهذا العهد »[1] ، كما يرى ابن خلدون أن هذه العلوم حقيقة واقعة ، وقد ذكر السحر في القرآن الكريم ، غير أن ممارسة هذه الأمور كلها – كما يقول ابن خلدون – مهجورة من جميع الشرائع لما تنطوي عليه من « كفريات وشرك » ولما تنطوي عليه من الضرر .

وقد وقف ابن خلدون من هذه العلوم « المحظورة » موقفاً نقدياً ، فرصدها وأخضعها للنقد الموضوعي وأفرد لها جانباً كبيراً من مقدمته . كما درسها ونقدها كثير من العلماء .

ومهما كانت النتيجة من هذه الدراسات لهذه العلوم ، فإن ما ينبغي لنا أن نعيه هو ألا نقف منها – من الفولكلور أو المأثورات الشعبية – موقف الرافض لها بداية جملةً وتفصيلاً ، دون دراستها وإخضاعها للدرس العلمي والموضوعي ، قبل أن نتسرع بإصدار الأحكام المتسرعة المبتسرة أحياناً[2] .

وغني عن الذكر ، أن مثل هذه المؤلفات لم يعد له قيمة علمية تذكر ، ولكن تبقى لها قيمتها الفولكلورية .

التراث الفروسي

ولا شك في أن الفروسية العربية أصيلة في العرب ، بطولةً ورياضة ، قبل

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١ /٥٤٠

(٢) انظر فهرست ابن النديم

الإسلام وبعده ، ولذلك ظهرت الكتب الكثيرة التي تعني بالخيل وأنسابها ، (ولهم في ذلك قصص أسطوري تعليلي رائع) . كما كتبوا عن تقاليد الفروسية العربية وأخلاق الفرسان وبطولاتهم. . (مثل السير الشعبية) كما كتب العرب عن رياضة الصيد بالخيل وبالصقور والجوارح (البيزرة) ، وكتبوا عن السيوف والسهام والرماح ، وسائر أنواع السلاح ، وأدوات الفروسية ولوازمها (كالسراج واللجام.) مما يعتبر ذا قيمة علمية بالنسبة للحرف والصناعات الشعبية ، كما كتبوا في أنواع الخيل واختيارها وأمراضها وعلاجاتها (علم البيطرة) .

وانعكس ذلك كله على الإبداع الأدبي ، فبقي لنا تراث أدبي شعبي رائع يتعلق بعالم الفروسية العربية ، والحرب ، والحماسة ، والصيد ، والرياضة. ومن هنا تنشأ أهميته لدى المهتمين بالتراث والفولكلور .

وهناك عدد آخر من الأسماء الإسلامية ، التي بلغ أصحابها القمة في سبق الأفكار ، والتجوال في الفيافي والأقطار ، بغرض طلب العلم ونشره ، ومجالسة أعلامه من ناحية ، ودراسة الأقاليم وعادات الأمم وقيمها وثقافاتها ، من ناحية أخرى ومن هؤلاء الإمام الشافعي والحافظ ابن عسكر ، وأبو بكر بن العربي وغيرهم .

وكان هذا التجوال لأن الرحلة في الإسلام لابد منها في طلب العلم ، لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ، والتلقي عن الرجال ؛ فالرحلة في الإسلام لها آدابها ومقاصدها وصفاتها التى ألزم المسلمون أنفسهم بها .

وقد دعا العلماء الأنثروبولوجيون الجدد ، مثل د : أحمد أبو زيد ، إلى قراءة جديدة - من جوانب عديدة - لما كتبه أجدادنا في هذا المجال ؛ بهدف الوصول إلى نظرة متكاملة إلى مناهج البحث في الأعمال التراثية ، والمبادئ العقلية التي كانت تحكم تلك الأعمال ، وإمكانية الاستفادة منها ومن المبادئ ، في إقامة فكر عربي جديد ، يسترشد بجهود المفكرين السابقين ،

مثلما يسترشد بالفكر العربي المعاصر[1] .

ذلك لأن مهمتنا الآن ليست إبراز السبق العربي على الغرب في هذا المجال ، في اكتشاف وابتداع المفاهيم النظرية ، كما فعل العلامة ابن خلدون في مقدمته ، عندما جمع بين المادة الإثنوجرافية والنظرية معاً .

لكن فهمنا يتطلب الكشف عن الجوانب المنهجية المشتركة بين هؤلاء الكتاب ، والفحص الدقيق لأعمالهم التراثية ، التي اتخذوا من معارفهم وتربيتهم الدينية أساساً لها ، وهذا ما دعا الدكتور توفيق الطويل إلى التنبيه على حقيقة هامة وهي أن « الحياة العقلية عند الشرقيين كانت أوثق اتصالاً بحياتهم الدينية منها بالتفكير الفلسفي الخالص ؛ فقد امتزج هذا التفسير بالتفكير الديني في شتى عصور الإنسانية ، حتى ليمكن القول ، بأن كل محاولة تهدف إلى الفصل بينهما تنتهي - لا محالة - إلى العجز عن فهم كليهما »[2] .

---

(١) (٢) « قصة الأنثروبولوجيا » مصدر سابق ص ٤٦ ، ٧٢

التخلف الفكري والانتكاس الحضاري من أسباب الاستعمار الحديث

تبيَّن لنا في هذه الدراسة ، أن علم الإنسان « الأنثروبولوجيا » وأحد فروعه « علم الفولكلور » ، ليس بالعلم الغريب عن العرب ، من ناحية المنشأ ، فقد سبق العرب الأوربيين في اكتشاف الثقافات الأخرى ، ووصفها ، ومقارنتها ، وسبر غور العلوم الطبيعية والاجتماعية ومنهاجها العقلية التجريبية . فمنذ القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي ، كان العرب هم « عباقرة الشرق » كما يصفهم العالم والمؤرخ جورج سارتون ، وكانت اللغة العربية هي لغة العلم البشري[1] .

ويفسر ما حدث بعد ذلك المؤرخ « جمال الدين الشيال » فيتحدث عن موقف الأوربيين الذين بهرتهم أنوار الحضارة الإسلامية ، بعد أن رجعوا من هزيمتهم في الحروب الصليبية ، فأخذوا معهم مفاتيح تلك الحضارة فتفرغوا يقتبسون من لآلئها ، وينقلون آثارها وساعدتهم عوامل متعددة لكي يسيروا بالحضارة في طورها الجديد على طريقة جديدة ، تعتمد أكثر ما تعتمد على التفكير الحر وعلى الملاحظة والتجربة والاستقراء ، مما مهد السبيل لكشوف علمية جديدة ، مهدت لحضارة القرنين التاسع عشر والعشرين .

كان الأوربيون يفعلون هذا ، في حين كان الشرق قد اتخذ لنفسه ، أو اتخذ له القدر ، أسلوباً آخر من الحياة .

ويؤكد لنا المؤرخ الشيال عدم انقطاع الصلات بين الشرق والغرب ، منذ ظهور الإسلام حتى بعد خروج الصليبيين . إلا أن التخلف الفكري والانتكاس الحضاري الذي وقع بعد الحروب الصليبية جعل أوربا تفكر جدياً في غزو هذا

---

(١) نقلاً عن د / حسين فهيم « قصة الأنثروبولوجيا » ص ٢٥٧ وما بعدها .

الشرق الضعيف ، وبخاصة بعد المرض الذي أصاب الدولة العثمانية . وقد بدأ الغرب استعماره للشرق بالحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨

وبالرغم من اعتراف مفكري أوربا بتأثيرات التراث العربي في الحضارة الأوروبية فقد ساد اتجاه نحو طمس هذه الحقيقة التاريخية أو التقليل من شأنها ؛ ومن ثم تتابع الاستعمار الأوربي للعالمين العربي والإسلامي ، مؤكداً عجز العرب والمسلمين عن الابتكار والإبداع ، والإسهام في ركب الحضارة ؛ ومن ثم أتت عوامل التغريب ، لتجرف معها النخبة المثقفة من العرب والمسلمين لتبتعد عن تراثها وتراه عبئاً ثقيلاً وتتجه إلى الحياة على الطريقة الغربية[١] .

---

(١) المصدر السابق نفسه .

المسلمون والمعرفة الأنثروبولوجية والفولكلورية الموجهة لخدمة أغراض الحرب

استخدم الرسول الكريم المعرفة الأنثروبولوجية في فك ارتباط تحالف أعدائه[1] ضد جماعة الإسلام في غزوة الأحزاب ، دون أن يكون اسم الأنثروبولوجيا ومضمونها معروفاً لديهم آنذاك .

كذلك نرى الآن أن المعرفة الأنثروبولوجية قد استخدمت في الحرب الحضارية غير المباشرة ضد الإسلام ، منذ انتهاء الحروب الصليبية وأثنائها أيضاً . ومن أبرز أعمالها الحملات الاستشراقية والتبشيرية لسلب المعرفة من جهة ، وإحداث التغيير المنشود في الفكر والثقافة الإسلامية والنظم الاجتماعية من جهة أخرى .

ذلك لأن التغيير في عقائد المسلمين وتشويه معرفتهم بأمور دينهم ودنياهم ، أمر ابتدأ منذ بداية الدعوة الإسلامية وقد رأينا – وسنرى – أن أعداء الإسلام استطاعوا تفكيك عرى الإسلام اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وثقافياً ، وبمعنى آخر استطاعوا أن يفعلوا الكثير عن طريق تقدمهم في المعرفة بهذا العلم .

ويعتبر أكبر إنجاز لهم في هذه الحرب الحضارية ، وهو تفتيتهم لعناصر الوحدة الثقافية والاجتماعية والدينية والسياسية ، التي كان عليها حال الأمة الإسلامية أيام الحروب الصليبية ، والتي كانت السبب المباشر في ردهم على أعقابهم خاسرين ؛ لأن الأمة الإسلامية حينئذ كانت تعاني من ضعف في نسقها السياسي والثقافي ، ولكن أدرك الأعداء أنه عندما يداهمها الخطر في عقر دارها كانت تسارع إلى تصحيح نسقها السياسي وجبهتها الداخلية ، وتستعيد قوتها ،

(١) سيف الدين الكاتب ، (الأوائل في حضارة الإسلام) ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ط٣ ، ١٤٠٦/ ١٩٨٦م . والحرب النفسية في الإسلام : نعيم بن مسعود ، ص١٦ .

وترد أعداءها .

كانت هذه الوحدة الثقافية والاجتماعية والسياسية[1] بين أقطار العالم الإسلامي ، من أكبر العوامل في صنع الشخصيات التاريخية التي كانت تسارع الخطى للرد على حملات تشويه العقيدة أو تشويه المفاهيم الإسلامية ، أو أي جانب من الجوانب التي تشكل خطراً على المجتمع الإسلامي وعلى عقيدته وعلى وحدة صفوفه الاجتماعية والاقتصادية .

وقد استعرضنا بعض ما حققه أعداء الإسلام أنثروبولوجياً من استطاعتهم تفكيك عرى وحدتنا الثقافية وجوانبها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.ويجب أن ندرك ، بوضوح ، أن ما أخذ منا أنثروبولوجياً ، لا يمكن رده إلا أنثروبولوجياً .

وسنحاول أن نعطي القارىء صورة عن استخدام مثل هذا العلم في أيام فتح الأندلس تحت عنوان « دور التجسس في فتح الأندلس » .

وقد تمت هذه الفتوحات في العقد الأخير من القرن الأول الهجري ، وكانت تعبر عن حدث جليل في سجل فتوحاتنا الإسلامية الباهرة . وإلى جانب عامل التخطيط الذي أسهم - بشكل واضح - في صنع أسباب النصر ، فإن عوامل المعرفة الأنثروبولوجية في صفوف الأعداء ، كان لها دور كبيرفي تحقيق عوامل النصر هذه ، ويمكن أن تدخل تحت اسم « الحرب النفسية في الإسلام » .

كانت المعركة الرئيسية الأولى في فتح الأندلس بين المسلمين بقيادة طارق ابن زياد والقوطيين بقيادة الإمبراطور لذريق . ومن طبيعة الحرب أن يسعى كل فريق ليعرف إمكانيات الآخر ، فاستغل المسلمون وجود عناصر في جيش لذريق ، تحقد عليه لأنه استولى على ملك أبيهم ، وأخذوا يتعرفون عن طريقهم على خفايا الجيش القوطي .

---

(١) أبو خلدون ساطع الحصري - دراسات عن مقدمة ابن خلدون . مكتبة الخانجي القاهرة ودار الكتاب العربي بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٣٧٨هـ ، من صفحة ٦٣ وما بعدها .

وبالمقابل أرسل لذريق جاسوساً ليتعرف على أحوال المسلمين ، الذين عرفوه لكن لم يكشفوه ويقبضوا عليه ، بل استفادوا منه – دون إرادته – أحسن استفادة ، فأظهروا أمامه أنهم قوم متوحشون ، فكانوا يتظاهرون بأنهم يقطعون لحوم الأسرى الموتى ، ويضعونها في القدور ويغلي فيها الماء . وفي الليل ، تُستبدل لحوم البقر والضأن ، خلسةً ، بلحوم الموتى الآدميين ، ثم يدعى الناس إلى الطعام ! ! وفي الوقت نفسه ، سرت بين الناس إشاعة أحكم صنعها طارق ابن زياد وهي أن المسلمين قد أحرقوا سفنهم حتى لا يكون لهم أي أمل بالعودة إلى إفريقيا .

عاد الجاسوس إلى القوط ولذريق ، يحكي لهم ، والرعب يملؤه ، كيف أن المسلمين يأكلون لحوم البشر ، ويحرقون سفنهم ، وأنهم أقسموا أن لا يتراجعوا ، وأن ليس أمامهم إلا الموت أو الفتح . لا شك أن الجزع والهلع الشديد قد تمكنا من أفراد جيش لذريق ، مما ساعد على تحطيم معنوياتهم ، إلى جانب تخلخل تركيبة هذا الجيش بسبب حقد أبناء الملك السابق – كما ذكرنا –[1] .

وهناك أمثلة أخرى في التاريخ ، تبين لنا كيف يمكن الاستفادة من معطيات معرفة الشعوب ودخائلهم في تحقيق الأهداف المطلوبة .

ولا نغفل عن أهمية نوع من الأدب الشفاهي وهو الإشاعة وما تلعبه من دور في الحرب النفسية بين الأطراف المتنازعة سواء في الماضي أو الحاضر .

ومع تقدم التكنولوجيا فقد كان لذلك تأثيره في وسائل الحصول على المعرفة الأنثروبولوجية لخدمة أغراض الحرب وأعمال التجسس عن طريق الأقمار

---

(١) دور التجسس في فتح الأندلس – الشرق الأوسط – العدد ٣٥٠٧ – ١٩٨٨ . وانظر : د / عبد الحليم عويس « قصة إحراق طارق للسفن بين التاريخ والأسطورة » – نشر دار الصحوة بالقاهرة ، ١٩٨٨م .

الصناعية واستخداماتها لأعمال التجسس وقد أصبح لها في العصر الحديث دور هام في الحصول على المعرفة الأنثروبولوجية لخدمة أغراض الحرب .

ومن الاستخدامات المعاصرة للمعرفة الأنثروبولوجية ، لجوء الدول الاستعمارية إلى الاستعانة بعلماء الأنثروبولوجيا من أجل تحقيق أهدافها الاستعمارية ضد الشعوب والمجتمعات الإسلامية ، وكذلك ضد الأقليات الإسلامية في بعض الدول الغربية ، وأقرب مثال على ذلك ما يجري في بلغاريا من استعانة الحكومة البلغارية بعلماء الأنثروبولوجيا لبلغرة المسلمين فيها ، ومحاربة الثقافة الإسلامية[1] .

---

(١) جريدة المسلمون، العدد ٧٥ ذو القعدة ١٤٠٦ هـ « السلطات تستعين بعلماء الأنثروبولوجيا لبلغرة المسلمين » .

الأنثروبولوجيا والحروب الصليبية والاستعمار القديم

مع حدوث الاحتكاك بين الشرق والغرب في بداية الحروب الصليبية ، عام ١٠٩٦م على منطقة المشرق العربي ، تدفقت إلى الشرق جماعات من الأوربيين ، إما على شكل منصرين ، أو حجاج لبيت المقدس ، أو لأهداف سياحية أو استكشافية فكان مما دونوه من روايات لها قيمة إثنوجرافية كبيرة ، رغم ما خالطها من نظرة ذاتية طبعت أثرها على الأحكام التقويمية .

وقد شجعت مثل هذه الحملات على نمو الاهتمام بالشرق ؛ مما مهد للتوغل بعد ذلك .

وبلغ الاحتكاك الثقافي ذروته في الحرب ضد المغول ، بقيادة جنكيز خان ١١٦٢ - ١٢٢٧م التي نشبت لصد هذا الزحف المدمر ، حتى تقهقرت جيوش المغول حوالي ١٣٣٤م ، ثم توغل الغرب تدريجياً صوب الشرق[1] .

وحول توطيد أوجه الاتصال والتفاهم بين الشرق والغرب ، بعد تراجع المغول نحو الشرق ، ومن أجل بناء الجسور مع أهل الشرق ؛ تخوفا من احتمال أن يعاودوا الكرة ويقوموا بهجمة شرسة أخرى ، كانت رحلات (نيكولاي بولو) وأخيه (ماثيو) عام (١٢٥٤ - ١٣٢٤) التي قامت - رغم طابعها الاستكشافي والتجاري - بدور سياسي كبير[2] وهمزة وصل بين الشرق والغرب .

وقد تم استخدام المادة الأنثروبولوجية لأهداف استعمارية أول مرة عام (١١٨٢ - ١٢٥٢) عندما تصدر أعمال الفرنسيسكان مدونات الإيطالي جون

(١) د. حسين فهيم (قصة الأنثروبولوجيا) ، ص ٦٠

(٢) المرجع نفسه ، ص ٦١

دي بلانوا كاربيي (JCARPINI) الذي حمل تكليفا بابويا بالتوجه إلى بلاد التتار ، ليصف تقاليدهم وعاداتهم ؛ بقصد إنجاح عمليات التنصير فيما بعد .

إن مثل هذا التكليف ، الذي تكرر فيما بعد واتسع ، له أهميته التاريخية في مجال التعرف على أساليب وطراز حياة شعب معين ، والوقوف على تقاليدهم وعاداتهم ؛ بقصد تحقيق تغير مقصود في العقيدة والنظم الاجتماعية لديهم وهوأول ربط بين الإثنوجرافية والأهداف العملية .وقد أصبح الآن تخصصاً هاماً من تخصصات الأنثروبولوجيا ، يعرف بالأنثروبولوجيا التطبيقية .

كما انتهجت الكنيسة الرومانية خلال القرن الثالث عشر الميلادي منهجا استعمارياً يفرض التنصير على بقاع كثيرة كالصين وبعض مناطق أفريقيا بعد أن منعهم مسلمو المغرب والجزائر من اختراق أواسط أفريقيا .

هذا وقد تمت في عصر النهضة الأوربية عدة استكشافات جغرافية لبلاد وشعوب خارج أوربا ونتج عن المعلومات التي كتبت عن تلك الشعوب تغير جذري في الفلسفات القائمة حينئذ عن البشر والحضارة وطبيعة المجتمع الإنساني وتطوره[1] .

(١) المصدر السابق ص ٦٣

صناعات الإنسان وارتباطها بعمليات التغير الاجتماعي عند ابن خلدون

يعرف ابن خلدون الحضارة بقوله :

« والحضارة الكاملة تفيد عقلاً ؛ لأنها مجتمعة من صنائع في شأن تدبير المنزل ،ومعاشرة أبناء الجنس وتحصيل الآداب في مخالطتهم ، ثم القيام بأمر الدين ، واعتبار آدابها وشرائطها . وهذه كلها قوانين تنتظم علوماً ، فيحصل منها زيادة عقل . والكتابة من بين الصنائع أكثر إفادة لذلك ؛ لأنها تشتمل على العلوم والأنظار بخلاف الصنائع . وبيانه ، أن في الكتابة انتقالاً من الحروف الخطية ، إلى الكلمات اللفظية في الخيال ؛ ومن الكلمات اللفظية في الخيال إلى المعاني التي في النفس ذلك دائماً ، فتحصل له ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات ، وهي معنى النظر العقلي الذي يكسب العلوم المجهولة ، فيكسب بذلك ملكة في التعقل يكون زيادة تحصيل ، وتحصل به قوة فطنة »[١] .

أما من حيث تعريف مفهوم الصناعة كما جاء في مقدمة ابن خلدون فهو :

« الصناعة[٢] هي ملكة في أمر عملي فكري ويكون - عملياً - جسمانياً محسوسا . لأن الأحوال الجسمانية المحسوسة نقلها بالمباشرة أَوْعَب وأكمل حيث المباشرة في الأحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة ، والملكة صفة راسخة تحصل من استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى ، حتى ترسخ صورته . وعلى نسبة الأصل تكون الملكة أوعب وأتم من نقل الخبر والعلم. إلخ » .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، دار العودة فصل « الصنائع تكسب صاحبها عقلاً » .
(٢) المرجع نفسه . فصل « الصنائع لابد لها من المعلم .

وقد درج في عصر ابن خلدون على تسمية العلوم بالصناعات وقد بين ابن خلدون فضل الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة فإن فيه مزيدافي كمال التعليم وقد رأى ابن خلدون في ذلك تحقيقاً للموضوعية في طلب العلم والتمكن من ملكته نتيجة استيعاب اختلاف الطرق والاصطلاحات وتميزها فيجرد العلم عنها ويعلم أنها سبل تعليم وطرق توصيل فتنهض بذلك قواه إلى الرسوخ وتصحيح معارفه وتستحكم ملكته وتقوى من جراء المباشرة والتلقين .

كما أعطى ابن خلدون في مقدمته أهمية للدين وبين أثره العميق في نفوس العرب وسلطانه على قلوبهم .

نوعية الحضارة مرتبطة بنوعية صناعاتها

هناك علاقة وثيقة بين شكل الحضارة وأشكال صناعاتها[1] . وعند ابن خلدون تأخذ أعمال الإنسان وسعيه شكل صناعات وهو يعتبر الكتابة من جملة الصنائع وقد بين الأشكال المختلفة لهذه الصناعات وأنواعها ، وربط متغيراتها بحالة الحضارة ومتغيراتها .

وقد أوضح ابن خلدون ، في مقدمته ، ثلاث حالات للحضارة : حالة الحضارة البدائية ، ثم حالة الحضارة الكاملة ، ثم حالة الحضارة المفرطة في العمران ، وقد وصف كل حالة من هذه الحالات . فقد بين أنه في الحضارة البدائية تكون الصناعات بسيطة وغير مركبة ، بينما تكون الصناعات مركبة في الحضارة الكاملة .

وفي الحضارة البدائية تكون الصناعات غير مستجادة وغير مؤنقة ، بينما تكون هذه الصناعات في المجتمعات ذات الحضارة الكاملة مستجادة ومؤنقة .

وفي الحضارة البدائية ، تكون الصناعات كلها ضرورية . أما في الحضارة

(١) مقدمة ابن خلدون – دار العودة فصل ٢٠ – ص٣٢٠ وفصل ١٧ – ص٣١٨ .

الكاملة المتقدمة فتكثر الصناعات الكمالية . ومن أمثلة الصناعات الضرورية في المجتمعات البدائية البسيطة : النجارة ، الحدادة ، الخياطة ، الحياكة ، الجزارة. . إلخ . وهي كلها ، في تلك المجتمعات ، وسائل إلى غيرها ، وليست مقصودة لذاتها . بينما نجد أن هذه الصناعات البدائية ذاتها ، في مجتمعات الحضارة الكاملة تُستجاد إلى درجة كبيرة ، ويعتني بها ، ويبالغ فيها إلى درجة تخرجها عن كونها ليست مقصودة لذاتها[1] ، وذلك في حال « تمكن العمران البشري من أهله ، حيث تزيد الصناعات مما يدعو إليه عوائد الترف » إذ تنشأ صناعات جديدة مثل : المباني ، تنجيد الفرش ، صوغ الآنية ، إقامة الولائم والأعراس. . إلخ .

وقد وصف ابن خلدون الصنائع بأنها مما هو مختص بالأفكار التي هي من خصائص الإنسان والتي يتميز بها عن غيره من المخلوقات كالحيوان . وقد جعل الصنائع بجانب العلوم والسياسة ، حيث يقول في معرض تقسيمه للصنائع إلى ما هو ضروري أو غير ضروري :

« وتنقسم الصنائع إلى ما يختص بأمر المعاش ، ضرورياً كان أم غير ضروري ، وإلى ما يختص بالأفكار ، التي هي خاصية الإنسان من العلوم والصنائع والسياسة[2] .

ويعتبر ابن خلدون أن تعليم العلم من جملة الصنائع التي تدخل في دائرة الكمالات في العمران الحضري ، حيث لا توجد في المجتمعات البدائية ، لكون هذه المجتمعات تقتصر على الصناعات الضرورية للعيش .

وفي حالة استبحار العمران ، أو خروجه عن الحد ، وما يمكن أن نسميه حالة إفراط الحضارة[3] والترف والتفنن في الحضارة ، تبلغ أصناف هذه الصناعات النهاية ، فيصبح فيها الكثير من الكمالات ، ويبلغ التأنق فيها الغاية . ويرى ابن خلدون

---

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) المصدر نفسه ، « فضل الصنائع لابد لها من المعلم » .

(٣) المصدر السابق فصل « الحضارة غاية العمران » ص ٤٢٨

أن فائدتها تكون من أعظم فوائد الأعمال ، لما يدعو إليه الترف في المدينة ، ومن أمثلة هذه الصناعات في عصره : الدهّان ، والصفّار ، والحمامي ، والطباخ ، والسفاح ، والهراس ، ومعلم الغناء والرقص وقرع الطبول على التوقيع ، والوراقين. . وغيرهم .

ثم يذكر ابن خلدون أنه قد يبلغ الترف في الأمصار أو المدينة إلى حد الابتعاد عن الاشتغال بالأمور الفكرية ، إلى أن يخرج عن الحد إذا كان العمران خارجاً عن الحد ، مثل تعليم الطيور العجم والحمر الإنسية ، وتخيل أشياء من العجائب ، وتعليم الحداء والرقص والمشي على الخيوط ، ورفع الأثقال من الحيوان والحجارة ، وغير ذلك من الصنائع .

وقد بين ابن خلدون أيضاً ، حالة كساد العلم في حالة « إفراط الحضارة » هو بسبب نفاق العلم ، وانغماس الناس بالترف والتأنق ، والاهتمام بفنون الوشي في عصره . وواضح من هذا أن العلم يخرج ، في هذه الحالة ، عن نطاق غاياته ومقاصده ، ويخرج عن نطاق القيم الأخلاقية[1] التي يجب أن ترتبط به وبحضارته ؛ أي تنفصل هذه العلوم ، باعتبارها وسائل ، عن غاياتها التي شرعت لها . ومن المعروف أن العصر الذي عاش فيه ابن خلدون كانت الحضارة العربية والإسلامية فيه تعاني من حالة الضعف ؛ لما بلغته هذه الحضارة من حالة الإفراط في الرفاهية والانشغال في أمور الترف والتأنق في الصناعات بمفهوم عصره ، والانغماس في ألوانها ونجد ابن خلدون ، عندما يأتي على ذكر أنواع العلوم الواقعة في عصره ، قد قام على ذكرها جميعها ، النافع منها والضار ، بسلبياتها وإيجابياتها . فقد ذكر علم الطب وعلم الهيئة والأزياج وعلم القرآن والتفسير والقراءات. وغيرها من العلوم النافعة ، كما أتى على ذكر علم السحر والطلسمات وعلم الفلسفة اليونانية[2]. وضررها على العقيدة الإسلامية .

---

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) المصدر نفسه ، فصل ٢٥ ، ص ٤٣٨

ومن هذا نستنتج العلاقة الوثيقة بين حالة الحضارة وحالة الصناعات ونوعيتها التي عادة ما تكون في تلك الحضارات .

لم يذم ابن خلدون الحضارة الناتجة عن العمران البشري . بل العكس ، فإنه يعترف بأن التعليم والصنائع في الحضارة ، تزيد الإنسان ذكاءً في عقله ، وإضاءة في فكره ، فيكون متحلياً بالذكاء ، ممتلئاً بالكيس ، حتى إن البدوي ليظنه أنه قد فاته في حقيقة إنسانيته وعقله ؛ وما ذاك إلا لإجادته ملكات الصنائع والآداب ؛ إن في الصنائع خاصية الفكر الذي باختلاجه تنشأ العلوم ، وبالعلوم كرم الله الإنسان عن سائر الخليقة أجمعين . فالحضارة لها علاقة وثيقة بالعلم الذي يتم به إعمار الكون ، حيث يعتبرهذا غاية من غايات وجوده .

ولكن. ما نوع الحضارة التي دعا إليها ابن خلدون ، إنها الحضارة التي تكون داخل إطارها القيمي والأخلاقي والإيماني ، التي شرعها الله في كتابه العزيز . قال تعالى : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾ .

وقد بيّن القرآن الكريم مصير الأقوام المترفين اللاهين اللاعبين. . وذم صفات الفجور والفسق والإفساد وكل أخلاق العبث وهدر الطاقات والنعم التي سخرها الله للإنسان ، وبين لنا كيف يعجل له جزاءه أحياناً ، وكيف يؤخره أحياناً أخرى ليوم القيامة ، ليروا مصير دعواهم وسلوكهم .

سنة الله في الأرض :

لقد أوضح ابن خلدون الحالة التي تؤول إليها الحضارة عندما تتطور صناعاتها للنهاية ، ويتحول الأمر إلى مجرد انسياق أهل هذه الحضارة للبحث عن الترف والتأنق والرفاهية ، والإكثار من الكماليات ، وتصبح هذه الأمور غايةً بحد ذاتها ، تأخذ الكثير من وقت الإنسان على حساب تحقيق الغاية من وجوده ، وتأدية طاعاته التي شرعها الله تعالى له .

(١) الأعراف : ٣١

وبمعنى آخر ، فإن هذه الوسائل التي سُخرت له لينعم بها أثناء قيامه بمسؤولياته في هذا الكون كالمأكل والمشرب والملبس والمسكن والترويح عن النفس. تصبح هذه جميعها منفصلة عن الغاية المشروعة من وجودها ، ويصبح تحقيق التأنق والرفاهية فيها غاية للإنسان . وهذا نوع من الانحراف في السلوك الحضاري ، أو ما يسمى بالضلال البشري ، يعمل على تبديد الطاقات التي بين الله تعالى أنها نعم أعطاه إياها سيحاسب عليها ، كالعمر والشباب والعلم والمال. وغير ذلك من الأمانات التي أودعها الله لديه . وهذا ما يسمى بـ « حالة إفراط الحضارة أو شيخوختها » نتيجة الترف في الحضارة ، ومن ثم انفصال وسائل الحضارة عن غاياتها . وبذلك يحق عليها ما حق على الأقوام السابقة والأمم الغابرة التي كان مصيرها الهلاك والانقراض ، وتلك هي سنة من سنن الكون ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وهذا يعني أن هذه الصناعات وعلومها وفنونها بإمكانها أن تكون نقمة على الحضارة الإنسانية فتجعلها تشيخ وتهرم ، وتقرب من أبواب نهايتها ، وهذا ما أراده لنا الاستعمار من تغريبه لصنائعنا وعلومها وفنونها . كما أن بإمكان المجتمع أن يصحح مسيرة حضارته ويقوّم اعوجاجها عن طريق تصحيح نسقه الثقافي والاقتصادي والتكنولوجي الذي يؤثر في نسقه الاجتماعي . وهذا ما كانت تفعله أمتنا كلما داهمها الخطر ، وذلك قبل عملية التغريب الأوربي لكثير من جوانب المجتمع وأنظمته التربوية والتعليمية. ويمكننا أن نقوّم أية صناعة أو علم أو فن لنتبين فيما إذا كان مسجلاً في دائرة الإسلام أم لا كما أشرنا إلى ذلك في الفصل الثاني من هذا الباب (موقف الإسلام من العلوم والفنون) فإذا كانت قائمة على الإيمان والتقوى وخير المجتمع في الدنيا والآخرة فبها ونعمت ، وإلا فإنها تعتبر ضارة للإنسان ولحضارته ، ونجد أن القرآن الكريم ينبه الناس إلى ضرر أمر صناعة السحر ، حيث تقول الآية الكريمة : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ، ما يأتيهم من ذكرٍ من ربهم محدث**

إلا استمعوه وهم يلعبون ، لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم ، أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ﴾[1]

حول تبلور العلوم في العصر الإسلامي

تصنيف العلوم عن ابن خلدون :

لم يترك التراث الإسلامي العلوم في فكر حضارتنا هكذا بدون روابط تنظم مقاييس الفكر ، وتربط وشائجه بروابط تجعله متعاوناً ومنسجماً ، ليؤدي الغرض الذي شرعه الله للإنسان من هذه العلوم ، لتساعد على تحقيق غايات وجود الإنسان في هذا الكون .

فبعد دفاع علماء الإسلام عن عقيدة الإسلام من الشبهات التي دخلت على فكره بسبب الترجمة قام هؤلاء العلماء بطرح تصنيفات العلوم . وقد تأثر ابن خلدون بعلماء الأمة السابقين من عصره أمثال ابن حزم والغزالي وابن تيمية ، فنجد أن العلوم الشرعية (النقلية) وما يرتبط بها بشكل وثيق عنده نوعان :

أولاً : علوم مقصودة لذاتها[2]، كالشرعيات من التفسير والحديث والفقة ، والإلهيات من الفلسفة .

ثانياً : علوم آلية لغيرها ، فهي وسيلة للعلوم المقصودة لذاتها مثل : علوم العربية ، والحساب ، والمنطق للفلسفة. فهذه ربما هي آلة لعلم الكلام ولأصول الفقه .

وقد حث ابن خلدون على توسعة الكلام في العلوم التي هي مقاصد ؛ لأن تفريع المسائل واستكشاف الأدلة والأنظار يزيد طالبها تمكناً من ملكته ، وإيضاحاً لمعانيها المقصودة . بعكس ما هو عليه الحال في العلوم الآلية لغيرها ؛ حيث إن التوسع فيها يخرجها عن المقصود ويصير الاشتغال بها لغواً وتضييعا للعمر ، وذلك

---

(١) الأنبياء : ١ – ٣

(٢) مقدمة ابن خلدون – دار العودة ، فصل ٣١ – ص ٤٤٦

مثل ما فعل المتأخرون في صناعة النحو ، وصناعة المنطق. وغير ذلك .

وقد بين ابن خلدون ، أن الشرع قد نهى عن النظر في الملل الأخرى ؛ للمضرة الحاصلة من ذلك . وهذا النهي خاص بالعامة وأشباههم .

ومن الجدير بالذكر أن من العلوم التي أضرت بالفكر الإسلامي علوم الفلسفة[1] والمنطق اليوناني ، التي تحتوي على العقائد اليونانية البشرية ، وكان إضرارها بالإسلام ؛ لما أدخلت عليه من شبهات عملت على إضعاف عقيدته ، وبث الفرقة والاختلاف بين صفوف علماء الإسلام والمسلمين .

أما حالة العلوم النقلية[2] في عصره وهي المنقولة عن الكتاب والسنة . وقد أوضح ابن خلدون أن العلوم النقلية قد نفقت أسواقها ، وانتهت منها مدارك الناظرين إلى الغاية التي لا غاية فوقها ، وهذبت الاصطلاحات ورتبت الفنون فجاءت من وراء الغاية في الحسن والتنميق ، وكان لكل فن رجال يرجع إليهم في التعليم . وإن تناقص العمران[3] في المغرب جعل هذه العلوم تكسد . وقد بين أسباب كساد العلم ومنها : ترف الحضارة ونفاق العلم .

ثم يقسم ابن خلدون العلوم بشكل عام إلى نوعين :

أولاً : العلوم النقلية ، وهي المنقولة عن كتاب الله وسنة نبيه ، ويلحق بها أصناف علوم اللسان العربي .

ثانياً : علوم حكمية فلسفية ، وهي التي يهتدي إليها الإنسان بعقله وبفكره ، كالطب والكيمياء والرياضيات والهندسة وعلم الهيئة. . إلخ وهي العلوم العقلية .

والعلوم بصفة عامة كان لها أصول قبل الإسلام ولا يمكن أن نطلق على الكثير منها كلمة علوم ؛ لأنها كانت تقتصر على كونها مبادئ ودلالات متفرقة وغير

(١) أنور الجندي « شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي » المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٧٨ – ص ٣٣٣ وما بعدها

(٢) (٣) مقدمة ابن خلدون ، دار العودة ، فصل ٤ ص (٢٣٦ و٢٤٥)

مترابطة ، ومنها ما كان ينفع الفكر البشري من جهة ، ويضره ضرراً كبيراً من جهة أخرى ، كما هو الحال بالنسبة لما كانت عليه أسس الفلسفة اليونانية ، إذ جعلت الفكر البشري آنذاك يسير في حلقة مفرغة ودائرة مسدودة[1] .

وقد جاء الإسلام وورث هذه العلوم من مختلف الحضارات ، وصحح فاسدها ، فنجده قد صحح كثيراً من مباديء الفلسفة اليونانية وانحرافاتها ، واقتصر على الاستفادة من المنطق ، من حيث هو ميزان توزن به الأمور[2] ، كما فعل الغزالي وابن تيمية ، اللذان عملا على تحرير الفلسفة الإسلامية ، التي أصلها من القرآن والسنة الشريفة ، مما دخل عليها من شبهات ، بسبب تغلغل مباديء الفلسفة اليونانية بين علماء الفكر الإسلامي إثر ترجمة آثارها . وكان ابن خلدون قد اطلع على فكر هؤلاء الذين دافعوا عن العقيدة الإسلامية ، وقاموا بتحريرها من الشبهات فاستفادوا من النتائج التي وصل إليها مفكرو الإسلام قبله ، في كتابته لمقدمته . هذا بالنسبة لعلم المنطق والفلسفة الذي كان عليه في الحضارة اليونانية .

أما العلوم الحكمية الأخرى ، التي شملت جوانب الحياة المختلفة ، من طب وفلك ورياضيات وعلم الجغرافيا. فقد أعطاها المفكرون المسلمون من خبرتهم ومن وحي منهجهم القرآني ما جعلها علوماً حقيقية ،فامتلكوها لأنها أصبحت تمثل ثقافتهم وقيم حضارتهم .

وكان المسلمون أول من طبق المنهج التجريبي ، بوحي من كتاب الله ، ومارسوه وأعطوا العلوم المختلفة به تقدماً وثراء كبيراً ، وقد أخذه الغربيون عن المسلمين ، فساعدهم ذلك على مواصلة المعرفة والتقدم بها .

لقد حاولنا فيما سبق أن نعرض للصنائع التي ازدهرت مع تعاظم الحضارة الإسلامية ونموها نحو الحضارة الكاملة حتى وصلت هذه الصنائع إلى غاياتها .

---

(١) (٢) د / علي الوردي (منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته) – الشركة التونسية للتوزيع عام ١٩٧٧ من ص ١٩ – ٥٣ و ص ٢٠٧ ما بعدها .

ثم انقلبت الآية مع اضمحلال حضارتنا هذه ، وما أطلق عليه ابن خلدون حالة (إفراط الحضارة) وفسادها ومن ثم هرمها . وقد عبر عنها ابن خلدون بأن هذه الحال هي نهاية لعمرها .

وقد وصف ابن خلدون حالة العلوم النقلية في عصره ، بأنها وصلت إلى غاياتها وقد أصبح لكل فن رجال ورتبت فنونها على أفضل صورة .

ولكن المغالاة في مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها والتفنن في الترف واستجادة أحواله ، والتكلف في الصنائع التي تؤنّق من سائر أصنافه وفنونه جعل أحوال الأشخاص تفسد لفساد العوائد وطاعتها ، وما تتلون به النفس يجعل الإنسان يفسد في أخلاقه ودينه ومن ثم تفسد إنسانيته[1] وتصبح مسخاً على الحقيقة ، ويكثر الغلاء ، ويعم الكساد ، ويفسد حال المدينة وحضارتها .

وإن مثل هذا الكساد في الحضارة يترك أثره في كساد مثل هذه العلوم ، التي نوهنا عنها كما يقل الطلب على كثير من الصناعات ، ويتتابع الإملاق ، وتموت كثير من الصنائع أو تندثر وتختفي مع ذلك الاتجاه السلبي للحضارة .

وعندما أتينا على ذكر العلوم وأصنافها في عصر ابن خلدون قلنا إن هذا من صميم موضوع الصناعات لأنه اعتبر العلوم – عند تعريفه للحضارة الكاملة – بأنها تفيد عقلا ، وأن الكتابة التي هي علم من العلوم عنده ، هي من جملة الصنائع وهي أكثر إفادة من بين هذه الصنائع لأنها تشتمل على العلوم والأنظار بخلاف الصنائع الأخرى[2].

ومما يؤكد كلامنا هذا أن رسم العلوم عنده في مقدمته كان يطلق عليها صنائع مثل صناعة العربية ، وصناعة المنطق ، وصناعة اللسان ، وصناعة البيان ، (من ٤٤٣ إلى ٤٦٧)

(١) مقدمة ابن خلدون ،دار العودة (فصل في آن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره) ص ٢٩٥

(٢) ارجع إلى تعريف الحضارة لابن خلدون ، المرجع السابق ، فصل (الصنائع تكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب) .

مع العلوم الحديثة باعتبارها متغيرات في حضارتنا :

يقوم الفكر الأوربي الحديث على أساس التنكر للقيم الدينية ، وقد أدخل هذا الجانب في صلب العلوم الإنسانية والاجتماعية المعاصرة ، وساعدته الظروف على أن يشيد صرح هذه العلوم على أساس من مفاهيمه ومعتقداته وأهدافه وغاياته ، متنكراً لعطاء المسلمين في هذا الجانب ، وعمل قدر الإمكان على ربط هذه العلوم بأصول الفلسفات اليونانية القديمة وعقائدها البشرية الهدامة ، ومن ذلك علوم وفلسفات الفن الحديث ، وعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) وعلم الفولكلور ، الذي يتفرع عن علم الإنسان ، الذي يدرس عمليات التغير الثقافي فى أثناء عمليات التأثر بين ثقافة استعمارية غازية وثقافة فولكلورية ذاتية ، وعمليات الاحتكاك الثقافي. وما شابه ذلك .

وحول علم الفن الحديث ، نجد أنه عمل على ربطه بالفلسفات اليونانية القديمة ومقاييسها العقيمة ، وحاول صياغتها صياغة حديثة ، مما أحدث الضعف في فكرنا الفني الحديث . ومن ذلك فصله لمفهوم الفن عن الصناعة ، وتقسيماته التقليدية التي قضت على وحدة الفن ، ومارس هو في الجانب الآخر التقدم الصناعي من أوسع أبوابه ، وحجب عنا ، في الوقت نفسه ، أسرار العلوم الحقيقية ، وفعاليات التقدم الحضاري الصناعي ، المرتبط بالمنجزات العصرية ، التي سلب أساسيات معارفها عن طريق الاستشراق ، ودراساته عن شعوب العالم الثالث والأهم من ذلك أنه قام بتصدير هذه العلوم الحديثة إلينا مرتبطة بدائرة الترف والكماليات وأنواع الرفاهية والاستمتاع .

وكانت عملية إحياء التراث المتعلق بهذه العلوم أو الفنون أو الصناعات ، تتفق مع أيديولوجية ثقافته الحديثة ، التي لا أهمية للقيم الأخلاقية لديها . فنجد أن إحياء التراث مرتبط بتفتيت القيم الدينية والأخلاقية والثقافية ، التي كانت مجتمعاتنا تحترمها وتصونها .

فلم يقتصر الفكر الأوربي أيضاً على مسألة تضليل المفاهيم عن علوم الفن وعلم الفولكلور وغيرها من العلوم ، بل قام بوسائل التحديث المختلفة ، لكي نطور طرازنا في معيشتنا كالمسكن ، كما دعا إلى تطوير عاداتنا وتقاليدنا ، وتطوير أدبنا ، شعره ونثره ، شكلاً وموضوعاً وأسلوباً ، وتطوير ألحاننا وأغانينا ، وتطوير أزيائنا ، نساءً ورجالاً ، وتطوير قيمنا ومثلنا الأخلاقية والاجتماعية ، وتطوير تشريعنا ، بل وتطوير إسلامنا معه[1]. وهذا بهدف تمييع وتفتيت سماتنا وملامح فنوننا التي تمثل حاضرنا المتصل بجانب ثقافتنا الإسلامية الماضية. والغاية من وراء هذه الدعوات الهدامة ، قطع أية صلة بماضينا . وهذا يضاف لأعماله في تغريب وسائل البناء الحديث من علوم وفنون بعد أن جعلها منفصلة عن قيمنا ومقاييسنا ومناهجنا ، لتصبح قوة مستقلة عنا[2] ، وتعمل ضدنا .

وبهذا فقد سعى الغربيون حثيثا لكي تتسارع خطواتنا نحو كل ما يقربنا من الشيخوخة الحضارية ، عن طريق الدخول إلى دائرة الترف والأخذ بالكماليات من صناعاتهم ، وما يمزق من وحدتنا الاجتماعية والسياسية بين أجزاء أمتنا ، من خلال إقبالنا على عمليات التحديث ، والأخذ بالنقلة الحضارية الجديدة .

وما يهمنا في هذا المجال هو هذه العلوم الإنسانية والاجتماعية المعاصرة ، التي بناها وفقاً لحاجاته وأهدافه وغاياته[3] ، بحيث يأخذ بأيدينا إلى ما يقرب من دائرة الاغتراب عن ثقافتنا ، عن طريق التقليد والتناقض العقيدي ، الذي يدخل إلى كياننا شيئاً فشيئاً ؛ لأن مثل هذه العلوم منفصلة عن قيمنا ومقاييس فكرنا

---

(١) د / محمد محمد حسين – حصوننا مهددة من داخلها – المكتب الإسلامي – الطبعة الخامسة ص ٢٢٩

(٢) د / السيد علي شتا – (نظرية الاغتراب) انظر إلى « الاغتراب في النسق الماركسي » الذي يشير إلى حالة الإنسان الذي يعتبر فعله الخاص قوة غريبة عنه ، تفلت منه وتعمل ضده ، وانظر إلى « تعريف الاغتراب عند فروم » عندما تصبح مواريث الشخص غريبة عنه ، تتحكم به وتتسيد عليه ، انظر إلى « تعريف الاغتراب عند فروم »

(٣) الموجز في إسلامية المعرفة ، ص ١٥

وموازينه ، ومرتبطة بفلسفات وعقائد ومقاييس الغرب ، وكلها تمثل شبهات تتسرب إلى معاقل فكرنا الحديث ، الذي يوكل بمسؤولية البناء ، وقد أصبح في طبيعة تكوينه الداخلي يحمل لنا الضعف والخور والضياع الفكري والحضاري ، لأن هذه الفلسفات والعقائد والمقاييس الغربية لا تقوم على مبادئ الإيمان والتقوى ؛ ذلك لأنها أتتنا من خارج بيئاتنا ، فأحدثت الإضرار بفكرنا ، لأنها من صنيعة الاستعمار ، الذي يغير وجهه وسلاحه بين زمن وآخر !

العرب والعلم والإيمان والحضارة

هناك بعض المآخذ على ابن خلدون في مقدمته عند ذكره للعرب والأعراب. وحول هذا نجد بعض الباحثين قد اعتبر ابن خلدون شعوبياً يذم العرب ، وبعضهم الآخر وجد أن ابن خلدون لم يقصد بأقواله المذكورة العرب إنما قصد بها البدو الموغلين في البداوة ، حيث أورد ساطع الحصري(١) قرائن لغوية وتاريخية واجتماعية عديدة لتأييد رأيه ، ولقي رأي الحصري قبولاً حسناً بين الباحثين العرب ، وكانت هذه هي الكلمة التي ذاعت في هذا الشأن .

ويؤكد ذلك علي الوردي ، حيث نجد أن ابن خلدون ، في الفصل الثاني من الباب الثاني في المقدمة ، قد أقدم على تقسيم البداوة ،(٢) إلى درجات ثلاث حسب توغلها في حياة الصحراء ، وبعدها عن خصائص الحضارة ، كما أشار إلى أن العرب هم أكثر من غيرهم توغلاً في حياة الصحراء واختصاصاً بالإبل .

وتوضح دراسة فكر ابن خلدون أنه حين يذكر العرب فإنه لم يقصد بهم البدو بشكل عام ، إنما كان يقصد منهم النموذج الأقصى للبداوة ، وهو النموذج الذي يكون أشد من غيره بُعداً عن خصائص الحضارة ، كالعلم والصناعة والعمران(٣) .

---

(١) د. علي الوردي (حول منطق ابن خلدون) . ص ٨٨ .

(٢)و(٣) المرجع نفسه .

إن هذه على كل حال وجهة نظر لها موقعها ، وقد شاعت في الأوساط الفكرية ، لكن الذي نراه أن ابن خلدون قصد العرب جميعاً ، كما نرى أن نظريته كانت ضيقة لم تنظر في التاريخ العربي الإسلامي كله ، وإنما تأثرت بالعصر الذي عاشه بكل ما كان في هذا العصر من خلل سياسي تَمَثّل أكثر ما تمثل في سقوط الأندلس الكبرى ، وسقوط دولة الموحدين في الأندلس والمغرب ، وانحسار الأندلس الإسلامية في جزيرة غرناطة الصغيرة ، وانقسام المغرب إلى ثلاث دول متناطحة (هي : دولة بنو مرين في المغرب الأقصى ، وبنو زيان في الجزائر ، وبنو حفص في تونس) فضلاً عن تجربته الشخصية المرة في العمل السياسي ، التي كادت أن تودي به في بعض الأحيان .

فمن هذا الجو العام السيء سياسياً وحضارياً ، ومن تجربته الخاصة المرة ، انبعثت نظرية ابن خلدون ؛ إذ كانت تعبر عن الواقع المر والمؤلم الذي كانت تعيشه الأمة العربية والذي كان له تأثيره الكبير فيما اتجه إليه ابن خلدون من آراء شخصية قصد بها العرب .

ومما يؤكد هذه النظرة أن الأستاذ (بوتول) قد وصف ابن خلدون بأنه فيلسوف « انحطاط » ويقول إن نظريته توحي بالكآبة والتكمش ؛ إذ هي نتيجة خبرة في تاريخ انحطاط عاش ابن خلدون في وسطه .

وكذلك مما قاله (جورج سارتون) في هذا أن مقدمة ابن خلدون كتاب ذو نزعة سوداوية . ويرجع كرامر مصدر التشاؤم عند ابن خلدون[1] وأبي العلاء المعري إلى الانحطاط العام الذي هوت إليه الدولة العربية في عصره .

ونلاحظ هنا أن موقف ابن خلدون من أخطاء انحراف الحضارة ، وانحراف سلوك أهلها عن جادة الصواب ، نتيجة الإفراط والمغالاة في الحضارة ، بما يخرجها عن الدائرة الأخلاقية والإيمانية المقترنة بالعلم والتدبير والتقوى. أن ذلك الموقف

---

(١) د / علي الوردي « حول منطق ابن خلدون » ص ١٤٥ - ١٤٦ .

كان منسجماً مع ما جاء في كتاب الله تعالى حول مساوئ الحضارة ومحاسنها ، وكذلك فإن موقف ابن خلدون ، من خلال تجربته مع الأعراب والبداوة ، جاء منسجماً أيضاً مع ما جاء في كتاب الله تعالى حول مسألة الأعراب والمغالاة في التوحش والبعد عن العلم والإيمان والحضارة .

ففي القرآن الكريم آيات تدل على الموقف من العرب والأعراب ، فمن الأعراب من يوغلون في الجهل ، ومنهم من يوغلون بالكفر ، ومنهم عكس ذلك قوم مؤمنون ومسلمون . ونحاول أن نستعرض الآيات الكريمة التي جاءت حول ذلك . لنتبين الأمر :

قال تعالى : ﴿ **وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد** ﴾[1]

قال تعالى : ﴿ **قرآنا عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون** ﴾[2]

﴿ **كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون** ﴾[3]

﴿ **إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون** ﴾[4]

﴿ **وكذلك أنزلناه حكماً عربياً** ﴾[5]

﴿ **وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين** ﴾[6]

﴿ **الأعراب أشد كفراً ونفاقاً** ﴾[7]

﴿ **ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾[8]

---

(١) سورة طه الآية : ١١٣
(٢) سورة الزمر الآية : ٢٨
(٣) سورة فصلت، الآية : ٣
(٤) سورة الزخرف الآية : ٣
(٥) سورة الرعد ، الآية : ٣٧
(٦) سورة الأحقاف الآية : ١٢
(٧) سورة التوبة الآية : ٩٧
(٨) سورة التوبة الآية : ٩٩

﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق ﴾[1]

وهكذا نجد أن الآيات الكريمة قد ذكرت اللسان العربي والأعراب ، وبينت أن منهم الجاهل ، ومنهم من يوغل بالكفر. وهذا توضيح من الله عز وجل بأنه ليس كل عربي منزهاً عن الخطأ وعن الكفر والجهل ، كما يبين تعالى لنا أن عزَّ العروبة بالإسلام ، كما أن عز كل عربي بالعلم القائم على التقوى والإيمان. وأننا بدون العلم والإيمان نكون أقواماً متفرقين جهلاء معرضين لارتكاب أخطاء دنيوية حضارية ، كما هو الحال في احتقار المهن والصناعات ، وهو سلوك جاهل ، وكذلك فإننا معرضون لارتكاب الأخطاء المتعلقة بالآخرة ، كالبعد عن الإيمان والاقتراب من دائرة الكفر .

ونجد في العصر الحديث مصداق ذلك ، فقد فطن المستعمر إلى هذه الناحية ، وحاول أن يعمل بكل الوسائل ليبعد العرب عن الإيمان ، ويفصل الفكر العربي عن الإسلام .

ومع ذلك فإذا كانت هناك مآخذ على ابن خلدون في مقدمته ، فإن علم الاجتماع الخلدوني ؛ على الرغم من هذه المآخذ ، يظل هو أقرب إلى فهم مجتمعنا من أي علم اجتماع[2] آخر ؛ فهو قد نشأ في أكناف المجتمع العربي والإسلامي ، واستمد إطاره من واقع هذا المجتمع وتاريخه .

- الحضارة والقيم الإيمانية :

إن علم الحضارة يقوم على ضرورة الاعتراف بأهمية تأثير مفردات الكل الحضاري داخل البناء الاجتماعي ووظيفته نحو تحقيق مسيرة الحضارة لأهدافها وتكامل هذا التحقيق . ومن بين هذا الكل الاجتماعي تعطي أهمية للأخلاق والقيم

---

(١) سورة التوبة الآية : ١٠١

(٢) د . علي الوردي « حول منطق ابن خلدون .. » ص ٢٩٨

الإيمانية التي تلعب دوراً هاماً في توجيه صناعات الإنسان وأعماله واستخدامه لأشيائه نحو الغايات العليا من وجود الإنسان في هذا الوجود ، وهذا واضح في مفهوم الحضارة عند ابن خلدوون بينما نجد أن الغرب قد تنكر أو أضعف من قيمة ذلك في الحضارة المعاصرة عندما تنكر للقيم الدينية وأعطى اهتمامه الكبير للجوانب المادية في الحضارة .

وإن إهمال الحضارت لتلك القوانين أو السنن المتصلة بالإيمان وما يتعلق بها من قوانين الأخلاق. . إن مثل هذا يسير بالحضارة نحو الضعف والاضمحلال ، من جراء إصابتها بالأمراض الحضارية التي يتسبب عنها ترهل الحضارة أو جمودها أو تراجعها إلى الخلف أو موتها .

وكما ذكر المفكر جودت سعيد فإن « قوانين الإيمان وأوامر الشريعة ونواهيها ، مثل قوانين الفيزياء والكيمياء ، ليس لنا من الحرية أن نخالفها إلا كما لنا من الحرية أن نقذف بأنفسنا من علو مائة متر. . متحدِّين القوانين الفيزيائية أو شرب السم متحدين القوانين الكيميائية »[1] .

إن مخالفة الحضارة للقواعد والقوانين الإيمانية لابد أن تؤثر سلباً في مسيرة الحضارة ويعوق تقدمها .

وحول أهمية القواعد الإيمانية التي بينها التشريع الإسلامي ، والتي تخّول الإنسان انتسابه لهذا الإسلام في قوة إيمانية أو ضعف هذا الإيمان وهذا الإسلام ، فتبين لنا الآيات القرآنية ذلك بقوله تعالى : ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم ، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ، إن الله غفور رحيم** ﴾[2]

---

(١) جودت سعيد « العمل .. قدرة وإراده » دمشق – دار الثقافة للجميع ، ١٩٨٠ ، ص ١٤٦
(٢) الحجرات الآية : ١٤

الباب الثاني

الفصل الأول

النهضة الأوربية وتطور المعرفة الأنثروبولوجية والفولكلورية

تطور علم الأنثروبولوجيا وتخصصاته

رأينا سابقاً أن للأنثروبولوجيا جذورها التي تمتد إلى عصور قديمة إلا أن البدء باتخاذ هذا العلم شخصيته المستقلة الأكاديمية والمتخصصة مع بلورة موضوعاتها ومناهجها المميزة ، كان قد تم في القرن التاسع عشر .

وقد ساهم في توجيه الأنثروبولوجيا وإخراجها على النحو الأكاديمي والمهني[1] ، العديد من المؤثرات الفكرية والأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، إلى جانب أعمال وإسهامات نخبة من العلماء والمفكرين في شتى المعارف ذات الصلة بالطبيعة البشرية والحياة الإنسانية .

كانت الاحتياجات والجهود تتجه نحو إبراز علم شامل لدراسة الإنسان ؛ بحيث لا يتم الاكتفاء بدراسة ناحية واحدة ، أو مظهر واحد من مظاهر أو نواحي حياته الجزئية والمعقدة ، كالاقتصاد أو السياسة ، أو أن يقتصر اهتمامه على دراسة تكوينها الفيزيقى فحسب ، وإنما يحيط بكل خصائصه ومقوماته البيولوجية والاجتماعية والثقافية ، سواء في الماضي البعيد أم الماضي القريب أم في الوقت الحاضر .

أهم أحداث القرن التاسع عشر :

بدأ القرن التاسع عشر في ظل أجواء هامة ، يعتبرها بعض المفكرين بمنزلة ثورات تداخلت آثارها ، وانعكست على الفكر الاجتماعي والأنثروبولوجي ، تلك هي الثورة الفرنسية (١٧٨٩ - ١٧٩٩) والثورة الصناعية التي كانت قد بدأت في أواخر القرن الثامن عشر ، وأيضاً الثورة العلمية الثقافية التي شهدت طفرات كبيرة في مجالات وأماكن متعددة بأوربا .

وقد ركزت مبادئ الثورة الفرنسية على أهمية الإنسان وحريته وكرامته[2] ، كما حملت معها فكرة التقدم ،فقد تمخض عن الثورة الصناعية

---

(١)و(٢) د / حسين فهيم (قصة الأنثروبولوجيا) ص ١١٦ - ١١٧ .

الانتقال إلى عصر الآلة ، واستغلال الطاقة والموارد ، والاتجاه نحو التصنيع. ونتج عن هذا كله أن اتسعت القاعدة الاقتصادية ، وازدهر التبادل التجاري ، وظهرت الرأسمالية الحديثة ونتيجة لذلك ، تمت الدوافع نحو التوسع الإقليمي ، وجلب الموارد الطبيعية من خارج أوربا للاستخدام الصناعي ، وفتح أسواق عالمية للمنتجات الأوربية . وقد أدى ذلك كله ، إلى دفع حركة الاستعمار خطوات كبيرة ، خاصة خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، حيث سعت الدول الكبرى وراء فتوحات جديدة ، وما إن حلت سنة ١٩٠٠م حتى كانت الحضارة الأوربية تبسط ظلها على معظم أرجاء المعمورة .

واعتقد الأوربيون – وهم يسيرون في زحفهم المظفر عبر القارات الأخرى – أن الفضل في نجاحهم يرجع إلى تفوق أنظمتهم ودينهم وثقافتهم[1] .

أما الطفرة العلمية في القرن التاسع عشر ، وما صاحبها من تقدم تقني أوربي ، فقد تطلبت أيضاً تحولاً في ذهن هذا الإنسان ، فيما يختص بالاتجاهات والمعتقدات . ويرى بعض علمائهم أن العادة قد جرت ، خلال العصور الأقدم ، أن تتدرج الأبحاث الفلسفية ، مبتدئة من معطيات مجردة ، على اعتبار أن ذلك من التراث الفكري الرفيع . وظلت هذه المعطيات بعيدة عن العالم المادي ، مترفعة عنه ، شأنها في ذلك شأن إنسان هذا العصر ، الذي رأى في نفسه مخلوقاً فوق غيره من المخلوقات ، وكائناً في العالم لكنه ليس منه . كما يرى أحد العلماء أيضاً ، أنه يجدر بنا اعتبار القرن التاسع عشر أول قرون العصر العلمي .

وقد تقبل أئمة الفكر في أوربا ، وحدانية نظام الطبيعة ، وأن الإنسان نفسه يشكل جزءاً في ذلك النظام ، ويخضع لسننه وحدوده .

لكن الحركة العلمية المادية ، لم تؤثر في عقلية الأوربي في بدايات القرن

---

(١) المرجع السابق ص ١١٨ .

التاسع عشر ؛ حيث سادت النزعة الرومانتيكية ، بما تضمنته من اتجاه خيالي وعاطفي في النظر إلى الأشياء ، كما بسطت هذه النزعة سيطرتها على الأدب .

إلا أن هذه الحقبة الرومانتيكية[1]، سرعان ما تداعت ، مع بدايات النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بسبب سلسلة من التطورات السياسية والحركات الثورية ، وظهور القوميات التي سرعان ما سادت في جميع أنحاء أوربا ، وظهر ما يسمى تاريخياً بـ « الثورة الثقافية » التي تأثرت بطبيعة الازدهار المادي المتصاعد ، الذي أثر بدوره في المعيار الذي يقاس به التقدم والارتقاء ، وأصبح تفكير العصر خاضعاً لتعاليم المادية العلمية والرؤية الواقعية ، كما تضاءلت هيبة رجال الدين والفلاسفة .

لقد كان من مظاهر تداعي الحقبة الرومانتيكية ، التحول إلى الفلسفة الوضعية ، والفن الواقعي ، وكان لذلك أثره في دراسات الإنسان والمجتمع .

وتعتبر دعوة أوجست كونت ، خلال الربع الثاني من القرن التاسع عشر ، ذات أهمية خاصة ؛ لأنها دعت لإنشاء علم وضعي لدراسة شؤون الاجتماع الإنساني ، وهي تمثل واحدة من أهم الاتجاهات الفكرية ، لأنها كانت بمنزلة علاج لحالة الفوضى السياسية والأخلاقية والعقلية التي سادت المجتمع الفرنسي ، منذ قيام الثورة الفرنسية ، حتى الفترة التي كتب كونت دروسه الوضعية .

وقد كان لظهور كتاب عالم الطبيعة والأحياء « تشارلز دارون » أهمية فكرية ، حيث كان له أثره الواضح في دراسات الإنسان والمجتمع ، على حدٍ سواء ، وذلك في عام ١٨٥٨م وكان الكتاب بعنوان « أصل الأنواع وتطورها بالانتخاب الطبيعي » .

بعد ذلك فكر دارون[2] أن يطبق نظريته هذه على الإنسان ، فانكب على

(١) المرجع نفسه ص ١٢١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

المعلومات والحقائق التي جمعها ، وراح يرقبها ويوازن بينها ، ويستخلص النتائج . ولكن برزت له وللذين قبلوا نظريته ، مسألة الحلقات المفقودة في التاريخ الطبيعي للإنسان ، كما برز كثير من الثغرات في المعلومات ولم يكن لديهم سوى الحدس والتخمين عند مقارنة تركيب أجسام الحيوانات الحديثة .

وكان من أبرز نشاطات الحركة الأنثروبولوجية في أوربا الاتجاه إلى تسجيل تراث أوربا وفولكلورها ، إذ أخذت المتغيرات الفكرية والاقتصادية والاجتماعية تعمل على تفتيت مظاهر الحضارة القديمة وتحيلها إلى متاحف التاريخ ، وهذا ما سنتكلم عنه فيما بعد .

دور الجمعيات والمتاحف والمجلات العلمية :

كان للجمعيات العلمية دور هام كمنتديات لبلورة الفكر الأنثروبولوجي ودفعه نحو التخصص المهني والاستقلالية . ففي هذه الجمعيات ، كان يجتمع رجال الفكر والسياسة وعلية القوم ، الذين استطاعوا بأموالهم تمويل كثير من البحوث ، وتبنى المشاريع العلمية والدراسات الأكاديمية[1] .

كان المهتمون بالدراسات الأنثروبولوجية أعضاء عاديين في جمعيات ثقافية عامة ، قبل أن تقام جمعيات أنثروبولوجية متخصصة . ويذكر مؤرخو الأنثروبولوجيا أن أول جمعية مهنية متخصصة وجهت جهودها إلى الدراسات الأنثروبولوجية قد أنشئت في باريس عام ١٨٣٩م تحت اسم « جمعية ملاحظي الإنسان » وكان من بين أهدافها القيام برحلات خارج أوربا لاستطلاع عدة موضوعات أنثروبولوجية .

أخذت الموضوعات الأنثروبولوجية تستحوذ على اهتمام الناس عامة في بلاد أوربا الغربية والولايات المتحدة . وبالنسبة لأوربا فقد تمثل الاهتمام ، على الصعيد الداخلي ، بتسجيل تراث أوربا وجميع مظاهر حضارتها الماضية ، أي

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٤ .

فولكلورها القديم ، وذلك إثر النهضة التكنولوجية والاجتماعية الحديثة ، التي عملت على تفتيت كل شيء قديم .

وتكونت عام ١٨٤٢م الجمعية الأمريكية الإثنولوجية ، ثم أقامت بريطانيا ، في العام التالي ، جمعيتها الإثنولوجية ، التي تحولت فيما بعد إلى المعهد الملكي الأنثروبولوجي لبريطانيا العظمى وإيرلنده . ويعتبر هذا المعهد أكبر مدرسة للفكر الأنثروبولوجي في بريطانيا . كما أنشئت في بريطانيا « رابطة تقدم العلوم » عام ١٨٤٦م ومثيلتها في أمريكا ، التي تكونت عام ١٨٥٢م ، وكان لها دور كبير في عرض القضايا والمسائل الأنثروبولوجية ومناقشتها ، كما عززت الاتجاه القائل بإمكانية قيام علم مستقل ومتخصص في تلك القضايا .

ثم تعدت شعبية الأنثروبولوجيا إلى مدن أخرى ، مثل : موسكو ومدريد وبرلين ، ووصلت تلك الجمعيات ، في عام ١٨٧٠ ، إلى حوالي ٤٠ جمعية إثنولوجية .

كما نشأت الدوريات العلمية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، في كل من أوربا وأمريكا . فقد صدرت في انجلترا « مجلة الإنسان » التي أصدرها – ولا يزال – المعهد الملكي الأنثروبولوجي ، إضافة إلى الجرائد اليومية . وقد كان لهذه الدوريات الثقافية دور هام في إحاطة الناس العاديين علماً بما يجري من حوار علمي حول قضايا الإنسان . كما نجد أن الحكومة الأمريكية ، في سعيها نحو التعامل مع قبائل الهنود الحمر ، والعمل على استقرارها ، في المستوطنات التي أعدتها لهم ، قد أنشأت عام ١٨٧٩م مكتب الإثنولوجيا الأمريكية .

وقامت الجامعات والمتاحف بالدور نفسه في إطار التطلعات الأكاديمية لهذا العلم الجديد ، كما كان للمتاحف وظيفة هامة خاصة بالنسبة للدراسات الأركيولوجية و الأنثروبولوجيا الطبيعية ، وفي هذا نجد أن جامعة هارفارد تربط برنامجها بإقامة متحف للأركيولوجيا والإثنولوجيا بأمريكا .

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى الاهتمام الكبير لكثير من الجمعيات والجامعات وحكوماتها ، بتكريس ميزانية جيدة للعلوم الاجتماعية وبعثاتها لدراسة الإنسان في مجالاته المختلفة .

ثم دخلت العلوم الإنسانية والأنثروبولوجية إلى مجال دراسة الإنسان في المجتمعات الصناعية الحديثة وكثير من مجالات المعرفة ، في أوربا الغربية : كما تمتع الأنثروبولوجيون الأمريكيون بإمكانات هائلة ، ومنح عديدة ، واعتمادات مالية ضخمة أدت لإنشاء كليات العلوم الاجتماعية ، التي تدخل في نطاقها أقسام الأنثروبولوجيا وما يستتبع ذلك من منح الدراسات التي تندرج في إطار الأنثروبولوجيا الثقافية[1] .

وبالنسبة للجمعيات ، فقد ظل بعضها قائماً حتى وقتنا الحالي ١٩٨٥م بينما اختفى بعضها الآخر أو عدل تكوينه أو اسمه . فمثلاً نجد أن الجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية ، التي أنشئت عام ١٩٠٢م ، لا تزال قائمة ، وقد عقدت في عام ١٩٨٤ اجتماعها الثالث والثمانين بمدينة دينفر بولاية كولورادو[2] .

دور الرحالة والمبشرين :

إن المعلومات الوصفية والأنثروبولوجية ، التي قدمها الرحالة والمبشرون عن المجتمعات البدائية خلال القرن التاسع عشر ، والتي كانت تفيد المفكرين والباحثين في تكوين نظرياتهم وتدعيمها بالأمثلة والأدلة ؛ تختلف عن المادة الأنثروبولوجية التي جمعها الباحثون فيما بعد .

فمن صفات تلك المعلومات ، أنها لم تَخْلُ من التحيز الثقافي والانطباعات الشخصية لهؤلاء الرحالة والمبشرين ، أثناء تقديمهم وصفاً للتقاليد والعادات

---

(١) د / زكي محمد إسماعيل (الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي) ص ٢٢٦ .

(٢) د. حسين فهيم (قصة الأنثروبولوجيا) ص١٢٥ .

للشعوب والأقطار التي زاروها . ويذكر د . أحمد أبو زيد أنه كان هناك بعض الرحالة الذين اتصفت كتاباتهم بالجدية والأحكام الدقيقة والبعد عن المغالاة ، مثلما فعل آندرو باتل مثلاً ، عندما وصف الكونجو . كما ذكر أن العديد من الأسماء هم ملاحظون جيدون ورجال صابرون ، وأنهم قدموا دراسات أنثروجرافية تستحق الإعجاب في المنهج ومن بين هؤلاء الألماني كلابوت ، الذي نشر عام ١٨١٢ وصفه عن « العلاقات بين السلالات القوقازية والجورجية في الاتحاد السوفيتي » وكذلك الرحالة السويسري لويس بوكهارت الذي كتب عن رحلاته في سورية وفزان والعالم العربي والتي استغرقت عشر سنوات من عام ١٨١٩[1] .

ويرجع تقدم الإثنولوجيا في القرن التاسع عشر إلى ارتباطها الوثيق بما يقدمه الرحالة من معلومات وما كان يصل إليه المفكرون أو الفلاسفة من نظريات . وكما كانت ملاحظات الرحالة تعتبر مصدراً قيماً للمعرفة ، فقد كان للمعلومات الواردة من المبشرين والحكام الإداريين بالمستعمرات ، أهمية كبيرة أيضاً . وحول ذلك الارتباط يذكر إيفانز - بريتشارد أن النظريات الأنثروبولوجية قد أثرت تأثيراً واضحاً في كتابات الرحالة والمبشرين والإداريين على حد سواء . ويقول أيضاً : إنه لم يكن هؤلاء الكتاب من المبشرين والحكام يكتفون بمتابعة المشكلات النظرية التي كان يثيرها العلماء بالاطلاع عليها ، وإنما كانوا يتصلون ، في كثير من الأحيان ، اتصالات مباشرة بأصحاب هذه النظريات أنفسهم . ولقد أصبح المألوف أن يرسل العلماء من أوطانهم قوائم تحوي أسئلة عن المعلومات التي يريدون الحصول عليها إلى الاشخاص المقيمين بين الشعوب البدائية ليجيبوا عنها . ولعل أكثر هذه القوائم شمولاً وشهرة هي « مذكرات واستفسارات عن الأنثروبولوجيا » التي نشرت عام ١٨٧٤م ، والتي بدأ المعهد الملكي الأنثروبولوجي في عام ١٩٤٩ إصدارها في طبعات جديدة .

---

(١) د / حسين فهيم ، المرجع السابق ص ١٣٠ - ١٣١ .

الأنثروبولوجيا والاستعمار :

ذكرنا سابقاً شيئاً عن الثورة الآلية ونشوء الرأسمالية والنهضة الفكرية والعلمية وما تضمنته من حقوق الإنسان التي تداخلت فيما بينها . فإلى جانب تقدم المعرفة الإثنولوجية والأنثروبولوجية وتقدم تحصيل المادة المدروسة على ضوء ملامسة الواقع ، كذلك نجد أن الرأسمالية ودوافعها التوسعية الاستعمارية تسببت في نشوء اتجاه قوي وممارسة فعلية لاستخدام المعرفة الأنثروبولوجية لخدمة غايات الإدارة الاستعمارية . وهذا الارتباط بين البحث الاجتماعي عامة ، وبين الأهداف العملية للسلطة الاستعمارية ، قد عبر عنه بوضوح عدد كبير من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا خلال القرن التاسع عشر .

وقد تمت الإشارة إلى المؤتمر الدولي الذي نظم في باريس عام ١٩٠٠م الذي تناول موضوع « علم الاجتماع الاستعماري » وكان من بين أهدافه « دراسة المسائل الأخلاقية والمجتمعية المرتبطة بحركة الاستعمار » وبشأن هذا المؤتمر يكتب محمد وقيدي في كتابه القيم « العلوم الإنسانية والأيديولوجيا » فيقول :

« إن الحركة الاستعمارية كانت عندئذ في حاجة إلى البحث عما يدعم هيمنتها ، وإلى معرفة الخطوط العامة للسياسة التي يمكن أن تحافظ على هذه الهيمنة . ويمكننا أن نقول بهذا الصدد بأن العلاقة كانت جدلية بين المعرفة الاجتماعية باعتبارها نظريةً ، وبين السياسة الاستعمارية باعتبارها واقعاً مجتمعياً تاريخياً ، فالسياسة هنا تمد المعرفة بموضوعها وبالاتجاه الذي ينبغي أن تسير فيه ، والمعرفة تمد السياسة بالمعطيات التي تساعدها على تنفيذ مشروعها ، وعلى تبرير مشروعيتها ، كما تمدها بصيغة للتعبير عن أهدافها . لقد بدأت الهيمنة الاستعمارية تدرك أن حكم « الأهالي » لا يستقيم إلا بمعرفة مجتمعية للغاتهم ، وعاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم والعلوم الاجتماعية الاستعمارية وأنه بهذه المعرفة الضرورية تحافظ على هيمنتها وتضمن استمرار هذه

الهيمنة »[1] .

بحوث ونظريات تدعم الفكر الاستعماري :

تعتبر نظرية التطور ، وانعكاساتها على التأليف في مجال الحقائق والنظريات الأنثروبولوجية ؛ هي بحد ذاتها نوعاً من الاستعمار الفكري ، وتشكيكاً بالحقائق التي تبني عليها العلوم في مجتمعاتنا وما يتمثله الشباب المقبل على التعليم والنهضة الفكرية والحضارية ، وكل ما يتعلق بفكرته عن الأسرة والزواج والدين ونشأة الإنسان .

« ومنذ بداية القرن التاسع عشر ، وخلال ثلاثة عقود تقريباً ، ظهرت تباعاً عدة مؤلفات إثنولوجية لمفكرين من فرنسا وانجلترا وألمانيا وأمريكا. كلها من واقع النظرة المادية للحياة والكون ، مثل كتاب لويس مورجان عن « المجتمع القديم » في عام ١٨٧٧م والجزء الأول من كتاب جيمس فريزر (١٨٥٤ – ١٩٠١) الشهير بـ : « الغصن الذهبي » و « دراسة في السحر والدين » عام ١٨٩٠م وكانت هذه المؤلفات تهتم بالدراسة الوصفية والتحليلية المقارنة للثقافات الإنسانية . وقد تركز هذا الاتجاه حول ما عرف تاريخياً باسم « التطورية الثقافية »[2] .

وفيما يلي إيضاحات أكثر عن المدرسة التطورية ، وطبيعة موضوعاتها ، من خلال حديثنا عن المدارس الفكرية التي تتابعت أثناء رحلة الأنثروبولوجيا التكوينية وهي كالتالي :

المدرسة التطورية :

قام التطوريون بالتركيز في دراساتهم على نظم الزواج والأسرة والدين[3] ،

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٢ .

(٢) د / حسين فهيم (قصة الأنثروبولوجيا) ص ١٣٣ .

(٣) د / عبد الحميد لطفي (الأنثروبولوجيا الاجتماعية) دار المعارف بمصر ، ١٩٧٤ ، ص ١٩٧ .

وكان من أصحاب المدرسة التطورية في علم الإنسان « لويس مورجان » (١٨١٨ - ١٨٨١م) وهو من العلماء الأمريكيين الذين لهم نصيب وافر من الدراسات الأنثروبولوجية ، وقد تأثر فكره عن تطور التاريخ البشري بفكرة تطور الحيوان .

ومع أن دارون كان قد قدم نظريته في إطار مبادئ علم الطبيعة والأحياء والتشريح فإن غالبية المفكرين الاجتماعيين ، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، قد تراءى لهم إمكانية تطبيق فكر دارون عن التطور الحيوي ، على الإنسان والمجتمعات البشرية[١] . وكان من أول دعاة نظرية التطور هربرت اسبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣) .

ومن أبرز من كتب في هذا إدوارد تايلور ، حيث عرض في أحد كتبه عام ١٨٦٥ نظريته عن التطور الثقافي للمجتمعات الإنسانية ، التي تستند إلى فكرة التقدم الإطرادي للشعوب والثقافات ، وانتقالها من حالة الهمجية أو البدائية ، التي رآها متمثلة في المجتمعات غير الغربية حينئذاك إلى حالة التحضر والمدنية لأوضاع الثقافة والمجتمع الأوربي في عصره . وكان فكره يصطبغ بصبغة مادية .

وكان إدوارد تايلور (١٨٣٢ - ١٩١٧م) من الأساتذة الكبار في هذه المدرسة ، حيث تولى أستاذية أول كرسي أنشيء في جامعة أكسفورد ، وقام بزيارة المكسيك لهذا الغرض ، وكانت آراؤه متفقة مع مورجان الأمريكي في مبدأ التتابع الحضاري ، ومسألة تطور ظاهرتي الزواج والأسرة . ودرس تايلور تطور ظاهرة الدين والعقيدة[٢] حسب مفهومه الخاطئ كما نادى بعالمية العقائد الدينية ، وألف كتابين في هذا العلم .

ومن الأسماء اللامعة في المدرسة التطورية جيمس فريزر .

(١) د / حسين فهيم (قصة الأنثروبولوجيا) ص ١٣٤ .

(٢) د / عبد الحميد لطفي (الانثروبولوجيا الاجتماعية) ص ١٢٦ .

ولا شك أن أعلام هذه المدرسة ، قاموا بخدمة العلم من ناحية ، ولكنهم أساءوا لهذا العلم بخلطه مع الفلسفات والتخمينات الفرضية من ناحية أخرى . فقد تأكد للباحثين خطأ أفكارهم حول نظامي الزواج والأسرة ، فهما موجودان في كل المجتمعات البدائية دون استثناء ، وليس أدل على خطأ دراساتهم من اختلاف هؤلاء العلماء التطوريين أنفسهم حول النتائج التي توصلوا إليها ؛ ذلك لأن دراساتهم لم تقم على أساس علمي تجريبي ، معتمد على الدراسات الميدانية ، فكان مورجان وفريزر يحصلان على ما يريدان من بيانات عن طريق إرسال قوائم الأسئلة إلى الأصدقاء والمعارف المقيمين هناك بحكم عملهم في المجتمعات البدائية .

كما أن معظم كتاباتهم كان فيها تحيز واضح يفترض أن المجتمع الأوربي يمثل قمة التقدم وقد أكد بعض المفكرين أن هذا الاعتقاد قد دعم استعمار الشعوب ، وأسبغ عليه صفة الشرعية .

لقد لقيت هذه المدرسة الكثير من النقد على المستوى الأكاديمي لأن أساس الحقائق أو الوقائع الاجتماعية[1] يجب عدم تفسيرها وتحليلها إلا في إطار المناهج والقوانين الاجتماعية لا البيولوجية ، وهذا ما اضطر إلى الدعوة إليه علماء الاجتماع المعاصرون في تلك الفترة .

وقد أفادت هذه المدرسة العلم من ناحية كشفها لمسألة تباين الثقافات ، وهذا مما دفع كثيراً من الباحثين إلى دراسة المجتمعات غير الأوربية ، بقصد التحقق من الفروض التي طرحتها فكرة التطور ، مما نتج عنه الاهتمام بالملاحظة ، والتحقق الشخصي للعادات والتقاليد ، وعدم الاعتماد على المصادر الثانوية ، أو المادة التي جمعت بطريقة غير منهجية .

ومن مكاسب ذلك نشوء منهج الدراسة الحقلية الذي يعتبر ركيزة أساسية

(١) د / فهيم (قصة الأنثروبولوجيا) ص ١٣٢ .

للاتجاه الأنثروبولوجي في دراسة الثقافات الإنسانية .

كما أن توضيح مسألة تباين الثقافات البشرية ، قد مهّد لظهور نظرية « النسبة الثقافية »[1] .

لقد كان لمعلومات هذه المدرسة ، التي طرحتها عن الدين والزواج والأخلاق ، وما يتعلق بثقافة الشعوب وتطور فنونها ، أثرها في تشويه ترابط الأمور الثقافية المختلفة بالنسبة لفكر شبابنا ، الذي أتيحت له فرصة الاطلاع على مثل هذه العلوم ، من الكتب الأجنبية أو الدراسة في الخارج . كما كانت تلك المعلومات سبباً في إعاقة استفادة مجتمعاتنا من هذا العلم ، بما يمكنهم من الاستفادة منه في التحكم بتوجيه عمليات التغير الاجتماعي والنقلة الحضارية ،التي أقبلت أغلب المجتمعات في العالم عليها بحكم التأثر الحضاري بالمتغيرات الجديدة .

المدرسة الانتشارية الثقافية :

بحثت هذه المدرسة في مسألة اختلاف الثقافات البشرية ، وكيفية انتشارها ويتفرع من هذه المدرسة ثلاث مدارس ، بحثت في مسالة الانتشار الثقافي ، وتعريفات مفهوم الثقافة . منها المدرسة الأمريكية ، والمدرسة الانجليزية والمدرسة الألمانية[2] .

والثقافة عبارة عن « نسيج الأفكار والقيم والمثل والمهارات والأدوات وأساليب التفكير والعادات ، والمؤسسات التي يعيش فيها الفرد »[3] .

وكثيراً ما نجد اختلافاً واضحاً في تركيز العلماء على جوانب دون أخرى

---

(١) تعني النسبية الثقافية ، أن لكل مجتمع أسلوباً معيناً للحياة ، يتوافق مع البيئة ونظم القيم والعادات السائدة ، مما يجعل أسلوب الحياة ونوعيتها مسألة نسبية ، إذ ليس من الضروري أن يتصف كل ما هو غير أوربي ، بالبدائية أو الهمجية أو الوحشية . المرجع السابع ، ص٢٠٩،١٢٣ .

(٢) د / عبد الحميد لطفي (الأنثروبولوجيا الاجتماعية) ص ١٢٢ إلى صفحة ١٥٥ .

(٣) د / زكي محمد اسماعيل (الأنثروبولوجيا و الفكر الإسلامي) ص ٢١٦ .

في تعريف مفهوم الثقافة .ويجب ألا يغيب عن ذهننا أن كثيراً من هذه التعريفات هي للتصدير إلى العالم الثالث من أجل طمس المعرفة في مفهوم الثقافة الحقيقي ، كما سنرى ذلك أيضاً في مفاهيم الفولكلور ومحتوياتها التي وضعها بعض العلماء الأوربيين لمقاصد استعمارية. فمنهم من ركز على الجوانب الشفاهية التي لا تبين ، وحدها ، جوانب الحضارة ، علماً بأن مفهوم الثقافة ومفهوم الفولكلور متصل كل منهما اتصالاً كاملاً بمفهوم الحضارة ذلك الكل الذي يجمع ترابط الجوانب المختلفة ويتلاحم فيه الجانب المادي مع الجانب المعنوي والجانب الفكري مع العملي .

وقد « اختلفت المدارس الثلاث في آرائها حول طريقة الانتشار ، إلا أنها اتفقت كلها في التركيز على الانتشار كعامل في بناء الحضارة ، كما أنها اتفقت أيضاً في معارضتها لمدرسة التطور الحضاري ، في أنها تعتبر التاريخ هو العامل الأساسي لتفسير المظاهر الحضارية ، وأن أية حضارة لا يمكن فهمها إلا إذا عرف تاريخها أو أمكن تخيله على الأقل »[1] .

ولا يفوتنا أن نذكر ، في هذا المجال ، أن كثيراً من النظريات التي ثبت خطؤها العلمي ، أصبحت تدرس في بعض علومنا على أنها حقائق مسلم بها ، كما هو الحال في نظرية الجنس عند فرويد ، وغيرها من النظريات العلمية التي استهلكها الغرب .

المدرسة البنائية الوظيفية :

إن من أبرز علماء هذه المدرسة « راد كليف براون » و « مالينوفسكي » اللذين قاما بتنبيه الأذهان إلى التحليل الوظيفي للظواهر الاجتماعية . وقد سبقهم علماء آخرون روّاد في هذا المجال ، وعلى رأسهم « هربرت اسبنسر » الذي اعتبر المجتمع كائناً عضوياً ، كما اعتبر تطوره بذلك امتداداً للتطور العضوي ،

---

(١) د / عبد الحميد لطفي (الأنثروبولوجيا الاجتماعية) ص ١٥٥ .

وأن اختلافه البنائي كلما زاد وتعقد ازداد وتعقد بالتالي الاعتماد الوظيفي المتبادل بين أعضائه[1] . كما نجد العالم الفرنسي دوركايم قد توسع في استخدام هذا المفهوم ، وركز على اصطلاح الوظيفة بالذات ، في تحليله للظواهر الاجتماعية في كتبه .

إن المبدأ الوظيفي قد تحاشى تجزئة النسق الاجتماعي من أجل دراسته ، بالإضافة إلى ضرورة دراسته داخل الوسط الاجتماعي ككل ، ومن أبرز النواحي التي أصبحت تميز بين الأنثروبولوجيا في القرن العشرين والإثنولوجيا في القرن التاسع عشر ، الجمع بين الدراسة المكتبية والدراسة الميدانية .

يعرف مالينوفسكي الحضارة ، بالنسبة للاتجاه الوظيفي ، بأنها تمثل كل ما يحتويه المجتمع من عقائد ومبادئ وعادات وأدوات ، تكون في مجموعها الجهاز الكلي الذي يوجد فيه الإنسان ، في وضع لابد معه أن يكيف نفسه داخله لكي يحقق حاجاته الضرورية .

« وإذا كان معظم الأنثروبولوجيين في كتاباتهم ، يتحدثون عن البناء الاجتماعي على أنه فكرة حديثة العهد ، فالواقع غير ذلك ؛ لأن هذه الفكرة ظهرت منذ منتصف القرن التاسع عشر فقد ظهرت في كتابات « مونتسكيو » في كتابه « روح القوانين » والتي تظهر فيها فكرة النسق الاجتماعي على أساس أن مظاهر الحياة الاجتماعية تؤلف فيما بينها وحدة متماسكة متسقة ، وذلك عندما تحدث عن القانون وعلاقته بالتركيب السياسي والاقتصادي والدين والمناخ وحجم السكان والعادات والتقاليد والعرف ، مما يشكل في جوهره مضمون « البناء الاجتماعي » . وقد ظهرت نفس الفكرة في كتابات سان سيمون وأوجست كونت ولويس مورجان وقد شبه هربرت اسبنسر المجتمع بالكائن العضوي[2] » .

---

(١) د / عبد الحميد لطفي (الأنثروبولوجيا الاجتماعية) ص (١٥٩) .

(٢) د / زكي محمد اسماعيل (الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي) ص (٢٢٨) .

البناء الاجتماعي يولد مع الفرد ولا يموت معه :

ويفسر دوركايم طبيعة حياة الأفراد في المجتمع على أساس أنهم « يعيشون في نفس الإطار من النظم القانونية والسياسية والاقتصادية ، وكل هذه الأشياء تؤلف بناء له درجة معينة من الثبات والاستقرار ، بمعنى أنه يستمر في الوجود فترات طويلة من الزمن يحتفظ خلالها بأهم مقوماته التي تنتقل من جيل إلى جيل . أما الفرد فإنه يمر فقط خلال ذلك البناء الذي يجد نفسه فيه . فالبناء لن يولد معه ولن يموت بموته[1] .

ويرى رادكليف براون مثل هذا ، فعند حديثه عن الحياة الاجتماعية يقول : « إننا إذا نظرنا إلى أحد المجتمعات كقبيلة إفريقية أو استرالية ، أمكننا أن نلاحظ وجود بناء اجتماعي لها ، والأفراد هم وحداته في ارتباطهم في كلّ متماسك بعدد من العلاقات الاجتماعية ، وتظل عملية استمرار البناء الاجتماعي ، كما هو الحال في البناء العضوي ، فهو لا يعني بالتغيرات التي تحدث في الوحدات ؛ فالأفراد قد يتركون المجتمع عن طريق الموت أو غيره من الطرق ، كما قد ينضم إليه أفراد جدد . ولكن مع هذا تتحقق عملية استمرار البناء عن طريق عملية الحياة الاجتماعية ، التي تتكون من النشاط والتفاعل بين الأفراد عن طريق الجماعات المنظمة التي تجمع بينهم[2] » .

الجانب الوظيفي في البناء الاجتماعي :

يرى رادكليف براون أن مفهوم الوظيفة هو مساهمة النشاط الجزئي في النشاط الكلي فوظيفة أية قاعدة اجتماعية هي ما تساهم به هذه القاعدة في الحياة الاجتماعية ككل ، كعملية وظيفية للنسق الاجتماعي كله . وعلى ذلك يصبح للنسق الاجتماعي طبيعة موحدة هي ما يطلق عليه « الوحدة الوظيفية » التي

---

(١) د / زكي محمد إسماعيل (الأنثربولوجيا والفكر الإسلامي) ص (٢٢٩) .

(٢) د / عبد الحميد لطفي (الأنثروبولوجيا الاجتماعية) ص (١٧٧) .

يمكن تعريفها بأنها الوضع الذي يتميز بعمل كل أجزاء النسق الاجتماعي معاً ، مع الاحتفاظ بدرجة كافية من الانسجام أو التماسك الداخلي ، أي دون أن يوجد صراع لا يمكن حله أو تنظيمه وقد أمكن قيام علم خاص بالأمراض الاجتماعية ، يهتم بكل مظاهر الخلل الوظيفي .

إن وجهة نظر المدرسة الوظيفية ، أنها توضح ثانوية دور التطور التاريخي في دراسة الحضارة ، وأنه بدلاً من الرجوع إلى التاريخ يجب أن ندرس الحضارة في وجودهما في فترة زمنية ، وليس في حدود نموها التاريخي أو التطوري ، وأن تفسير الحضارة لا يكون إلا عن طريق الوظيفة الأخيرة التي تفسر وجودها بين الناس[1] .

والحقيقة أن كل مدرسة تعطي أهمية للجانب الذي تتعمق بدراسته ، وهو جزء مهم من حضارة الإنسان وتكوينها ، سواء بما عليه حال دراستها ، أو أثناء تطور الثقافات والحضارات البشرية عبر التاريخ . وكل معرفة في أحد هذه الجوانب تكمل غيرها ، إذا استندت إلى شمولية المعرفة العلمية لهذا العلم .

ومن هذا الاختلاف أيضاً ، أن بعض العلماء يركز على دراسة المجتمع كما هو الآن ، والبعض الآخر يركز على دراسة الحضارة الإنسانية على مر العصور .

ابن خلدون وفكرة البناء الاجتماعي :

لو بحثنا في فكر ابن خلدون حول هذا الموضوع نجد أنه سبق العلماء الأوربيين الذين ذكرناهم في مفهوم البناء الاجتماعي بخمسة قرون ، حيث تناول هذه الفكرة عندما نظر إلى الظاهرة الاجتماعية في ضوء ما تحدثه من وظائف متعددة في المجتمع ، كما تحدث عن الدين من حيث وظائفه الاجتماعية ، باعتباره أكبر (وازع) للبشر ، لأنه يراقب الناس في الجهر والسر ، ويمتد أثره إلى عالم الغيب ، بعكس القانون الوضعي ، الذي لا تتجاوز آثاره في رأي الناس

---

(١) المرجع السابق ، ص١٦٣ .

عالم الواقع[1] كما تحدث عن نمو الحضارة وعوامل انتشارها ، وتحدث عن اختلاف الثقافات البشرية .

وتحدث علماء مسلمون غيره ورحالة ، عن مسألة وصف الثقافات البشرية المختلفة ، بطريقة واقعية ومنظمة وشاملة للأنساق المختلفة في المجتمع .

وإذا وصل كل من « مونتسكيو » و « جان جاك روسو » و « سان سيمون » و « أوجست كونت » إلى بعض الحقائق المنهجية فإنها ترمي في جوهرها إلى تحقيق بعض المثالية التي لا يهدف إليها العلم ، أما ابن خلدون فقد كان يبحث في ثنايا مقدمته عن القوانين التي تفسر الظواهر الاجتماعية بل إن تصنيفه ينطبق إلى حد كبير على تقسيم علم الاجتماع في الوقت الراهن إلى عدة فروع ، كعلم الاجتماع السياسي ، وعلم الاجتماع الأخلاقي ، والأنثروبولوجيا الاجتماعية ، وعلم الاجتماع الديني ، وعلم الاجتماع البدوي ، وعلم الاجتماع الاقتصادي ، وعلم الاجتماع اللغوي ... إلخ وهي تحمل نفس الموضوعات التي تعالجها المدرسة الوظيفية تحت عناوين « النسق السياسي » و« النسق الأخلاقي » و«النسق الديني) و« النسق الاقتصادي »[2]) الخ .

تكامل المعرفة مع توفر دقة المعلومات :

بالرغم من ظهور المدرسة البنائية الوظيفية إلى جانب المدرسة الثقافية فإن هذين الاتجاهين نجدهما يسيران جنباً إلى جنب في سائر الدول التي تهتم بالدراسات والأبحاث الأنثروبولوجية ، إذ لا يمكن لنا التفرقة الحاسمة بين الاتجاهين . ويعلل إيفانز برتشارد الاتجاه الثقافي في الدراسات الأنثروبولوجية الأمريكية بقوله : « إنّ مجتمعات الهنود الحمر ، التي كان العلماء الأمريكيون يركزون أبحاثهم عليها ، مجتمعات مجزأة غير متماسكة ، مما يجعل دراسة ثقافاتها أسهل بكثير من دراسة بنائها الاجتماعي ، إضافة إلى عدم وجود تقاليد

---

(١) د / زكي محمد اسماعيل ص ٢٢٩ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٣٠ .

قديمة هناك يرعونها في الدراسة الحقلية المركزة ، التي يستخدم الباحث فيها لغة الناس أنفسهم ، والتي تستغرق فترات طويلة من الزمن ؛ مما يجعلهم يفضلون دراسة العرف والثقافة ، على دراسة العلاقات الاجتماعية »[1].

بينما نجد مثلاً القبائل الأفريقية البدائية ، والتي كانت خاضعة للاستعمار البريطاني قد راج استخدام الاتجاه البنائي الوظيفي في دراسة أحوالها ، ذلك لأن هذه القبائل موضع الدراسة ، تعيش في شبه عزلة اجتماعية واقتصادية عن العالم الخارجي المحيط بها ، بحكم ظروفها الجغرافية ، الأمر الذي جعل القبيلة تؤلف كياناً مستقلاً عما عداه من المجتمعات الأخرى . وبالتالي اضطر الأنثروبولوجي أن يركز دراسته في مجتمع واحد أو مجتمعين ، من حيث بناؤه الاجتماعي المتماسك من ناحية ، ومن حيث ارتباط أنساقه ونظمه المختلفة[2] .

أي إن ظروف الدراسة لكل منهما هي التي دعت للتركيز على إحدى المدرستين دون الأخرى .

ويتميز الوظيفيون بأنهم يحاولون إظهار أن النسق الاجتماعي يمثل نوعاً من الفسيولوجيا الاجتماعية أو الوظيفة الاجتماعية .

وعموماً فإن العلماء الأنثروبولوجيين المعاصرين يعملون على تحقيق تكامل المعرفة الأنثروبولوجية في أغراضها المرحلية والخاصة ، داخل شمولية المعرفة الأنثروبولوجية ، فيما يخدم الإنسان وحضارته .

---

(١) (٢) المرجع السابق ص ٢٢٥ – ٢٢٧ .

تخصصات الأنثروبولوجيا وفروعها

(علم الفولكلور أحد هذه التخصصات)

تتضمن الدراسات الأنثروبولوجية فروعاً مختلفة ، منها ما يتعلق بالدراسات الفيزيقية ، ومنها ما يتعلق بالدراسات الاجتماعية والثقافية . وكلها تدرس جوانب الإنسان لتقديم نظرة شمولية عنه وعن حضارته ؛ فالأنثروبولوجي قد يشترك مع علماء الإنسانيات ، مثل علوم النفس ، والاجتماع ، والاقتصاد ، والسياسة. من حيث المنهج . ولكن عالم الأنثروبولوجيا الفيزيقية ، ينفرد بمنهجه ووسائله ، حيث يرتبط منهجه بكليات العلوم أو الطب[1] .

إن تقدم المعرفة ونموها في دراسة جوانب الإنسان المختلفة الاجتماعية والثقافية ، بالإضافة إلى شمول الدراسات العلمية في هذا التخصص لأكثر من جماعة بشرية معينة ، ولتعدد أغراض هذه الدراسات. كل هذا ساعد على ظهور فروع مختلفة مثل : أنثروبولوجيا القرابة والأسرة ، ومنها ما يسمى بأنثروبولوجيا التربية وكذلك ما يسمى أنثروبولوجيا الدين ، أو أنثروبولوجيا الاقتصاد ، أو أنثروبولوجيا النظم السياسية أو الأنثروبولوجيا اللغوية وكذلك أنثروبولوجيا الطب الاجتماعي أو أنثروبولوجيا التنمية أو الأنثروبولوجيا الثقافية ، أو علم الأركيولوجي (وهو علم الآثار القديمة) . وهناك علم الإيكولوجيا الثقافية (وهو العلم الذي يربط بين البيئة والثقافة) . ويعتبر علم الفولكلور من أحد التخصصات الهامة لعلم الأنثروبولوجيا .

وسنحاول إلقاء نظرة سريعة على أهم تخصصات هذا العلم .

الفولكلور الشعبي :

تداخل فرع علم الفولكلور مع علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) في بدايات

(١) د. حسين فهيم (قصة الأنثروبولوجيا) ص٢٣٨ .

الاهتمام الأوربي بالأنثروبولوجيا وانتشاره ، حيث اختص بدراسة ثقافات الشعوب المختلفة وقد كان للعرب دور كبير في دراسة ثقافات الجماعات البشرية قبل الاهتمام الأوربي بعدة قرون .

وقد اختلف كثير من العلماء في تحديد معنى الفولكلور بسبب الاجتهاد الشخصي لكل منهم متأثراً بالمنطلق المادي للعلم الأوربي وفكره المعاصر ، المتسم بالانشطارية[١] والتحيز العنصري للثقافة الأوربية . وقد قام الأنثروبولوجي الأمريكي المعاصر روبرت ردفيلد باستخدام اصطلاح « المجتمع الشعبي » للدلالة على المجتمع البدائي[٢] .

ومن تعريفات هذا العلم الكثيرة ، أنه عبارة عن التراث القومي المتناقل عن طريق التواتر الشفهي ، ويهتم بجمع وتحليل ودراسة الدراما والموسيقى والقصص الشعبي .

ولا يقتصر علم الفولكلور على إلقاء الضوء على دراسة ثقافة معينة ، وإنما يتعدى ذلك إلى تحليل علاقات التفاعل والتأثير المتبادل بين الثقافات المختلفة ، سواء أكانت متقدمة أم متخلفة ، وتلك هي ما يطلق عليها الأنثروبولوجيون : عملية « التثقف من الخارج » **Acculturation** وهي التي تتم نتيجة التقاء ثقافتين مختلفتين . وعموماً فإن الفولكلور يهتم بدراسة القطاع من الثقافة أو الحضارة للمجتمعات قبل مرحلة التحديث المعاصرة .

الأنثروبولوجيا اللغوية :

اهتم بعض العلماء بالصلة بين اللغة والثقافة ، وسميت هذه الصلة أو الرابطة بمصطلح « الأنثروبولوجيا اللغوية » ومجالها دراسة اللغة في إطارها

---

(١) الانشطارية هي النظرة غير المتكاملة نحو الفكر والنفس وقيمها ، تم العجز عن ربطها بنظرة شاملة متكاملة ، حيث تبقى منفصلة أجزاؤها ، راجع كتاب (شبهات التغريب) لأنور الجندي ، ص ١٠٥ .

(٢) د / زكي محمد إسماعيل (الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي) ص ١٥٦ .

الأنثروبولوجي[1] وقد تبين لعلماء الأنثروبولوجيا أن ما هو مشترك بين الثقافات لا يعرف بالملاحظة وإنما على مستوى البناء العقلي . كما عنى الأنثروبولوجيون اللغويون ، أثناء دراساتهم ، بتوضيح خصائص اللغة الإنسانية ، في مقابل مظاهر الاتصال والتخاطب لدى الحيوانات ؛ فاللغة خاصة إنسانية ذات أنظمة مفتوحة ، بعكس ما هو عليه نداءات وصيحات الحيوانات المغلقة .

وتعتبر اللغة ، بطبيعة الحال الأداة الأساسيةَ بيد الإنسان لتحقيق أشكال الاتصال والإعلام والتفاهم كافة . كما ينظر إليها المفكرون على أنها تمثل وعاء فكر الأمة . كما وجد العلماء أن اللغات تقوم بتسهيل العادات .

ومن فروع الأنثروبولوجيا اللغوية ، « علم اللغويات » حيث يهتم هذا العلم بتحليل اللغات في زمن معين ، لدراسة نظمها الصوتية ، وقواعدها ومفرداتها . كما يهتم هذا العلم بالجانب التاريخي المقارن له ، فيدرس العلاقات التاريخية بين اللغات[2] .

وقد سعى ليفي اشتروس لنقل منهج التحليل الفونولوجي ، كما عرفه علماء اللغة ، وهي محاولة جديدة للربط المنهجي بين الدراسات اللغوية والاجتماعية والإثنولوجية والفولكلورية .

إلا أن ليفي اشتروس قام بالتركيز على الطريقة التي يعمل بها العقل الإنساني أكثر من طبيعة التنظيم الاجتماعي الذي تهتم به البنائية الجديدة في بريطانيا .

وقد ركزت المدرسة الثقافية الأمريكية على وصف وتحليل الثقافة في إطار المفاهيم والتطورات التي لدى الأفراد أنفسهم ، وكما تمثل في لغتهم أثناء تأكيدها على علمية وموضوعية دراسة الثقافات الإنسانية .

كما ركزت تلك المدرسة أيضا على إيضاح الأسس العقلية[3] والأصول

---

(١) د / حسين فهيم (قصة الانثروبولوجيا) ص ٢٢٥ .

(٢) د / زكي محمد إسماعيل (الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي) ص ٥٨ – ٥٩ .

(٣) د / حسين فهيم (قصة الأنثروبولوجيا) ص ٢٣٣ .

الثقافية التي يستندون إليها في تنظيم العلاقات الاجتماعية ووضع قواعد السلوك ونظم القيم . ممّا جعل أصحاب المدرسة الأمريكية يهتمون بمنهْج دراسة وتحليل اللغة الوطنية لمجتمعات الدراسة ، وذلك لاستخراج ما في مفرداتها من مفاهيم ومضامين ، وما قد تحتويه من قيم وأفكار وتصورات لا يمكن مَعْرِفتها أو التوصل إليها ، عن طريق الاقتصار على ملاحظة السلوك الظاهري لأفراد المجتمع .

خصائص اللغة العربية في الدعوة الإسلامية :

بين العلماء أن اللغة هي وعاء فكر الأمة وعلومها وتمتاز اللغة العربية أنها تحمل سرها في كونها دعامة وسنداً للإسلام فللغة العربية مكانة كبيرة في الدين الإسلامي وفي الدعوة إليه ، فقد نزل القرآن الكريم باللغة العربية على العرب ، الذين وصلت اللغة آنذاك عندهم إلى مستوى عظيم من البلاغة ، وقد مثل لهم القرآن الكريم بلفظه العربي إعجازاً ما استطاعوا أن ينسجوا شيئاً على منواله وهم العرب الأقحاح . وباللغة العربية يّتم تأدية العبادات في الإسلام ، من صلاة وحج وتعبد ، وبها أيضاً يتم الفهم الصحيح للقرآن الكريم ، كما أنها شرط من الشروط التي ينبغي أن تتوافر فيمن يصل إلى مرتبة الاجتهاد في الإسلام ، قال تعالى : ﴿ **كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون** ﴾[1] .

وكان للغة العربية حضارة مرتبطة بها ، بما فيها من فكر وآداب وخلق ، قويت بالدين الإسلامي وانتشرت . وزادها الإسلام بما أضفاه عليها من كونها اللغة الناطقة به والداعية إليه ، ففي نحو ثمانين عاماً ، امتدت الفتوحات العربية فأدخلت في الدولة العربية الإسلامية الناشئة أمماً وشعوبا كثيرة ، وانتشرت مع هذه الفتوحات اللغة العربية فأقبلت الشعوب على تعلمها ، فتعربت بلاد الشام والسودان وشمال أفريقيا كلها. . بل إن الأجنبي آنذاك كان إذا حل أو سكن

---

(١) سورة فصلت ، الآية : ٣ .

في بلاد تتكلم باللغة العربية ، سرعان ما يستعرب ويتكلم بها كأنه واحد من أهلها . ونبغ من أهل هذه الشعوب أعداد كبيرة في جميع العلوم ، حتى علوم اللغة العربية .

« ولقد اختلف موقف الأمم التي فُتحت بلادها من السلطة العربية الحاكمة في الدولة الجديدة وتبلور هذا الموقف المختلف والمتمايز في موقفها من العروبة والتعرّب والتعريب. . فقد كان معيار الانعطاف نحو العروبة أو العداء لها هو (الموقف الحضاري) للأمة التي فتح العرب بلادها »[1] .

وقد ترك العرب المسلمون ، في البلاد التي فتحوها آثاراً حضارية شاهدة على عظمة حضارتهم وتمايزها عن الحضارات الأخرى ، سواء في مجال الأدب ، أو الفن بشكل عام ، والفن المعماري بشكل خاص ، وغيرها من الجوانب المادية الأخرى ، بالرغم من تراجع فتوحاتهم ؛ حيث بقيت هذه الآثار شامخة ، تدل على عظمة العرب المسلمين ، كما هي الحال في الأندلس .

إن لكل دين لغة (لسانا) ولغة الإسلام هي العربية ، ومن دون العربية لن يفهم الأفراد والشعوب حقيقة الإسلام . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن لكل لغة آداباً ، ومن هذه الآداب تهل ملكة الأخلاق ، ومن المحافظة عليها تكون العصبية . ومن هنا فقد انتشرت الحضارة العربية بانتشار الإسلام بواسطة العرب بلغتهم العربية .

وقد غابت هذه الحقيقة عن كثير من الشعوب ، ومنها الأتراك المسلمون الذين حاولوا أن يفرضوا لغتهم التركية على العرب وجميع من يتكلم باللغة العربية ، وقد تعجب بعض الأدباء الأتراك من عدم استطاعة الأمة التركية أن تنشر لغتها الخاصة بين الأقوام التي تحكمها ، وعقد مقارنة بين الأمتين التركية والعربية في ذلك .

---

(١) د / محمد عمارة (التراث في ضوء العقل) ص١٦٤ .

وقد تحدث جمال الدين الأفغاني عن هذا الموضوع ليزيل الشبهة عن الأدب التركي ، فبيّن أن « شبه الترك بالعرب بقى شبهاً سطحياً وظاهرياً لم ينفذ إلى الجوهر ، ولم يجعلهما سواءً في المضمون . صحيح أن كلا الشعبين قد اعتنق الإسلام ، لكن الترك قد أسلموا دون أن يتعربوا وتلك هي نقطة الضعف القاتلة التي حرمت الترك من أن تكون لهم الحضارة الخالدة التي أقامها العرب فيما فتحوا من بلاد. »[1] .

كما أن إهمال أمر اللغة أو دور العرب في الإسلام فإن مثل هذا يمهد لإسقاط دور الاسلام الأساس في وحدة العرب ووحدة لغتهم ولنذكر قول رسول الله ﷺ لسلمان الفارسي : لا تبغضني يا سلمان. . فقال سلمان : كيف أبغضك يا رسول الله وبك هداني الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « تبغض العرب ، فتبغضني فتهلك »[2] .

الإيكولوجيا الثقافية :

وتعني علم البيئة الثقافي ، وتتناول العلاقات المتبادلة بين البيئة والثقافة ، ولا يقتصر اهتمامها على المحيط الفيزيقي الثقافي ، وإنما يشمل اهتمام الأيكولوجيين الثقافيين على كل ما يحيط بالإنسان من كائنات حية ، سواء من نوعه أو مختلفة عنه ، وتعمل وتترابط جميعها في نسق متكامل أطلقوا عليه مصطلح « النسق الإيكولوجي » .

وقد أكد بعض علماء الثقافة أن عامل الطاقة[3] يعتبر عاملاً مهماً في تطور الشعوب .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .

(٢) د / معروف الدواليبي ، الإسلام والتيارات القومية والعلمانية ، جريدة الشرق الأوسط العدد ٤٠٥١ ، ٣١ /١٢ /١٩٨٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .

أنثروبولوجيا الطب الاجتماعي :

وهو العلم الذي يبحث في علاقة الصحة العامة[1] للأفراد بالمستوى الاجتماعي لهم ، ومدى الأثر المتبادل بينهما من ناحية ، ومدى تأثر الصحة العامة بالمستوى التكنولوجي والقيم والعادات والأعراف ، باعتبارها مؤشراتٍ هامةً في الحياة الصحية ، من ناحية أخرى .

أنثروبولوجيا التربية :

تتناول دراسة الجانب التعليمي التربوي في المجتمع على ضوء المعرفة الأنثروبولوجية ، وإن الجانب التربوي والتعليمي له علاقة بعموميات المجتمع وخصوصياته . وإن عموميات المجتمع تتناول المكونات الثقافية أو العناصر التي يشترك في ممارستها كل أفراد المجتمع ، وهي التي تميز ثقافة ما عن أخرى أما خصوصيات المجتمع فإنها تتناول الخصوصيات المهنية أو الخصوصيات الطبقية وإن للمدرسة علاقة بالعملية التربوية وكذلك فكرة تقسيم العمل ، ويتطلب الاتجاه الوظيفي في معالجة النسق التعليمي البحث في عدد من الجوانب التي تتصل به لدراسة الحال كجماعات اللعب ، وحفلات التنقيب والتدريب على أنواع الحرف المختلفة[2] .

وإن من فروع الأنثروبولوجيا أيضاً « الإثنوجرافيا » وهذا الفرع يعني بالتسجيل الوصفي للثقافات المختلفة . ويرى علماؤنا أن ابن خلدون كان يبحث ، في تحليلات مقدمته ، عن القوانين التي تفسر الظواهر ، وتبين كيف تنشأ وتتطور طبقاً لقواعد محددة . وتعرض أثناء ذلك في مقدمته لمختلف « أنواع الظواهر الاجتماعية بل إن تصنيفه ينطبق ، إلى حد كبير ، على تقسيم علم الاجتماع في الوقت الراهن إلى عدة فروع ، كعلم الاجتماع السياسي ، وعلم الاجتماع الأخلاقي ، والأنثروبولوجيا الاجتماعية ، وعلم الاجتماع

---

(١) د / زكي محمد إسماعيل (الانثروبولوجيا والفكر الإسلامي) ص ٦٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٠٩ وما بعدها .

الديني ، وعلم الاجتماع البدوي ، وعلم الاجتماع الاقتصادي ، وعلم الاجتماع اللغوي. . وهي تحمل نفس الموضوعات التي تعالجها المدرسة الوظيفية ، تحت عناوين « النسق السياسي » و « النسق الأخلاقي » و « النسق الديني » و « النسق الاقتصادي »[1] .

أنثروبولوجيا التنمية :

إن هذا الاتجاه قد ارتبط بالسيطرة الغربية على بلاد العالم الثالث في شكل مساعدات فنية واقتصادية معينة .

ويرى العلماء أن المضمون التكنولوجي[2] في ثقافة ما ، يحدد الكيان الاجتماعي والاتجاهات الأيديولوجية ، وأن المجتمعات التي يستخدم أفرادها قدراً محدداً من الطاقة تنشأ عندهم نظم مختلفة أقل بساطة من التي تتنوع فيها استخدامات الطاقة والإمكانيات التكنولوجية .

وقد ظهر اتجاه قوي في نشاطات الأنثروبولوجيا التطبيقية لاستخدام نتائج الدراسات الإنسانية لمساعدة الدول النامية على النهوض والتقدم ، وكان من نتائج ذلك أن كثيراً من الهيئات الحكومية والدولية[3] والمؤسسات الاستشارية الخاصة ، استخدمت الباحثين الأنثروبولوجيين للاستعانة بخبراتهم المعرفية والحقلية عند القيام بمشروعات التنمية الاقتصادية ، وخاصة في مجالات الزراعة والصناعة ، وبرامج الارتقاء بالمستوى الاجتماعي والتعليمي والصحي في البلاد النامية والمتقدمة على حد سواء .

ويظهر في أنثروبولوجيا التنمية جوانب ثلاثة :

أولاً : تتوجه الدراسات الإثنولوجية في هذا الفرع ، نحو البحث في الموضوعات الاقتصادية والعمل المخطط لإحداث التغيير المنشود من قبل

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٣٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٠٤ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٠٨ .

الحكومات الوطنية والهيئات الدولية على حد سواء .

وقد تم تبنّي مثل هذا الاتجاه ، بعد سقوط الامبراطوريات الاستعمارية ، ونزوح جيوش الاحتلال عن كثير من البلاد المستعمرة في آسيا وأمريكا اللاتينية ، وذلك في أعقاب الحرب العالمية الثانية .

ثانياً : إن من أوجه أنثروبولوجيا التنمية ، ظاهرة التثاقف وسنتكلم عنها فيما بعد بشيء من التفصيل (انظر الفصل الثاني ، موضوع « الفولكلور والأنثروبولوجيا التطبيقية لأعمال التغير الاجتماعي »

ثالثاً : ظاهرة التحديث على الطريقة الأمريكية ، فخلال الخمسينات ، وحتى منتصف الستينات ، بصفة خاصة ، نادت أمريكا بنظرية « ملء الفراغ » على حد تعبير الرئيس الأمريكي الراحل إيزنهاور ، وقد كان المقصود من ذلك بسط النفوذ الغربي على البلاد الحديثة الاستقلال ، لا عن طريق الاحتلال ، وإنما عن طريق الاستعمار غير المباشر ، المتمثل في التبعية الاقتصادية والثقافية .

لقد كان مثل هذا الاتجاه الاستعماري بديلاً عن الاستعمار القديم ، ويحتاج إلى دراسات وصفية وفولكلورية لأحوال وشعوب العالم الثالث ، من النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وغيرها .

وقد شملت هذه الدراسات الوصفية للثقافات التقليدية ، المجتمعات الريفية القروية في آسيا والشرق الأوسط ، وكثير من أنحاء العالم الثالث ، التي يشار إليها باعتبارها نامية : وقد ساعدت مثل هذه الدراسات على توجيه عمليات التغير الاجتماعي(١) باسم التنمية لصالح أهداف الاستعمار في التقريب الاجتماعي والتبعية الثقافية .

إن من أبرز الباحثين في هذا المجال الأنثروبولوجي ، الأمريكي جورج

---

(١) د / حسين فهيم (قصة الأنثروبولوجيا) ص ٢٤٦ - ٢٤٨ .

فوستر ، الذي ألف كتاباً بعنوان : « الثقافات التقليدية والتغير التكنولوجي »[1] عام ١٩٦٣م قدم من خلاله تحليلاً للعوامل التي تساعد والأخرى التي تحبط قبول التغير ، وناقش هذه العوامل في مضمون اقتصادي ثقافي ونفسي ، كما أوضح أن ما قد يبدو مفيداً أو عظيماً في مجتمعات التكنولوجيا الغربية ، قد لا يشترط أن يحظى بنفس التقدير أو القبول في المجتمعات غير الغربية ، أو ما أسماه بالمجتمعات التقليدية .

وحول ذلك الاتجاه في الدراسات الوصفية للثقافات الفولكلورية « التقليدية » التي وصلت إلى ريفنا العربي لتحقيق نوع من الاستعمار غير المباشر ، نستعرض قول د / محمد محمد حسين الذي يدل على رؤيا بعيدة النظر في أهداف التقريب نحو ريفنا العربي المسلم :

يقول : « بعد أن تبين للمستشرقين الذين يبحثون في شؤون هذا الشرق الإسلامي والعربي أن تأثير الفرنجة ، أو ما يسمونه Westernization لم يتجاوز المدن ؛ لأن كل الوسائل والأساليب التي يستخدمها الغربيون في هذا الصدد ، من صحافة ودعاية ومؤسسات علمية أو اجتماعية وسينما وشراء للأفلام وللذمم وللرجال. إلى آخر ما هنالك ، كل ذلك لا يصل إلى الريف ، ولا يتجاوز حدود المدن . فما الذي صنعته أمريكا لتلافي هذا النقص . والاحتيال لدخول الريف الذي عجز التبشير وعجزت الأساليب الاستعمارية العتيقة عن اقتحامه إلى ما قبل الحرب العالمية الأخيرة ؟ لقد اخترعت أمريكا تحت ستار (الدولية) وعن طريق الأمم المتحدة شيئاً اسمه « التربية الأساسية » . وما هي التربية الأساسية ؟ يعرفها الدكتور حامد عمار ، في بحثه الذي ألقاه في هذا المؤتمر[2] الأمريكي : « التربية الأساسية منهج من مناهج

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٠٧ .

(٢) مؤتمر دعت إليه الجامعة الأمريكية في بيروت عام ١٩٥٦م ، يحتوي على محاضرات في نظم التربية جمعت في كتاب وهذه المحاضرات كانت قد ألقيت في هذا المؤتمر الذي اشترك فيه كبار المسئولين عن التربية في مصر وفي سورية والعراق والأردن ولبنان مثل فيه ثلاث وزراء سابقين في البلاد العربية إن مثل هذا المؤتمر يعد وسيلة للاتصال المباشر بالمسؤولين ، وتقدم التقارير والمؤلفات عن هذا المؤتمر صورة دقيقة للحياة الاجتماعية والاقتصادية عن بلادنا ..

الإصلاح الاجتماعي ، لرفع مستوى المعيشة ، يؤكد قيمة العملية التربوية وتغيير الأفكار والنزعات إلى جانب تغيير الأوضاع المادية » (ص ٩٢ محاضرات في نظم التربية) .

ويستعرض الدكتور محمد محمد حسنين ما جاء في هذه المحاضرات عن مفهوم التربية الأساسية حيث أورد ما جاء في تعريفها كما يلي : « تسعى التربية الأساسية إلى محاولة تغيير الأفكار والنزعات والاتجاهات ، كما تسعى إلى تغيير في الأوضاع المادية في الدائرة التي تلزمها ، ويؤمن دعاة التربية الأساسية بأن كل عملٍ أو مشروع مادي لابد أن يسبقه ويصاحبه ويتبعه تغيير في تفكير الناس[1] ، وفي الاتجاهات الفكرية والنفسية ، حتى يمكن أن يكون العمل منتجاً إنتاجاً كاملاً (ص ٨٥) .

ويعلق الدكتور محمد محمد حسين على مسألة تغيير الأفكار والنزعات بقوله : « وواضح أن تغيير الأفكار والنزعات والاتجاهات الذي أشار إليه الباحث يقوم على أسس غربية خالصة ، تروج باسم العلم – علم مزعوم لا يستقر له قرار ولا يقطع في ظاهره برأي يتفق عليه أصحاب الرأي ، يسمونه « علم النفس » – وواضح أيضاً أن هذا التغيير – تغيير الأفكار والنزعات والاتجاهات – لا يبالي أن يخالف الإسلام وتعاليمه في الريف المسلم ؛ لأن القائم على هذا التغيير ليس هو مشيخة الأزهر ، ولكن القائم عليه هم مجموعة من (الخواجات) يختفون خلف الشخوص العربية التي تبدو للناظر كأنها تتحرك بإرادتها ، وواقع الأمر أنها لا إرادة لها ، وأنها تسير في خطوط مرسومة وحسب خطط مدبرة ، قدرها أناس أقل ما يوصفون به أنهم لا يبالون بالإسلام وتعاليمه إن لم يكونوا معادين لها يعملون على محوها واستئصالها من نفوس الناس . ولهم في ذلك أساليب خبيثة يتسللون عن طريقها إلى قلوب أهل الريف السذج الغافلين. »[2] .

---

(١) د / محمد محمد حسين (حصوننا مهددة من الداخل ، ص ٢٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣ – ٢٧ .

ثم يقوم في كتابه على شرح مثل هذه الأساليب ، من واقع ما جاء في كتابتهم عن ذلك المؤتمر الأمريكي . ويعتبر الدكتور محمد محمد حسين أن مثل هذه المراكز للتربية الأساسية في العالم العربي لا عمل لها إلا سلخ الريف العربي من دينه وخلقه وعروبته .

وحول أعمالهم الأنثروبولوجية التي تتناول الجوانب المختلفة من المجتمع أورد الدكتور محمد محمد حسين في كتابه أمثلة عن المؤتمرات كمؤتمر العلائق وغيره من المؤتمرات التي تعقد بالتعاون مع منظماتنا الاجتماعية والتربوية ودور النشر وجامعة الدول العربية ، تحت ستار رفع شؤون التربية والتعليم وربطها بالمؤسسات التعليمية الأمريكية وعن المواضيع التي يتم بحثها تتناول الأمور الأنثروبولوجية تحت أسماء غامضة ، كما هي الحال في موضوع العلاقات وما شابهه .

كما أورد في كتابه نماذج من أدبيات هؤلاء المؤلفين الأمريكيين[1] وأحاديثهم عن (العامل الريفي في الحضارة الإسلامية) وغيرها من المواضيع ، بما يعطي صورة واضحة عن بعوث أمريكا – أو البعوث الدولية إن شئنا أن نسميها – التي يتغلغل إلى صميم البيئات الإسلامية في الريف باسم الخدمات الاقتصادية والخدمات الفنية أو الخدمات الاجتماعية ، وسوف ندرك بعدها بسهولة أن الهدف الكبير لهذه المؤسسات – إلى جانب ما تنتفع به من معلومات تفيد الجاسوسية الحربية – هو (أمركة الريف) ، والاهتمام فيه بالمرأة خاصة ، وبتوجيه الحركة النسوية وفرنجتها .

وقد ذكر الدكتور محمد محمد حسين أن من الوسائل الناجحة لكسب ثقة الناس وتكوين علاقة طيبة مع الأهلين ، أنه قد تبين له بالتجربة أن دق

---

(١) من مؤلفات الأمريكيين في هذا المجال بحث الدكتور هارولد ألن مدير التربية بمؤسسة الشرق الأوسط الذي ألقاه في مؤتمر أمريكي آخر باسم مؤتمر (الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة) حيث تولت نشره مؤسسة فرانكلين الأمريكية ، وقد تم نشر مثل هذه المقالات في كتاب ومنها مقالة الدكتور ألن عن (العامل الريفي في الحضارة الإسلامية) .

« طلمبة » مياه بالقرية ، أو إصلاح خزان المياه بالجامع ، أو مقاومة الآفات الحشرية في الزراعة ، كان من أقوى العوامل التي وثقت الصلة بين أهل القرية والمستشرقين على مختلف جوانب الخدمة الاجتماعية فيها ، فرأى مثلاً أن زجاجات قطرة العيون كانت من أهم الوسائل التي اكتسبت بها آنسات المركز الدولي للتربية الأساسية ثقة نساء القرية (ص ٩٨ إلى ١٠٠ من تقرير الدكتور حامد عمار) .

وقد علق الدكتور محمد محمد حسين على الأساليب التي وصفها د / هارولد ألن مما اتبع في سوريا بأنها هي الأساليب نفسها التي وصفها الدكتور حامد عمار مما اتبع في مصر ، وهي تدل على أساليب المبشرين وأشباههم الذين يسيرون وفق خطه مرسومة ومن أمثلة هذه المشاريع التي يقومون بها : إنشاء نادٍ للشبان أو إنشاء دراسات مسائية في القراءة والكتابة للبالغيين من الأميين ، أو تكوين جمعية تعاونية .

وبعد تحسن حالة اقتصاد القرية وصحة أهاليها ، فإن ذلك يمهد لمطالبتهم بإنشاء برنامج لنساء وأطفال القرية ، وهذا ما تنتظره المؤسسة الأجنبية ، يبادر أهالي القرية بتقديم مكان لهذا المشروع دون إيجار . وضرب أمثلة واقعية على مثل هذا .

ومما ذكره الدكتور (هارولد ألن) أن بعض المشاريع التي يتم تحقيقها هي جزء من تجربة تشمل اثنتين وستين قرية ، يبلغ سكانها ستة وعشرين ألفاً . وهي مثال لعشرات غيرها من الجهود الفعالة المماثلة التي يمكن القيام بها .

من تقرير مبعوث المؤسسة الدولية – أو الأمريكية[1] ، ص ٢٦٨ .

مفهوم الأنثروبولوجيا الجديدة :

وهو فرع تطور وظهر بعد الأنثروبولوجيا التقليدية وقد ظهر هذا الفرع ، لأن علم الأنثروبولوجيا التقليدي ، الذي مارسته أوربا مع نهضتها العلمية ،

---

(١) د / محمد محمد حسين المرجع السابق ص ٢٧ – ٢٩ .

قد واجه الموقف العصيب ، الذي تمثَّل بالأزمة العلمية للأنثروبولوجيا في منتصف الستينات ، كما استمر هذا الموقف حتى السبعينات ، ونتج عنه تهديد كيان علم الأنثروبولوجيا وشرعية وجودها كعلم .

وتمثل هذا الموقف بجانبين :

الجانب الأول : بسبب ارتباط هذا العلم التاريخي بخدمة الاستعمار ، قام بعض الأنثروبولوجيين برفض ربط الأبحاث الأنثروبولوجية بالاستعمار . كما تم رفض تركيز دراسات هذا العلم على مجتمعات العالم الثالث ، التي وصفت جميعها بالبدائية أو المجتمعات النامية ، حيث اعتبرت حقلاً دراسياً تقليدياً للأنثروبولوجيا . وقد جاء هذا الرفض بعد حصول هذه الدول النامية على استقلالها وتحررها من الاستعمار[1] .

الجانب الثاني : كان بسبب تغيرات العصر الهائلة ، حيث رأى كبار علماء الأنثروبولوجيا ، أنه لا يمكن لأي إنسان أن يقف مكتوف اليد متجاهلاً أفكار الآخرين وأعمالهم ، كما أنهم اقتنعوا بأنه لا يستطيع شعب من الشعوب أن يعيش منفرداً ، ولا تستطيع أمة من الأمم أن تتجاهل ما يصنعه أهل الأمم الأخرى . ذلك لأن مسؤولية العالم لا يمكن أن تلقي على عاتق أمة من الأمم ، أو شعب من الشعوب .

ومن فروع الأنثروبولوجيا الجديدة « الأنثروبولوجيا المحلية » وهي التي ظهرت من أجل البحث عن مقولة جديدة أو قاعدة محلية للأنثروبولوجيا في بلاد العالم الثالث تتلاءم مع تراثه وحاضره وتطلعاته المستقبلية . وقد مهد لهذا الاتجاه نظرية « النسبية الثقافية » .

فالأنثروبولوجيا الجديدة قامت على أساس تلافي اتجاهات تفكك علم الأنثروبولوجيا ، وجمع شتاته . بل قامت بتدعيم الاتجاه الذي يجعلها عالمية ومرتبطة بالعلم الذي يخدم الإنسان بشكل عام . وإن منطلق اعتبارها علماً

---

(١) د / حسين فهيم قصة الأنثروبولوجيا ص ٢٣٥ .

عاماً لا يمنع وجود روافد فكرية أو أطر محلية ، تعمل جميعها في إطار من الحوار والأخذ والعطاء المتبادل للوصول إلى أفضل الوسائل لفهم الإنسان وحضارته .

ونتيجة لذلك فقد برزت في الأنثروبولوجيا الجديدة أهمية العالم الثالث ، ودوره في تشكيل حاضر الأنثروبولوجيا ومستقبلها(١) .

مشكلة تشتت الأنثروبولوجيا :

مع تطور الأنثروبولوجيا وخروجها عن عاداتها التقليدية في دراسة الجماعات غير الأوربية في العالم الثالث وما سمي بالمجتمعات البدائية .

فقد انطلق الأنثروبولوجيون المعاصرون لدراسة جميع أشكال المجتمعات سواء الصغيرة منها أو الكبيرة ، الريفية والحضرية ، البدوية والقبائلية والمجتمعات الصناعية وغيرها ، وذلك بسبب تغير مفهوم التركيز على دراسة مجتمعات العالم الثالث ، أو المجتمعات المنعزلة البعيدة عن الحضارة الأوربية ، فانتشرت هذه الدراسات في كل مكان ، وعلى كافة المستويات في محاولة لفهم السلوك الإنساني في إطار مترابط ومتكامل ، وذلك باستخدام وسيلة الاتصال المباشر بالأفراد والأحداث والجماعات(٢) .

أي أنه بعد توسع الدراسات الأنثروبولوجية وشمولها جوانب الإنسان المختلفة وجوانب حضارته ، وكذلك الجماعات البشرية على اختلاف نوعية نشاطاتها ، أو الأماكن المختلفة من أنحاء العالم ، فقد رأى الأنثروبولوجيون الجدد أن هذه الحاجة إلى شمولية المعرفة عن الإنسان وحضارته ، وما ينجم عنها من صعوبة من جراء هذا التوسع والتشتت ، يقابلها فائدة وهي أن هذه التخصصات الأنثروبولوجية تغذي بعضها بالمعلومات كما أنها تفيد في كونها تسهم جميعها في بلورة أفكار جديدة حول تطوير الأساس الاجتماعي

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٥٢ - ٢٥٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

والإعلامي للحياة الإنسانية المعاصرة والمستقبلية .

وبمعنى آخر ، فإن الأنثروبولوجيين الجدد يرون أن اتساع الميل نحو التخصص الدقيق قد أفاد من جهة وأضر من جهة أخرى ، بأن جعل التفكك والاستقلالية هذين يسودان مجالات الأنثروبولوجيا المختلفة ، وولدا نوعاً من التضارب والتباعد بين تلك المجالات ، وبين المشتغلين بها أيضاً ، مما نتج عنه تهديد الأنثروبولوجيا ذاتها في كونها علماً تركيبياً يقدم لنا نظرة شمولية ومتكاملة عن الانسان وحضارته ، من خلال التخصصات المختلفة .

ونتيجة لهذا ، فقد عمل جيل الأنثروبولوجيين الجدد على تكريس جهودهم لإنقاذ الأنثروبولوجيا من التشتت والاندثار[٣] والبحث عن مستقبل لها ، وصورة جديدة تلائم مقتضيات العصر وتغيراته المتلاحقة وحاجة الإنسان إلى هذا العلم من أجل إنقاذ حضارته الإنسانية من الضياع والاندثار ، مع التقدم التكنولوجي الذي يعمل في السيطرة على الإنسان وأعماله ، ويتحكم في أسلوب وشكل حضارته .

إن الإنسان هو الأساس ، وهو الذي يصنع الحضارة ، وكما أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش وحده في هذا العالم ، فإنه لا يستطيع أن يتجاهل أفكار الآخرين وأعمالهم ، وخاصة في هذه المرحلة التاريخية من شكل الحضارة وأساليب الحياة ، التي جعلت الحضارات تنفتح على بعضها بعضا بعد تقدم أساليب الاتصال والمواصلات .

الأنثروبولوجيا التطبيقية
والدراسات الفولكلورية

عندما نتكلم عن « الأنثروبولوجيا التطبيقية » ، وخصوصاً فيما يتعلق بدول العالم الثالث ، فإن الدراسات الأنثروبولوجية والفولكلورية تتداخل تداخلاً كبيراً في معلوماتها ووسائلها ؛ لأنها ترتكز أساساً على المعرفة بثقافات الشعوب التقليدية ، ومراقبة ما طرأ عليها من تغيرات اجتماعية وثقافية مرحلية ، ضمن خطة عملية التغير . الموَجّهة والمرسومة لتنفيذها على مراحل داخل مخطط التقريب لتحقيق أهداف معينة .

وما نريد أن نوضحه هنا ، هو أن الاستخدام الفولكلوري ، وتوسيع المعرفة بثقافات الشعوب ، يرجعان إلى أن الدراسات الفولكلورية في أوربا قد بدأت قبل مولد الأنثروبولوجيا « علم الإنسان » ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر[1] .

وقد ركز الاتجاه (التاريخي الجغرافي) على صلته الوثيقة بالدراسات الفولكلورية التي بدأت تحظى باهتمام واسع ، خاصة بعد أن صاغ البريطاني وليم تومز W . Thoms مصطلح الفولكلور في عام ١٨٤٦م ليعني به « حكمة الناس » .

ثم انعكس هذا الاهتمام بالفولكلور مثلاً في انجلترا بتأسيس جمعية الفولكلور الانكليزية عام ١٨٧٨م وذلك من منطلق تسجيل التراث الأوربي وحفظه قبل أن يضيع ويندثر .

ومعنى هذا أن الصلة بين الفولكلور والأنثروبولوجيا « علم الإنسان » وثيقة ، ولا شك ،قد أظهر العلماء والباحثون في العالم الثالث أن

---

(١) محمد محمد حسين (حصوننا مهددة من داخلها) ص ١٤٢ وما بعدها .

الأنثروبولوجيا قد بدأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بداية فولكلورية[٢] ، فكان مولدها عبارة عن فروض ونظريات تطورية في مجال التاريخ الطبيعي للكائنات الحية مع ازدياد السيطرة الغربية على شؤون العالم .

ولهذا السبب نجد أن استخدام هذا العلم وفروعه قد يساير ظهور الاستعمار ، الذي بدأ يفرض سلطته على المجتمعات البدائية من جهة . ومن جهة أخرى بدأ يعمل على الوصول إلى المعرفة الأنثروبولوجية عن المجتمعات البدائية أو الحضارية التي تم استعمارها ، والتي كانت قبل نزعة التحديث الأوربية ذات خلفية حضارية وتراث عريق ، كما هو الحال في العالم الإسلامي ، وكان وصوله إلى هذه المعرفة عن طريق الرحالة والمبشرين والجنود وما يسجله بعضهم من بيانات وملاحظات عن هذه المجتمعات بطريقة مقصودة ومنظمة .

إن مثل هذا السلوك ساير الرغبات العلمية ، في القيام بدراسات تدور حول المجتمعات البدائية ، على حد التعبير الأوربي ، لما نشأ عن ضرورة تحديد العلاقة بين حضارة المجتمعات البدائية . والحضارات الأوربية المتقدمة تكنولوجياً وعلمياً بالمفهوم الحديث .

كما ازدادت الرغبة في معرفة ما إذا كانت تلك الحضارات المتقدمة امتدادا[٢] للحضارات البدائية أو تطورا لها[١] ؟ وبمعنى آخر : هل تمثل المجتمعات البدائية – بوضعها الراهن – المراحل والأوضاع التي كان عليها المجتمع الإنساني الأول ؟

الاستعمار والأنثروبولوجيا التطبيقية :

يعتبر استخدام المعرفة بثقافة الشعوب ، وأسرارها الشخصية ، ومزاجها النفسي. أمراً قديماً . وإن مثل هذا الاستخدام يتوجه لأغراض متعددة ، حسب الغاية والمقصد الذي يُرمي إليه أي أن استخدامات هذا العلم يمكن أن تكون من أجل تحقيق منفعة الإنسان والبشرية ، كالدعوة إلى التحضير

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) د / عبد الحميد لطفي (الأنثروبولوجيا الاجتماعية) ص ١١٩ .

والإصلاح ، أو بفرض الاستعمار كما يحدث الآن في العصر الحديث خلال فترة هيمنة الدول المستعمرة ، ذات الأيدلوجيات المادية ، على الدول المستضعفة ، بعد ظهور الرأسمالية الحديثة ، وتنافس الدول الأوربية على بسط نفوذها الاستعماري على أكبر قدر من أنحاء المعمورة .

وقد تبع ذلك تطور العلوم الإنسانية وتقدمها ، وتبلور علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) ، في أواخر القرن التاسع عشر .

ومع الاتجاهات الاستعمارية ظهر أول استخدام استعماري لهذا العلم ، باسم الأنثروبولوجيا التطبيقية (وتعتبر الأنثروبولوجيا التطبيقية والاستعمار وجهين لعملة واحدة من حيث النشأة ! !

ثم تم وضع مثل هذا التوظيف ، أو الاستخدام ، في قالب أكثر تحديداً وأهمية[1] ، واستخدمت المادة الإثنولوجية مع بدايات القرن العشرين ، في رسم وتنفيذ سياسة مناسبة لإدارة المستعمرات البريطانية .

وقد استعانت الدول المستعمرة من أجل بسط نفوذها ، بخبراء أنثروبولوجين في الفروع المختلفة ، كالاقتصادية والتربوية واللغوية ، وأنثروبولوجيا الأديان ، والأركيولوجيا وعلم الآثار. وغيرها ؛ وذلك من أجل دراسة وتغريب نظم المجتمع وتحديثها ، وفق مفاهيم الغرب وأهدافه . فمثلاً نجد أن الاستعمار الفرنسي لسوريا ، في مطلع القرن العشرين ، استعان بخبراء أنثروبولوجيين ، كما تم استخدام هذا العلم ، أثناء التعامل مع الهنود الحمر ، سكان أمريكا الأصليين ، من أجل احتوائهم « وبعد تأسيس الجمعية الأمريكية للأنثروبولوجيا التطبيقية في عام ١٩٤١م امتد نطاق توظيف الأنثروبولوجيين في جهات حكومية عديدة ، وفي بعض المؤسسات الصناعية ، خلال الثلاثينات والأربعينات ، وقد اتضح بجلاء ، خلال الحرب العالمية الثانية ، إمكانية توظيف الإثنولوجيا لخدمة أهداف الحرب »[2] .

---

(١) د / حسين فهيم (قصة الأنثروبولوجيا) ص ٢٠٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٠٨ .

ويعتبر هذا النوع من التوظيف لصالح الاستعمار ، أصعب من الاستعمار المباشر نفسه ؛ لأنه :

أولا : يمهد الطريق للاستعمار ، الذي يجتهد في أن يترك بصماته وركائزه في البلاد المستعمرة قبل أن يغادرها ؛ ليحل محله هذا الاستعمار الجديد .

ثانياً : بعد مغادرة الاستعمار العسكري المباشر ، يتم التركيز على استخدامه في دول العالم الثالث ، خاصة بعد انهيار الاستعمار العسكري في كثير من البلاد وحصولها على استقلالها .

نتائج استخدامات الأنثروبولوجيا التطبيقية في العالم الثالث :

ليس بالإمكان استعراض أغلب ما نتج عن الاستخدام الاستعماري للدراسات الفولكلورية والأنثروبولوجية بفروعها المختلفة ، وذلك لعدم وجود المعلومات الكافية في ذلك ، ولكننا نكتفي ببعض الأمثلة عن مثل هذا الاستخدام .

بعد تحقيق النهضة الأوربية لاهتماماتها العلمية في مجال علم الأنثروبولوجيا الذي تداخل كثيراً مع علم الفولكلور ، فقد قامت الدول الاستعمارية باستغلال هذه العلوم من أجل تحقيق أغراضها في التوسع والسيطرة على الشعوب التي أطلق عليها الغرب مصطلح العالم الثالث .

وقد حاول الاستعمار أن يصنع كثيراً من التكتلات الإقليمية بين مجموعات الدول الإفريقية كما عملت المؤامرات الاستعمارية على تدعيم التقسيمات السياسية ، ومن ثم بذر بذور الشك والفرقة بينها ، حتى إذا ما حصل كل منها على استقلاله ، أخذ يناصب الآخر العداء ، كان يأخذ حذره من الدولة المجاورة له أكثر من حذره من دول الاستعمار غير المباشر ، أو دول الاستعمار الاقتصادي .

ومن الأمثلة على ذلك : المقاطعة الثقافية والاقتصادية بين بعض دول

الشعوب المتخلفة ، وعدم التعاون التجاري والصناعي . وإن مثل ذلك يساعد الاستعمار أن يظل مهيمناً على هذه الشعوب اقتصادياً وسياسياً وثقافياً . وقد يصل الأمر إلى درجة إثارة الحروب وتحمل نتائجها وآثارها ، ومن أهم مظاهرها استنفاذ الطاقات البشرية والمادية مما يقف حائلاً دون تنفيذ أهل البلاد مشاريعهم الزراعية أو الصناعية وقد تهاجر الكفاءات والخبرات من جراء ذلك ، أو تموت من جراء الحرب وبهذا يتعطل استخدام الشعوب لخبراتها الذاتية في المشاريع المختلفة مما يقلل من إنتاج البلاد بما يكفي أهلها ، مثل هذا كان سبباً من أسباب حدوث المجاعات وأوضحها مثالاً المجاعة الإفريقية التي حدثت منذ سنوات قريبة .

لن يتحقق بين تلك الدول وحدة تتيح قدراً معيناً من التفاهم والتعاون والتكامل ما لم يتم العمل على تذويب المشكلات وتبديد الشكوك ونزع الحواجز الاقتصادية .

ومن الأمثلة الواضحة على استخدام هذه العلوم في إيجاد الاضطراب والضعف والفرقة ، وإقامة الحواجز في طريق تقدم بعض الدول ، مسألة صياغة القانون القبلي في أندونيسيا[1] في صورة قواعد قانونية رسمية مكتوبة ، وبذلك أصبحت القوانين الرسمية تختلف من قرية إلى أخرى حسب الظروف المحلية الخاصة ، ومثل هذا الوضع ، خاصة على المدى البعيد ، يكون عائقاً للتغير الاجتماعي وعقبةً في سبيل استيعاب أنماط جديدة من الفكر والسلوك ، وتغيير أنماط الملكية ، كما يجعل كل جماعة في عزلة عن سائر الجماعات في الإقليم ، بالرغم من اشتداد الاتصال الثقافي بينها من ناحية ، ثم بينها وبين العالم الخارجي ، وكذلك بالنسبة للحكومة المركزية .

ويقصد المستعمرون من كل هذا تحويل تلك المستعمرات إلى سوق

---

(١) د / محمد الجوهري (علم الفولكلور) الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٨م ، ص ٢٢ - ٣٠ .

لتصريف السلع الصناعية الأوربية ، أو الحصول على المواد الأولية التي تنتجها تلك البلاد كالمطاط وغيره بأرخص الأثمان .

بمثل هذه السياسات التي اتبعها الاستعمار بالنسبة للعالم الثالث بصورة عامة واستخدامه لمثل هذه العلوم ، مع جهل أبناء البلاد والحركة المثقفة. بمثل هذا كله استطاع الاستعمار – بطرقه المباشرة أو غير المباشرة – أن يقيم كثيراً من الحواجز في طريق تقدم كثير من المناطق والدول التي سلط استعماره عليها ، وذلك عن طريق صياغة القوانين الرسمية في البلاد ، أو تغيير أنماط الملكية ، سواء للأرض الزراعية أم المساكن أو غيرها من أنواع الملكية وما يرتبط بها من قوانين .

إن كل هذا كان يترجم بأن كل استخدام عملي للمعلومات الفولكلورية أو الأنثروبولوجية خارج أوربا كان يتركز في إدارة الحكومات الاستعمارية للمناطق الخاضعة لها ، فإنه بعد أن يغادر الاستعمار البلاد يترك فيها أنظمته البيروقراطية التي يثبت عن طريقها ركائزه ، من أجل المحافظة على امتيازاته السياسية والثقافية والاقتصادية .ووظيفة مثل هذه الأنظمة البيروقراطية أنها كثيراً ما تقاوم استفادة البلاد من عقول أبنائها ، التي نالت درجة من التعليم ، بعد عودتهم من الخارج ، إن مثل هذه البيروقراطية في الأنظمة تساعد على أن تظل البلاد بحاجة إلى خبره الأجنبي والمستعمر على اعتبار أن الأجانب في رأي البيروقراطيين ، يعرفون مصلحة الشعب أكثر من أبنائه أنفسهم ، وتصبح مهمة الأنثروبولوجي مجرد إقناع الناس بقبول قرارات الإدارات الاستعمارية والإذعان لها وإيهامه بأن ذلك في مصلحته بل الأكثر من ذلك فإن الاستعمار يبدأ بالعمل على تفتيت هياكل وأنظمة المجتمع الأصلية ، نلاحظ هنا مثلاً المؤامرات الاستعمارية التي تحاك ضد الأزهر في مصر والتعليم الأصلي في الجزائر وجامعة الزيتونة في تونس وغيرها ثم يقوم باستبدالها بقوالب جديدة توافق مصالحه. وهذا ما حدث فعلاً في أنظمة التعليم المهني والصناعي والنظري في بلادنا بالإضافة إلى غيرها من أنظمة المجتمع. . فعندها يصبح المجتمع بلا هوية يستند إليها في شخصيته وتتحقق بذلك تبعيته لأنظمة

الغرب وتقاليده التربوية .

ومن الأمثلة على استخدام الاستعمار للدراسات الفولكلورية والأنثروبولوجية في تثبيت دعائمه قبل دخوله إلى البلاد ، ما جاء في كتاب التاريخ الاجتماعي للوطن العربي عن بلاد الشام ، متضمناً دراسة الوثائق والتقارير التي كانت قد كتبت عن تلك الفترة حيث يتحدث المؤلف عن الأنثروبولوجيا كعلم منهجي وموضوعي كان في خدمة الاستعمار فيقول ما يلي :

« إن انتصار الاستعمار الفرنسي في مشاريع سيطرته وتجزئته لبلاد الشام ، لم يكن مجرد انتصار آلة عسكرية متطورة ، أو نتيجة حيل دبلوماسية وخداع فحسب ، بل ثمن خلفية تخطيطية للتحرك الفرنسي الدبلوماسي والعسكري نكتشفها من خلال وثائق هي أشبه « بتقارير علمية » ، فهي تحمل معرفة « عيانية » بالوضع الداخلي للبلاد ؛ لذلك نكاد نقول إن علماً خاصاً . بالإمبريالية ، تجند له وسائل البحث في التاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد والأنثروبولوجيا تقدم تلك التقارير منهجاً وموضوعاً »[1] .

وهناك ناحية هامة وهي أن الدراسات الأنثروبولوجية والفولكلورية كانت أداة حيوية لتحقيق أمور كثيرة ، تم للاستعمار الانتفاع منها في رسم أنماط الإدارة التي تؤدي إلى أدنى حد ممكن من تعكير صفو الحياة الوطنية داخل البلاد ، أو خلق الاضطراب في العلاقة بين الأخوة الأشقاء سواء على مستوى أقطار العالم الغربي والإسلامي أو على مستوى أبناء وجماعات البلد الواحد أو فئاته .

ثم شهدت الأنثروبولوجيا فيما بعد لوناً آخر من ألوان الانتفاع العملي بنتائجها ، تجلي في خدمة ما عرف باسم الحكم غير المباشر . ولا يكون ذلك عن طريق الموظفين الأوربيين مباشرة ، وإنما من خلال الرؤساء

(١) د. وجيه كوثراني (بلاد الشام . السكان والاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين ، قراءة في الوثائق) معهد الانماء العربي ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٨ .

والزعماء والحكام المحليين ، وذلك بتوجيه وتخطيط من الحكومات الاستعمارية وأجهزتها ، التي استعانت بدراسة البناء الاجتماعي لهذه المجتمعات ، وإلقاء الضوء على عناصر القيادة الوطنية ومقوماتها[١] .

بعض التحولات في استخدام هذا العلم :

إن كل هذه الألوان من الاستخدامات الاستعمارية للمعلومات الأنثروبولوجية والفولكلورية ، دعت أبناء البلاد في العالم الثالث للنفور من أي استخدام لهذا العلم ، مهما كانت دعوى علمائه بأنه سيخدم مصلحة العلم نفسه أو مصلحة البلاد ؛ أي إن الارتباط بين هذا العلم ، والاتجاهات الاستعمارية واستخداماتها له ، جعلت هذا العلم يمر بمحنة شديدة قامت بتهديد وجوده كعلم يمكن أن يكون في خدمة الإنسان في الحاضر والمستقبل ، وخدمة وجوده في هذا الكون .

وقد ساهم هذا في تعديل التوجهات العلمية في الموضوع الفولكلوري والأنثروبولوجي ، فيما بعد ، كي يسير في طريقه الصحيح. . ! !

إن هذا الارتباط بين البحث الاجتماعي ، عامة ، والأهداف العملية للسلطة الاستعمارية ، خاصة ، قد عبر عنها بوضوح عدد كبير من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا ، خلال القرن التاسع عشر ، إلى حد أنه نظم في باريس مؤتمر دولى عام ١٩٠٠م ، لتناول موضوع « علم الاجتماع الاستعماري » وكأنه من بين أهدافه دراسة المسائل الأخلاقية والمجتمعية المرتبطة بحركة الاستعمار . وقد كتب بشأن هذا المؤتمر (محمد وقيدي) في كتابه القيم (العلوم الإنسانية والأيديولوجيا)[٢] .

وسنرى أن الحركات التحررية بعد الحرب العالمية الثانية ، وقد ساعدت على ظهور نظرية النسبية الثقافية »[٣] .

---

(١) د / محمد الجوهري (علم الفولكلور) جـ ١ ، ص ٢٦ .

(٢) د / حسين فهيم (قصة الأنثروبولوجيا) ص ١٣٢ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٠٠ ، ٢٠٩ :

كما أن ظهور الاتجاه التنموي الأنثروبولوجي ، قد عمل على رفض الاتجاهات والأيديولوجيات السياسية والثقافية المصاحبة لاستيراد التكنولوجيا وهيمنة الثقافة الاستعمارية بشكل عام . ومن خلال عمليات التغير الموجه في إطار التنمية القومية ، مما أدى إلى نشوء تخصص جديد يسمى « الأنثروبولوجيا الجديدة »[1] .

إن مثل هذه الاتجاهات التحررية في الفكر الإثنولوجي ، قد سادً في الستينات والسبعينات وقد لعبت دول العالم الثالث دوراً واضحاً في وضع أساسياتٍ الأنثروبولوجيا الجديدة » ، التي تعمل على التحرر من الاستعمار ، كما تعمل على إحداث التغييرات في مجتمعاتها ، بهدف تحقيق التقدم ، ومجابهة التخلف في هذه المجتمعات .

وسنرى فيما بعد ، أن العالم الثالث قد استطاع أن يساهم في تحديد مسار الفكر والعمل الأنثروبولوجي ، وتعديل اتجاهاته الغربية ، بصفة عامة ، كما قام بتدعيم فكرة الاهتمام بالتراث الفكري المحلي للدول النامية في إطار الفهم العام للإنسان والحضارة الإنسانية ، وهو الأمر الذي يمثل خطوة جديدة وإيجابية في المسار الحضاري لمرحلة ما بعد الاستعمار .

ظهور الأنثروبولوجيا الجديدة :

بعد أن ظهرت في العالم الثالث حركات الاستقلال والتحرر من السيطرة الأجنبية ، واجه هذا العلم محنته في مسألة فك ارتباطه بالاستعمار . وبمعنى آخر ، تجريد الأنثروبولوجيا من صفتها الاستعمارية ؛ والمواءمة بين ما يمكن أن يشار إليه بالتراث المحلي ، والاتجاهات الدولية في توجيه الأنثروبولوجيا نحو خدمة قضايا الإنسان المعاصر بصفة عامة .

ويعتبر علماء الإنسان أنه – بالرغم من هيمنة الرؤية الإيديولوجية للبورجوازية الأوربية الاحتكارية على الحركة الاستشراقية بصفة عامة ، فإن

---

(١) المرجع نفسه ، ص ١٠ .

هذا لم يمنع من ظهور اتجاه استشراقي غربي ، بدا - في نظرته لواقع الثقافة غير الأوربية - أكثر إنصافاً . وقد قدم الباحث المغربي (محمد وقيدي) دراسة تحليلية جيدة لتطور الصياغة الأيديولوجية في الاستشراق[1] .

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية أخذت بعض « الدول البدائية » في الحصول على استقلالها تباعاً ، وبرزت فكرة « النسبية الثقافية » إلى الساحة ، لتتناسب مع تبلور المسؤوليات الجديدة في العالم الثالث ، وبدايات الحرب الباردة بين المعسكرين الغربي والشرقي ، ومن ثم ظهرت فكرة « التطورية الجديدة » .

يقول الباحث الفرنسي جريوك[2] ، الذي قام بدراسات إثنولوجية في مالي بأفريقيا .

« إن معرفة الغرب للثقافات الإفريقية إنما تستند فيها إلى تراث غربي ، يتم عن جهل بأحوال الآخرين ، وإلى عدم فهم عقلياتهم ، إلى جانب النزعة الغربية للاستعلاء على الآخرين » .

إن رأي جريوك يعكس موقفاً مناهضاً للاستعمار ، ودعوةً إلى فهم التحديث على أنه تعايش بين الثقافات السائدة ، مع تمكين المجتمعات الأصيلة من الحفاظ على أصالتها ، وعلى شخصيتها الحية ، التي - يجب ألا تموت على عكس ما افترض « الإمبرياليون » الاستعماريون .

الإثنوجرافيا الجديدة :

بعد قيام المدرسة البنائية الفرنسية ، قامت مجموعة من الإثنولوجيين الأمريكيين ، بمحاولة لتأكيد علمية دراسة الثقافات الإنسانية ، وذلك عن طريق تقديم وصف وتحليل للثقافة في إطار المفاهيم والتصورات التي لدى الأفراد ذاتهم ، وكما تتمثل في لغتهم . وبمعنى آخر ، فلكي تتحقق

(١) نقلا عن د/حسين فهيم (قصة الأنثروبولوجيا) ص ٢٤٦ - ٢٥٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٠١ .

الموضوعية في الدراسة الإثنو جرافية ، لابد من أن يُحجم الباحث الأجنبي عن إقحام مفاهيمه واتجاهاته التحليلية ، وأن يترك ذلك لأصحاب تلك الثقافة أنفسهم .

وقد عُرف أصحاب هذا المنهج في دراسة الثقافة الإنسانية ، باسم « علماء دراسة الشعوب » . وأصبح هدفهم الرئيسي إذن ، الكشف عن تصورات شعب لنمط الحياة داخل مجتمعهم ، وإيضاح الأسس العقلية الثقافية التي يستندون إليها في تنظيم العلاقات الاجتماعية ، ووضع قواعد السلوك ، ونظم القيم .

وفي إطار هذا المنظور التحليلي ، أوضحتْ عدة دراسات إثنولوجية ، كيف أن الشعوب تختلف فيما بينها من ناحية المعايير والأسس التي يصنِّف على أساسها الأفراد مفاهيمهم واتجاهاتهم ، بصدد التصنيفات المختلفة للأشياء ، كالألوان مثلاً أو الطعام أو النبات أو الحيوان. . وغيرها .

وعلى هذا الأساس ، فإن أتباع الأنثروجرافيا رأوا أن تحليل لغة الأهالي هو أفضل السبل لتحقيق هذا الهدف . لهذا أبدى الداعون إلى الإثنوجرافيا الجديدة اهتماماً كبيراً بدراسة وتحليل اللغة الوطنية لمجتمعات الدراسة ؛ وذلك لاستخراج ما في مفرداتها من مفاهيم ومضامين ، وما قد تحتويه من قيم وأفكار وتصورات ، لا يمكن معرفتها أو التوصل إليها عن طريق ملاحظة السلوك الظاهري لأفراد المجتمع[1] وهذا ما يدعم نظرية النسبية الثقافية .

ومن العلماء الذين أسهموا في دراسات التغير الثقافي في إفريقيا ، وبالتالي في ظهور المدرسة الأنثروبولوجية الجديدة ، الباحث الأمريكي « ميفليل هيرسكوفتز » وهو من المدرسة الثقافية الأمريكية ؛ وقد قام هو وأتباعه بنقد الوظيفيين البريطانيين ؛ لتأييدهم سياسة الإرادة غير المباشرة للمستعمرات . كما دعت المدرسة الثقافية الأمريكية إلى ضرورة تحويل الإرادة غير المباشرة إلى إدراة ذاتية ، يتحقق معها الاستقلال السياسي لتلك المجتمعات .

---

(١) د / حسين فهيم ، المرجع السابق ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

وكان لهذا النقد صدىً عالمي وتأثير كبير في الأحداث السياسية . ففي عام ١٩٤٧م ، مثلاً ، تقدم المكتب التنفيذي لهيئة الأمم المتحدة ، بمشروع إعلان يقضي بضرورة احترام الفوارق الثقافية بين الشعوب ، وأن حقوق الإنسان في القرن العشرين لا يمكن أن تفرقها قيم ثقافية خاصة ، أو تطلعات شعب معين ، وقد قصدوا بذلك مناهضة سيطرة القيم الغربية ومحاولات فرضها على الآخرين[١] .

وهكذا. نجد أن توظيف المعرفة الإثنولوجية للغايات السياسية ، قد عدلت بعد الحرب العالمية الثانية وذلك تحت تأثير الاتجاهات التحررية التي سادت في الفكر الإثنولوجي خاصة في الستينات والسبعينات ، حين رفض عدد كبير من الأنثروبولوجيين (علماء الإنسان) توظيف الإثنولوجيا لخدمة الإدارة الحكومية ، أيّاً كان نوعها وهدفها ؛ على أساس أن ذلك يمثل استخداماً غير أخلاقي لمعلوماتهم عن الشعوب أو المجتمعات ، التي أولتهم الثقة ، ومنحتهم فرصة الدراسة[٢] .

وقد انتهت القضية إلى وضع قواعد وأسس مهنية وأخلاقية لكي يلتزم بها العلماء الإنثروبولوجيون[٣] .

---

(١) المرجع السابق ص (٢٠٠ - ٢٠١) .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٠٨ .

(٣) المرجع نفسه انظر ص ٢١ ، ص ٢٦٢ ، ومع ذلك لا زال توظيف الحكومات الغربية للأنثروبولوجيا في الهمجية مع الشعوب البدائية قائماً ! !

اتجاهان للأنثروبولوجيا الجديدة

عندما سقط الاستعمار السياسي المباشر في العصر الحديث ، بعد الحرب العالمية الثانية ، اتخذت حركات التحرير والاستقلال صوراً متعددة من التعبير عن الرغبة في مناهضة الهيمنة الأجنبية ، أيّاً كانت صورها[1] .

وقد تبلور بعدها اتجاهان ، واضحان وجب تحديد الموقف منهما وهما الاستعمار غير المباشر ثم الاتجاه التحرري .

الاتجاه الأول : لجأ الاستعمار فيه إلى أساليب الحكم غير المباشر للشعوب . ومن صور هذا النوع من الاستعمار (نظرية ملء الفراغ) التي أشرنا إليها في هذا الفصل تحت عنوان (تخصصات الأنثروبولوجيا وفروعها – أنثروبولوجيا التنمية) ، وقد رأينا كيف كانت تمثل هذه النظرية وما تبعها من دراسات أنثروبولوجية لونا * من الاستعمار غير المباشر على الدول حديثة الاستقلال متمثلاً في التبعية الاقتصادية والتحديث الثقافي على الطريقة الأمريكية .

إن مثل هذا اللون من التدخل الأمريكي ، بعد زوال الاستعمار القديم ، أظهر الحاجة الملحة إلى « دراسات وصفية » لأحوال شعوب العالم الثالث من النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها . وتقوم الدراسات الفولكلورية بالنصيب الكبير في ذلك ؛ لكونها تختص غالباً بالمجتمعات قبل التحديث .

وقد اتجه الأنثروبولوجيون الأمريكيون إلى دراسة المجتمعات الريفية التقليدية في البلاد النامية من بلاد العالم الثالث ، أي أن الاهتمام قد تحول من أوائل الخمسينات من دراسة المجتمعات البدائية إلى دراسة المجتمعات الفردية . وتماشياً

---

(١) د / حسين فهيم (قصة الأنثروبولوجيا) ص ٢٤٤ .

مع هذا ، فقد رصدت الحكومة الأمريكية اعتمادات مالية ضخمة ، لتطوير دراسات المجتمعات الفردية في جامعاتها ومعاهد البحوث لديها[1] .

إن هذا التحول من دراسة المجتمعات البسيطة إلى المجتمعات الفردية المركبة ، نتج عنه تغير في المفهومات النظرية ومناهج البحث . وإزاء مقاومة هذه المجتمعات لمثل هذه النوعية من الدراسة ، فقد تم الاستعانة بالدارسين من شباب تلك البلاد (في العالم الثالث) .

كما أن رغبة دول العالم الثالث ، وسعيها نحو التنمية الاقتصادية ، جعلا الدراسات في هذا العلم نحو الموضوعات الاقتصادية ، والعمل المخطط لإحداث التغير المنشود ، من قبل الحكومات الوطنية والهيئات الدولية ، على حد سواء .

وقد قامت فرنسا ، بتبني الاتجاه المركسي في دراساتها للأنثروبولوجيا الاقتصادية . ونجد أن دراسات ميلاسو ، ومجموعة كبيرة من الفرنسيين ، اتجهت نحو دراسة نظم الانتاج السابقة للنظام الرأسمالي ، والكيفية التي غزا بها الاقتصاد التجاري والاقتصاديات التقليدية ، وخاصة بالنسبة للبلاد الإفريقية . وقد اشترك معهم نخبة من باحثي العالم الثالث[2] ، فدرسوا ظاهرة الهجرة من الريف إلى المدينة ، ومسألة الاستغلال الاستعماري ، الذي يعيق التغيير الاقتصادي المنشود من قبل شعوب العالم الثالث .

كانت الدراسات ، عموماً ، تتجه لتكون أكثر تحرراً ، من حيث عدم التقيد بمنطلقات عقائدية مسبقة ، أو التأثر بأي من المحاور أو الأجهزة السياسية . وكان ذلك تقريباً بعد عام ١٩٦٨م .

أما الاتجاه الآخر لدول العالم الثالث والذي كان له تأثيره في العلوم الاجتماعية الغربية فإنه الاتجاه الذي يعبر عن المنطلقات التحررية .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٤٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٨ وما بعدها .

ومن مظاهر هذا الاتجاه ، أن حملات التشكيك في أهداف الأنثروبولوجيا وكتاباتها الغربية ، لم تتوقف إلا بعد ظهور جيل من الأنثروبولوجيين الوطنيين في إفريقيا وآسيا وغيرهما ، أسهموا بجهودهم في دراسة الثقافات التي ينتمون إليها ، وتغلبوا بذلك على مشاعر النقص والعجز التي كانت تستحوذ عليهم ، وتتحكم في موقفهم ضد الأنثروبولوجيا والأنثروبولوجيين[1] .

وقد تفرع عن هذا الاتجاه أيضاً اتجاهان :

الأول : يسعى لتدويل علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) بمعنى إضفاء صفة العالمية عليه ؛ حتى يكتسب صفة العلم ، ولا يلتصق دائماً بالنشأة الغربية ، على اعتبار أن التدويل قد بدأ منذ الثلاثينات ، وكان الهدف يتجه أولاً إلى تكوين نظام يهدف إلى نمو المعرفة الأنثروبولوجية المتراكمة ، على أن تكتسب صفة التعميم ، بغض النظر عن اختلاف الثقافات أو الحدود السياسية بين الدول .

الثاني : يسعى إلى تحقيق « الأنثروبولوجيا المحلية » التي نادت بها دول العالم الثالث ، والتي تعبر عن استقلالية المعرفة الأنثروبولوجية ، عن طريق تكوين قاعدة محلية لأداء مهام البحث والتدريس والنشر والتوثيق والاتصال العلمي[2] وبمعنى آخر ؛ التطلع إلى قاعدة محلية للأنثروبولوجيا في بلاد العالم الثالث ، تتلاءم مع تراثه وحاضره وتطلعاته المستقبلية[3] .

ونتيجة لهذا الاتجاه القومي ، تبدلت أوضاع البحوث الأنثروبولوجية في غالبية بلاد العالم الثالث . فبدلاً من أن يحضر أنثروبولوجيون غربيون لدراسة قبيلةٍ ما في الصحراء ، أو قرية في الريف ، أو حيٍّ من أحياء المدينة ، نجد أنثروبولوجيين من أبناء البلد يضطلعون بتلك المهمة ، ويعبرون عن مواقف ليست انعزالية أو حيادية تجاه أحداث مجتمعهم ، بل إنهم يجدون أنفسهم في مواجهة ظروف ومواقف سياسية واجتماعية وأكاديمية ، تخالف تماماً وضع الأنثروبولوجي الأجنبي

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٥١ .

(٢)،(٣) المرجع السابق، ص٢٥١ ومابعدها .

حين يقوم بمثل هذه البحوث .

يقول الدكتور فائق فهيم :

« في إطار ما كان يدور عالمياً من مناقشات ، خاصة في أواخر الستينات وأوائل السبعينات ، حول جدوى الأنثروبولوجيا التقليدية للواقع المعاصر بصفة عامة ، إلى جانب ظهور عدد من الدراسات حول تقييم خبرات الدراسات الحقلية لبعض الباحثين الأمريكيين خاصة ؛ دعوت إلى عدم إغفال محصلة خبرات ودراسات الأنثروبولوجيين في بلاد العالم الثالث ، إذا كنا نسعى فعلاً إلى بناء كيان معرفي للأنثروبولوجيا ، تكون له حقاً - صفة العالمية والإيجابية »[1] .

وقد أجمع المشتركون في ندوة النمسا على ضرورة الدعوة إلى الأخذ بعين الاعتبار باتجاهات وأعمال الأنثروبولوجيين غير الغربيين ، في عملية إعادة النظر في الأنثروبولوجيا وتشكيلها الجديد لمواكبة عالم اليوم والغد[2] .

كما حرص الأنثروبولوجيون على عدم اصطناع كيانات إقليمية للأنثروبولوجيا ، كأن تكون شرقية أو غربية أو قومية منفردة ، ومنعزلة الواحدة عن الأخرى ، حتى تكون المعرفة العالمية لهذا العلم عالمية المحتوى .

وبشكل عام فقد دعت ندوة النمسا إلى إعادة النظر في الأنثروبولوجيا وتشكيلها الجديد ؛ لمواكبة عالم اليوم والغد . كما أجمع العلماء ، على استمرار عملية النقاش والحوار ، والأخذ والعطاء المتوازن ، الذي يجب أن يخضع فيه أي منظور أو اتجاه - بغض النظر عن مصدره أو أطروحته - إلى الاختبار والفحص وإعادة الصياغة إذا دعا الأمر ، وأن يتم هذا - سواء كان ذلك المنظور أو الاتجاه يتعلق بنظريات تفسيرية أو بأساليب عملية[3] .

وبناءً على ذلك ، فقد دعت إليزابيث كولسن إلى ضرورة دراسة كل

---

(1) المرجع نفسه ، ص ٢٥٣ .

(2) المرجع السابق ، ص ٢٥٣ .

(3) المرجع نفسه ، ص ٢٥٥ .

الثقافات ، وما سمى بعد ذلك بـ « الدراسة المتبادلة للثقافات » . وهذا ما دعا إليه أيضاً الأنثروبولوجي الهندي « مادن » ، وذلك من أجل تدعيم إمكانية التنظير العام على مستوى الثقافات الإنسانية جمعاء . وفي إطار هذا التصور ، أكد « مادن » وضعية الأنثروبولوجيا « كعلم موحَّد لا يهم فيه الفاعل قدر الفعل ذاته » .

وخلاصة الأمر ، فقد تبلورت النظرة إلى الأنثروبولوجيا على أنها « علم عام » ولكن لا يمنع هذا من وجود روافد فكرية أو أطر محلية ، تعمل جميعها في إطار من الحوار والأخذ والعطاء ، للوصول إلى أفضل الوسائل لفهمنا للإنسان وحضارته .

وقد نجحت الهند مثلاً – كما ذكرنا من قبل – في أن تسهم ، من خلال ثقافتها المحلية وتراثها الفكري ، في طرح مقولات جديدة ، وتعديل مفاهيم أنثروبولوجية غربية المنشأ والهدف [1].

وقد فعل ذلك أحد أقطاب الأنثروبولوجيين الهنود « لاليتا فيدراثي » عندما انتقد نظرية دارون التي اعتبرت الإنسان جزءاً من المملكة الحيوانية وانتقد اتجاه فرويد أيضاً الذي أرجع فكر الإنسان وسلوكه إلى الغريزة الجنسية كما انتقد ماركس الذي رفض كل القيم الروحية ، وركز على الجوانب المادية والاقتصادية في فهمه لتطور الإنسانية ؛ وقد أشار الأنثروبولوجي الهندي أن هؤلاء المفكرين الغربيين يختلفون كلية عن غاندي وطاغور وغيرهما ممن نظروا إلى الإنسان ومجتمعه من منظور روحاني ، يقوم على أساس الحب وعدم العنف ! ! .

وهذه كلها اتجاهات إيجابية ، مما يجعلنا نقاوم تأثير المنطلقات الغربية في علومنا الاجتماعية ، وتشويه صورتها .

هناك ، إذن ، حاجة لتؤكد أهمية العودة إلى كتابات الأولين والمعاصرين من المفكرين الهنود[2] . وأيضا هناك حاجة لاكتشاف كتابات أنثروبولوجية خاصة بنا ! !

(١)،(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٦ وما بعدها .

أسباب عدم رواج الأنثروبولوجيا في البلاد العربية :

لم يجد علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) الترحيب الكافي في معظم الدوائر العلمية العربية ، حيث تم دخول هذا العلم تحت اسم علم الاجتماع المقارن ، على أيدي عدد كبير من علماء الأنثروبولوجيا البريطانيين ، ممن تولوا التدريس في الجامعة المصرية ، التي يطلق عليها جامعة القاهرة حالياً .

وقد ظل تدريس هذا العلم ، حتى مدة قريبة جداً ، داخل أقسام الفلسفة أو علم الاجتماع .

أما سبب تأخر الاستفادة من هذا العلم في بلاد العالم الثالث ، مثل بقية العلوم الجديدة التي أخذت شكلها الحديث مع النهضة الأوربية المعاصرة ، فيرجع إلى عاملين :

العامل الأول : ارتباط مفهوم الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) تاريخياً بدراسة المجتمعات « المتخلفة أو البدائية » وصلتها بالاستعمار ، مما كان له تأثيره في التقليل من قيمة علم الأنثروبولوجيا في نظر الدوائر العلمية العربية ، وخاصة في مرحلة العمل على التقدم والاستقلال لشعوب المنطقة العربية[1] .

ولعل انتشار المفهوم الخاطئ عن حركة الفولكلور ، التي انتشرت في الأوساط الشعبية ، وتبعية كثير من الأعمال لصالح الحركة الفنية الاستهلاكية ، يضيف إعاقة أخرى في سبيل تقدم هذا العلم والاستفادة منه . للتخطيط لعمليات التغير الموجَّه إلى الأهداف والغايات ؛ وبمعنى آخر ، توجيه مسيرته وجهتها السليمة .

العامل الثاني : تَعَارُض نظرية التطور الحيوي للإنسان ، مع التفسير الديني لأصل الإنسان ومعيشته على الأرض ، وصلته بآدم أبي البشرية جمعاء .

---

(١) د / حسين فهيم (قصة الأنثروبولوجيا) ص ٢٦٠ .

إن هذا الاختلاف في وجهتي النظر بين الجانبين الأنثروبولوجي والديني ، بصدد نشأة الإنسان ووجوده على الأرض ، قد سبب الجدل والنقاش الكثير ، اللذين لا يزالان قائمين في الأوساط العلمية العالمية ، لدرجة أنْ سُلطت الأضواء على هذه القضية مؤخراً في الولايات المتحدة الأمريكية .

وقد قام أصحاب التفسير الديني لنشأة الإنسان ، بطلب إطلاع الطلاب على وجهة نظرهم ، وإدماجها ضمن مناهج الدراسة ، وعدم الاقتصار على تدريس النظرية التطورية باعتبارها علمية .

إن المعرفة في نظرهم ، يجب ألا تقتصر على كل ما هو علمي ، ونبذ كل ما هو غير علمي ؛ بل لابد أن تتضمن أوجه الحياة المختلفة في جانبيها المادي والروحي ، على حد سواء .

ويرى العلماء في هذا الصدد أن كثيراً من الكتابات العربية القديمة والحديثة ، تطرح وجهة النظر الدينية[1] في تفسير الإنسان وأنه يجب على طالبي العلم الإلمام بها ، حتى إذا قرؤوا النظرية التطورية ودرسوها كانوا على قدر من الفهم والمعرفة بهذه القضية الإنسانية الهامة ، ومناقشتها النقاش العلمي الصحيح .

الاهتمام بهذا العلم :

وفي المجال الفكري فإن الدكتور أحمد أبو زيد – ويعد من الوجوه البارزة في الحقل الفكري على مستوى العالم العربي قام بتأسيس أول قسم للأنثروبولوجيا في جامعة الأسكندرية [2]، كان ذلك في عام ١٩٧٤م وهو أول قسم متخصص في الشرق الأوسط في هذا المجال ، وتخرج على يديه علماء يحتلون مراكز مهمة في بلادنا العربية ، كما يشرف ، في الوقت نفسه ، على مجلة « عالم الفكر » التي تصدر في الكويت ، وقد تقدم طلابه بأطروحات

(١) المرجع السابق ص ٢٦١ .

(٢) (مع عالم الانثروبولوجيا) أحمد أبو زيد الشرق الأوسط – ثقافة وآداب وفنون وتاريخ ٧/ ٥/ ١٩٨٣ .

ذات مواضيع أنثروبولوجية جيدة .

وعموماً ، فبالرغم من هذه الجهود الطيبة التي برزت في الوطن العربي ، فإن هذا العلم لا يزال جديداً في مصر .

ويرى الدكتور أحمد أبو زيد أن هذا العلم ما يزال يجد مقاومة شديدة وخاصة من المتخصصين في علم الاجتماع ؛ لأن علم الأنثروبولوجيا هو العلم الذي يزاحم علم الاجتماع .

أما الفرق بين علم الاجتماع وعلم الأنثروبولوجيا – كما يراه هذا المفكر – فإن علم الاجتماع بمناهجه وطرق البحث التي يلجأ إليها يعتمد في المحل الأول على استمارة البحث وقوائم الأسئلة . ذلك يصلح للمجتمعات الأكثر تقدماً ، وبالذات المجتمعات الحضرية والصناعية ، بعكس الحال بالنسبة للأنثروبولوجيا التي تتفق في نظرتها ومناهجها وأساليبها مع المجتمعات الأكثر تخلفاً أو الأقل تقدماً مثل المجتمع العربي ، فمناهج الأنثروبولوجيا تتطلب من الباحث أن يعيش مع الناس أنفسهم لمدة سنة على الأقل كما يستطيع أن يجمع المعلومات الدقيقة عن طريق الملاحظة والمعايشة .

من ناحية أخرى تهتم الأنثروبولوجيا بموضوعات[١] لا يتطرق إليها علم الاجتماع مثل الثقافة وما تحتويه من عادات وتقاليد وفولكلور وآداب شعبية وقيم وما إليها كما تجعل من (الثقافة) منطلقاً للتحليل والتفسير الأنثروبولوجي ، حيث أعتاد كبار العلماء أن يستخدموا مفهومي الثقافة والحضارة بمعنى واحد .

والأنثروبولوجيا لها علاقة وثيقة بعلم النفس ، فمن خلالها يتعرف الباحث على أعماق النفس البشرية ، كما تتصل بأنواع مختلفة من النظم الاجتماعية والجماعات الإنسانية .

إننا بحاجة إلى هذا العلم لدراسة المجتمعات العربية بطريقة فعالة ومتعمقة ،

---

(١) المرجع السابق نفسه .

لا تتوفر للعلوم الاجتماعية الأخرى . كما أن مسألة تطوير هذا العلم يحتاج إلى إيجاد علاقات وثيقة بين المشتغلين بالبحث العلمي والمشتغلين بالتخطيط ؛ بحيث يعتمد المخططون على الأنثروبولوجيين الذين يستطيعون إمدادهم بمعلومات دقيقة أعمق بكثير من المعلومات التي يجمعها الباحثون عن طريق الاستمارة .

كما تحتاج هذه المسألة إلى اهتمام الجامعات بإمداد أقسام الأنثروبولوجيا وشعبها بالمختبرات ومعامل البحث والأجهزة التي تستخدم في تسجيل المعلومات .

أما بالنسبة للأجهزة الثقافية[١] في الوطن العربي عامة من إذاعة ومجلات ثقافية وغيرها والتي من وظيفتها نشر الثقافة ، فيرى الدكتور أحمد أبو زيد أن واقع المجلات في وطننا العربي أنها تكرر بعضها بعضاً فهي مصابة بانعدام المخيلة وأننا بحاجة إلى اتباع سياسات مختلفة وخططاً دقيقة لتحقيق أهداف معينة بالذات لاجتذاب الجمهور ولتحقيق نهضة ثقافية حقيقية كما تحتاج مثل هذه الأجهزة للاستعانة بكبار المفكرين والأدباء والفنانين لكي يضعوا السياسة التي يجب أن تلتزم بها هذه الأجهزة .

كما أنه من الحاجة أن يتولى شؤون برامجها[٢] مفكرون مبدعون يقومون برسم السياسة الثقافية دون أن يقعوا في حبائل البيروقراطية ومشاكل الإدارة .

وخلاصة الأمر إننا بحاجة إلى تجاوز الصعوبات التي تقف عقبة أمام انتشار علم الأنثروبولوجيا في عالمنا العربي والإسلامي وإغنائه بالدراسات والخبرة اللازمة ؛ ليساعدنا على استعادة دورنا الحضاري في عالمنا ؛ ذلك لأننا نتحمل عبء إنقاذ الإنسان مما تردّى فيه من اهتمامات مادية سيطرت عليه وعلى أعماله لتقوده إلى تدمير نفسه وتدمير العالم من حوله .

---

(١) (٢) المرجع السابق نفسه .

الفصل الثاني
النهضة الأوروبية
والوظيفة الاستعمارية
لعلم الفولكلور

تمهيد :

من أجل توضيح الوظيفة الاستعمارية التي تم تسخير علم الفولكلور لتحقيق بعض أغراضها في هذا العصر ، نجد أنه لابد لنا من القيام بدراسة تحليلية لما جاء في أدبيات الدراسات الفولكلورية والأنثروبولوجية وبعض فروعها المرتبطة بالتطبيقات الاستعمارية عامة ، وما يتصل منها بالعالم الثالث خاصة .

كما أننا في هذا المجال نجد أنه لابد لنا من توضيح طبيعة المجتمع الأوربي ، وطبيعة تعامل الثقافة الأوربية مع الثقافة الفولكلورية عامة وكيف كان علم الفولكلور يُستخدم بوظيفة سلبية تجاه حضارتنا معتبرين خطأً – أنه علم جديد .

ومن أجل توضيح مفهوم صحيح لهذا العلم ووظيفته في مجتمعاتنا نجد أنه من المفيد إعطاء الأهمية لإبراز التعاريف الفولكلورية التي جاءت على لسان علمائنا العرب ، بعد مشاركهم في الدراسات الأنثروبولوجية والفولكلورية ، باعتبارها تمثل الرؤي الفكرية النابعة من ذاتية المجتمع . وهذا ما سنحاول توضيحه أيضاً في هذا الفصل .

النهضة الأوربية وعلاقتها بعلم الفولكلور

إن انحراف التفكير البشري عن المنهج الإلهي ، الذي رسمه الخالق – عز وجل – للإنسان ؛ كي يعمر به الأرض ولا يسيء لنفسه أو لأخيه أو لبيئته هو شيء قديم ، ظهر أول ما ظهر بتأثير الفلسفات اليونانية[1] . وإن موضوع استعمار الإنسان لأخيه الإنسان ، أو استعمار جماعة بشرية لجماعة بشرية أخرى ، شيء قديم أيضاً .

وقد قامت الحضارة الأوربية الحديثة ، بعد احتكاكها بالشرق أثناء الحروب الصليبية وقد أخذت الكثير من المعرفة عن الشرق ، وتم فصل هذه المعرفة عن جذورها وأصولها ، وربطها بالفلسفات والمعرفة اليونانية ذات الأصول المادية للفكر البشري المنحرف عن المنهج الإلهي وفي نهاية المطاف تم إبراز هذه المعرفة الجديدة ، على شكل نظريات حديثة لها بريقها المعاصر ، وتم طمس دور الحضارة الإسلامية تجاه هذه المعرفة ، وإيجاد حالة فكرية توهم بعجز الثقافة الإسلامية عن العطاء الفكري ، وتقوم على أساس التحيز للعنصر الأوربي وفكره ! !

قامت النهضة الأوربية الحديثة مستفيدة من أصول هذه[2] العلوم الإسلامية ، متنكرة للروابط بين الأشياء ومستفيدة من آخر ما توصلت إليه أصول هذه المعرفة التي سرقتها من الشرق ، مثل : التفكير الحر ، والملاحظة ، والمنهج التجريبي ، ومهّد هذا كله السبيل إلى كشوف علمية جديدة ، كانت هي الطلائع لحضارة أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين[3] .

وكانت طبيعة هذه النهضة[4] وتركيبها الاجتماعي والسياسي والثقافي ، قد

---

(١) (٢) ارجع إلى كتاب (شبهات التغريب) لأنور الجندي ، مرجع سابق ص ٣٩ وما بعدها .
(٣) (٤) ارجع إلى كتاب (قصة الأنثروبولوجيا) لـ فائق فهيم ، ص ٢٥٧ وما بعدها .

أفرزا الثورات الثلاث التي نوهنا عنها سابقاً ، وهي الثورة الفرنسية والثورة الصناعية والثورة الثقافية ، التي شهدت طفرات كبيرة في مجالات وأماكن متعددة من أوربا .

ومن سمات هذه النهضة ، أنها قامت بالتركيز على الجانب المادي للإنسان ، سواء كان ذلك في الرأسمالية الاقتصادية أو الاشتراكية العلمانية .

وتمخض عن الثورة الصناعية الانتقال إلى عصر الآلة ، واستقلال الطاقة والموارد ، والاتجاه إلى التصنيع .

ونتج عن اتساع القاعدة الاقتصادية ، وازدهار التبادل التجاري ، وظهور الرأسمالية الحديثة ، موجات الاتجاهات الاستعمارية ، التي سعت إلى توسيع القاعدة الاقتصادية ، والتنافس على جلب الموارد الطبيعية. . وفتح أسواق عالمية لمنتجاتها ؛ مما دفع بحركة الاستعمار خطوات كبيرة خلال القرن التاسع عشر .

ومن جهة أخرى ، نتج عن الثورة الفرنسية مبادئ ركزت على أهمية الإنسان وحريته وكرامته(١) .

ونتيجة لهذه النهضة الأوربية الحديثة ، وثوراتها الثلاث ، ظهر تياران : أحدهما يسعى للدفاع عن كرامة الإنسان وحريته ، والآخر يسعي إلى تحقيق النهضة الاقتصادية ، وتوسيع قاعدتها بأي شكل ، والتكالب على الأمم المستضعفة عن طريق الاستعمار .

وقد تداخل هذان التياران مع علم جديد ، كانت له أصوله الثقافية القديمة ، ولكن تبلور على ضوء تطبيقاته المعاصرة ، وهو علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) وكان لهذا العلم أصول وجذور - كما رأينا .

ولكن « علم الإنسان » في العصر الحديث أصبحت له فروع كثيرة ، نتيجة تطبيقاته المختلفة على مجالات الحياة ، سواء أكان ذلك في الجماعات

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١٧ .

البدائية ، من أجل تأسيس نظريات علم الاجتماع وعلم الإنسان ؛ أم في الأوساط الاجتماعية الأخرى ، مثل المجتمعات الصناعية ، أم في تطبيقات الاستعمار من أجل عمليات التغير الاجتماعي المقصود والمخطط له - كما هو الحال في عمليات التثاقف والتزاوج بين ثقافة استعمارية ، وأخرى لم تصلها بعد مرحلة التحديث .

وقد سمي قطاع الحضارة أو الثقافة السابقة لمرحلة التحديث ، باسم « الفولكلور » أو « الثقافة البدائية » وقد أطلق المستشرقون على الفنون الإسلامية » الفولكلور عبارة « الفن الساذج » أو البدائي[1] .

مثل هذا التمويه بالتسميات ، وغيرها من أجل غايات استعمارية ، يقصد به التقليل من شأن الفنون الإسلامية وطمس المعرفة بصناعته وعلومه .

ومن أهم الفروع العلمية ، التي ارتبطت استخداماتها منذ بدايتها بأغراض استعمارية ، فرع « الأنثروبولوجيا التطبيقية » وهو فرع ذو علاقة وطيدة بالثقافات البدائية ، أو الفولكلورية وعمليات التثاقف .

وقد استخدمت هذه العلوم أو الفروع العلمية من أجل عمليات التغريب والاستعمار ! !

وعندما نعمْل على إلقاء الضوء على « علم الفولكلور » ، من حيث وظيفته الاجتماعية ، ونتائج تطبيقاته بما يخدم أغراض أمتنا ؛ فإنه من الواجب دراسته كجزء من علم أشمل ، يختص بدراسة قضية الإنسان الحضارية ، وهو علم الإنسان « الأنثروبولوجيا » الذي ترتبط به تخصصات مختلفة ، كلها تساهم في

(١) د / عفيفي بهنسي (جمالية الفن العربي) سلسلة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت ، ١٣٩٩ - ١٩٧٩ ، ص ١٧ .

وقد قصد الاستعمار من تعبير (البدائية) التقليل من شأن الثقافات غير الأوربية عامة ؛ بهدف دعم عالمية الثقافة الأوربية .

تقديم نظرة شمولية ومتكاملة عن الإنسان وحضارته . وإن مثل هذا يتفق مع ما أشرنا إليه من حاجتنا إلى شمولية المعرفة لتوضيح الرؤيا الحقيقية لوظيفة هذه العلوم تجاه الإنسان وأعماله .

نقد طبيعة البناء الاجتماعي في النهضة المعاصرة

نقد عام :

يتصف الفكر الأوربي الحديث باتجاهات اجتماعية ومادية معينة منفصلة عن ثقافته القديمة التقليدية . وفي البداية نجد أن الاتجاه الاجتماعي يقوم على أساس التنكر للعقيدة الدينية أو إضعافها ، وذلك عن طريق الفلسفات والنظريات الحديثة التي أخذت شكلا علميا فى العصر الحديث ، كتقديس العقل وإرجاع كل المعرفة إليه ، بالإضافة إلى نظريات التطور التي تهدم الثوابت فتخضع الإنسان وعقيدته والأسرة والزواج ، وغيرها لأفكار التطور . وهذا أمر يخالف ما كانت عليه المثالية المسيحية ، التي كانت منتشرة في العصور الوسطى ، كما يخالف جميع العقائد السماوية التي تقوم على التوحيد .

إن هذا الاتجاه الاجتماعي القائم على الفلسفات المادية ، قد قام بتدعيم الاتجاه الاقتصادي نحو إقامة تنظيمات عقلانية ، تقوم على التفوق الآلي ، وطغيان العامل التكنولوجي على الجوانب الأخرى في الإنسان .

أي إن هذا التفوق التكنولوجي يقوم على أسس عقلانية لكل التنظيمات ، والاتساع في عملية تقسيم العمل وتفريعه ؛ ومن ثم ، يتم انتشار العقلانية على جميع المستويات .

كما يقوم النظام الرأسمالي على أساس حرية رأس المال ، استثماراً وتصرفاً .

ويعكس هذا النظام وديمقراطيته ، النظرة المادية إلى الحياة ، والاتجاه نحو العلمانية ، وتغليب فكرة الرأي العام ، التي تتفوق على فردية الإنسان .

بينما يقوم النظام الماركسي ، على أساس سيطرة الدولة على وسائل الإنتاج ، وإهمال الفرد ، وتدعيم النظرة المادية الإلحادية ، التي تتنكر للأديان السماوية .

ويعمل الفكر الأوربي المعاصر ، على ضوء فلسفاته المادية المتناقضة مع القيم الدينية ، ليبني الحضارة الأوربية المعاصرة مبتدئاً من نقطة اغتراب الإنسان ، التي تكلم عنها ابن خلدون[1] بسبب توسع « الأمصار » أي توسع المدينة الكبيرة ، بالإضافة إلى هيمنة الفنون الصناعية وغياب عطاء النفس والذات والفطرة والاتجاه نحو الترف والرغبة في التأنق من أصنافه ، مع زيادة تفنن الصناعة .

كل هذا مما يفصل الوسائل عن الغايات في اتجاه الحضارة والعمران البشري نحو الرفاهية والترف الصناعي الذي ينحرف عن التعبير عن الحاجات الحقيقية للإنسان ، ويصبح الإنسان مغترباً عن ذاته ، وبذلك تفسد الصلة بين مفاهيم الأشياء والهدف المحدد لها كوسائل غير مقصودة لذاتها ، بل هي وسائل لغيرها ، وخاصة أن الإنسان له وظيفة تعبدية في إعمار الأرض بالعلم والعمل ، وعدم الانحراف عن المنهج الإلهي للإنسان في استخدام الوسائل كالاتجاه نحو الترف والفساد وكثرة الاستهلاك .

وباتجاه الحضارة الأوربية المادية على هذا النحو فإنها تعمل ، في الوقت نفسه ، بأنظمتها الاجتماعية والاقتصادية المعاصرة ، لكي تستوعب الإنسان الفرد ، عن طريق ما يسمى بالإنسان الجماهيري والجماعة الجماهيرية ، وذلك بعد أن عملت على تفويض فردية الإنسان وجماعاته الفطرية ، كالأسرة والمجتمع المحلي ؛ مما نتج معه من اغتراب الإنسان الشديد .

وكان من نتيجة ذلك كله اغتراب إرادته واحتواء ذاته .

الفكر الأوربي ينتقد هذا البناء :

لقد تناول العلماء الأوربيون بالنقد ، هذه العملية التي قامت عليها نزعة

(١) انظر مقدمة ابن خلدون – دار العودة – فصل (الحضارة غاية العمران ونهايةً لعمره) ص ٢٩٥ .

التحديث هذه من خلال آثارها الاجتماعية والأخلاقية والثقافية الجديدة ، بمقارنة طبيعتها الجديدة ، بما كانت عليه المجتمعات في القرون الوسطى ؛ فقد تحدث العلماء عن مسألة تحطيم القوى الفردية للإنسان وظهور فكرة المساواة التي تشير إلى فكرة الأكثرية والتي تقوم ، في الأصل ، على نظام الديمقراطية ، وتعمل على انتزاع دور الأسرة ، وتقضي على فكرة المجتمع المحلي ، وتفصل الإنسان عن ماضيه وجذوره الثقافية[1] .

كما أشار العلماء إلى طبيعة النسق الاقتصادي الجديد ، المتولد عن النزعة الفردية ، والتقسيم العقلاني للملكية ، ومسألة طمس السمة الخاصة ، التي هي جزء من السمة العامة .

لقد تطرق بعض العلماء ، ومنهم توكفيل (١٨٠٥ – ١٨٥٩). لقضية المتاجرة بالفن والأدب ، نتيجة النزعة التجارية ، وانتهوا إلى أن النزعة الفنية الجديدة ليست إلا عبارة عن مظهر انفصال الإنسان الحديث عن جذور الثقافة .

وتكلم فروم (١٩٠٠) عن طبيعة النضال من أجل الحرية في التاريخ الحديث ، الذي أخذ يركز اهتمامه للقضاء على الأشكال القديمة ، وأشار أيضاً إلى ظاهرة اعتلال الأمور الاقتصادية ، التي تطبع أثرها على اعتلال الجوانب الثقافية ، كما نبه إلى ظاهرة المجاراة الأتوماتية للإنسان[2] الحديث .

أما المفكر ماكس فيبر (١٨٦٤– ١٩٢٠) فقد تحدث عن نقمة العقلانية[3] ، حيث يرى أن العقلانية تلتهم المجتمع التقليدي ، والثقافة التقليدية ، وتهدد

---

(١) د / السيد علي شتا (نظرية الاعتراب من منظور علم الاجتماع) ص ٧٠ – ٨٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٤١ – ١٥٦ .

(٣) نعني بالعقلانية : الافراط في العقلانية في نظام الحضارة الاوربية والأصل أن العقلانية هي من القيم الانسانية الجامعة – التي تحتاجها الحضارة ، فالعلم الموضوعي وعقلانيته لا يتناقض أبداً مع قيم فكرنا الاسلامي ، ولكن ما نقصده بالعقلانية الزائدة هو الإفراط في العقلانية وتجاهل الأخذ بمبدأ الروح ، أو الإفراط في التعقل على حساب وحاجات النفس البشرية إليها .

الإبداع والتحرر ، وتدمر العقل . كما رأى أن النزعة الرأسمالية هي ظاهرة شديدة التعقيد ، ومتسمة بالعقلانية العالية ، وقد عمت جميع مظاهر الحياة في النسق الاقتصادي والاجتماعي الحديث ، في الحضارة الغربية ؛ لما تعانيه من التعقل ، الذي يطبع أثره على السلوك ؛ ومن ثم فقد اعتبر فيبر أن العقلانية هي حالة من تيار عام شامل لكافة التنظيمات الاقتصادية والإدارية والاجتماعية الحديثة .

وقد اهتم زمل (١٨٥٨ – ١٩١٨) بحالة اغتراب الإنسان الحديث في المجتمع الكبير[١]، الذي جاء بديلاً عن المجتمع المحلي . وأبرز نموذجاً من نماذجه ، وهو مجتمع العاصمة . كما اهتم بمشاكل الإنسان في المجتمع الصناعي ، وضغط التنظيمات الاجتماعية عليه ، وظاهرة ميل الإنسان للاستغراب والاندهاش ، بالإضافة إلى إحساسه بالفردية ، والميل للاعتزال ، والانكماش في الملذات .

كما اهتم العالم تونير (١٨٥٥ – ١٩٣٦) بطبيعة العلاقات في المجتمع الكبير ، فجاء على وصف العملية التي رفعت المجتمع المحلي ، وأسلمته إلى المجتمع الكبير ، فأدت إلى مكننة العلاقات البشرية ، وبين تركيزها على الجانب الكمي للمجتمعات المعاصرة ، وما بها من أناس وإهمالهم للجانب الكيفي ، الذي يهتم بالعلاقات السائدة .

ومن الأمور الهامة التي يبّينها أيضاً ، مسألة التحول الذي طرأ على الفكر البشري والإرادة والمجتمع . وميّز بين نوعي الإرادة البشرية[٢] : الطبيعية والعاقلة .

النوع الأول : الإرادة الطبيعية ، وهي التي تشير إلى التعبير التلقائي عن دوافع الإنسان ورغباته ، حيث يتوافر فيها كل عناصر الحب والولاء والشرف

---

(١) (٢) المرجع السابق ، ص ٩٢ – ٩٩ .

والصداقة ، وما إلى ذلك ، في المجتمع المحلي . وقد اكتسبت الإرادة الطبيعية صفة الإرادة المتكاملة ، وتلقائية التعبير .

النوع الثاني : وأسماها توينز بالإرادة العاقلة « الإرادة الرشيدة » حيث شكلت بصورتها الأولى من خلال العملية المتعمدة للذهن الرشيد . وهي تفتقد للتلقائية والدافعية ، التي تصاحب الإرادة الطبيعية . كما أن العناصر الأخلاقية والإيجابية لا تجد سبيلها في المجتمع الكبير من خلال الإرادة العاقلة ؛ وإنما القانون هو الذي يسود هذا المجتمع والأفراد الذين تسود لديهم الإرادة الطبيعية ، يكشفون عن الاستقامة في شخصياتهم كما تبدو شخصياتهم في كل أفعالهم ، وفي الإرادة الطبيعية تكون الوسيلة والغاية مرتبطتين وغير مختلفتين بينما انفصال الوسائل عن الغايات وعدم انسجامها هو صميم الإرادة العاقلة . وإن الإرادة الرشيدة لهي التي توجهنا للتضامن مع أفراد لا نشعر بالضرورة نحوهم بالانجذاب .

ومن العلماء الذين بحثوا في حالة ضعف القيم الدينية والاتجاه نحو العلمانية في الحضارة الحديثة ، المفكر توكفيل وآخرون غيره ، مثل فردم ، الذي أشار إلى مسألة فقدان الإيمان بالله تعالى في القرن التاسع عشر ؛ ومن ثم تنبأ بأنه سيتبعها حالة فقدان الإنسان لإنسانيته في القرن العشرين .

وممن تحدث عن الموضوع نفسه (فقدان الإنسان لإنسانيته) رينيه دوبو[1] ، المختص بعلم الحياة – البيولوجيا – وهو باحث علمي ، وأستاذ في جامعة روكيلّفر بنيويورك . وقد نال جائزة نوبل عام ١٩٧٦م ، وله كتاب بعنوان « إنسانية الإنسان » . يتكلم فيه عن الفوضى التي خلفها الإنسان من جراء جهله المؤسف بتأثير بيئته في حياته الإنسانية ، وأعماله التي عاكست الطبيعة الإنسانية من خلال هذه العلاقة بينه وبين بيئته .

---

(١) رينيه دوبو (انسانية الانسان) تعريب د / نبيل صبحي الطويل، مؤسسةالرسالة ، بيروت ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م ، ص ٦ .

أثر الأنظمة الأوربية الحديثة (الثقافة الأوربية) في الجماعات البشرية الأخرى

حين نبحث في الحضارة الأوربية الحديثة ونهضتها الصناعية ، نجد العامل التقني والمادي فيها ، قد اقترن بمصالح أيديولوجية وسياسية معينة .

ولا يقتصر أثر هذا على مجتمع أوربا فقط ، والهيمنة المادية على جوانب الثقافة في المجتمع الأوربي ، بل إنه يتعدى في تأثيره إلى ثقافة الجماعات البشرية الأخرى . وذلك من واقع أيديولوجيته ، التي تختفي وراء تفوقه الاقتصادي ، وما يسعى إليه من إنتاجية مربحة ، على حساب الجوانب الاجتماعية للحضارات الأخرى ، مما يؤدي إلى فقدانها لطبائعها الأصيلة ، وعاداتها التقليدية ، وروح الاكتفاء الذاتي التي كانت سائدة لديها قبل عمليات التحديث المعاصرة .

يقول ماركيوز عن تلك الأشكال المتقدمة ، سواء الرأسمالية منها أم الاشتراكية : « إن الفارق بينهما بسيط ، وشكلي ، وإنهما يؤديان معاً إلى اغتراب الاحتواء ، وذلك عن طريق سلب المعرفة بالذات الحقيقية ، مما يؤدي إلى ذلك الحرمان الوجداني في العلاقات الإنسانية »[1] .

كما تعمل هذه التكنولوجية المتقدمة ، على تجريد البيئات الثقافية والاجتماعية من الصفة الشخصية ، مما يؤدي إلى قيام مثل ذلك الحرمان .

---

(١) د / سيد علي شتا (نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع) انظر إلى فكر ماركيوز عن الاغتراب .

وقد عملت هذه التكنولوجية المتقدمة وعقلانيتها في الإدارة وغيرها على إضعاف ممارسات الاكتفاء الذاتي ، وكذلك قضت على كثير من الطرق الشعبية في الصناعات وفنونها كالعمران والنسيج والملابس والزراعة وصنع الأغذية .. الخ .

وإن التكنولوجية المتقدمة وأيديولوجية المصالح المسترشدة بالعقل هذه ، تحاول أن تضعف من ممارسات الاكتفاء الذاتي والاعتماد على النفس ، التي كانت هذه تشكل الدعامة الأساسية للروح التقليدية للجماعات والمجتمعات البشرية .

ومن برامج هذه التكنولوجية أنها تعمل على صناعة رأي عام يتفق مع المصالح الاجتماعية الخاصة بها ، بغض النظر عن حاجة الأفراد الحقيقية ، مع تكثيف حاجات كاذبة تعبر عن تلك المصالح والأيديولوجيات السائدة والمسيطرة[١] ، عن طريق العوامل التكنولوجية نفسها »[٢] .

وباطلاعنا على ما تفعله التجمعات الرأسمالية عن طريق شركائها وأساليبها ، وخاصة في تهديم العادات التقليدية ، وأساليب الحياة للمجتمعات عموماً ، ومثلاً الزراعة التقليدية في كثير من بلدان العالم - نلاحظ كم من المآسي تخلفها هذه الرأسمالية العالمية في مشاكل الزراعة وصناعة الجوع في العالم .

وقد عمل الاستعمار المباشر على تدمير الصناعات المزدهرة التي كانت تخدم الأسواق المحلية ، بسبب « زراعة التصدير » ولم يكن من السهل ، بعد ذلك ، محو الاستعمار المباشر بمجرد خروجه من البلاد وإعلان الاستقلال .

وتمارس مثل هذه الشركات أساليبها غير المباشرة في الاستعمار ، بعد انتهاء عهد الاستعمار العسكري في كثير من بلدان العالم ؛ وذلك بدعمها كبار الملوك على حساب قهر المعدمين وصغار الزراع الناشئين .

كما أنها تقوم بدعم زراعات الترف ، مثل محصول البن والشاي أو الفراولة أو الكاكاو ، وغيرها من المنتوجات التي تأتيها بالربح الوفير ، من جراء تعاملها مع مترفي العالم وتأمين حاجاتهم ، ويكون ذلك على حساب تخريب تقاليد الزراعة الأساسية ، ومحاصيل الغذاء التي تشكل القوت الأساسي للشعوب .

ومن الأمور المساعدة على أعمال الرأسمالية هذه ، ما يلي :

---

(١)،(٢) السابق نفسه .

ـ وسائل الدعاية التي تعمل لتحقيق الربح على حساب الحاجات الأساسية للإنسان ، ومن أهمها إفساد العادات التقليدية ، عن طريق تشكيل العقول وتغيير العادات[1] في المأكل والمشرب والمسكن وغيره بما يتناسب مع مصالحها .

ـ سوء استخدامها للتكنولوجيا الحديثة ، فعن طريق مكننة[2] الزراعة ، يتم العمل على إخراج العامل خارج عمليات الإنتاج ، في كثير من الأحيان ، كالتخلص من المستأجرين ، أو تغيير القوانين ، أو التهرب من متطلبات الحد الأدنى للأجور ، مما يكون له أثره في الحياة الاجتماعية عند الشعوب .

ـ وعن طريق وكالة التنمية الدولية ، ومشروعات التنمية ، فإن البنك الدولي يتجاهل الجذور الاجتماعية للفقر ، فالتنمية تدور لتنتهي إلى أيدي كبار الملاك .

إن الديون الخارجية ، كثيراً ما تدفع البلاد إلى الوقوع تحت ضغط أكبر ، لتوجيه مجالات البلاد نحو التصدير . ولا يساعدها هذا على بناء أساس للاعتماد على النفس . أما المعونة فكثيراً ما تستخدم المعونة الغذائية من أجل أعمال التبشير[4]، كما يستخدم الغذاء كسلاح سياسي[5] قوي . ومن المثير للاستغراب والسخرية ، أن بعض الشركات الأجنبية تستغل المعونة الغذائية لكي يأكل الناس ما يجب أن تبيعه لهم هذه الشركات .

وفي هذا يقول فرانسيس مورلابييه : « إننا لا نزعم أننا نملك كل الإجابة بشأن المعونة الغذائية ، إلا أن بعض النقاط قد أصبحت واضحة .

« لابد أن يعرف الجياع أن مانحي الغذاء الغربيين لا يمكن أبداً أن يكونوا مصدراً للأمن الغذائي وفي الحقيقة فإن الأمن الغذائي ليس شيئاً يمكن أن يُعطي حتى من حكومة أجنبية حسنة النية ، والأفضل أن تفترض البلدان المتخلفة أن

(١) فرانسيس مورلابييه جوزيف كولينز – صناعة الجوع – سلسلة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت ، ص ٣٥٨ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٩٧ – ١٩٩ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٤١١ .

(٤)،(٥) المرجع السابق نفسه .

الحكومات الغربية ستستخدم فوائضها الغذائية للمساعدة على توسيع أسواقها التجارية ، ولمساعدة تغلغل الشركات الزراعية لمساندة نفس الأنظمة ، التي تعمل في تعارض مباشر مع السياسات التي يمكن أن تمكّن الجوعى من تحرير أنفسهم من الجوع »(١) .

ولو دققنا في أعمال الشركات العالمية عموماً وما تملكه من عقلانية التنظيم والتقدم في أعمال التكنولوجية وأساليب الحضارة التي تتفوق في تنظيمها ووسائلها على ما تملكه الشعوب والجماعات البشرية لوجدنا أنها تلعب دوراً كبيراً في احتواء قدرات الشعوب من حيث تكامل العمل الفردي وصناعاته مع العمل الجماعي وتنظيماته . وبمعنى آخر فإن هذه الشركات تلعب دوراً كبيراً في إماتة قدرات الشعوب واستهلاك إمكانياتها واحتواء ثقافاتها لصالح الثقافة الأوربية المعاصرة وماديتها وما تملكه من عقلانية التنظيم للوسائل التكنولوجية المعاصرة .

ومن الأهمية أن نذكر أن العالم العربي بصناعاته وأعماله التي تشكل أرضية ثقافية وأعمدتها ، قد تأثر تأثراً واضحاً بأعمال هذه الشركات العالمية وتكنولوجيتها الزائدة ، التي تفوق كثيراً ما تملكه شعوبنا من إمكانيات حرفية وأعمال تكنولوجية تجعلها متصلة بالحضارة المعاصرة وآليتها الحديثة .

إن ما تملكه هذه الشركات من إمكانيات تنظيمية وخبرات علمية وفنية ورصيد مادي يجعل تفوقها هذا عاملاً له تأثيره الكبير في منافسة هذه الحرف الصغيرة وأعمالنا التعاونية الجماعية ، ومن ثم احتوائها .

لقد أخذت مثل هذه الجهود وتلك الحرف تموت وتندثر أي تختفي معها مظاهر الثقافة في الوطن العربي والإسلامي وما يرتبط بها من قيم خلقية وعقائد دينية ، وطرق أصيلة مرتبطة بمظاهر الاعتماد على النفس وعلى إمكانيات البيئة

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٤٦٣ .

المتصلة بعواملها الجغرافية والتاريخية ، سواء في المجال الزراعي أم المجال الاقتصادي[1] أم العمراني . وغيرها .

ونتيجة لهذا التفوق في الخبرة والإمكانيات ، فقد كثرت في العصر الحديث المشاريع التي تنفذها شركات أجنبية في البلاد العربية والإسلامية ، ومثال على ذلك ، ما يتعلق بالجوانب العمرانية والفنية التي لها علاقة بما يسمى بالفنون الإسلامية .

إن تأثير منافسة هذه الشركات ، سواء في مشاريعها أم في منتجاتها التي أخذت تغزو الأسواق العربية ، قد ساهم مساهمة فعالة ، إلى جوانب عوامل التقسيم السياسي في البلاد العربية ، في تفكيك عوامل الوحدة الاقتصادية[2] والاجتماعية التي كان ينعم بها الوطن العربي والإسلامي ، قبل عمليات التحديث المعاصرة .

---

(١) د / وجيه كوثراني (بلاد الشام ، السكان الاقتصاد والسياسة الفرنسية) ص ١٥١ وما بعدها .
(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٠٢ وما بعدها .

أثر الرأسمالية في تفتيت العادات التقليدية
(إسراع الأوربي لتسجيل تراثه)

كانت الوضعية الحضارية الواسعة في العصر الحديث ذات أثر كبير في تفتيت البناء الاجتماعي المعاصر .

وقد عاش مفكرو أوربا التغيرات التي طرأت على مجتمعهم ، بعد نزعة التحديث . وعايشوا الأشكال الحضارية وأنظمتها الحديثة . لقد شعروا أن النسق الاقتصادي الحديث كان له تأثيره في البناء الاجتماعي بشكل عام ، يساعده في ذلك الاتجاهات الفكرية الحديثة .

إن مثل هذه الحضارة الجديدة ، كانت تعمل للقضاء على كل الأشكال القديمة[1] ، وكانت تقوم بتفتيت تراثهم القديم ، الذي كان يقوم على السنن الاجتماعية ، والتي هي حصيلة خبرات الأجداد الطويلة ، والتي تراكمت عبر السنين الممتدة من الماضي إلى الحاضر والتي عرفت فيما بعد بالعادات التقليدية .

ولنضرب على ذلك مثالاً بعادة زراعية تقليدية ، أي زراعة نوع من القمح ذي حبة صغيرة ، اعتادت إحدى المناطق الإيطالية زراعته ، لأنها وجدت منه وفرة في الإنتاج ولملاءمته للتربة أو المناخ والبيئة .

وتأتي الرأسمالية الجديدة بشركاتها ، فتعمل على تفتيت هذه العادة الزراعية القديمة لتزرع مكانها محصولاً آخر ليس ضرورياً كقوت للشعب ، كما هو الحال بالنسبة للقمح ، ولكن يحقق ربحاً أكبر لصالح فئة قليلة من الناس .

---

(١) د / السيد علي شتا (نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع) فكرفروم عن الاغتراب ، ص ١٤١ وما بعدها .

وكما فعلت الرأسمالية بالنسبة لإحدى العادات الزراعية – على النحو الذي ذكرنا – فانها تفعل الشيء نفسه بالنسبة لتفتيت كثير من العادات التقليدية القديمة ، سواء عادات الاقتصاد المنزلي أو العادات ذات القيم الأخلاقية أو الثقافية ، والجوانب الاجتماعية. كل ذلك ، لأن الحضارة المادية الحديثة ، تركز على الجانب المادي على حساب الجوانب الأخرى ، إنها تسعى إلى تحقيق الربح ، دون مراعاة للقيم التي توازن بين جوانب الإنسان المختلفة ، والتي توارثها الإنسان عن أجداده ، أي أنها تسعى لتغليب العامل التجاري على العامل الإنساني .

لقد كانت نزعة التحديث ، بما فيها من اتجاهات فكرية ومن طغيان التكنولوجية ، تسيطر على المناخ الفكري ، فلم يكن للإنسان الأوربي من وسيلة للمقاومة إلا أن يستغل تقدم علم الأنثروبولوجيا وتخصصاته المختلفة ، فينكب العلماء في هذا المجال ، ليسجلوا تراثهم القديم بتجاربه وعاداته ، وكل جوانبه الفكرية والروحية والمادية ، أو ما يسمى بالفولكلور .

وكانت ظاهرة نشوء المتاحف في الرأسمالية المعاصرة ، تساهم في هذا المجال ، وتعمل متعاونة على حفظ هذا التراث من الضياع والاندثار .

لقد كانت وسائل الإنسان الصناعية ، خلال عصر ما قبل الصناعة الحديثة ، بسيطة ، حيث يزاول كل منهم جميع جوانب الإنتاج بنفسه ، ابتداء من الخطوة الأولى في العمليات الإنتاجية حتى نهايتها ، وكان الإنسان يسيطر على إيقاعات عمله ويتحكم بها ، بعكس ما هو عليه الآن ، إذ أصبح عمل الفنان منفصلاً عن إنتاجه ومغترباً عنه .

كان تطور الوسائل الحضارية في الماضي بطيئاً ؛ بحيث استطاع الإنسان آنذاك استيعاب ذلك التطور على مر السنين ومتابعته دون أن يقصد ذاته أو تراثه .

أما الآن ، فقد صار التطور التكنولوجي مذهلاً من الناحية التاريخية ، وكذلك أصبحت التغيرات الاجتماعية مباغتة مذهلة بالقدر نفسه .

بدايات جمع الفولكلور الأوربي في ألمانيا وغيرها

كان فيلهم مانهارت ، هو أول من درس الفولكلور (١٨٣١ — ١٨٨٠م) واهتم بتتبع الانتشار الجغرافي لعناصر التراث الشعبي ، حيث أجرى بحثه في محيط أرجاء ألمانيا والامبراطورية النمساوية المجرية ، وغيرها من الدول .

ومن أجل ذلك وضع أسئلة الفولكلور بلغاتٍ مختلفة ، ونسخ من أجل ذلك خمسين ألف نسخة ، أرسلها إلى مختلف أرجاء تلك البلاد .

وتوصل هذا العالم إلى الوسيلة المنهجية ؛ حيث بدأ بتناول « عادات العمل الزراعي » وكانت صفحات الكشف الأربع ، تضم ثلاثة وثلاثين سؤالاً .

وكان في تقدير مانهارت أن يضع استبيانات أخرى ، فيما بعد ، عن موضوعات : « الأغاني الأسطورية والسحرية » و « الجدول الزمني للأعياد الشعبية » و« العادات الشعبية » و« الخرافات » و« التاريخ الطبيعي للمعتقدات الشعبية » و« الكائنات الأسطورية » ، عادات الزواج ، وغيرها من الموضوعات .

وهكذا توصل هذا العالم العبقري إلى الوسيلة المنهجية لدراسة الفولكلور ، ولكن لم يكن قد حان الوقت بعد ، لإدراك منهج الدراسة الجغرافية للعناصر الشعبية ، بالمفهوم الحديث ، الذي نعرفه اليوم .

وظلت عملية الجمع في معظم الدول الأوربية تسير سيرها العشوائي غير المنتظم ، القائم على رؤى شخصية ، دون تنظيم عمليات جمع شاملة للتراث الشعبي ، على نطاق الدولة أو الدول التي تشترك في الثقافة نفسها .

وظل الأمر كذلك إلى أن أخذت تظهر محاولات لوضع دليل لتوجيه الجامعيين في ميادين الأنثروبولوجيا والفولكلور يكون أساساً لعمليات جمع

موحدة ومن أبرز هذه المحاولات كتاب صدرت طبعته الأولى عام ١٨٧٤م ، وما زالت تتوالى طبعاته ، وكتاب آخر صدر منه سنة ١٨٩٠م[1] .

الفولكلور الأيرلندي :

قامت الحكومة الأيرلندية ، بإنشاء معهد الفولكلور الأيرلندي ، وذلك في عام ١٩٣٠م وتبعها تأسيس لجنة الفولكلور الأيرلندي ١٩٣٥م ، إذ كان حدثاً هاماً في تاريخ دراسات الفولكلور والإثنولوجيا الأوربية ، وهذه الأجهزة استطاعت إنجاز الكثير ، إلا أن ضخامة المادة المجموعة ، وتعقد التراث الأيرلندي أوضحا للقائمين على دراسات الفولكلور الأيرلندي ، مدى الفائدة العظيمة التي حققها نشاط الجمع السابق ، في إنقاذ تراث كبير ، كان مآله الضياع والنسيان والتشويه .

ثم ظهر كتاب سوليبان بعنوان مدخل الفولكلور الأيرلندي ، عام ١٩٤٢م ، حيث تميز سوليبان بمعايشته لتراث بلاده الشعبي ، بالإضافة إلى أنه عمل مشرفاً على أرشيف لجنة الفولكلور الأيرلندي ، وكان هدفه أن يكون هذا الكتاب أدلة معينة في أيدي الجامعيين بالدرجة الأولى .

وكان لهذا الدليل تأثير كبير في تقدم العمل في ميدان الجمع باطّراد كبير للمادة المجموعة وكان لهذا الدليل التأثير غير المباشر ؛ حيث جذب آلاف الناس ، وكسب طيب مشاعرهم ، ومنح هؤلاء الناس ؛ جامعي الفولكلور ، توجيهات واقتراحات مفيدة ، بمجرد إدراكهم أهمية هذا العمل ومجاله .

وقد تم وضع هذا الدليل في عام ١٩٤٢م وكانت خمس سنوات قد مرت على العملية الضخمة لجمع التراث الشعبي الشفاهي الأيرلندي .

يتكون الكتاب من أربعة عشر فصلاً ، تتناول على التوالي : الوحدة

---

(١) د / محمد محمود الجوهري وعبد الحميد حواس (الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية) مكتبة القاهرة الحديثة ، ص١٠ ، ١١ .

العمرانية ، والمسكن ، المعيشة ، والحياة المنزلية ، المواصلات ، والتجارة ، المجتمع المحلي ، الحياة البشرية ، الطبيعة ، الطب الشعبي ، الزمن ، المعتقدات والممارسات الشعبيةو التراث الأسطوري ، التراث التاريخي ، التراث الديني ، الأدب الشعبي الشفاهي ، والرياضة والألعاب الشعبية ويعتبر هذا الكتاب الأطلس الفولكلوري لمظاهر عملية الجمع الشاملة للتراث الفولكلوري(١) .

ومن الجدير بالذكر في هذا الشأن أن المراجع التي صنفها أنتي آرني(٢) الفنلندي وستيث تومسون الأمريكي لفهرست طرز الحكايات الشعبية وجزئيات الأدب الشعبي اعتمدت أساساً على المصادر المكتوبة قديمها وحديثها ، وأصبحت أدوات أساسية من أدوات البحث الفولكلوري .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢ ، ١٣ .

(٢) د . سعد الصويان ، نحو تحديد مفهوم عربي للمأثور الشعبي جريدة الرياض ، العدد ٦٨٤٧ ، ٢٣ /مارس /١٩٨٧م .

ماذا حققت قضية الفولكلور بالنسبة للتراث الأوربي ؟

ذكرنا سابقاً كيف قام مفكرو أوربا بنقد نزعة التحديث ؛ حيث أحدثت هوة بين ماضي الثقافة كما كانت في العصور الوسطى ، وبين حاضرها كما هي في العصر الحديث بشكلها العلماني ، مع طغيان تكنولوجيتها الحديثة .

ومع كثرة الأصوات التي نبهت إلى خطورة ذلك ، فقد استمرت التكنولوجيا في طغيانها ومن هنا كانت المبادرة بجمع التراث وحفظه ، وكانت فعلاً عملية علمية عظيمة ، تعاون عليها – كما رأينا – المتحمسون لهذه الفكرة مع الأوساط العلمية ، مستغلين ظاهرة التقدم العلمي في أوربا ، لتسجيل الخبرة البشرية السابقة ، وما كان فيها من فكر إنساني في أمور الصناعات ، التي تبني الحضارة وما تصطبغ به من صبغة أخلاقية وإيمانية ، تهدي الإنسان وتوجهه إلى حسن استخدام هذه المعرفة ، وهذه الصناعات ، وتلك الخبرة البشرية ، لما فيه خير الإنسان وتقدم الحضارة :

إلا أن أسلوب الحياة الجديدة ، وما فيه من متغيرات اقتصادية واجتماعية وثقافية حديثة ، منفصلة تماماً عن الثقافة القديمة ومفاهيمها : يجعل حتمياً من مثل هذه الثقافة أو الفنون الفولكلورية ليست أكثر من سجل فولكلوري ، أو آثار متاحف ، يحتفظ بها دون أن يستخدمها ليهتدي بخطاها وقد بذلت محاولات لردم هذه الهوة كي يتصل الحاضر بقيم الماضي . ولكن. ماذا حصّل الإنسان من هذا كله ؟

إن إنسان الغرب استطاع أن يمتلك تراثه ولا يضيعه ، ذلك أن التراث هو الصورة الحضارية للإنسان ، أو الإطار الحضاري له والإنسان ما هو إلا صورة مجتمعه يقول الأستاذ صفوت كمال عن التراث : (إنه رصيد المجتمع ، رأسماله الذي يستطيع به أن يحافظ على شخصيته المميزة بلا خوف من

الضياع . وإن أصبحت تحكمه قيمُ وليدةُ نهضة العصر. عالم لم يعد يرجع إلى أصله ، أو لا يريد ، خاصة بعد أن أتاحت التقدمات التكنولوجية وسائل الاتصال أو المواصلات)[1] .

ولكن في الحقيقة تظل الفرصة لدى الإنسان الأوربي في العودة إلى أصله الحضاري[2] المبني على القيم الثابتة ، قيم أخلاق التوحيد التي أضاعها. وبإضاعته لها أخذ يسير في طريق إضاعته لنفسه وللآخرين .

إن الإنسان الغربي تمدين في كل شيء إلا من داخله. لقد اعتبر المدينة ثورة على القديم وإمعاناً في إذلال هذا القديم جعله سخرية له ، ومجرد « ديكور » لحياته، يحتفظ به ولا يستخدمه .

لقد اتجه الإنسان الأوربي إلى أن يستخدم من تراثه ما يجعله زينة ومظاهر جمال لحياته العصرية ، يحتفظ بها ولا يلتزم بمضمونها .

ومن نماذج هذا الاستخدام المظهري. أننا نلاحظ أنه يستخدم بعض تراثه من أجل الأبهة والعظمة حفاظاً منه على المظاهر الخارجية لحياته ، وعلى مراسم استقبالاته فيزود بما تحتاج إليه هذه المظاهر من الملابس الفولكلورية مما يعطيها جمالية وأبهة ، ويحافظ على عظمة مظاهره الاجتماعية وضخامة مراسمها .

ولكن الأوربي في حقيقته لم يتمدين من داخله مع نفسه ، ومع أخيه الإنسان في مجتمعات العالم الثالث والشعوب الأخرى ، فما زال الاستعمار هو منهجه ، وما زال استغلاله لأخيه الإنسان يدخل ضمن منهجه الاقتصادي المادي وتكنولوجيته السياسية على حساب الدول الأخرى الضعيفة ، وعلى حساب

---

(١) صفوت كمال (فنوننا الشعبية) مجلة أسرتي الكويتية ، العدد (١٤) ، السنة (١٤) .

(٢) يعني الرجوع إلى الأصل الحضاري أن العناصر الفولكلورية ، سواء المادية منها أو المعنوية ، هي النماذج الباقية للحضارة التي صنعتها ذاتية الانسان قبل عملية التحديث وسيطرة التكنولوجيا على الإنسان وخضوعه لها وإن كل عنصر فيها له جوانب الثقافة الفكرية وجوانبه الاجتماعية التي تدل على شخصية المجتمع وثقافته .

الفئات التي تموت جوعاً من أجل تحقيق ربحه .

إن الإنسان الأوربي كثيراً ما التزم بمظاهر فولكلورية وحافظ عليها ، وكثيراً ما كان هذا الفولكلور غير نافع بل يحمل مباديء الرفاهية ومظاهر فساد الحضارة التي تخالف سنن بقاء الحضارات واستمرارها .

لقد كان التزام الغربي بالفولكلور واجهة حضارية فقط ، تحمل مظهره الإنساني من جهة ، بينما هو يمارس طغيانه المادي من جهة أخرى . وأخذ يبني قوته المادية والعلمية ؛ لكي يطيل عمر حضارته أكبر قدر ممكن .

إن الإنسان الأوربي ، استخدم تراثه فقط لأجل التفاخر به وبعظمته ، وبما يصوره أمام الآخرين وتجاه الحضارات الأخرى أنه ينتسب إلى حضارة عريقة ولكنه في حقيقة الأمر لم يلتزم بمضمونه ، أو بقيم حضارته الروحية ، في علاقته مع لأخيه الإنسان ، إذ إنه كان أسير اتجاهه العقلاني ونحو الآلة وانتاجيتها المربحة ، بما يقضي على فرديته .

إن الفولكلور ليس مجرد رقص وغناء بأسلوب قديم ، وكلمات اندثرت ، وتعبيرات ساذجة ، وهو ليس وسيلة من وسائل الترفيه . بالطبع لا. إن الفولكلور الشعبي هو أصالة وتاريخ ، بل وحضارة في المقام الأول . يجب على الإنسان استلهامها ، والعمل بما في مضمونها من قيم ثابتة وخاصة تجاه أخيه الإنسان ، ومن ثم تجاه نفسه .

ومن الجدير بالذكر أيضاً ، بالنسبة للفولكلور الغربي ، أن له مكانة واسعة في الأعياد الأوربية ، وذلك كتعويض عن الجانب الروحاني الذي افتقده بعد تشويه مفاهيمه عن العقيدة المسيحية . فكثيراً ما نلاحظ أن أعيادهم يغلب عليها الاهتمام بالأساطير الخرافية والشعوذة ، التي تشبع خيال الناس والأطفال ، مثلما نرى في احتفالات أعياد الميلاد ، وما تقوم عليه من شخصيات أسطورية .

ومن جهة أخرى ، فإن تنكّر الحضارة المعاصرة ، حتى لأمر العقيدة

المسيحية ، التي كان قد لحقها كثير من التشويه ، قد جعل التمسك بمثل هذه المظاهر يزداد .

فنلاحظ في المهرجانات والأعياد ، والمناسبات السنوية ، أنهم يكثرون من الإنفاق على أزياء السحرة والمنجمين والغجر والمشعوذين والمجذوبين لكي يتمثل كل واحد منهم بملابسه التقليدية ، ويعظمون هذه المهرجانات ، تعويضاً عمّا افتقدوه من حضارة مرتبطة بالجوانب الروحية والقيم العليا المرتبطة بالدين .

وإذا أردنا أن ندرس ظاهرة السحر[١] على ضوء المبدأ الوظيفي ، فقد لاحظ الأنثروبولوجيون أنه قد يكون هناك وحدة في أحد أجزاء القاعدة الاجتماعية في مجتمعين ، ومع ذلك يجب أن نتأكد من وظيفة كل منهما ، لأنه قد تكون الوحدة في الشكل ، بينما لكل منهما وظيفة تختلف عن الأخرى في كلا المجتمعين ، فيجب ألا نهتم بالشكل الذي تكون عليه القاعدة ، وإنما بوظيفتها ؛ فالساحر في قبائل ميلو في غينيا الجديدة البريطانية ، ترتبط طقوسه السحرية بالصيد والزراعة ، وما يرتبط بذلك من قواعد تساعد على الإنتاج وإيجابية العمل الإنتاجي ، فتأتي محرماته لتزيد الثقة في نفوس هؤلاء الذين يؤدونه ، أو يعتقدون فيه .

أما بالنسبة لحضارتنا ، فإننا لا نرضى بالذي هو أدنى عما هو أعلى في قيمنا والسحر في حضارتنا يعتبر جانباً من طمس المعرفة وتقولها ، مما يعوق التقدم أحياناً ، وخاصة إذا كان هناك إعلاء لشأنه وأهميته في الثقافة الشعبية على حساب الاهتمام بالمعتقدات الأساسية في المجتمع والمرتبطة بالدين . وهذا ما فعله الاستعمار عندما روج لمعتقدات الشعوذة والسحر على حساب القيم الدينية الثابتة .

---

(١) حول موضوع وظيفة السحر ، انظر إلى كتاب (الأنثروبولوجيا الاجتماعية) للدكتور عبد الحميد لطفي ص (١٧٣ - ١٧٩) .

الوظيفة الاستعمارية لعلم الفولكلور
تجاه الحضارات الأخرى

علم الفولكلور ، هو العلم الذي يهتم بدراسة قطاع معين من ثقافة المجتمعات وحضارتها ، في مرحلة ما قبل التحديث ، التي جاءت مع الحضارة الأوربية وآليتها الجديدة .

ومن واقع النظرة الاستعمارية للثقافات المختلفة سميت هذه الثقافة « الثقافة التقليدية » أو « الثقافة الشعبية » .

وقد استفاد الاستعمار كثيراً من دراسة هذا القطاع الثقافي في حضارتنا ، لتوجيه عمليات التغير الاجتماعي والثقافي ، وخاصة عندما يكون التأثير المتبادل بين ثقافة غربية متقدمة تكنولوجياً ، وأخرى تعتمد على الآلية البسيطة ، كالتي كانت عليها المجتمعات ، بنوعيها : البدائي ، الذي يعتمد على بساطة الصناعة ، أو الحضاري ، الذي يعتمد على الصناعات والمهن كالذي كان في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية عندما كان الإنسان فيها مسيطراً على خطوات عمله وإنتاجه .

ومن لؤم الغرب أنه وصف من واقع فكره الاستعماري ، كل الحضارات التي لم تصل إليها تكنولوجيته وأنظمته ، بأنها ذات ثقافات بدائية وغير متحضرة ، وذلك تحيزاً منه لحضارته وفكره .

كما أطلق على جوانب الثقافة أو الحضارة (الشفاهية) في تلك البلاد ، البدائية منها أو المتحضرة ، مصطلح الفولكلور . ووصف صناعاتنا وفنوننا الإسلامية ، بأنها من الفنون البدائية الفولكلورية وأطلق على مظاهر تلك الصناعات ، وما جاء فيها من أنواع فنون الرسم والتصوير وغيرها ، صفة

الفولكلور الساذج ؛ وذلك إمعاناً في النظرة الاستشراقية ، التي تسعى لطمس المعرفة الحقيقية ، من أجل خلق نظرة ازدراء لكل ما يمت إلى الحضارة الإسلامية وصناعاتها وفنونها ، وقطع صلتها بالمفاهيم العلمية الحديثة ، حتى لا تنكشف الصلة ، وتؤدي إلى فعاليات في تطوير الثقافة ، التي تطبع أثرها حتى على صناعاتها .

ويعتبر علم الفولكلور جزءاً من علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) ، الذي يدرس الإنسان حضارياً . ويمكن القول بأن الأنثروبولوجيا بدأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بدايةً فولكلورية ، على حد تعبير الأنثروبولوجي الدكتور أحمد أبو زيد[1] .

وبما أن هدفنا من دراسة « علم الفولكلور » هو دراسة الإنسان وحضارته ؛ فإن ذلك الاتصال الوثيق مع الأنثروبولوجيا ، أمر مفيد ؛ لإلقاء نظرة مبسطة عليها ؛ وبالتالي فإن معرفة دور علم الفولكلور ودراسة وظيفته مستعينين بالنظرة الشمولية التي يتصف بها الفكر الإسلامي ، المتفقة مع الدراسات الأنثروبولوجية ، ونظرتها الشمولية والمتكاملة عن الإنسان وحضارته ، من خلال التخصصات المختلفة .

إن مثل ذلك العمل يساعد على توضيح الغاية من المعرفة بعلمي الفولكلور والانثروبولوجيا ، كوسيلة تساعدنا للتوصل إلى الغايات التي شرعها الله للإنسان في إقامة الحضارة وعمارة الأرض ، وخاصة بعد أن أساء الإنسان في علومه ونهضته بتركيزه على الجوانب المادية معتمداً على عقله ، متنكراً لرسالة السماء وما أعطته من نعم ، فَعَرَّضَ نَفْسَهُ والبشرية جمعاء للأخطار المحدقة بها .

وسنرى أن الاستعمار قد استخدم هذين العلمين ، في بادئ الأمر ، من أجل هيمنة جوانب حضارته المادية على حساب تفتيت كل شيء قديم في ثقافتنا

---

(١) د / حسين فهيم (قصة الأنثروبولوجيا) ص ١٤٣ .

وأنظمتها الاجتماعية والتحكم بالمتغيرات الحديثة ، لكي يمنع تدعيم تواصل فعاليات ثقافته الماضية ، مع النقلة الجديدة ، من أجل بناء الحضارة الحديثة ، وفق أيديولوجيتنا ، وصبغة ثقافتنا .

ولكن الأمر تغير فيما بعد ، وسنرى آثار هذا الوعي لدور الدراسات الفولكلورية في تمثل التراث المضيء في حضارتنا ، خلال الفترة الماضية ، من أجل السيطرة على عمليات التغير التي نحن مقبلون عليها ، ودور الأنثروبولوجيا[1] كعلم جديد يرتبط بدراسة مشكلات الإنسان وحضارته ، ويرتبط بمصير الإنسان ومصير الحضارة الإنسانية ، ومصير هذه العلوم التي هي في يد الإنسان وحده . فهو إما أن يوجهها لما فيه سعادة الإنسان ، أو لما فيه شقاؤه وشقاء البشرية وتخريب بيئته .

فالإنسان هو الذي اختاره الله لعمارة الأرض ، وميزه عن خلقه أجمعين ، ليعمر الأرض بالعمل ، مسترشداً برسالة العلم التي خصه الله تعالى بها ، وأنعم عليه بالعقل كوسيلة من وسائل العلم ، وليس لكي يقدس علمه وإرادته وعقله ، ويتنكر لخالق هذا الكون ومدبره بقوله تعالى : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾[2] ويقول أيضاً : ﴿ **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾[3] .

---

(١) بعد نشوء الانثروبولوجيا الجديدة ، نتيجة مشاركة العالم الثالث في صنعها ، كان الاتجاه نحو عالمية هذا العلم لكي يكون من أجل بناء حاضر الانسان ومستقبله .

(٢) سورة التوبة ، آية (١٠٥) .

(٣) سورة الزمر ، آية (٩) .

كيف تتعامل النهضة الأوربية
مع الثقافة الفولكلورية عامةً ؟

ترى ماذا يعني مفهوم الفولكلور ؟ وما أبعاد الثقافة الفولكلورية ؟ وماذا تعني الثقافة الأوربية المعاصرة ؟ وكيف يكون بناؤها الاجتماعي ، وإلى ماذا تدعو ؟ وكيف تتعامل مع الثقافة الفولكلورية .

لقد بينا أن دراسة التراث الفولكلوري ، إنما تختص بالعلم الذي يهتم بقطاع معين من الحضارة ، وما يشمله من ثقافة تختص بالمرحلة التي سبقت دخول الآلة الحديثة ، وإنتاج الجملة ؛ أي – بشكل عام – عملية التحديث المعاصرة ؛ حيث يتم دراستها من الزوايا التاريخية والجغرافية والاجتماعية والنفسية ، وذلك من أجل السيطرة على عمليات التغير الثقافي ، والتحكم في توجيه الحضارة. وقد أطلق الغرب على هذا القطاع من الثقافة التقليدية اسم « الثقافة الشعبية » .

ويمكن أن يستخدم هذا العلم إما للشر ، كما يفعل الاستعمار ، أو للخير المتعلق بمصلحة المجتمع ، وتحقيق غاياته ، عندما نتحكم في توجيه عمليات التغير نحو الغايات التي تقوي المجتمع وتربطه بسنن الكون في استمرار المجتمعات وتقدمها .

وفي الحقيقة ، فإن طبيعة الثقافة ، في المرحلة التقليدية السابقة ، إنما تمثل شريحة البناء الثقافي الذي يتصل بجذور المجتمع وماضيه ، الذي تراكم عبر السنين ، والذي كان يقوم على جوانب احترام العقيدة والإيمان بالله وبشكل عام كان يقوم على الظواهر الاجتماعية (السنن) والمرتبطة باحترام فردية الإنسان وإرادته وعقله داخل الجماعات الفطرية ، كالأسرة والمجتمع المحلي .

وينطبق هذا على الحضارات التي تدين بعقيدة التوحيد .

كما أن المرحلة التقليدية السابقة ، كانت تقوم على أساس تحكم الإنسان

في عمله وسيطرته عليه وعلى إنتاجه ، وليس العكس ، كالذي يحدث اليوم من جراء طغيان التكنولوجيا المتقدمة وعقلانيتها ، وسيطرتها على فاعلية الإنسان ، وإخضاعها له عن طريق إنتاجيتها المربحة ، وإنتاج الجملة ، أو سيطرة التقنية عليه بشكل عام .

إن مثل هذه الإنتاجية المربحة ، تقوم باحتواء الأفراد والجماعات البشرية ، وتقتل لديها عوامل روح الاكتفاء الذاتي والاعتماد على النفس وهذا ما بينه ماركيوز[1] في مسألة اغتراب الذات الإنسانية من جراء عقلانية التكنولوجيا وماديتها المسيطرة وما تسببه من سلب المعرفة بالذات الإنسانية واحتياجاتها الحقيقية .

وهكذا رأينا أن الدراسات الفولكلورية هي التي تتناول دراسة ثقافة المجتمعات وآثارها المادية ، في مرحلة الحضارة التي سبقت مرحلة التحديث ؛ حيث كان العطاء الحضاري للإنسان من خلال ذاته المرتبطة بالجماعات الفطرية كالأسرة والمجتمع المحلي ، اللذين يرعيان فردية الإنسان وإطاره الذاتي .

أما الحضارة الأوربية فهي تخالف الثقافة الفولكلورية في هذا فتنزع من الأسرة والمجتمع المحلي دورهما وتسيطر على الإنسان من خلال المفاهيم العقلانية في جوانب النفس والأجتماع والسياسة والاقتصاد ، ومن خلال عقلانية النظر إلى الدين والفن .

أما عقلانية الدين [2] : فمن خلال نظريات تطور الأديان ، وما ينتج عنها من مفاهيم علمانية ومادية منفصلة عن جذور الثقافة .

وأما عقلانية الفن : لأن الإنسان انفصل أيضاً بمفاهيم الفن الحديث عن جذور ثقافته[3] القديمة ، وأصبح الفن مرتبطاً بعقلانية الصناعة ؛ مما أدى إلى اغتراب

(١) د / السيد علي شتا (نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع) ص ١٧٨ ، ١٧٩ .
(٢) (٣) المرجع السابق ، ص ٧٧ – ٧٨ .

الفنان الشعبي عن العطاء والإبداع الشعبي داخل البيئة التي كانت توفر له عطاء الذات الإنسانية الحرة الكريمة .

الثقافة الأوربية المعاصرة تدعو إلى عالمية الانتشار على حساب الثقافات الأخرى بينما الثقافة الفولكلورية تقوم على تعدد الثقافات البشرية لطرق الإنسان المختلفة في التفكير ، لاختلاف ثروات البيئة والمناخ والمعتقدات . أما العالمية في مفهومنا فهي عالمية الإيمان بالله والتقوى في حقوق الأخوة البشرية .

إن الثقافة المعاصرة جعلت الإنسان في المدينة الكبيرة ، أو مجتمع العاصمة ، يعيش حياة الاغتراب ؛ فهو يميل إلى الاستغراب والاندهاش ، بناءً على النمطية الفردية (الانعزالية) التي يعيشها في المجتمع الكبير .

إن طبيعة مجتمع العاصمة الحضري ، تسلب من الإنسان وعيه أكثر مما يتم بالنسبة للوضع الريفي . ومن هذا المنطلق تكون المدينة الكبيرة هي المسرح الأساسي للثقافة ، التي تتفوق على فكرة الحياة الفردية ، كما أنها تمثل النضال المصيري الذي يحتوي الإنسان تماماً فيه[1] .

ويرى (زمل) صعوبة تعرّف الإنسان على ذاته كذات ، إذ ترى نفسه مجرد جزء من الثقافة الخارجية الموضوعية ، ومن ثم صار الفرد ، في نظره ، مجرد ترس في التنظيم الضخم الذي يحيل ذاته من الشكل الذاتي إلى شكل الحياة الموضوعية الجماعية الخالصة التي تتمثل بثقافة المجتمع أي بمعنى آخر تطغي ثقافة المجتمع على ثقافة الفرد وتعمل على تقويض ذاتيته .

ومن هذا المنطلق ، يمكننا أن نفسر الأسلوب المعاصر للفرد والمجتمع في طريقة تعامله مع التراث ، بعد أن أعلنت النهضة الحديثة الثورة على القديم والانفصال عن الثقافة التقليدية (جذور الثقافة) .

كما تستطيع من هذا المنطلق أن تفسر أيضاً حنين الفرد الأوربي إلى تراثه

---

(١) المرجع نفسه ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

وفولكلوره أي حنينه إلى تلك الشريحة التي تمثل ماضي آبائه وأجداده ، والمرتبطة بطبيعة فكره الذاتي ، الصادر عن وجدانه وعواطفه وإشباعه لحاجات الروح ، وكذلك الناتج عن فطرته وما فيها من عفوية وإرادة متكاملة .

إن إنسان العصر عموماً بعد أن فقد روابطه الاجتماعية السليمة ، وشعر بانفصاله عن هذا التراث ، الذي هو جزء من أشياء كثيرة في نفسه وعقله وتراثه الروحي والوجداني وتراث آبائه . لم يعد يملك أكثر من أن يعوض هذا الحنين بأن يجعله ديكوراً لحياته العصرية ، يتندر به ويشعر بالحنين إليه ، وله قيمته لأن المنطلق المادي للحياة العصرية ، جعل هذا الاستخدام أيضاً ، يخضع للمفاهيم المادية للحياة ، التي تنفصل الوسائل فيها عن الغايات .

ومن الأمثلة على ذلك ، استغلال التراث كوسيلة إعلامية للدعاية للمنتجات الاقتصادية الحديثة ، استخدامه للترويح ، بمعنى الفرجة في مجتمع المدينة الكبيرة ، بعد أن ساهمت النهضة الأوربية الحديثة في تفتيت التراث وذبحه. وكلها طرق إنما تعبر عن امتهان في طريقة التعامل مع التراث ، وإذلال لقيمته وأن يكون مكانه ليس أكثر من متاحف التاريخ .

طبيعة هذا التعامل :

إن النهضة الأوربية الحديثة ، لم يقتصر أثرها – في التعامل مع التراث أو موقفها منه ومن أشكال حضارتها وأساليبها بشكل عام – على مجتمع أوربا فحسب ، وإنما تسعى دائماً ، لأن تجعل نموذجها الحضاري الأوربي عالمياً ، إما عن طريق السيطرة الاستعمارية ، أو وسائل الدعاية والغزو الثقافي ، الذي يعمل على نشر هذه الثقافة لتكون عالمية الانتشار ، وذلك – بالطبع – على حساب الثقافات الخاصة والذاتية للشعوب والحضارات الأخرى ! !

ونتيجة لذلك ، فإننا وجدنا أنفسنا قد بنينا قوالب مساكننا ومدننا ، وكثيراً من أساليب نهضتنا ، عن طريق الاستعانة بفكر النهضة الأوربية ، وما تتضمنه من اتجاهات مادية واستعمارية ، وعوامل تغريب العلوم كالإدارة والقانون

والاجتماع ، والاقتصاد ، وفي جميع جوانب النهضة الأوربية ومعرفتها الجديدة وذلك باستغلال عوامل التفوق العلمي والتكنولوجي .

كانت أفعال الإنسان وعطاؤه الحضاري ، نتيجة تفاعل ذاتية الإنسان مع موضوع حضارته وثقافتها ، التي تأخذ بالإيمان وتحافظ على فردية الإنسان من خلال أمور كثيرة ، كالجماعات الفطرية والعادات والسنن والأخلاق ، هذه الثقافة التي تمثل تراكم تطور الثقافة والمعرفة والخبرة البشرية السابقة ، كما أنها تمثل خبرة الآباء والأجداد نتيجة تأثرهم بخبرات مجتمعهم وعطاء بيئاتهم ، ونتيجة احتكاكهم الحضاري مع ثقافات أخرى مماثلة تأخذ بعطاء الذات أو تمثل ثقافة فولكلورية أخرى .

إن الثقافات الماضية كانت متحررة مما يفرض عليها الآن من ثقافة تلغي ارتباطها بالطبيعة والكون وخالق الكون ، كما كانت متحررة مما يفرض عليها الآن من الاهتمام بالجانب المادي في نظره للإنسان وللحياة والكون وللعلاقات الاجتماعية .

والثقافة الفولكلورية ، أو ما يسمونه بالتراث الشعبي أو الثقافة التقليدية ، تكونت من خلال الأخذ والعطاء المتبادل بين عطاء النفس الإنسانية ، على مستوى الفرد والجماعة والمجتمع ، وبين ثقافة المجتمع التي تكونت من خلال التراكم الحضاري الذي يؤثر في شخصية الإنسان .

بينما الثقافة الأوربية مقطوعة الصلة بكل ذلك ! !

إن فولكلور المجتمعات عامة ، يرتبط برباطٍ نفسي ووجداني عند الشعوب ، كما أنه يحكي تراث الماضي والأجداد ، بما فيه من عادات وأعياد وحكايات وقصص وأغانٍ وأهازيج وخرافات وقد تكون هناك عادات سيئة وذلك حسب تقدم الثقافة أو تأخرها وإنه عموماً يقوم على تجسيد القيم الروحية والوجدانية التي افتقدها إنسان هذا العصر ، تحت تأثير حضارته الجديدة بمعطياتها المادية ، التي كانت على حساب القيم الروحية للإنسان .

والفولكلور عامةً ، يمثل عطاء النفس ، وعطاء الذات ، وعطاء الخبرة المبنية على الفطرة البشرية وعفويتها ؛ والفن الشعبي هو الإيداع الشعبي في التعبير عن الذات والعصر ! !

لقد تقوضت فردية الإنسان الأوربي ، نتيجة ابتعاده عن المنهج الإلهي ؛ وانفصاله عن جذور ثقافته ، وخضوعه الحالي للثقافة المادية الحديثة ، التي طبعت أثرها على الأبنية الاجتماعية والثقافية المعاصرة ، في الحضارة الأوربية ، ومن ثم ، فقد امتد أثرها ليطبع ثقافات الحضارات الأخرى ، وخاصة بعد الاكتشافات التي أدت إلى تقارب المسافات ، وسهولة انفتاح الحضارات ، أو تأثيرات الغزو الثقافي .

بل ان الحضارة الأوربية المعاصرة إنما هي نتاج هذا اللون من الانفصال عن الثقافة الشعبية التي كانت تعترف بعطاء النفس وهي كذلك ناتجة أيضاً عن تنكرها أو عقلانيتها تجاه العقائد الدينية ، ومن ثم عقلانية الاتجاهات الاجتماعية التي تتعلق بالتكنولوجيا وتغليب الجانب المادي للإنسان ، مما يؤدي إلى عقلانية التنظيمات المتعلقة بالجوانب الثقافية والاجتماعية والاقتصادية .

إن نزعة التطوير وعقلانيتها اتجهت إلى عقلانية أخرى في الروح والسلوك والأخلاق والاجتماع .

كما أن قوى العقلانية هذه لها طبيعة خاصة وهي أنها تعمل على التهام المجتمع التقليدي والثقافة التقليدية ، وتهدد الإبداع والتحرر ، وتدمر العقل .

وفي هذا الإطار ، نجد الحضارة المعاصرة ، بما فيها من تغليب قوة الرأي العام ، تطبع أثرها على أسلوب الحياة وتعمل على تغليب الثقافة الحديثة المعاصرة على الثقافة التقليدية التراثية وإخضاعها لها والعمل على تفتيتها ومن وسائل تحقيق هذه العقلانية للثقافة الأوربية اتجاهها في احتواء الثقافات الفولكلورية ضمن فكرة (العالمية) الكاذبة ؛ وذلك باعتبار هذه الثقافات البشرية عندها ليست أكثر من أرقام في عداد التشكيلة العالمية للثقافة ، وينخدع

البعض بمثل هذه الأساليب فيظن أنها نوع من التظاهر بتقدير الفولكلور ، ولكنه في الواقع يخفي أساليب استغلاله للأغراض المادية .

وإذا كان الغرب قد أعلن البارحة الثورة على القديم ، وانفصل عن الجذور الثقافية فإنه اليوم قد جعل التراث مجرد ديكور في حياته المعاصرة يتندر به ولا يفهمه أو لا يفهم قيمته إنه يحتفظ به ولكنه لا يلتزم بمضمونه ولا يحاول الإفادة من قيمه ! !

وظيفة المعرفة الفولكلورية الأوربية :

إن للمعرفة الفولكلورية الأوربية عموماً وظيفتين مزدوجتين : وظيفة نحو المجتمع الأوربي ووظيفة أخرى نحو العالم الثالث .

وقبل أن نشرح هاتين الوظيفتين نستعرض ملخصاً لطبيعة الثقافة الأوربية المعاصرة .

وقد تحدثنا عن نزعة التحديث الأوربية ، واتجاهاتها الاجتماعية نحو العلمانية ، والتنكر للقيم المصاغة بواسطة الدين ، وما تضمنته هذه النزعة من تأثر قوى الرأسمالية والديمقراطية ، وقوى التكنولوجية بصفة عامة ، تلك التي كانت تحمل معها طبيعة العمل للقضاء على كل شيء قديم ، إلا ماندر ، بالإضافة إلى قوى عقلانية التنظيمات الاقتصادية والإدارية وغيرها ، وضغوطها على الإنسان الحديث[1] .

لقد كان كل ذلك سبباً في تفتيت كثير من قيم الحضارة السابقة ونظمها وثقافتها الماضية التي وجدت في القرون الوسطى ، وهي عبارة عن حصيلة خبرات وتجارب الأجداد خلال السنين الطويلة الماضية ، والتي تم تشكلها من خلال خبرة الإنسان وعظمة الفرد التاريخية ، حيث كانت تعتمد على الإرادة

---

(١) د / السيد علي شتا (نظرية الاغتراب) انظر ما كتبه ماكس فيبر عن العقلانية ص ١٣٤ وما بعدها .

الطبيعية للإنسان ، المتصاهرة مع جماعة الأسرة والمجتمع المحلي ، والمرتكزة على كل عناصر المحبة والولاء والشرف والصداقة والاستقامة في الشخصية ؛ لأنها تنبع من دوافع فطرة الإنسان ، المجبولة على حب الخير .

ومن خلال الثقافة الماضية ، تكون أفعال الإنسان ووسائله مرتبطة مع الغايات ، وغير مغتربة عنها ، هذا بعكس الإرادة العاقلة في المجتمع الكبير ، التي أفرزتها طبيعة العملية المتعمدة للذهن الرشيد ، والتي تستند إلى سلطة القانون في الإرادة العاقلة ، بدل سلطة الأخلاق في الإرادة الطبيعية[1] ، كما تفتقد إلى عوامل الفردية ، المتفاعلة مع قضايا المجتمع في أخذ وعطاء مستمرين ، بدل الخضوع .

إن الحضارة الحديثة ، بثقافتها الجديدة ، المرتبطة بآلية القرن العشرين ، تعمل على تجاهل فطرة الإنسان ، وثقافته الماضية ، وحاجاته الحقيقية المرتبطة بوظيفة الأسرة والمجتمع المحلي ؛ أي تتجاهل الصورة التي كان عليها الإنسان في المجتمع الماضي ، وتجعله لايستطيع أن يكون أكثر من ذرة في هذا العالم ، يفتقد إلى ذاتيته ، ويفتقد إلى المعنى في حياته . بل الأكثر من ذلك ، فإنه يجد نفسه مسايراً أوتوماتياً[2] ، بسبب عوامل الديمقراطية وكل الأساليب المطروحة في العصر الحديث ، لتلبية احتياجاته ضمن المعادلة الاقتصادية ، ومفهوم الربح والخسارة .

وقد نبه كثير من العلماء الأوربيين ، مثل توكفيل (١٨٠٥) وفروم (١٩٠٠) إلى مظاهر هذه الهوة الثقافية ، التي جعلت الإنسان يعيش حالة الاغتراب ، ويفتقد إلى عوامل الحب ، ويعيش مظاهر اعتلال الثقافة الجديدة ، من جراء عوامل الديمقراطية وطغيان النسق الاقتصادي الحديث .

وكان من الطبيعي أن يتجاوب هذا الشعور مع عوامل التقدم العلمي في العلوم

(١) المرجع نفسه ، اقرأ ما كتبه تونيز عن الإرادة ص (٩٢) وما بعدها .

(٢) المرجع نفسه ، اقرأ ما كتبه ايرك فروم ، ص ١٤١ وما بعدها .

الأنثروبولوجية « علم الإنسان » فيسرع الكثيرون ممن يقدرون قيمة ذلك التراث ، ويجدون في أنفسهم المقدرة والإمكانية ، لبذل الجهد السخي في جمعه وغربلته ، ومن ثم حفظه بعد تصنيفه ؛ وذلك خوفاً من أن يندثر ، وباندثاره يفقدون كل ماله صلة بماضيهم ، وتراث أجدادهم .

وكانت أفضل خطوة لجؤوا إليها ، هي التعاون مع الأوساط العلمية من جامعات وجمعيات علمية ، ومتاحف أثرية ، نشأت مع ظهور الرأسمالية وتوسعها الإقليمي ، ومظاهرها المعاصرة .

كانت تلك الأوساط العلمية تتجه إلى بلورة[1] العلم الجديد « الأنثروبولوجيا » الذي أخذ ينفصل عن العلوم التاريخية والإنسانية الأخرى ، ليتجه للتخصص في دراسة الإنسان وأعماله وخبراته .

وقد أطلق العلماء على أشكال خبرة الإنسان الماضية وآثاره ، وما فيها من معاني ومظاهر مادية وفكرية ، اسم « الفولكلور » .

وسنرى كيف تداخل علم الفولكلور مع علم الأنثروبولوجيا ، في دراسة قضية الإنسان ، وأعماله وخبرته ويرجع سبب هذا إلى أن تخصصات فروع علم الأنثروبولوجيا كلها ، تتعاون على تقديم نظرة شمولية ومتكاملة ، عن خبرة الإنسان ومعرفته المادية والمعنوية ، الفكرية والنظرية ، المرتبطة بحضارته .

وظيفة الدراسات الفولكلورية خارج أوربا :

ونظراً لشمول التقدم العلمي الحديث ، وحتمية انتشار أغلب الوسائل الحديثة في أنحاء العالم ، إنْ عاجلاً أو آجلاً ، سواء إلى الجماعات الفطرية البدائية أو إلى المجتمعات المتحضرة ، فقد انتشرت خارج أوربا الدراسات الفولكلورية التي تهتم بقطاع الثقافة أو الحضارة ، قبل وصول المظاهر الحضارية

---

(١) د / حسين فهيم (قصة الانثروبولوجيا) ص ١٢٤ – ١٣٥ .

إلى مرحلة التحديث الأوربية . وكان جزء كبير من هذا الاهتمام موجهاً لغايات استعمارية ، للتحكم بعمليات التغير الثقافي والاجتماعي من جهة ، وتسخير العلوم الإنسانية لأغراضهم هذه كعلم الأنثروبولوجيا وعلم الفولكلور وعلم الاجتماع البشري ، والاطلاع على طبيعة الثقافات البشرية المختلفة في أنحاء العالم ، ولمختلف الجماعات البشرية ، من جهة أخرى .

وظيفة الدراسات الفولكلورية في العالم الإسلامي :

أما الدراسات الفولكلورية في العالم الإسلامي ، وفي الدول الإفريقية ، وما تشتمل عليه من تراث القبائل البدائية ، فلها شأن آخر مع الاستعمار ، الذي استخدمها من أجل أهداف التغريب والتبشير ، وعمليات التغير الاجتماعي وفق أهدافه الاستعمارية .

ومن هنا يتضح أن ترويج مفهوم وضعي للفولكلور في العالم الإسلامي ، كانت له وظيفة أخرى[1] ، تختلف عن وظيفته في الغرب ، إلى حد ما ، من حيث استهلاك الفكرة ، وعدم تمكين الدراسات الفولكلورية من تحقيق شمولية المعرفة المرتبطة « بعلم الإنسان » فيما يؤدي إلى ربط ماضي الثقافة بحاضرها ، ومن ثم بمستقبلها .

ونكاد نلمس الجوانب الاستعمارية من تلك الاستخدامات المختلفة لمفهوم الفولكور في العالم الإسلامي تلك التي لا يستطيع أن يكشف حقيقتها ؛ إلا أبناء الثقافة الأصلية . ومن أمثلة ذلك ، تصدير التعريفات التي تسلط الضوء على جزء من الثقافة الفكرية ، وتهمل الجوانب الأخرى التي تؤدي إلى الفعاليات الثقافية ، كما هو الحال بالنسبة لتمييع المفاهيم التي ترتبط بكل ما يمت بصلة إلى القيم الدينية والتراث الفني الإسلامي ، وطمس المعرفة التي كانت عليها المهن التقليدية وآليتها البسيطة ، كجانب من الفولكلور الصناعي لا الإسلامي وإهمال ربطه بما لا يمكن أن يكون عليه تقدم الفنون الآلية والتكنولوجيا

---

(١) د / عبد الحميد لطفي (الانثروبولوجيا الاجتماعية) ص ١٧٢ وما بعدها .

الحديثة ، بما يحقق صالح الإنسان والثقافة والمجتمع .

ويتضح هذا الأسلوب من معرفة أنه من اختصاص العالم الأنثروبولوجي ، دراسة تقدم الفنون الآلية والتكنولوجيا ، ودراسة أثرها في الحضارة ، وذلك في إطار دراسته للثقافة وتطورها وخصائصها ، ومع هذا فلم يفعل علماء الأنثروبولوجيا الغربيون ذلك ! !

إن ذلك لا يمكن تفسيره إلا بالرغبة الاستعمارية في طمس المعرفة الحقيقية بالأمور الثقافية الهامة ، وذات الفعاليات الاقتصادية ؛ لشل قدرة هذه الشعوب المادية في أن تصل إلى غاياتها ، مما يجعلها لا تدرك الروابط بين الأشياء . فيصورون لنا الفولكلور على أنه الجانب الشفاهي والروحي . وهم يمارسون في الظل ، عن طريق تخصصاتهم الأنثروبولوجية المختلفة ، مهمة الإحاطة بالمعرفة الحقيقية ، وخاصة في مجال بحوثهم ، الأنثروبولوجية الاقتصادية وما يتعلق ، بالفنون الإسلامية ، ومتاحفها في أوربا . في الوقت نفسه الذي يسعون فيه إلى إيهامنا بأن الفولكلور لا يمت إلى هذه الفنون الإسلامية بصلة ، وأنه ليس من مصلحتنا أن تُدرس الانثروبولوجيا الاقتصادية أو عمليات التثاقف أو التغير الثقافي والتطور التي يهتمون بها منذ أكثر من قرن كامل ، بل منذ أن بدأ الاستشراق أعماله في شرقنا المسلم ؛ إذ كانت البحوث والدراسات ، وبعثات العلماء تتوالى على أقطار بلادنا لتدرس كل ناحية في حضارتنا ، بل في المراحل المختلفة من تاريخ هذه الحضارة .

ولا ضير في أن نتولى نحن هذه المهمة ؛ فإنها ذاتنا الحضارية ، ونحن المسؤولون عن المحافظة عليها ، لأنها تختلف بمفاهيمها ومعتقداتها وأغراضها عن مفاهيمهم ومعتقداتهم ، وهي تمثل وجودنا ، والمعنى من حياتنا وخبراتنا ، على ضوء نظرتنا التكاملية ، وليست في إطار الانشطارية للفكر الأوربي التي تملك الفرص الكثيرة لطمس المعرفة الحقيقية .

إننا نحن المسؤولون ، وليس الغرب ، عن التعرف على الحلقات المفقودة من بنائنا الثقافي ، وعلى روابط الأشياء ، وما ينفع وما يضر وما هو ضروري وما هو كمالي ، ونحن الذين يمكننا أن نخضع هذه العلوم لمقاييسنا وقيم ثقافتنا وبذلك نضع هذه العلوم في دائرة استيعابها وسوف تبقى الاستفادة منها .

وإذا أهملنا هذه المهمة ، فإن تلك العلوم سوف تبقى منفصلة عنا ، وتعمل ضدنا ؛ لأننا رضينا أن نبقى في دائرة الاغتراب عنها وعن وظيفتها الأصلية. فضلاً عن دائرة التبعية فيها لخصومنا الذين يوجهونها – مستغلين جهلنا – ضدنا ! !

الفولكلور والأنثروبولوجيا التطبيقية
في خدمة التغير الثقافي

أوضحنا سابقاً أن علم الفولكلور هو علم يدرس جوانب الثقافة للمجتمعات التقليدية ، أي ثقافة المجتمعات التي يقوم نتاج الحضارة فيها على عطاء الذات الإنسانية ، حيث أنها لم تتأثر بعد بالثقافة الأوربية ذات الحضارة التي تعتمد على الآلة الحديثة والمفاهيم الغربية المقترنة بثقافته .

وتعتمد بدايات هذا العلم على الدراسة الوصفية لثقافات الشعوب التي سميت بالبدائية . وقد أوضح كثير من العلماء أن الفولكلور له صلة كبيرة بالأنثروبولوجيا منذ القرن التاسع عشر ، على يد العلماء الأوائل في هذا العلم ، أمثال : تايلور وفريزر وادوارد هارون ، حيث كانت الصلة بينهما قوية لدرجة اختلاط المفهومين[1] في كثير من الأحيان .

وقد تعرض علم الأنثروبولوجيا وعلم الفولكلور بالذات إلى محنة الانتفاع بمادته وتطويرها في ضوء أيديولوجية الغرب وثقافته واتجاهاته وأطماعه الاستعمارية .

أكد علماء الأنثروبولوجيا على أن الثقافة مسؤولة عن الجزء الأكبر من محتوى أي شخصية ، وكذلك على جانب مهم من التنظيم السطحي للشخصية .

وقد لوحظ أن معظم المشكلات الإنسانية تنطوي على حدوث تغيرات في السلوك والاتجاهات والنظم والعلاقات الاجتماعية . ولذلك ارتبطت دراسة الاتصال الثقافي ، وما يترتب عليه من تغير ثقافي ارتباطاً وثيقاً بالأنثروبولوجيا التطبيقية ، سواء في الولايات المتحدة أم في القارة الأوربية أم حديثاً جداً في

---

(١) د / زكي محمد إسماعيل (الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي) ص ٢٠١ .

بعض البلاد النامية ، التي نهضت فيها الدراسة الأنثروبولوجية واحتلت فيها مكاناً مرموقاً .

وقد ثبت أن العديد من المواقف التطبيقية تتيح لعالم الأنثروبولوجيا الثقافية التحكم بشكل دقيق في بعض عوامل التغير ، كما تسمح بإجراء اختبار معملي[1] لبعض الفروض والنظريات ؛ فهذا التطبيق العملي يفيد الممارسة اليومية ، كما يفيد علم الفولكلور .

إن الأنثروبولوجيا التطبيقية تنطوي على توجيه سلوك الناس نحو تحقيق أهداف معينة بذاتها ، وهذا مما جعل بعض دارسي الفولكلور والأنثروبولوجيا ، يظهرون تحفظهم نحو ممارسة الأنثروبولوجيا التطبيقية ؛ لأنها تمس مسائل أخلاقية ، وتتعلق بمسؤوليات الباحث العلمية ، وخاصة عند توجيههم لنتائج هذا العلم في الأغراض العملية[2] .

المعلومات الفولكلورية توجه عمليات التغير :

تتم عمليات التغير من خلال حالتين :

أولاً : من خلال التثاقف أو الاحتكاك الثقافي :

إن مسألة « الاحتكاك » أو « الاتصال الثقافي » هي عملية مألوفة وشائعة في الكتابات الوصفية الإثنولوجية في أوائل القرن العشرين ، على أساس الاهتمام بموضوع تأثر الثقافات بعضها ببعض ، نتيجة الاتصال ، أياً كانت طبيعته ومدته وأهدافه .

وقد ركز الإثنولوجيون (الوصفيون) على ظاهرة الاستعمار ، والنتائج المترتبة على التقاء الثقافة الأوربية بالثقافات التي سميت بالبدائية .

كما ركزت دراسات الاتصال الثقافي على نوع معين من عملية التغير التي

---

(١) مالك بن نبي (الصراع الفكري في البلاد المستعمرة) دار الفكر، لبنان، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م . ص١٥ وما بعدها .

(٢) د / محمد الجوهري (علم الفولكلور) ص ٢٥ .

تتعلق ، على حد تعبير (راد كليف براون) بتغير الحياة الاجتماعية بفعل تأثير أو سيطرة الغزاة الفاتحين الأوربيين وخاصة في القارة الإفريقية[1] .

ولا يقتصر علم الفولكلور على إلقاء الضوء على تاريخ ثقافة معينة سواء البعيد منها أو القريب ، وإنما هو يساهم علاوة على ذلك – في تحليل علاقات التفاعل والتأثير المتبادل بين أطراف العملية ، سواء كانت ثقافة غربية أوربية غالباً متقدمة ، أو أخرى متخلفة (أو بدائية على حد تعبير الاستعمار) أو كان طرفا العملية ثقافتين مختلفتين وهي العملية المعروفة في الأنثروبولوجيا الثقافية باسم (التثقف من الخارج) وهي ناتجة عن التقاء ثقافتين مختلفتين .

ويصرح كروبر ، في أحد المواضع ، بأن التثاقف من الخارج يشتمل على تلك المتغيرات التي تحدث في ثقافة معينة ، بتأثير ثقافة أخرى ، حيث ينتج عنه ازدياد التشابه بين الثقافتين المعنيتين .

وقد يكون هذا التأثير متبادلاً أو طاغي التأثير من جانب واحد . ومن الأهمية أن نذكر أن العلماء قد وجدوا أن دراسات التثقيف من الخارج يساهم فيها علم الفولكلور بنصيب الأسد ، حيث تستهدف هذه الدراسات اكتشاف ديناميات تغير الثقافة في مواضع اتصال الثقافات وهي مهمة خطيرة الشأن عميقة الدلالة بالنسبة لأي مجتمع[2] .

ومع تطور الأنثروبولوجيا وعلم الفولكلور في أوائل القرن العشرين فقد تطورت استخداماتها لتتلاءم مع سياسة إدارة المستعمرات نحو المناطق التابعة لها ، كما تم إيفاد الخبراء المختصين إلى هذه المستعمرات وإلى جهات حكومية متعددة كالمؤسسات الصناعية مثلاً ؛ أي إن بدايات الاستخدام العملي لهذا العلم كانت بواسطة إدارة الحكومات الاستعمارية .

وقد وجهت الحكومات الهولندية والبريطانية والفرنسية اهتماماتها وحشدت

(١) د / حسين فهيم (قصة الانثروبولوجيا) ص ١٩٨

(٢) د / محمد الجوهري ، مرجع سابق ، ص ٢٥ .

جهودها الكبيرة لتلقين موظفي المستعمرات أهم مبادىء الدراسة الأنثروبولوجية ، كما حرصت على وضع نتائج البحوث التي أجريت على تلك المستعمرات بين أيديهم للاسترشاد بها في أعمالهم .

وهناك نوع أكثر خطراً في استخدام هذا العلم والانتفاع به عملياً ، فقد شهد هذا العلم استخدامات عرفت باسم (الحكم غير المباشر) ، أي إن إدارة المستعمرات لا تكون في هذه الحال عن طريق الموظفين الأوربيين مباشرة ، وإنما من خلال الرؤساء والزعماء والحكام المحليين ، مع تخطيط وتوجيه من الحكومات الاستعمارية وأجهزتها × ولهذا السبب نجد أن أصحاب هذا الاتجاه قد اهتموا بدراسة القانون العرفي المحلي والبناء الاجتماعي ، وتحديد عناصر القيادة ومقوماتها[1]. وكلها معلومات لها أهميتها في توجيه متغيرات المجتمع .

ثانياً : من خلال التنمية التكنولوجية :

يعتبر عامل الطاقة من العوامل الهامة التي ساعدت على تقدم علم الأنثروبولوجيا ونموه الثقافي ، والذي حدد مسار هذا التطور .

ويرى البعض أن عامل الطاقة يمثل المحك الرئيسي لتقدم الشعوب ؛ فالثقافات تتطور عندما تزداد كمية الطاقة التي تستخدمها . وبمعنًى آخر ، فإن المضمون التكنولوجي في ثقافة ما ، يحدد الكيان الاجتماعي والاتجاهات الأيديولوجية لها . فمثلاً نجد أن المجتمعات التي يستخدم أفرادها قدراً محدداً من الطاقة ، تنشأ عندهم نظم دينية وسياسية واقتصادية أقل وأكثر بساطة ، من تلك التي تتكون في مجتمعات تكثر وتتنوع فيها استخدامات الطاقة ، والإمكانيات التكنولوجية[2] .

وقد اهتم الأنثروبولوجيون بدراسة التغير الاجتماعي في شكل عملية تثاقف بين ثقافة استعمارية أوربية ، وأخرى بسيطة أو بدائية . ونتيجة لذلك ، وجّه كثير

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٦ .

(٢) د / حسين فهيم (قصة الأنثروبولوجيا) ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

من الأنثروبولوجيين دراساتهم عن طبيعة التغيرات الاقتصادية الاجتماعية ، المصاحبة لمحاولات نقل التكنولوجيا الغربية الحديثة . وجهوا دراساتهم نحو ما سمي بالتنمية القومية الشاملة ، وبهذا فقد توجه الاهتمام من عملية التثاقف ، إلى دراسات التغير المخطط له أو الموجَّه .

وقد شجعت الحكومات الأوربية هذه الدراسات ، باعتبارها الطرف المصدِّر للتكنولوجيا ، وما يصاحبها من أيديولوجية سياسية وثقافية معينة .

ومع أن هذا الاتجاه التنموي وأهدافه مرتبطان إلى حد ما ، بالسيطرة الغربية على بلاد العالم الثالث ، على شكل مساعدات فنية واقتصادية معينة. ، فقد أعطت الظروف السياسية الجديدة ، الفرصة لدراسة التغيرات الناتجة عن محاولة نقل التكنولوجيا الحديثة إلى الثقافات التقليدية . وقد نتج عن هذا تطور كبير في مفاهيم واتجاهات الاستفادة من المادة الإثنولوجية الوصفية للثقافات التقليدية ؛ في إمكانية إحداث التغير المنشود .

إن مثل هذا الهدف ، قد أثار الكثير من القضايا الأخلاقية التي نجمت عن الأضرار التي تصيب الإنسان والبيئة ، من جراء المشروعات التكنولوجية الكبرى ، والتي لا تكون تلك المجتمعات في حاجة إليها أصلاً(١) . ولكن الرأسمالية العالمية وشركاتها ، هي التي تكون وراء استثمار مناطق الدول المستضعفة ؛ من أجل تنمية مزروعات الرفاهية التي تدر عليها أكبر قدر من المال على حساب القوت الأساسي لتلك الشعوب(٢) .

ومن الجدير بالذكر ، أن الأمم المتحدة قد اهتمت ، بصفتها جهة محايدة – إلى حدٍّ ما – بتقديم المساعدات الفنية للدول الفقيرة ، وتبنت الاتجاه التنموي عند هذه الدول ، وركزت عليه في الستينات ، ولذلك سميت هذه الفترة بعقد التنمية .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٧ .

(٢) فرانسيس مورلابييه، جوزيف كولينز (صناعة الجريمة .. خرافة الندره) مرجع سابق ص ٢٩٢ وما بعدها .

من أجل استخدام وظيفي أفضل

نحاول في هذا المجال أن نتعرف على أكبر قدرٍ من التعريفات الفولكلورية التي جاءت على لسان علمائنا الأنثروبولوجيين المعاصرين في العالم الثالث ، وذلك لكشف الصلة الحقيقية بين علم الفولكلور والأنثروبولوجيا ، وتدعيم الصورة التاريخية الواضحة لمفهوم الدراسات الفولكلورية منذ انبعاث هذه العلوم في شكلها الأخير على يد النهضة الأوربية الحديثة .

وفي ضوء تحقيق شمولية المعرفة بصلة هذا العلم بغيره من العلوم ، فإن هذا يقودنا بالتالي إلى تحليل المفاهيم الفولكلورية التي صُدرت إلينا مع سلبياتها ، ثم تصحيح هذا الاستخدام المعرفي للتعرف على ذاتنا الحضارية .

علم الفولكلور والأنثروبولوجيا :

يعتبر علم الفولكلور علماً مكملا ومتداخلاً مع علم الأنثروبولوجيا ؛ هذا العلم الذي اختص بدراسة شريحة الثقافة قبل عملية التحضر الأوربية . وقد ذكرنا سابقاً أن الأنثروبولوجيا بدأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدايةً فولكلوريةً ، على حد تعبير الأنثروبولوجي الدكتور أحمد أبو زيد[1] .

وبعبارة أخرى ، فإن هناك كثيراً من الدلالات التي تشير إلى اهتمام الأنثروبولوجيين المعاصرين بالموضوعات الفولكلورية ، خاصة بعد أن أصبح الفولكلور علماً ثقافياً يختص بقطاع معين من الثقافة ، هو « الثقافة التقليدية أو الشعبية » ، ويحاول إلقاء الضوء عليها من زوايا تاريخية وجغرافية واجتماعية ونفسية .

كما أن علم الفولكلور ، مثله مثل أي علم آخر ، يؤتي عدداً من الثمار العلمية ، التي تفيد المشتغلين برسم السياسة الاجتماعية والثقافة ؛ فهو إلى جانب قيمته

---

(١) د / حسين فهيم ، مرجع سابق ، ص ١٤٣ .

العلمية النظرية ، يقدم خدمة تطبيقية علمية لا يمكن إنكارها [1] وبمعنى آخر فإنه يدخل في صلب فرع الأنثروبولوجيا التطبيقية .

وإننا نلاحظ اختلافاً في تعريفات الفولكلور ، بحيث يوقعنا في اغتراب معرفتنا لهذا العلم ، ويشوه معالم الصورة ، مهما كانت أسباب ذلك الاختلاف في ظروف الذين قدموا لنا تلك التعريفات وفي ثقافتهم ومقاصدهم ؛ لذلك ، فمن الواجب أن تكون لنا رؤيتنا الحضارية المتميزة والواضحة ، للاهتمام بإحدى وسائل الحضارة وهي : « علم الأنثروبولوجيا » ؛ لأن جميع مجتمعاتنا العربية والإسلامية ، أيضاً ، تستظل بهدي المنهج القرآني ، الذي يبين الشروط التي يمكن لنا أن نسمي المعرفة باسم (علم) ومن هذه الشروط : أن يكون العلم قائماً على التقوى والإيمان أي هدف أعلى ، وذلك لكي يكون محترماً في دائرة الإسلام ، كما يجب أن يخضع لتقاليد الإسلام وتعاليمه .

ومن المهم أيضا ، ألا نسمح لهذه المعارف أو الفنون أن تساهم في وظيفة فتنة الناس ، أو استثارة دهشتهم ، كما يحدث في المدينة الكبيرة ، إذا أردنا أن ندخل هذه المعارف في دائرة العلم وتقاليده في المجتمع الإسلامي .

وأما إذا كان هذا العلم يقتصر على دراسة جوانب التراث الأدبي مثلا ، دون دراسته في ضوء الكل الذي يجمع بين أصولنا الفكرية وحضارتنا المادية قبل مرحلة التحديث المعاصرة ، فإن هذا العلم ليس علما نافعا بالنسبة لنا ؛ لأن في ذلك اهتماما بالقول دون الفعل وتركيزا على الجوانب التي لا تبني الحضارة على حساب إهمال ما يتعلق فيها بالمجالات التطبيقية النافعة المتصلة بالمنجزات العلمية المادية ؛ فلا يمكن أن نهتم بالفرع على حساب الكل ، أو نهتم بجانب على حساب جانب آخر أهم منه .

فالمذهب الوظيفي لعلم الأنثروبولوجيا يعتبر أية حضارة كلاً وظيفيا متكاملا ، وهي أشبه ما تكون بالكائن العضوي ، ولا يمكن فهم أي جزء من هذا الكل

---

(١) السابق نفسه .

إلا في صلته بالكل نفسه ، فوظيفة أي نموذج حضاري ، في النظام الاجتماعي أو النسق الاجتماعي ككل ، هي التي تفسر وتوضح حقيقته . وعلى هذا الأساس يمكن فهم النموذج الحضاري[1] .

ويجب ألا ننسى أننا نواجه حرباً – فكرية وحضارية ، يركز الغرب فيها على جانب تفوقه الاقتصادي والعلمي والتكنولوجي ، فيحاول أن يحتوينا ، بعد أن عمل طويلاً على تهديم أصولنا وثوابت مقاييسنا في فكرنا الديني ، وذلك لكي تجرفنا رياح غزوه الثقافي والاقتصادي .

فامتلاك معرفتنا لصناعاتنا وعلومها وفنونها في المرحلة الماضية أيضاً ، هو أمر لا يستهان به في امتلاك مركزنا الحضاري ، حتى لا نبقي على أبواب الحضارات الأخرى ، لأن في الصناعات سرَّ الحضارات .

ومن الضروري أن نسعى لاستعادة تمسكنا بقيمنا وإيماننا ، واستلهام الحكمة من نماذجنا الحضارية بالنسبة للماضي من أجل بناء الحاضر . وكذلك من الضروري أن نتعرف على سر الصناعات الحاضرة ، لأن التقنية تؤخذ أخذاً ولا تُمنح منحاً ، وهذا ما فعلته اليابان ، عندما عملت على امتلاك أسرار التكنولوجيا الحديثة .

هذا وقد سبق أن بينا أن هذا العلم له تخصصاته المختلفة[2] ، التي يمكن تطبيقها على الدراسة الفولكلورية ، حتى تتخلص من عيب التعريفات الفولكلورية ، التي تعتمد على الجانب الشفاهي في دراسة الحضارة الفولكلورية وتصديرها إلينا ؛ لأسباب استعمارية ، دون التخصصات الأخرى . وعلينا أن نتلافى النقص في التعريفات عندما نأخذ بالتعريفات الأكثر شمولية لمفهوم الحضارة .

---

(١) د / عبد الحميد لطفي (الأنثروبولوجيا الاجتماعية) ص ١٦٣ .

(٢) انظر الباب الثاني ، الفصل الأول : (تخصصات الأنثروبولوجيا وفروعها) .

وجميع جوانب هذه الثقافة المعنوية منها أو المادية الشفاهية أو المكتوبة معاً ، العملية منها أو النظرية. علينا أن ندرسها دراسة تكاملية وبنظرة شمولية .

كما يمكن لنا أن نقسم هذا الجانب الحضاري إلى مراحل متصلة سواء أكانت مرحلة ازدهار الحضارة أم انحطاطها ، على ضوء تطورها الزمني ، لكي نستفيد من حكمة ديننا وتاريخنا . فالحضارة هي سلسلة مترابطة ، وإن حسن المعرفة فيها يلقي لنا الضوء على أسباب ما وصل إليه حاضرنا ، وما يمكن أن يكون عليه مستقبلنا . ومن هذا يمكننا الاعتماد على الحقيقة التاريخية في علاقة الأنثروبولوجيا بالفولكلور التي أوضحها علماء العالم الثالث ؛ إذ إن الحقائق تؤكد بأن هذه العلاقة وثيقة منذ البداية .

يقول في هذا الدكتور زكي محمد إسماعيل :

لقد ظلت العلاقة بين الفولكلور والإثنولوجيا علاقة وثيقة ، لدرجة يصعب معها وضع خط فاصل دقيق بين الميدانين ، ولا سيما أن علماء الفولكلور من الأوربيين وأمريكا الجنوبية بالذات ، اهتموا بدراسة التنظيم الاجتماعي والثقافة المادية ، وهي من الموضوعات التي تدخل في إطار الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافة والإثنولوجيا . كما أن متاحف الفولكلور في أمريكا الجنوبية تعد متاحف إثنولوجية ؛ لاهتمامها بالعادات والتقاليد الشعبية والثقافة المادية . هذا في الوقت الذي يهتم فيه الإثنولوجيون ، من خلال دراساتهم الحقلية ، بالأغاني والقصص والرقصات والممارسات السحرية ، وسائر الأنماط الثقافية السائدة في مجتمع الدراسة ، وهي مواد فولكلورية[1] .

ولعل إغفال هذه العلاقة بين الثقافة المادية والمعنوية الشفاهية ، في بعض التعريفات ، يرجع إلى أسباب استعمارية تقتضي ترك الجوانب الأخرى لدراستها من قبلهم في تخصصات أخرى مختلفة ، مثل الإثنولوجيا الوصفية ، أو

---

(١) د / زكي محمد اسماعيل (الانثروبولوجيا والفكر الإسلامي) ص ٢٠١ .

الأنثروبولوجيا الاقتصادية ، أو أنثروبولوجيا الأديان. إلخ مدركين ومستغلين تفرع المعرفة ودقة تخصصها لإبراز الجانب الشفاهي وتصديره إلينا للاهتمام به على حساب الجوانب الأهم ! !

ولكن واقع الحال في الدراسات الحقلية يكشف بأن « مجال التعاون هو وثيق ومشترك بين دراسات الفولكلور والأنثروبولوجيا ؛ من حيث اهتمام كل منها بدراسة الخرافات والأساطير والحكايات ، والفن الشعبي ، والأدب الشفهي ، في المجتمعات المتخلفة والمتقدمة معاً . هذا بالإضافة إلى دراسة الصناعات والحرف البدوية ، ومراسم الأعياد والزواج والوفاة ، والحفلات الشعائرية في المناسبات المختلفة ، لدرجة أن أصبح من الصعوبة إيجاد خط دقيق يمكن وضعه بين مجاليهما[1] » . فهناك الكثير من الشواهد على عمليات طمس المعرفة في مفاهيم العلوم وروابطها .

فلدى الرجوع إلى خبراء الفن الإسلامي للتعرف على محاولة تزييفه عن طريق الاستشراق في الفترة الماضية ، نستشهد بملاحظة خبير الفن الإسلامي د. عفيف البهنسي ، الذي يقول :

« كثيرا ما نُظر إلى الفن العربي الإسلامي على أنه فن فولكلوري ، سعى المستشرقون في ظل الاستعمار إلى رعايته ، كما لو كان لقيطا طريفاً يحتاج إلى التبني والمواساة . هكذا كان شأن « أوستاش دولوره » الذي استقر في قصر العظيم بدمشق خلال العشرينات ، يسعى وراء (الرقص العربي) و(الصناعات الفنية) ؛ لا يرى فيها إلا متعة المستغرب الباحث عن الطرفة ، والساعي لاكتشاف الغريب من عالمه ، دون أن يميز ، في بداية أمره ، أنه أمام فن له جذور عميقة وأبعاد فلسفية ، تحتاج إلى المزيد من التعمق والبحث »[2] .

إن المرحلة التي درس فيها « أوستاش دولوره » الصناعات الفنية والرقش العربي

---

(١) د / زكي محمد إسماعيل (الانثروبولوجيا والفكر الإسلامي) ص ٢٠١ .
(٢) د / عفيف البهنسي(جمالية الفن العربي) ص ١٧ .

خلال العشرينات ، وما أطلق عليه اسم الفن الإسلامي ، تدخل في نفس مرحلة الدراسات الفولكلورية لمجتمع دمشق ، أو ما يسميه المستشرقون بالثقافة التقليدية .

أليس من واجبنا توحيد هذه الأسماء كلها ، من أجل التخلص من انفصام شخصيتنا الثقافية الماضية الفولكلورية وصناعاتها ، مع ما يسمى الآن بالفنون الإسلامية ، التي ذهب الكثير من شواهدها ورموزها إلى متاحف أوربا .

ومن أجل هذه الغاية فقد رجحنا تعريف (الفولكلور) من خلال مفهوم الحضارة باعتباره كلاً وظيفيا متكاملا يبين لنا الحاجة إلى دراسة جميع جوانب الحضارة أو الثقافة . كما أن هذا لا يمنع من ضرورة إيجاد (مفهوم ذاتي) لدراسة الفولكلور ، بحيث يرتبط بأصولنا الثقافية ، ولا يساهم في تغريب المعرفة لدينا واضطراب رؤياها ، فضلاً عن ضرورة الاعتماد على التعريفات الأنثروبولوجية التي جاءت على لسان علمائنا المنتمين الذين كانت لهم مشاركات في صنع الأنثروبولوجيا الجديدة والمعاصرة من منظورنا الحضاري المتميز .

الباب الثالث

الفصل الأول

وظيفة الفولكلور السلبية
تجاه أعمال التغير الثقافي

تيار الفولكلور المعاصر

مع ظهور علم الفولكلور في بلادنا العربية من قبل الأوساط الغربية ، فقد أصبح مسمى الفولكلور يتردد على كل لسان ، سواء بين الأوساط المتعلمة أو أجهزة الفن ، حتى إن بعض الكتاب قد وصف تيار الفولكلور بما أطلق عليه (جنون الفولكلور) لما لمسه من الانحراف في فهمه وتوجيهه ، كما وجد أن الغرض المسموم هو الغالب عليه بشكل عام وأن تسميم الأفكار هو الحافز الحقيقي من الدعوة إليه بالشكل الذي رددته بعض الأوساط العلمية والفنية والأدبية في بلاده عندما دعت إلى الاهتمام بأدب العوام وأغانيهم وعاداتهم والاستعانة على تسجيل ذلك بكل ما أخرج العلم الحديث من وسائل وأدوات[1] .

كما رأى أن الهدف من ذلك وبصورة غير مباشرة – هو هدم الجوانب اللغوية في المجتمع ، عن طريق الدعوة إلى اللهجات السوقية .

وعلى كل حال .. . تعالوا بنا نقوم بتحليل ما يقصد بمفهوم الفولكلور من خلال ما طرح على ساحتنا الفكرية من مضامين وأعمال متعلقة بمفهوم حضارتنا أو بالمفهوم الثقافي ، حسب التوجهات العلمية الحديثة لهذا العلم ، وذلك من خلال ردود الفعل لرؤانا الذاتية التي صدرت عن الأوساط العلمية المختلفة ، حيث قامت بفحص جوانب دعوة الفولكلور هذه وما توصلت إليه من أغراض ..

وقد يصل بنا الأمر إلى معرفة هل كان المفكر على حق في تسميته لهذا التيار بأنه (جنون الفولكلور) بما يعني أنه منفصل عن عقلية فكرنا ، أم لا ؟

وهذا ما سيحكم عليه القارئ من خلال عرضنا لصور مما كتبه الكتاب والمفكرون الغيورون على مسيرة حضارتنا مع ملاحظة أنني استعنت في كتابة

---

(١) د / محمد محمد حسين (حصوننا مهددة من داخلها) ص ٧٧ .

هذا الفصل بواقع ملاحظاتي أيضاً ، وما كونته من رأي عن مفهوم الفولكلور وأعماله في مجتمعنا .

ينظر المبدأ الوظيفي إلى الحضارة[1] بجوانبها الثقافية والاجتماعية أو بجوانبها المادية والمعنوية باعتبارها كلاً وظيفياً متماسكاً ، أي إن النسق الاجتماعي يشكل وحدةً كليةً تحدد طبيعته ولا يمكن معرفة الجزء إلا في ضوء الكل نفسه ، الذي يشكل هذه الوحدة .

وإننا – سنجد أن تشجيع الاهتمام بالفولكلور في بلادنا لا تتعدى وظيفته إحياء تراث الفن القائم على الترفيه وفنون الترف ، لتزجية الوقت والتندر ببعض ما ورد في التراث والاستمتاع به ، من واقع استغلال الحنين إليه ، دون التطرق لأي جانب يدعم بناء المجتمع ثقافياً واقتصادياً ، أسوة بما حصل بالنسبة لتسجيل العادات الفولكلورية في ألمانيا ، المتعلقة بجوانب اقتصادها قبل مرحلة التحديث ، مثل تسجيلهم للعادات الاقتصادية المتعلقة بالزراعة وما شابهها .

لم نجد نحن أن موجة الفولكلور في بلادنا ، التي روجها الغزو الثقافي ، تتناول جوانب الاقتصاد المنزلي أو الأنثروبولوجيا الاقتصادية بالتنمية الذاتية ، إنما ركزت اهتماماتها على أعمال السحر والخرافات والرقص والغناء والشعوذة . وكل هذا في سبيل إحياء جانب الترف من تراثنا ، أو الجانب الذي لا يبني حضارة على أقل تقدير ، بل يقوم بإعاقة التقدم ، فضلاً عن استخدام هذا العلم من أجل إحداث الفرقة والبلبلة في صفوف مجتمعاتنا ، وبذر بذور الشك والتباعد والحروب بين الأهل والأشقاء ، من جراء معرفتهم بهذه العلوم ، مستغلين جهلنا بها ، وذلك لتشجيع جانب لا يسمن ولا يغني من جوع ، على حساب الجوانب ذات الفعالية في بناء ثقافتنا واقتصادنا وأخلاقياتنا ، أو كل ما يتصل بعوامل قوة ذاتيتنا .

---

(١) د / عبد الحميد لطفي (الانثروبولوجيا الاجتماعية) ص ١٦٤ وما بعدها .

إن الكثير منا يعرف عن الفولكلور أنه هو التراث الشفاهي من حكايات وأغاني شعبية ، وأشكال التعبير الشفهية كالموسيقى والرقص والعادات والتقاليد .. إلخ

وتكثر التعاريف والمفاهيم التي تناسب فكر الاستعمار وتتواءم مع بغيته فينا دون أن نفكر بالجوانب التي تحتاج منا إلى أن نحافظ عليها من واقع حاجتنا الذاتية ، وليس من واقع ترديد سيل من التعاريف والمفاهيم المختلفة ، التي تأتينا من خارج ثقافتنا وخارج بيئاتنا ، وتغفل ذاتية حضارتنا وجوانبها ، وما فيها من أولويات وأساسيات وتخلطها بالثانويات ، بل بالضار منها في كثير من الأحيان .

مفهوم الفولكلور ووظيفته :

يصور لنا أحد خبراء الفنون فكرته عن مفهوم الفولكلور ووظيفته في أوربا حيث يقول :

الفولكلور هو مصطلح انجليزي يتكون من مقطعين (فولك)[1] وهي تعني الشعب أو العامة و(لور) وهي تعني المأثور .. فالمأثور الشعبي – كما يعرفه الخبير – هو ما أثر عن الجماعة وهو تعبير دقيق تنطوي تحته كل صور الإبداع الفني من موسيقى ورقص وأدب شعبي وفنون تشكيلية وأمثال شعبية في إطار المناخ الطبيعي للمجتمع من عادات وتقاليد ، فالفولكلور عالم واسع جداً فهو عالم وعلم .

ويضيف هذا الخبير القول بأن هذا المصطلح استخدم عام ١٨٤٦ من قبل (سير جون وليام تومس) وقد تم استخدامه له بحذرٍ إلى حدٍ بعيد جعله ينتحل لنفسه اسماً مستعاراً هو (أندروس مارتن) حيث كان لفظاً جديداً ، كما كان اهتمام المجتمع آنذاك منصباً حول الأشياء النادرة والتحف القديمة والعادات القديمة (والأنتيكات) ، كما كانت الدراسات تركز على دراسة الأساطير ..

---

(١) صفوت كمال (فنوننا الشعبية) مرجع سابق .

وهي دراسة علمية كانت تهدف إلى إعادة تفسير الأساطير من خلال ما هو معاش والعكس أيضاً ، أي تفسير ما هو معاش من خلال الأساطير ، وخاصة فيما يتعلق بالسلوك والعادات والتقاليد .

ويرى الخبير نفسه أيضاً أن الهدف من ذلك أنها كانت محاولة جادة للكشف عن الذات ، خاصة في ألمانيا بعد انتهاء الاحتلال الفرنسي ، حيث بدأت مجموعة من العلماء باستخلاص اللغة الجرمانية الأصيلة واستخلاص الطابع القومي ، ولكنها كانت نزعة رومانسية قومية في المقام الأول فخلال هذه الفترة بدأت دراسة الفكر والفن المميز للشعوب .

وقد ظهر أثناء تحول هذا العلم من إطاره الرومانسي إلى إطاره الموضوعي عدة نظريات كنظرية تعدد الأصول لكل ثقافة ، ثم نظرية أن الثقافات ذات أصل واحد ، وأن اختلافها نوعي نتيجة الانتشار الثقافي وانتقال الإنسان من مكان إلى آخر ، ثم ظهرت النظرية الانتشارية ، ثم بدأت دراسة علم الأجناس ، ثم بدأ هذا العلم يهتم بمعرفة ثقافة الشعوب وقدرتها على الإضافة الإنسانية المستمرة ، وأثرها في إضافة التقويم الاجتماعي للإنسان باعتباره كائناً اجتماعياً مبدعاً ، وخاصة بعد أن أزيلت الحواجز التي كانت تحول دون انتقال الإنسان من مكان إلى آخر بفعل انتشار وسائل المواصلات الحديثة .

وبمعنى آخر ، فإنه بعد ذلك التطور الحديث زالت حواجز كثيرة كانت تجعل الإنسان مرتبطاً بأمجاد ماضية كما كان شائعاً في عصر النهضة فأصبحت وظيفة الفن الشعبي الاهتمام بالكشف عن المقولات في فكر المجتمع ووجدانه سواء أكانت مقولات فكرية بالمعنى الفلسفي ، أم مقولات بالمعنى الجمالي .

ومما سبق نستنتج أن ألمانيا استخدمت الدراسة الفولكلورية ، بعد أن مرت بأزمتها من جراء حربها مع فرنسا ، من أجل تعميق معرفتها بذاتها وخصوصاً لغتها الألمانية .

إن تعميق معرفتنا بذاتنا عن طريق دراسة جوانب فولكلورنا خلال المرحلة الماضية التي سبقت دخول الاستعمار ، هو أمر ضروري لدراسة طرقنا في التربية وفي التعليم ، وفي التعليم الصناعي ، وطرقنا الزراعية ونظامنا التجاري واقتصادنا المنزلي وكثير من الأمور التي نحن بأمس الحاجة إلى أن نستلهمها في بناء حاضرنا ومستقبلنا .

الفولكلور لطمس المعرفة بالذات الثقافية والقومية

من الطبيعي أنه عندما تُغرَّب[1] التسميات للأشياء والعلوم الجديدة ، التي كان لها أصل في تاريخنا ، فإن هذا يحمل معنى الاستعمار الفكري لحضارتنا . ولنضرب على ذلك مثلاً بخصوص صناعة الملابس . فإذا رجعنا إلى كتب التراث في موضوع الملابس ، نجد أن كل ما يتعلق بهذه الصناعة ومنتجاتها كانت تسمياته تقريباً عربية . بينما الآن يتضح من الموداتِ والأزياء ، أن كثيراً من ملابسنا وأزيائنا أصبحت ذات أسماء وتعابير أجنبية ، وهذا ما يعبر عن غزو فكري واستعمار اقتصادي لنا في هذه الصناعة .

وكذلك الحال فيما نجده في مجال صناعة الأدب ودخول تعابير كثيرة جاءت إلى فكرنا الأدبي لتستعمره كتعبير مفهوم الحداثة مثلاً ، بالإضافة إلى أسماء أخرى مثل كلمة الموروث أو كلمة التراث عندما نقع في الخطأ ونطلقها على دستورنا القرآني الذي هو وحي وليس تراثاً .

إن كلمة الفنون الشعبية ، حسب شيوعها في العصر الحديث ، تحمل كثيراً من المعاني التي يستثمرها الفكر الاستعماري لتحقيق مصالحه ، لأنها تلغي كل ارتباط لها بفنوننا الإسلامية قبل مرحلة التحديث . وهذا ما يطمس الصلة بين ظاهرة المعرفة العالمية بالفنون الإسلامية وبين تراثنا الحالي ، كما يطمس أي

---

(١) هناك فرق بين مصطلحي التحديث والتغريب ؛ فالتحديث هو أن نملك التقدم التكنولوجي والفني الحديث مع الاحتفاظ بديننا وحضارتنا ، وهكذا فعلت اليابان وغيرها ، والتغريب هو أن تذوب ثقافتنا وشخصيتنا داخل الثقافة الأوربية المعاصرة ، وهو طريق لا يؤدي كما أثبتت تجربة تركيا – إلى التحديث ، بل يؤدي إلى البقاء خارج الحضارة الذي هو بمعنى الضياع الحضاري .

فعالية ثقافية بين ماضينا وحاضرنا ، وهو أسلوب معاصر لسلب المعرفة وتغريبها ، بعد أن لم يعد بالإمكان إخفاء ظاهرة تفوق الفنون الإسلامية .

ومن جهة أخرى فإن رياح العلوم الوافدة ذات المفاهيم الغربية في هذا العلم الجديد ، وما تتضمنه من روح استعمارية وغزو ثقافي ، يحمل بدوره فكرة العالمية ، وما يقصد بها من عالمية الثقافة الأوربية .

فبعد أن عمل الاستعمار على تقسيم العالم العربي سياسياً ، إلى أقطار مختلفة ، حمل معه فكرة تجزئة الثقافات في العالم العربي والإسلامي ، فقد أراد أن يكون فولكلور أي بلدٍ عربي إسلامي رقماً في عداد التشكيلة العالمية لفنون الفولكلور للشعوب المختلفة ، وثقافاتها تحت اسم (الفنون التقليدية) أو (الفنون الشعبية) .

لقد أراد الاستعمار أن تنقطع كل الخيوط والصلات بين فولكلورنا الحالي وعلاقته بالفنون الإسلامية ، أو الفكر الإسلامي وصناعاته ، حتى لا يكون هناك تواصل بين ما كان عليه ماضينا وما نحن عليه ، من أجل بناء حاضرنا ، مستجيبين لأصول التحديث وليس التقريب[1] ؛ وذلك لكي يسلب منا إمكانية الاستفادة من تراثنا شكلاً وأسلوباً ومضموناً ، في بناء حاضرنا ومستقبلنا الحضاري ، وكي نبقى معتمدين على مساعدة شركاته الصناعية ومؤسساته العلمية ، بعد أن امتلك الغرب المعرفة في فنون الصناعات وعلومها ، على جميع المستويات ، منذ بدايتها إلى المراحل المختلفة من تطورها .

حول دعم وظيفة هذا العلم :

ولتدعيم وظيفة هذا العلم والاستفادة منه أسلوباً ومضموناً لابد من تثبيت علاقته مع الجوانب المعرفية الأخرى وتوضيح أصولها وتطورها وتاريخها مع الإشارة إلى الأسباب كالتقسيمات السياسية الحديثة في بيئتنا العربية والإسلامية ،

---

(١) عمر عثمان خضر (المأثورات الشعبية في المملكة ..) مرجع سابق ص ٢١٦ .

وتقسيمات الفنون المختلفة في علم الفن الحديث وكل ما يساعد على تشخيص واقعنا الإسلامي المعاصر ، وتأصيل ذاتيتنا الثقافية .

وحول هذا الموضوع يحدثنا الأستاذ صفوت كمال عن تقسيمات الفنون الفولكلورية العربية إلى ثقافات تتبع التقسيمات السياسية الاستعمارية للمنطقة العربية الإسلامية ، حيث يقول :

« العالم العربي مقسّم سياسياً إلى شرق أوسط[1] ، وشبه جزيرة ، وخليج ، وجزء إفريقي .

« إنها محاولات مستميتة لتقسيم العالم العربي ؛ فعندما تهاوت الحدود بين الدول العربية ، أو فشلت عمليات التقسيم في عزل الشعوب ، بدأت محاولة جديدة لتقسيم العالم العربي إلى عدة ثقافات : ثقافة حوض البحر الأبيض المتوسط ، وثقافة إفريقية ، وثقافة بدوية .. وثقافة خليجية »[2] .

وبالرغم من كل آثار الغزو الفكري الاستعماري ، مثل استغلال هذا العلم الحديث وتطبيقاته العملية داخل مفهوم الأنثروبولوجيا التطبيقية ، بالإضافة لما تتضمنه التسمية الجديدة لهذا العلم من وظيفة استخدمها الاستعمار وسيلة لفصلنا عقلياً عن ماضينا الحضاري وإيجاد حالة من التقوقع داخل أجزاء ووحدات مدلولات الفكر الحديث عن مفاهيم الحضارة – بالرغم من كل هذا فإنه لابد أن تظهر بعض جوانب هذه الوحدة لمفهوم حضارتنا وملامح فكرها أثناء استخدام الأقطار العربية ، لهذا العلم الجديد .

ونحن نرى كيف أن المحاولات الاستعمارية لا تكل عن تحقيق مزيد من طمس المعرفة بنسيج الحقيقة العلمية الذي يحاول أن يقودنا إلى شمولية المعرفة عن حضارتنا الإسلامية وإنساننا الحضاري .

---

(١) مصطلح (الشرق الأوسط) هو مصطلح سياسي حديث نجح الغرب في إخضاعنا له لكي تُضم اسرائيل بين أضلاعنا ، والتعبير الصحيح (الشرق العربي) .

(٢) صفوت كمال ، مرجع سابق .

وتظهر مثل هذه المحاولات في حديث الأستاذ صفوت كمال ، عندما يحدثنا عن ظهور ملامح هذه الوحدة الثقافية لحضارتنا فيقول :

« ثم قامت الفنون الشعبية بإظهار الوحدة الثقافية من المحيط إلى الخليج .. عندئذ بدأت الدعوة المضللة إلى أن الفنون الشعبية تنمي النزعة العنصرية عند الإنسان العربي ، في حين أن أوربا بدأت دراسة الفنون الشعبية قبلنا بقرن .. ولديهم كليات تدرّسها .. فلماذا لا تنمي فيهم النزعة العنصرية .. ؟ إنها محاولات استعمارية للنيل من وحدة قومية تحيط بالعالم العربي وبالإنسان العربي .. »(١) .

ثم يحدد لنا الكاتب نفسه الوظيفة الاجتماعية الإيجابية التي يجب أن يكون عليها نسق علم الفن الشعبي فيقول :

« إن الفن الشعبي كموروث ، هو الكشف عن الذات القومية ، ولا يهدف إلى التقوقع داخلها ، وإنما بهدف تنميتها دون اللجوء إلى مفهوم سياسي فالسياسة قيمة متغيرة وخاضعة للخدعة ، أما الحضارة فأصل ثابت »(٢) .

ومن أجل وعي وإدراك المنطلقات السليمة لفولكلور محلي وأنثروبولوجيا محلية ، يجب أن يتضح لنا أن الثقافة الفولكلورية ما هي إلا شريحة الثقافة الماضية التي كانت قبل مرحلة التحديث ، والتي تمثل ما كانت عليه مجتمعات العالم العربي والإسلامي من تراكم ثقافي يشمل جميع جوانب المجتمع الثقافية والاجتماعية التي تمثل شخصيته ، بما كان عليه الجانبان المادي والمعنوي معاً من نشاطات اقتصادية وتعليمية وعمرانية واجتماعية وغير ذلك .. أي إنه يمثل جزءاً هاماً من ثقافتنا الماضية التي تتوسط بين ماضينا وحاضرنا .

كما أن هذه الثقافة الفولكلورية تتضمن كثيراً مما يطلق عليه بالمفهوم الحديث (الفنون الإسلامية) وتحتوي أيضاً على عناصر ديناميات الثقافة التي تتفاعل مع

---

(١) و(٢) المرجع السابق .

عوامل التغير عند اتصالها بالثقافات الأخرى وتأثرها بكثير من مستجدات العصر ومتغيراته . وكما أنها تحتوي على العناصر الثقافية الجيدة فإنها تحتوي على العناصر الثقافية الرديئة التي تعوق مسيرة التقدم .

وهكذا فإن من واجبنا أن نبحث عن الوظيفة الإيجابية لعلم الفولكلور ومفاهيمه داخل كياننا الحضاري المعاصر ، كما يتوجب علينا ، بعد دراسة عناصره ومقوماته أن نسعى إلى توجيه عمليات التغير لما يؤدي إلى تقدم حضارتنا وتحقيق غايات مجتمعنا التي تنسجم مع ثقافتنا الأصيلة وذلك من واقع الاستفادة من تقدم المعرفة الأنثروبولوجية ونظرياتها البنائية والوظيفية في دراسة المجتمعات .

الفن الشعبي .. ثقافة تمر بالمتغيرات

اعتاد الإنسان ، منذ قديم الزمان ، أن يعطي قيمة جمالية لكل أنشطته المختلفة في الحياة ، مع ألوان بنائه الحضاري .

وقد عرفنا سابقاً أن خبرته البشرية ، التي أتت على شكل صناعات ، علمية نظرية كانت أم عملية تعتمد على علم أيضاً ، أي أن لها خاصيتها الفكرية التي تميز الإنسان عن الحيوانات وغيرها من مخلوقات الله تعالى ، وذلك بما كرم الله – عز وجل – الإنسان بالعلم عن سائر أفراد الخليقة .

ويعرف الفن ، بشكل عام ، بأنه الإبداع في الخبرة البشرية . ويحدثنا خبير الفنون الشعبية الأستاذ صفوت كمال عن الفن الشعبي حيث يقول : الفن الشعبي يعني الإبداع الشعبي ، وهو يختلف عن الفنون الأخرى من حيث أن المنتج أو المستهلك هو الشعب ، والفن الشعبي هو تعبير دقيق صادق تلقائي عفوي عن الإنسان في مجتمعه مع موروثه الثقافي المعاش في فكر ووجدان هذا الإنسان[1] .

ويضيف الكاتب بأن الفن الشعبي يحمل موروثات ثقافية عبر أجيال ، بمعنى أنه يمر بالمتغيرات التي يمر بها كل جيل .. فهو موروث ثقافي معاش يتأثر بالتغير الاجتماعي ويتبلور في شكل نهائي يكون مواكباً ومعاصراً للجيل الذي يمارس هذا الفن . وهو عالم وعلم ؛ فالفن هو تعبير عن فكر ووجدان الإنسان ، سواء كان إنساناً مفرداً أم مجموعة من الأفراد . أي أن الفن مرتبط بفكر ووجدان الإنسان ؛ ومن ثمة فهو مرتبط بفكر ووجدان المجتمع .

---

(١) صفوت كمال (فنوننا الشعبية) .

والفن الشعبي لشعب ما هو إلا ظاهرة حضارية لهذا الشعب ، والفنون الشعبية في مجتمع ما ، تنمو بنمو المجتمع ثقافياً واجتماعياً وتنحدر بانحداره ثقافياً واجتماعياً ، أيضاً . ولذلك لابد أن نفرق بين الفنون الشعبية و (فنون السوقة والدهماء)[1] .

وهذا ما يجعلنا نميز بين الفنون المنحطة التي تسيء للإنسان وحضارته ، وبين الفنون التي تسمو بالإنسان وحضارته . فالفنون الشعبية إنما هي تعبير حضاري ، باعتبارها تمثل تعبيراً عن قدرة الإنسان على الإضافة المستمرة للحياة ، كما يسعى الإنسان دائماً من خلالها ليعطي قيمة جمالية لكل أنشطته المختلفة في حياته .

وظيفة الفنون الشعبية تجاه المتغيرات الحديثة :

تعيش الفنون الشعبية وسط أصعب مرحلة من المتغيرات التي مرت على الإنسان في بيئته . لقد كانت المتغيرات الماضية ضئيلة ، وهذا شيء طبيعي في الحياة ، فمنذ بدء الخليقة عندما عاش الإنسان على هذه البسيطة فهو يعمل في بنائه الحضاري ، ويبدع ويخترع أشياء جديدة ، وتتطور صناعاته وتتقدم علومه ، وتحدث له متغيرات جديدة كل عام .

ولكن الأمر يختلف في هذا العصر ؛ إذ إن المخترعات التكنولوجية والتطورات العلمية التي حدثت في العصر الحديث تطورات مذهلة في سرعتها ، فقد تداخلت الآلية والمخترعات الحديثة فشملت جميع جوانب حياة الإنسان ، بل الأكثر من ذلك ، فقد سيطرت هذه الآلية على حياة الإنسان وعطاء ذاته وفنونه التي تنبع من فطرته وأخضعت هذه الذاتية لعقلانية الإنتاج الآلي .

ولكي يخرج الإنسان مما أحاط بنفسه من سيطرة تكنولوجية وثقافية ، أثرت في عطاء فنونه ، ينبغي توظيف المعطيات الشخصية ، كما يقول الأستاذ صفوت كمال ، لتلافي الهوة الثقافية التي أحدثتها ثقافة العصر ، وذلك من أجل رؤية ما

(١) المرجع السابق .

يمكن أن تكون عليه حضارتنا ، التي تجمع بين العطاء الإنساني والعطاء المادي : « ولا يقتصر الأمر في ذلك العلم على اهتمامه بمعرفة ثقافة الشعوب ، بل إنه يهتم بقدرتها على الإضافة الإنسانية المستمرة ، وذلك باعتبار أن الإنسان كائن اجتماعي مبدع »[١] .

وحول هذه المتغيرات وواجب الإنسان في استغلال هذه النماذج الفولكلورية وتوظيفها بشكل مناسب ، مما يفيد في عملية استمرار إبداع الإنسان ، واستمرار عطائه الإنساني الذي سيطرت عليه الآلية الحديثة يقول الباحث نفسه : « لم يعد الإنسان متقوقعاً في موقعه ، مرتبطاً فقط بأمجاد ماضيه ، كما كان شائعاً في عصر النهضة الأوربية .. ولم تعد قدرات الشعوب تقاس بما حققته في ماضيها .. وإنما أصبح المعيار الحقيقي هو مدى قدرتها على الإضافة الحقيقية للإنسان ، مع اختلاف أشكال هذه الإضافة .. . والإضافة أساساً لا تكون إلا بصدق التعبير عن الإنسان في أي قطاع . وصدق التعبير يعتمد على مدى رؤية الإنسان لإمكانياته في الإضافة .. وواقعه الذي يعيشه ومن هنا كان الاهتمام بالفنون الإفريقية أيضاً ، فهي صادقة التعبير عن واقع الحياة الاجتماعية »[٢] .

ويتساءل : ترى هل يمكن للفن الشعبي أن يؤثر في حضارة شعب ما .. ؟ وهو يرى أن من الممكن أن يكون الفن الشعبي نتاجاً حضارياً . وتكون استمراريته عاملاً هاماً في تطوير صورة المجتمع ، عن طريق محاولة الابتكار في أساليب إنتاج هذا النتاج ، ولو كان يستفيد من التطورات التقنية ، كانتقال صناعة السجاد اليدوي ، وهو نتاج حضاري إلى السجاد الحالي الذي أصبح مجرد نتاج آلي .

ومن هنا تظهر الصورة الحقيقية لاحتياج الإنسان دائماً إلى مأثوراته الشعبية

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع نفسه .

بل الأكثر من هذا فإن العصر الذي نعيشه هو عصر الإنتاج الكمي الرهيب .. عصر التقدم التكنولوجي وبداهة فقد يغزو هذا التيار المجتمعات – كما وقع فعلاً – مذيباً شخصيتها الحضارية الأصيلة .. ومن هنا كان لابد للفنان من وضع القوالب الفنية العصرية المعتمدة على المأثور الحضاري .

وهذا يعني أن يكون إبداعه الجديد معتمداً على تاريخه الحضاري ، محافظاً على شخصيته القومية .. بمعنى أن يستلهم الفنان حضارته لبناء حاضر مجتمعه أي أن تقوم الفنون الشعبية بوظيفة إلغاء الانفصام بين ما كان وما يمكن أن يكون فهي عملية فكرية مستمرة ، وبهذا فإن الفنون الشعبية تحاول أن تحدد منهج التفكير للإنسان العادي في حياته المعاصرة .. فالقديم فقط لا يمكن أن يقاوم تيارات العصر ، والحديث فقط لا قيمة له إن لم يكن معتمداً على جذور حضارية أصيلة .

وهكذا نستلهم الماضي في الوصول إلى صياغة محدثة كما نجد أنه من الضروري دراسة النماذج الفولكلورية لشريحة حضارتنا الماضية دراسة واعية من جميع جوانبها ، سواء في طريقة العمران أو طريقة التربية أو التعليم المهني والنظري أو الثقافة الفولكلورية المتصلة بآدابنا ولغتنا التي هي وعاء فكرنا ، مع دراسة الاقتصاد المنزلي ، على أن يُدرس كل هذا في مرحلته الماضية قبل حدوث تأثيرات التغيير المعاصرة .

إن كل هذه الأمور تزيد وعينا بذاتنا الحضارية ، على ضوء الصلة بماضينا وتاريخه الحضاري ، وما يمكن أن يكون عليه حاضرنا ومستقبلنا الحضاري .

ومن هذا المنطلق نجد أن خبير الفن الشعبي الأستاذ صفوت كمال يؤكد على أهمية نماذجنا الحضارية التي كنا عليها في حضارتنا الفولكلورية الماضية ، والتي تمثل ذلك التراكم الثقافي لشخصيتنا الحضارية الماضية ، والتي عملت على تفتيتها عوامل العصر المادية وتغيراته السريعة ، وتقدم وسائل الاتصال والمواصلات ، وما أحدثته من الانفتاح بين حضارة وأخرى . فهو عندما يتحدث عن هذه النماذج التراثية فإنه يرى لها وظيفة هامة تحتاج لوعيها فيقول عن التراث :

التراث إذن هو رصيد المجتمع ؛ رأسماله الذي يستطيع به أن يحافظ على شخصيته المتميزة بلا خوف من الضياع ، في عالم تحكمه قيم ولّدتها نهضات وليدة العصر ، عالم لم يعد يرجع إلى أصله ، أو لا يعرف حتى أصله ، خاصة بعد أن أتاحت التقدمات التكنولوجية وسائل الاتصال والمواصلات ، واختلطت الأنساب ، وامتزجت الأصول ، بل ضاعت أو كادت أن تضيع .

ولكن التراث .. التراث وحده هو طوق النجاة ، لو تشبثنا به لوصلنا إلى بر أماننا الحضاري ؛ فالعودة إلى الأصل الحضاري تظل ، دائماً ، أسلم الطرق وأقصرها إلى تحقيق واقع حضاري ، يساير العصر ، بينما هو يرتكز على أساس متين أصيل .

ولما كان الإنسان هو أصل الحضارة ؛ فهو أصل التراث .. إذن فالإنسان والتراث صورتان لواقع واحد : التراث هو الصورة الحضارية للإنسان ، أو الإطار الحضاري له .. بينما الإنسان نفسه ما هو إلا صورة مجتمعه المعاصرة .

النهضة الأوربية ليست حضارة :

لا يمكن لنا أن نسمي النهضة الأوربية الحديثة بأنها نهضة حضارية ؛ وذلك لأن نهضتها الحالية تقوم على هوة شاسعة بين ثقافتها في الفترة الماضية والثقافة الحالية التي اصطنعتها لنهضتها الحديثة ، نتيجة لعمليات التعقل على جميع المستويات .

ويحدثنا الأستاذ صفوت كمال عن هذا فيقول : « إن العصرية تعني الحداثة ، والحداثة قد لا تكون مبنية على أساس تاريخي وحضاري عتيد . إذن الحضارة شيء ، والعصرية شيء آخر ؛ الحضارة أصالة ، الحضارة تاريخ ، الحضارة صراع ضد قويٍّ متعددة ، الحضارة شيء ، والعصرية شيء مغاير .. نقول الحضارة المصرية القديمة ، ونقول الحضارة الرومانية ، وحضارة شبه الجزيرة ، ولكننا نقول « النهضة الأوربية » .. لماذا ؟ لأن النهضة ليست حضارة ، وإن كان من الممكن أن تصبح أصلاً لحضارة . وهذا أمر آخر .

إذن الحضارة عموماً ، كتاريخ وأصالة ، لابد لها من تراث ترتكن إليه ، وتتفتق عنه ؛ تراثٍ يميزها وتنتسب إليه ، يزدهر بازدهارها وينمو بنموها ؛ فلا تراث بلا حضارة ، ولا حضارة بلا تراث .

وما هو التراث .. ؟ إنه هو المأثور من الصور .. قد تكون الصورة علمية ، فنقول « التراث العلمي » ، أو فنية فنقول : « التراث الفني »[1] ولا يمكن أن نسمي قرآننا وسنة نبينا مأثوراً أو تراثاً بالمعنى الاصطلاحي الفني ، فهما منهج لدربنا ونور لطريقنا . أما الجوانب الحضارية المختلفة في تراثنا ، فإن استلهامها يعيننا على دربنا .

« وهكذا .. فالدولة بلا تراث هي دولة عصرية ، ولكنها ليست دولة حضارية بحالٍ ما .. الهند ، مثلاً ، دولة أو مجتمع حضاري ، وإن لم يكن عصرياً .. كيف ؟ إن لديها تراثها في شتى المجالات ، مأثوراتها .. بعضها نما وترعرع ، بينما توقف البعض الآخر عند حد معين من التطور .. وهكذا .. لا يعتبر الشعب الهندي شعباً عصرياً ، وإن كان حضارياً »[2] .

إن دراسة واستلهام الجوانب الحضارية المختلفة في تراثنا الثقافي الذي يكون بعضه على شكل نماذج حضارية تعيننا على دربنا . إلا أن هناك ملاحظة مهمة ومعروفة ، نؤكد عليها هنا وهي أن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لا يمكن أن يسميا تراثاً – كما أسلفنا – إذ إن لفظ « التراث » يعني شيئاً فات استخدامه واستعماله ، فهما ليسا من المأثورات ، بل إنهما يشكلان منهجاً ونوراً لنا يضيء طريقنا ، في بناء الحضارة على أسس سليمة .

---

(١) (٢) المرجع السابق .

الوظيفة السلبية للأعمال الفولكلورية

كانت ظاهرة التحديث الأوربية عاملاً هاماً أدى فيما بعد إلى اغتراب الذات الإنسانية وكان ذلك بسبب اتجاهاتها الاجتماعية ، وطغيان تكنولوجيتها الآلية ، وما سببته من تقويض للفردية وإرادة الإنسان الطبيعية .

لذلك هرعت الجهود المخلصة في الأوساط الأهلية والعلمية ، تنكب على هذا التراث لتقوم بجمعه عن طريق تسجيله بطريقة علمية وحفظه ، ولم تعمل على إهمال جانب على حساب آخر ، فكل الجوانب لها تخصصاتها وأهميتها .

وقد أسرعت تلك الأوساط إلى جمع تراثها الزراعي والصناعي والروحي ، وما كان عله المجتمع المحلي . كما اهتمت بالطب الشعبي والحياة المنزلية ، والرياضة والألعاب الشعبية[1]، إضافة إلى ذلك فقد أعطت اهتمامها لتراثها الأسطوري .

وقد تعاون من أجل جمع التراث الأيرلندي ، مثلاً ، مدرسو وتلاميذ الفصول الكبيرة في المدارس الابتدائية ، منذ عام ١٩٣٧ - ١٩٣٨م وبلغ أرشيف لجنة الفولكلور الأيرلندية ، ما يزيد على مليون صفحة من المادة المكتوبة باليد ، مع حث طاقات المدرسين والتلاميذ للتعاون من أجل تحقيق[2] ذلك .

كان الهدف واضحاً ونبيلاً في آن واحد ، ولذلك كان الحماس المنقطع النظير مرتبطاً بالعمل الجاد لحفظ الذات الحضارية من الضياع والاندثار مع أمواج العصر المادية وقد أعطى الدليل الأيرلنديَ ، كما ذكرنا ، من أجل جمعه فترة خمس سنوات .

---

(١) د / السيد علي شتا (نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع) انظر فكر ماركيوز عن الاغتراب .

(٢) محمد الجوهري ، وزملاؤه (الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية) مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ١٩٦٩م .

وفي ألمانيا ، سجل فيلهلم – كما سبق القول – التراث الفولكلوري الألماني ، مبتدئاً بعادات الزراعة .

أما نحن ، فقد أتت إلينا فكرة التراث والفولكلور مع أعاصير الغزو الأوربي ، وموجات التغريب والاستعمار ، لتستهلك أو تروِّج ضعيفه أو رديئه في فنون الترف والاستهلاك ، بما يعيق العملية العلمية الهادفة ، المرتبطة بالتراث ، وليفصل علوم الحضارة عن غاياتها وأصولها ؛ وذلك من باب التبشير بالعلوم الحديثة ، واغتراب العلوم . علماً بأن علماءنا قد أضافوا إلى المعرفة الإنسانية حلقاتٍ وأعمالاً عظيمة ، أي أنه بعد سلب المعرفة واستفادة الغرب منها ، قام بصبغها بصبغته ، لكي تكون منفصلة عنا ولتعمل ضدنا .

الدراسات الفولكلورية وقضية تطوير الثقافة الشعبية :

واجهت الجهود المبذولة من أجل جمع الفولكلور في وطننا العربي بعض المشكلات ويعتبر القطر المصري من البلاد العربية الرائدة في دراسة موضوع علم الفولكلور بمعناه الأكاديمي ، قياساً بالنهضة العلمية في هذا المجال في الأقطار العربية الأخرى .

وقد استطاعت الريادة الفكرية من الشباب المتعلم في هذا المجال ، أن تنشر حركة علمية للانتفاع بهذا العلم الجديد ، والاستفادة منه لخير البلاد .

إلا أن اهتمام نسق الفن الحديث في مصر بهذه الحركة ، مثل السينما والمسرح .. وغير ذلك ، لم يترك المجال للجهود الدراسية لكي تصل إلى مرحلة النضوج والاكتمال ولم يمكنها من اتساع قاعدتها العلمية وشمولها لما تقتضيه ، من الحاجة إلى تلمس سبل المعرفة ، وتحديد وسائل الانتفاع الخيِّر ، وخصوصاً في مجال توجيه أعمال التغير الثقافي والاجتماعي على المستوى القومي ، الذي يستطيع تحديد سبل الانتفاع منه بالشكل الجاد .

لقد كان نشوء هذا العلم في البلاد العربية يمثل استجابة طبيعية سوية لحاجة

علمية لها وجودها الملموس على المستويين الاجتماع والقومي . وقامت أجهزة الدولة بتشجيع هذه الهواية العلمية لبعض الباحثين الأفراد .

وقد بذلت الفئة المتعلمة جهوداً واضحة من أجل الأخذ بيد هذا العلم حتى وصل بعضهم إلى إنجاز أطلس فولكلوري .

كما قام الدكتور عبد الحميد يونس بإنجاز معجم الفولكلور[1] وهو عمل عظيم حيث يعد أول موسوعة فولكلورية عربية أعطاها المؤلف جهده الكبير .

كانت الجهود العلمية لجمع المادة الفولكلورية من قبل أبنائنا أيضاً واضحة المعنى والهدف القومي ، ولكن الطابع الإعلامي الاستهلاكي في الفن العربي ، عموماً جرف معه الجهود منذ بداية ظهورها ، وذلك من أجل استهلاك التراث الفولكلوري ، دون التمييز بين صالحه وطالحه . وقد ساعد على ذلك طغيان الجانب المادي في شكل الحضارة الجديدة ، مع عدم الوعي بأصولنا الثقافية .

يقول الدكتور محمد الجوهري حول هذه التجربة :

« إن القاعدة العلمية لم تكن لتتكافأ في ذلك الوقت مع قوة الاهتمام الجماهيري بالتراث الشعبي . ووجدت الفئة القليلة الرائدة ، أو معظم أفرادها ، نفسها مضطرة إلى بذل الجهود لسد حاجة أجهزة الإعلام ووسائل الفنون « بحاجتها » من فنون الشعب ، واختلطت بشكل خطير مع أهداف التطوير والانتفاع بالتراث الشعبي ، ونجحت أجهزة الفن ونشر الثقافة في أن تشوه حقيقة الأسلوب الأمثل لتناول التراث الشعبي .. فكان ما نحن عليه الآن من أوضاع مجافية للمنطق السليم ، وكلمة الفولكلور والفنون الشعبية على كل لسان .. فعامة الناس ومثقفوهم ، وأيضاً رجال الاجتماع منهم ، لا يملكون تصوراً سليماً لمضمون حركة فولكلورية صحيحة . فرق وأفراد من الفنانين « تُطَوِّر » الفن الشعبي كذا

---

(١) د / عبد الحميد يونس – معجم الفولكلور – مجلة الحرس الوطني ، السنة التاسعة العدد ٧٤ ، المفكرة الثقافية ص ١٠٦ .

بلا أساس من الدراسة أو الجمع المنظم ، أدباء شبان وغير شبان يكتبون قصصاً من تراث الشعب في الأدب » .

ثم يضيف أيضاً :

« إن وجه الخطورة هنا ، أن فرصاً ذهبية لدراسة هذا التراث الخصب ، ومفتاحاً أساسياً لفهم حضارة هذا الفن الأصيل .. تذوي مع كل يوم ، كل أولئك على حساب الصورة العلمية السليمة ، التي يمكن أن تكون ، والتي يجب أن تكون ..

« ثم إن هذا التراث « المطوَّر » و « المهذَّب » .. إلخ كل ذلك من صفات غير حميدة ، يتردد من خلال أجهزة الإعلام ووسائل الاتصال الخطيرة التأثير ، الواسعة الانتشار ، ليزيح تراث الناس البسطاء من مكانه ، ويشوه معالم الصورة »[1] .

ويضيف أيضاً :

« إننا لسنا من الغفلة بحيث نحارب التراث ونستنكف عن الاستمتاع به والانتفاع منه .. ولا نرى منه سوى مادة مُتْحَفيّة ذات قيمة تاريخية أو اجتماعية مكتبية ، تخدم أغراض التخطيط والإدارة .

ويتابع الجوهري :

« ليس كل ما نسميه بالفنون الشعبية خليقاً بالتمجيد والبعث .. ومما لا شك فيه أن في التراث الشعبي عناصر منحطة وأخرى راقية .

« وعلينا أن نغربل تراثنا الشعبي لنحافظ على ما هو راقٍ منه ، وتنميته ، ولنقاوم ما هو منحط ، ونعمل على إبادته ، بحيث لا يبقى منه إلا نماذج للمتاحف

---

(١) د / محمد الجوهري (علم الفولكلور) ص ٣١ .

والسجلات ، التي تعين الباحث العلمي المتخصص في تاريخ الثقافة[1] .

وبالإضافة إلى هذا التوجيه النقدي حول بدايات علم الفولكلور ، ومن ثم مراحله التي تليها ، فإننا نؤمن بأن هذه الحملات التشويهية للخطوات الأول هي بفعل الاستعمار هي من أجل أن لا تحقق الدراسات الفولكلورية أهدافها في التنمية الحقيقية للمجتمع .

إن ذلك التشويش على الخطوات الأول لولادة هذا العلم ، من قبل الدوائر التغريبية والتبشيرية ، كان من أكبر المعوقات التي وقفت ضد اتصال هذا العلم بجذورنا الثقافية ، بحيث يكون وسيلة لخدمة ثقافتنا ، ودعم رؤيتنا العلمية في هذا الزمن ، الذي انقلبت فيه الموازين .

إن من الطبيعي أن يكون لمفكري الأمة رؤاهم الذاتية ، وإحساسهم الصادق بالأمور التي يستخدم لها هذا العلم ، ولأية أغراض يتم ترويجها . ذلك لأنهم يدركون قيم ثقافتهم الإسلامية وموازينها ، مهما طال الغياب .. فهناك مباديء إسلامية يعيشونها ، وهناك آيات قرآنية تؤثر في نمط حياتهم مثل إذا بليتم بالمعاصي فاستتروا ، وكذلك قاعدة الحلال والحرام « الحلال بَيِّنٌ والحرام بَيِّن .. » ومثل قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة** ﴾[2] .

فلابد أن يستيقظ الشعور نحو ما سخر له هذا المفهوم مثل التندر بالتراث صالحه وطالحه تحت اسم الفولكلور وبطريقة لا تمنع إشاعة قبيح العادات وساقط الأساليب والفنون من البذاءات وتسخير أحداث التقنيات العلمية من فن الصورة والمسرح من أجل عرضه على الجمهور للتسلية ، وتزجية الوقت في فنون تدخل في دائرة الترف والمتعة الحرام أكثر من دائرة البناء والإعمار كما أصبح معروفاً في

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) سورة النور ، الآية ١٩ .

أمر « إفراط الحضارة » ويروج عادة في المدن الكبيرة من فنون الترف التي تتجه للكسب المادي عن طريق الترفيه .

فقد تم استخدام هذا العلم من أجل أمور تدعم خطوات إفساد الحضارة ، انطلاقاً من ترويج مبدأ فنون المتعة على حساب تكسير قاعدة الحلال والحرام وإغماض الطرف عن مبدأ « إذا بليتم فاستتروا » وفي مواضيع تزيد من تفكيك عرى المجتمع وتستهلك قيمه .

كما يتم الترويج في أوساط فنون الإعلام من أدب وسينما وما إليه ، ما يعمل على تفتيت عرى ثقافتنا ومقومات وحدتنا في موضوع مثل « الدراسات الشعبية » أو « الفولكلور » (مثل دعوة الأدباء والكتاب إلى البحث عن مواضع الاتصال بين مصر القديمة ومصر الحديثة ، في ميادين الأدب ، وكتب العقائد ، وطقوس العبادة ، وموروث التقاليد والعادات في شتى نواحي الحياة . كما دعوا إلى إنشاء أدب خاص وفن مستقل في التصوير والنحت والموسيقى ، يتميز بطابعه المصري المحلي)[1] .. كل ذلك يرتبط بالحملة لفصل علومنا وجوانب فكرنا عن فعاليات الفكر الإسلامي في ثقافتنا ، وتفتيت بناء ثقافتنا .

وإذا كان الاتجاه العلماني في البلاد الأوربية قد أعلن الثورة على كل شيء قديم كما طغت التكنولوجيا والرأسمالية على الجوانب الثقافية والاجتماعية والشخصية للمجتمع ، فأصبحت العوامل المادية يمتد أثرها إلى الجوانب الثقافية في المجتمع .

وللأسف فقد انتقلت هذه الموجة إلينا عن طريق الفولكلور للمساهمة مع برامج التبشير بجوانب الحضارة المادية من أجل نزع الفكرة الإسلامية . فبعد أن عملت قوى التغريب ليكون الفن استهلاكاً ومفصولاً عن التراث ، فقد كان الفولكلور مدعواً مثله ليكون استهلاكياً ومفصولاً عن التراث أيضاً ، ويعمل – متعاوناً – على تفتيت القيم وتشويهها وإفساد الحضارة في جوانبها الاجتماعية والثقافية .. داخل

---

(١) د / محمد محمد حسين – حصوننا مهددة من داخلها ص ١٤٠ وما بعدها .

عمليات التغيير المرتبطة بفروع الأنثروبولوجيا ، التي استغلها الاستعمار لتنظير مخططاته . نحو العرب المسلمين ، فبينما كان من المفروض أن يكون القرآن – وهو منهجنا الرباني – واقعاً معاشاً ، امتدت إلينا موجة الثورة على كل الأشياء الماضية ، لتجعل من تراثنا وقيمنا ومقاييسنا ومنهجنا الرباني أمراً يخرج عن بناء صرح الحضارة الجديدة ، ويكون فقط في عداد سجلات التاريخ ، وداخل نطاق الثقافة الفولكلورية .

وحول هذا يحدثنا الأستاذ أنور الجندي تحت عنوان « ليس الإسلام تراثاً ولا مأثورات ولا فولكلور »[1] فيصفه بأنه المنهج الرباني الخالد المتجدد على الزمن . ثم يضيف :

« إنها لمؤامرة جديدة تحاول أن تشق طريقها عن طريق مؤتمرات علمية تعقد على مستوى البلاد العربية ، ويحشد لها كتاب من ذوي الأسماء اللامعة ، من كل المذاهب والنحل والفلسفات – ما عدا أهل الأصالة أو المفكرين الإسلاميين المتجردين لكلمة الحق ، أو دعاة الإسلام . وذلك في سبيل إقرار مقولة باطلة ، وإذاعتها وترديدها على مختلف الأقلام ، وفي مختلف الصحف ، وفي الندوات والمحاضرات ، هذه المقولة الباطلة هي أن [التراث وتحديات العصر] إنما يقصد بها وضع الإسلام والقرآن في مواجهة تحديات العصر .

« فكلمة (التراث) هنا كلمة مضللة ، يتخفى وراءها خصوم الإسلام من أجل أن يصوروا الإسلام على أنه (تراث) ، ومن قبل وصفوه بأنه (قديم) و (رجعي) و (جامد) و (متخلف) ، وهي كلمات ظلت تتردد على ألسنة العلمانيين والشعوبيين والشيوعيين سنوات وسنوات ، كلمات تحمل طابع الهروب

---

(١) أنور الجندي – الطريق إلى الأصالة والخروج من التبعية – دار الصحوة للنشر – مطبعة دار التأليف ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م ص ٥١ وما بعدها .

نرى واضحا في فكر توكفيل نقده لجوانب الحضارة الحديثة بما يعني بأن الدين وكل جوانب المجتمع القديم أصبح تراثاً وأصبحت المسيحية رمزاً فقط في ظل العلمانية .

من المواجهة ..

والحق أنه لا يستطيع واحد من الباحثين الأصلاء المنصفين – حتى من كتاب الغرب أنفسهم – أن يصور الإسلام أو القرآن على أنه تراث لثبوت صلاحية مبادئ الإسلام لكل زمان ومكان وجدتها حتى كان عهدها بالوجود أمس ، فهذه مقولة باطلة وكلمة زائفة ، يراد بها التخفي وراءها لهدم المنهج الرباني الأصيل الجامع المتجدد على الزمن ، الباقي الذي لا يأتيه الباطل ، والقادر على العطاء دوماً .

إن كلمة تراث ، في قاموس التغريبيين والعلمانيين ، تعني القديم البالي ، الذي سبقه العصر وتجاوزته الحضارات ، وهو عندهم مثل تراث اليونان ، وتراث الرومان ، وتراث فارس ، وتراث بابل ، وتراث الفراعنة ، إنه ذلك الفكر البشري الذي صنعته عقول تخطيء وتصيب .

ثم يلخص الأستاذ الجندي الحل بقوله :

« إن الحاجة ملحة ، أكثر من أي وقت مضى ، إلى الدعوة لتصحيح المفاهيم الفكرية والثقافية المسيطرة الآن في أفق الفكر الإسلامي في العالم الإسلامي ، والتي تبثها الثقافتان الليبرالية والماركسية ، والتي تحمل عشرات من المسلّمات الباطلة والزائفة والانشطارية ، التي تختلف تماماً عن مفهوم الإسلام ، الجامع المتكامل . هذه الدعوة ليست دعوة إلى إحياء « التراث » ، وإنما عودة الأصالة بعودة المنهج الذي قامت عليه الأمة منذ أربعة عشر قرناً » .

ويرى الأستاذ أنور الجندي ، أن القيم الإسلامية ، التي جاء بها القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، لا يمكن أن توصف بالجمود ، ولا بالرجعية ولا بالتخلف ؛ لأنها تقوم أساساً على العلم والعقل والفطرة ، وتتجاوب تماماً مع العقل والسعي والبناء والتشييد .

وحول فكرة العالمية ، التي تطرحها موجات الفكر الغربي يقول :

« إن المسلمين قد حددوا موقفهم تماماً ، منذ أول عصر اليقظة ، بأنهم لن يضحوا بذاتيتهم ووجودهم وكيانهم الخاص ، في سبيل الانصهار في بوتقة الحضارة العالمية أو الأممية ، مهما جرت المحاولات لإغرائهم أو خداعهم . وهم الذين علمهم رسولهم ﷺ ، وعلمهم قرآنهم ، وأكد لهم دينهم ؛ أن المحافظة على ذاتيتهم الخاصة أغلى من كل شيء .

يقول تعالى في كتابه العزيز :

﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتَّبعوه ولا تتبعوا السبل فَتَفَرق بكم عن سبيله ﴾[1] .

وقال تعالى :

﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾[2] .

ويلجأ الاستعمار في مخططه الهدام إلى تغليف المفاهيم والتعبيرات التي يتناولها الداعون إلى الفولكلور وفق رؤيته ومنهجه ، فيحرف أساليب معالجة مسائله ومواضيعه وأساليبه ، بحيث تهدف إلى تغريب المجتمع ، وتوجه أعمال العلم لتعمل ضد المجتمع ، وتقطع صلة هذه الأمة بتراثها الإسلامي ، وتحول هذا التراث الحيّ إلى مجرد إرث تاريخي يفتخر به بطريقة سلبية بعيدة كل البعد عما جاء به الإسلام من قرآن وسنة .

وإذا كانت هذه القوى تعقد المؤتمرات لما يسمونه التراث الشعبي أو الفولكلور ، فإننا نعرف أن هذه أيضاً مؤامرة تريد أن تهدم البلاغة العربية ، المتمثلة في الشعر العربي وأقوال البلغاء والحكماء ، وثروة ضخمة من البيان العربي الذي استقاه أصحابه من القرآن الكريم والسنة النبوية .. إن هؤلاء يبحثون عن

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٥٣ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٤٩ .

الأزجال والمواويل والخرافات والأساطير ، والكلمات الدارجة والأمثلة الساذجة ، ويعقدون لها مؤتمراً يحضره المستشرقون والمبشرون والشعوبيون ، ليجددوا هذه التفاهات التي لفظتها الأمم في مراحل الضعف والجهل ، ليعلو شأنها ، بينما يتنكرون للبلاغة الحقيقية ، ويشيحون بوجوههم عنها[1] .

إن هذه الحملة تسعى إلى تغليف عقولنا بتعابير يستحدثونها لكي يزيحوا عناصر ثقافتنا ودعائمها إلى متاحف الفولكلور وتراثه ، وصفحات التاريخ والماضي ، فيصورون – مثلاً – الشورى التي جاء بها القرآن الكريم والسنة على أنها (تراث) ويطلقون على مصطلحات الشريعة الإسلامية – بأنها (..محفوظات لغوية) .

إننا نستنكر أيضاً تسمية الفكر الإسلامي الجامع ، القائم مدى أربعة عشر قرناً ، الذي أعطى البشرية والحضارة المنهج التجريبي العلمي ومنهج المعرفة ، وبنى أمة موحدة من حدود الصين إلى نهر اللوار (بالسلفية) التي يريدون بها (الإهانة) لواحدةٍ في أشرف الكلمات في حضارتنا لكنها تعني عندهم الاقتصار على القديم ، والتجمد في الماضي .

والسلفية الإسلامية ، إنما هي نفس الدعوة الإسلامية :

« فما كان السلفيون ، في حقيقتهم ، إلا المرتبطين بالجذور والمنابع ، التي تتمثل بأصلي الإسلام القرآن الكريم والسنة النبوية »[2] أن هذه كلها جزء من حملات التغريب والغزو الثقافي ، وسموم التبشير والاستشراق .

---

(١) (٢) المرجع السابق .

الطريقة الأوربية في معاملة التراث
ومدى تأثرنا بها

كيف يقضي على التراث ؟

قامت النهضة الأوربية المعاصرة على أساس الانفصال عن الثقافات التقليدية ، أي ثقافة المجتمعات التي كانت عليها أوربا في القرون الوسطى .

وقد أتاحت النهضة العلمية ، الفرصة لتقدم العلوم التي تدرس الإنسان وحضارته ، مثل علم الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) وتخصصاته المختلفة ، مثل علم الفولكلور ، الأثنوبولوجيا ، وغيرها .

وقد تم تكريس الجهود الأهلية ، متعاونة مع الدوائر العلمية الرسمية ، بالإضافة إلى المتاحف ، لدراسة جوانب الثقافة الماضية هذه ، سواء الروحية منها أو المادية .. ولئن اختلفت التعريفات ولكنها في النهاية تناولت في الحقيقة جميع جوانب خبرة الإنسان ، وأصبحت ظاهرة المتاحف الأوربية ، التي نشأت بظهور الرأسمالية ، ظاهرة تحتفظ بكل نوع من الفنون وآثارها ، وتوضح التاريخ التطوري للوسائل وللمعرفة والخبرة البشرية ، وخصوصاً المادية منها ، وما يسمى بالفنون وصناعاتها .

إن أمر التحولات الجديدة في الثقافة الغربية المعاصرة ، واتجاهاتها في التوسع التكنولوجي ، والتركيز على الجانب المادي للإنسان ، على حساب احتياجاته الروحية يرجع أساساً للاتجاه العلماني المعروف في الثقافة الغربية .

ولكن كيف تلاءمت النهضة الأوربية المعاصرة مع هذا التراث ؟ وكيف يتعامل تيار العصر مع جذور ثقافته وحضارته الماضية ؟

إن أسلوب التعامل مع التراث لم يقتصر على أوربا وحدها ، بل امتد أثره إلى كثير من البلدان ، ومنها بلادنا وما يسمونه بدول العالم الثالث وذلك من خلال تغريب العلوم والتبشير بالنموذج الغربي ومن ثم شيوع أمراض التقليد لكل ما هو غربي وكل ما هو أوربي .

ولكي يتضح لنا الأمر ، في كيفية تعامل الغرب مع التراث ، لابد لنا من توضيح مظهر هام من مظاهر النهضة الأوربية المعاصرة ، وهو ظاهرة المجتمع الكبير ، الذي جاء متنكراً لمفهوم المجتمع المحلي ، وما كان عليه حاله في جذور الثقافة من وظيفة يؤديها نحو الفرد والجماعة .

إن طبيعة المجتمع الكبير مثل مجتمع العاصمة وطبيعة الإرادة العاقلة فيه ، التي هي عكس الإرادة الطبيعية الفطرية التي كانت تلازم المجتمع المحلي ، بالإضافة إلى تأثير القوى الجديدة للحضارة المعاصرة . كل ذلك كان له تأثيره في تفتيت التراث القديم وهدمه ، واستبداله بنماذج الحضارة الغربية المعاصرة .

الطرق المعاصرة في امتهان التراث :

تعالوا بنا نستعرض الطرق المعاصرة في امتهان التراث ، عندما تمتد إليه عقلانية التطوير العصرية ، فتلتهم وتهدم المجتمع التقليدي باليد الأولى الحانية ، وفق « إتيكيت » الأساليب العصرية للحضارة ، وفي اليد الأخرى تضعه وفقاً لنفس الأسلوب حبيساً في قفص مسرح المدينة ، ثم تشع عليها بأنوارها ، وتقوم بتهذيبه ووضع اللمسات الفضية عليه ليبدو مسلياً ومضيئاً وباهراً وجميلاً .

إنها نفس أعمال المدنية الأوربية التبشيرية تقوم بهدم نماذج وأشكال الحضارة الماضية ، ثم تحل محلها القوالب المعاصرة ، ومن ثم فإن أحسن تكريم لهذا التراث هو أن تضعه بعد ذلك في المتاحف أو وسائل الترفيه في المدينة الكبيرة ، أو مجتمع العاصمة ، الذي يسلب كل حياة حقيقية من واقع التراث الفولكلوري ، ليقوم بضمه إلى عقد يزين به صدر المدينة . وبمعنىً آخر ، أن ينضم ليشكل حلقة من

حلقات ترسها الثقافي ، الذي ينبهر به الإنسان ، ويتغلب على فكرة الحياة الفردية للإنسان وعظمة عطائها ، ليستبدلها باغتراب الاحتواء لها .

أمسيات كثيرة تقام هنا وهناك في المدن الكبيرة ، تعرض فيها ألوان الفنون الشعبية ومهرجانات دولية على مستوىً لائق ، تعرض فيها مثل هذه الفنون الشعبية ، مثل مهرجان قرطاج الدولي »[1] وغيره من سهرات المناسبات في الاحتفالات الاجتماعية وفق الأسلوب الحديث .

وعلى ما تحتويه مثل هذه المهرجانات من تكريم للفولكلور في كثير من عواصم الدول العربية ، أو أنحاء العالم ، فإن فوائدها ، في الوقت نفسه ، لا تعادل شيئاً بالنسبة للسلبيات والأضرار التي تلحق بها عند تقديمها على « المسرح » دون معرفة بمدلولاتها ، دون تدبّر لمعاني هذه المدلولات بل يقتصر الأمر على الترفيه والتندر .

إن الفنون الشعبية هي مجموعة من التعبيرات التي تلتصق التصاقاً وظائفياً بالحياة الاقتصادية والاجتماعية للشعوب .. إنها طقوس لها مدلولاتها بالنسبة للممارسات اليومية في حياة الشعوب .

ولتكن المناسبة الممارسة عبارة عن احتفال بزواج أو بختان أو بخطبة أو بحدث ما ، سعيداً أم مؤلماً ، فإن المجموعة تمارس حتماً للتعبير عن فرحتها أو حزنها شكلاً من أشكال فنها الشعبي الخصوصي من خلال الواقع الحي ، إنه بهذا الشكل التعبيري ، ليس فيه مكان للفُرجة على طريقة المسرح ، أو بالمفهوم الحديث[2] .

كما يدعونا إلى ذلك أدعياء المهرجانات المسرحية ! !

إن الجماعة أو المجموعة في مثل هذه المناسبة ، مدعوة – بكامل أفرادها – إلى المشاركة في هذه الممارسة ، فليس هناك شيء معين ما يبرز والناس تستمع إليه هادئة أو صاخبة ، وليس هناك راقص واحد أو عازف واحد ، فالكل يشاركون

---

(١) (٢) فوزية المزي (لاتذبحوا الفنون الشعبية ، واتركوها تتنفس) جريدة الرياض، العدد رقم ٨٥٨٧ ، الرياض .

على حد سواء ؛ لأن هذه الممارسة تستجيب ، كضرورة ، لحدث اقتصادي[1] يوازيها ، أو اجتماعي يتم التعبير عنه وتنظيمه .

أما مفهوم الفُرجة (بمعنى المشاهدة للاستمتاع) فلم يحدث إلا في عصرنا وفي العصور التي يكثر فيها الفراغ وإن كانت قد ظهرت بوادره في الحالات التي تكلم عنها ابن خلدون في فساد الحضارة وانفصال الوسائل عن الغايات أي حالات « إفراط الحضارة » .

إن المجموعات العاملة في مجتمعات النحل ، تعبر عن ظاهرة فنية لمملكة النحل . وإن « بالية » العرس عندها إنما يمثل رقصة جماعية طبيعية فنية رائعة .

لكن كثيراً من الأمسيات في الفنون الشعبية ، التي تقام هنا وهناك ، في مجتمعات المدينة ، ليست إلا مساهمة في ذبح الفنون الشعبية ، وفي طمس خصائصها الأولى والأساسية ، ومدلولات هذه الخصائص .

ونستطيع أن نقول ، إن الفن الشعبي ، ما إن ينتقل من محيطه الطبيعي والأصلي إلى محيط مسرحي ، حتى يغدو غير صالح لشيء إلا ليوضع في المتحف ، كما وضع قبل ذلك الفن الفردي بجميع أنواعه .

إن الفن الشعبي الذي نتداوله على مسرح المدينة ، هو في حقيقته الأصيلة ، وفي بيئته أبعد ما يكون عن الفراغ والملل ، أي مرض العصر الحديث .

وتماثل هذه الصورة ، تلك القرى السياحية التي تُستثمر من أجل الاستمتاع بصناعة الخبز الفلاحي أو فنون الأطعمة التي اشتهر بها الفلاح أو الفلاحة . كما يُعرض منها جميع مهارات الصناعة الشعبية والرقصات الفولكلورية ، كرقصة للحصان وما شابهها ؛ إنها مساهمات في ذبح الفولكلور على مسرح المدينة الذي يختلف بفنونه وبقيمه وأخلاقياته عن مسرح الحياة الفولكلورية في مجتمع القرية

---

(١) المرجع السابق .

(الذي يحترم قيم الإسلام ولا ينتهكها كما يفعل بعض مسارح الفولكلور في المدينة الكبيرة) .

إننا لا نجد دفاعاً عن أصالة الفنون الشعبية ، هذه سوى إرجاعها إلى محيطها الأصلي والواقعي والموضوعي ، محافظةً على مدلولها الأولي والأساسي ، الذي من دونه تصبح غير صالحة إلا للمتحف .

والمقصود بذلك ، تلك التصريحات التي مفادها المبادرات التي تحاول بعث الفنون الشعبية وإحياءها والمحافظة عليها .

فإذا أردنا البدء بمبادرات جديدة ، فلنأخذ بيد هذه الفنون بشكل ينم عن وعي جديد ، ليس فيه مكان للاحتواء ، بقدر ما هو لتخليص الفنون الشعبية ، وخصوصاً الجماعية منها من حصار المتاحف .. ولعل الساعة قد أزفت لنتخذ سبل المنهجية العلمية في دراسة التراث .

ولتكن لنا عبرة ، بتلك البحوث الاجتماعية العلمية ، التي يقوم بها الأنثروبولوجيون الأمريكيون حول الفنون الشعبية في المجتمعات النامية فهي بحوث توصلت في مرحلتها الحالية إلى وضع مجموعة من العلامات تفيد المدلولات الاقتصادية والاجتماعية لهذه الفنون ؛ بحيث تقوم مقام الأرضية لتطور الفنون الشعبية ، ومواكبتها للمعطيات العصرية .

لقد آن الأوان لمثل هذه المنهجية العلمية في طريقة تعاملنا مع الفنون الشعبية ، ولسنا بحاجة إلى أكثر من الإرادة لتخليصها من حصار المتاحف[1] .

لقد وصلت هذه الفنون من حالة الاغتراب ، إلى مرحلة أصبحت الملابس الأصيلة تحفظ في الواجهات ، وتعرض في دور خاصة بالتراث . في حين أننا نقوم باستعمال ملابس مقلدة مبتذلة ، وملابسنا الأصيلة ، يتهافت عليها السياح وعلى شرائها في حفلات الفنون الشعبية ، كالتي تنظمها هيئة « مهرجان قرطاج » أو

---

(١) المرجع السابق .

غيره[1] .

والفولكلور ، إنما يمثل عطاء الحضارة القائمة على عطاء النفس بعفويتها ، وعطاء الذات بفطرتها ، وعطاء المجتمع على ضوء ثقافته وحضارته وقيمه .. وإن الفن الشعبي ، هو ذلك الإبداع الشعبي أثناء ممارسته لبناء الحضارة المتكاملة في جوانب نشاط (الإنسان في بناء حياته) .

ثمة صورة أخرى لامتهان التراث والسخرية منه في تعاملنا السطحي معه يعبر عنها أحد القراء في إحدى الصحف المحلية فيقول :

إنني أقلب صفحات تاريخنا الفكري ، فأرى صفحة مضيئة للتراث مشرقة أرى صورة المتنبي وابن خلدون وأبي العلاء وأبي حيان التوحيدي ، وامريء القيس والجاحظ .. وأتساءل بعد ذلك : ما مدى حاجة الإنسان – أي إنسان – إلى التراث ؟ وبالتالي كيف يكون التعامل معه ؟

ثم لا تبتعد عني الإجابة .. . بل أراها عبر تصرفات الذين ينظرون إلى التراث نظرةً اتكالية ، تبريريةً للأشياء الزائفة من القيم وطريقة الحياة ، أو أولئك الذين ينظرون إليه نظرة باردةً ؛ إذ يعتبرونه كالصندوق ، يفتحونه في لحظات الحاجة إلى الاستشهاد ببيت من الشعر في جلسةٍ من جلسات المباهاة والتظاهر بحب المعرفة .. . كلما أتذكر مثل هذا ، أتمنى أن لو كنا أمةً بلا تراث ؛ لأننا بتعاملنا السطحي مع التراث ، نثبت فعلاً أننا بلا ذاكرة ؛ وهذا غير صحيح .. فما يجب أن نتذكره لنستفيد منه أشياء كثيرة ، لكنها مرمية في قاع النسيان .. أو هي خاطرة على قلوب ميتة . وهذه مصيبتنا كأمة مع تراث عظيم ، كتراثنا ؛ فنحن إما شباب نجهل ، أو شيبان لا ندري ماذا نحمل من قيم وتجارب ، تساعدنا على الحياة بصدق ، وتخطّي العقبات بقوة ! !

إننا نسمع بين حين وآخر عن حفلات أو مهرجانات ثقافية ، تُعرض فيها أزياء فراحنا بملابسها الفولكلورية في عواصم أوربا أو عواصمنا ، يحضرها الكثير من

---

١) المرجع السابق .

الجاليات الأجنبية ، ويعود ريع هذه المهرجانات للأعمال الخيرية .

إن عرض التراث هو مسألة ومسؤولية تحتاج منا إلى تفكير كثير ، وتخطيط سليم ، وعمل جاد للاستفادة من هذا التراث ، وفهمه ، وإيجاد صيغة عربية وإسلامية تستلهم هذا التراث وتستفيد منه ، من أجل البناء على ضوء الصيغ الفنية المعاصرة ، ابتداءً من صناعة نسيجه ، إلى حياكته ، إلى الأخذ به والدعاية له إعلامياً وإلى تحقيق المفاهيم الجمالية التي يمتلكها تراثنا ، وتساير مطالب العصر .

إن عرض التراث هو حلقة تحتاج إلى حلقات أخرى تستلهم تراثنا ، لنأخذ به صناعياً وعملياً وواقعاً اجتماعياً وحياتياً وندرك أهمية تأثير عقيدتنا في تشكيله .

وإذا لم نفعل هذا ، فإن الأمر يقتصر على مزيد من حملات الاستشراق على فنوننا ، وسلب معرفتها ، وتمييع سماتها ، واستهلاك جوانبها الفنية ؛ إما كحلية تكون على أحد أجزاء الثوب الذي تصنعه الحضارة الغربية وتخضعه لأيديولوجياتها ، ثم تصدره إلينا على أنه شرقي الهوية ، وأنه صنع من أجل الشرق ! !

إن إحياء التراث لا يقتصر على عرضه ؛ فهذا ليس هو الأمر كله ؛ لأن من واجبنا أن نتفهم طريقة تفكير الأجداد وأن يضع فنانونا القوالب العصرية التي تحافظ على سمات حضارتنا .

إننا قادرون على إيجاد طريقة في سبيل تأصيلنا الواعي ؛ القادر بدوره على إيجاد طابعنا الفني الإسلامي . وذلك من أجل إثبات حضورنا عالمياً ، من خلال معطيات حضارتنا ، وفكرنا ، وإبداعنا .

ذلك بأن نكون نحن عمال أو مبتكري صناعاتنا ولا نرضى أن تصنع منها الكثير في الغرب من أجل الشرق .

إن هذه هي القضية ، وهي المأزق الحضاري الذي يجب أنه نواجهه .. وأن ننجح في عبوره ! !

أمثلة مختلفة على تهذيب التراث أو السخرية منه

المثال الأول :

إن الاحتكاك الثقافي مع الغرب ، وتأثرنا بهذا الاحتكاك ، ما زالا مستمرين منذ بدأ الاستعمار بأعمال التغريب ، مع أخذنا بأسباب النهضة التي وصلت إليها أوربا ، وتفوقت بها علمياً واقتصادياً . وكما ذكر ابن خلدون : « المغلوب مولع بتقليد الغالب » وهذا ما ينطبق على واقع حالنا .

إن طريقتهم في امتهان تراثنا الفولكلوري ، والعمل على تهذيبه بما يوافق أيديولوجية فكرهم مستمرة في تأثيرها بأعمالنا المعاصرة في مسألة عرض تراثنا ونوعيته ، كما يداخلها نوع من طمس المعرفة في عملية توظيفه الحقيقي ، لكي ينسجم مع ثقافتها ونظرتها الاستعمارية إلى وسائلنا الحضارية .

إن مناسبة هذا الحديث ، تعود بنا إلى الأسبوع الثقافي للخليج العربي ، الذي تم تنظيمه في باريس عاصمة الفنون والثقافة ، أوائل عام ١٩٨١م ونختار في هذا المجال مقتطفات من مقالة[1] الكاتبة « لولوة العماري » حول تقييم أعمال هذا الأسبوع الثقافي ، والنقد الذي وجهته للأسلوب الذي تم به عرض نماذج من فولكلورنا .

تعترف الكاتبة ، من خلال سردها لوقائع المهرجان ، بقضية نزع التراث من بيئته ، وسلبه كل عوامل الحياة الحقيقية عند عرضه على مسرح عاصمة الفنون والثقافة لكي يضاف إلى التراث الثقافي لهذه المدينة الأوربية الكبيرة ، وينبهر به الإنسان . فعندما تتحدث عن الرقصات الشعبية تقول :

---

(١) لؤلؤة العماري (الأسبوع الثقافي للخليج العربي) مجلة اليمامة، العدد (٦٤٢) ، الرياض ، ١٤٠١هـ — ١٩٨١م .

« وقد اشتكى بعض المشتركين من النقص في الملابس والأدوات اللازمة لتحمية الآلات ، ومن تغيير الرقصات في آخر لحظة ، فبالنسبة للملابس كان هناك تعديل وتهذيب لها ، وذلك أن من رأى المسؤولين أن الرقص على المسرح مختلف عن الرقص في الساحات الشعبية ، لذلك أضيفت التشكيلات في الرقصات لمنع الرتابة والملل . لا بأس من التشكيلات ولكن أن يغير الزي أو أن تقدم الرقصة بزي حديث .. في رأيي أن هذا « غش » . قد لا يوافقني البعض ، ولكن نحن هنا نقدم أسبوعاً ثقافياً عن التراث العربي الخليجي ، أي أنه مطلوب منا أن نقدم واقعاً وحقائق ، وليس دعاية أو لا دعاية ، مثلاً ننقل تحفةً أثرية من متحف إلى متحف . لابد أن يقدم الزي الشعبي ، كما هو . دون زخرفة أو تلوين . مثلاً .. قدمت رقصة المزمار بالثوب الأبيض الناصع و« البقشة » البنّيّة اللامعة مع العمائم الحقيقية ، ولكن الصديري كان باللون الأزرق أو الأحمر ، ومحلّى بالزري اللماع . وكلنا نعرف أن هذا غير معقول . فالمزمار رقصة شعبية ينزل فيها أولاد الحارة للشارع ليتبارزوا بالعصا ، لتظهر المهارة الفردية من كل شخص فيها . واللبس المشهور لهذه الرقصة هو الفوطة والكمر والفنيلة والأكمام المشمرة للكوع ، لأن الشخص في حالة مبارزة وليس في تباهٍ . وأين الواقعية هنا فيما قدموا ؟

« والبعض الآخر من المسؤولين في إحدى الدول الشقيقة ، إضافة إلى أنهم يؤيدون التشكيل في الرقص والتغيير في الملابس والتطوير لها ، يزيدون القول بأن على العرب المشتركين أن يقدموا كل شيء بشكل آخر ، وأن يطوروه ويقدموه على صحن من فضة ، ليعجب الذوق الفرنسي ، ولكي نظهر للأوربيين أننا شعب متحضر وليس بدائياً .. ولكني أرد عليهم وأقول إنه إذا كان عندي شيء فَلأقدمه كما هو ، بأصالته ، وأقدمه حتى لو قدم بصحن خوص » .

ثم تبدي استهجانها لهذا النوع من تهذيب التراث الفولكلوري حيث تقول :

« وإذا كنا سنوافق على رأي هذا المسؤول ونتبع منطقه ، فعلينا إذن أن نقدم « المرقوق » بالمايونيز ليعجب الذوق الفرنسي . فما رأيكم ؟ هذا شيء من غرائب

الأسبوع الثقافي » .

وعن ذلك النوع من طمس المعرفة ، تتحدث الكاتبة عن عدم مراعاة ألوان ثقافتنا من منطقة لأخرى ، حيث إن ذلك التنوع في ألوان الثقافة في حقيقته إنما يعطيها نوعاً من الغنى والغزارة الثقافية وتبادر إلى انتقاد أعمال الدمج في ألوان ثقافتنا فنقول :

« وشيء آخر هو عدم التدقيق في الملابس من دولة لدولة ، وكأننا شعب مطبوع طبعةً واحدةً ، ويقال إنها سياسة اتفق عليها حتى يبدو الخليج موحداً ووصل التطرف بالبعض أنهم ألغوا أسماء الدول ، وأصبح يقدم كل شيء باسم الخليج فقط بدون تسمية أقاليم وفي رأيي أن هذا خطأ كبير .. فالفرنسي يعتز بثقافته وذكائه العالي ، وكل من أتى إلى اليونسكو ما هو إلا إنسان دارس مثقف مهتم بالدراسات الإنسانية الثقافية ، وكل منهم يعلم أن الخليج دول وحكومات ، وإن كان يوحدهم الهدف والدين واللغة وتربطهم أشياء أخرى ، إلا أنه لا يقبل أن يعامل المشاهد الفرنسي وكأنه غبي إلى هذه الدرجة . نحن لا نقدم شيئاً لشعوب بعيدة نائية لا تعلم شيئاً عنا . نحن في عاصمة علم وثقافة ، والطريقة التي قدمنا بها البرامج بدون تسمية للدول ، ما هي إلا صفعة للفرنسي المثقف ، نتهمه بالغباء ؛ لقد حرمناه من متعة البحث والترابط . كان من الأفضل أن يقدم كل شيء باسم الدولة المقدمة بالملابس الحقيقية ، وإن اختلف بعضها عن بعض قليلاً ، وبهذا نترك الفرصة للمشاهد ليفكر وهو يرى أنه ، برغم أننا دول متجاورة ، إلا أننا كشعب في زينا وتقاليدنا وأفراحنا ، فتظهر الوحدة بديهية بدون أن نفرضها نحن كلاماً » .

وهنا تشير الكاتبة ، بشكل غير مباشر ، إلى الوحدة الثقافية الموجودة في تراثنا الفولكلوري ، وترى أن « هذه الطريقة جعلت بعض الدول تعتمد على الأخرى في تقديم كل شيء ولو كان من البداية لكل دولة جناح لتَتَنافس الكل في تقديم أفضل ما عندهم بدون غناء » .

ثم يجيء دور تقييمها لمشاركة المرأة في هذا المهرجان ، فتشير أيضاً إلى السخرية من تراثنا عن طريق تجاهل بعض التفاصيل الهامة ، وكذلك تعمد تجاهل الفكر الأوربي للباس الرأس عند المرأة الشرقية ، بل يلجأ دائماً للتأكد على مخالفته ، حيث تعبر عن ذلك بقولها :

« إن فقد العنصر النسائي في التنظيم سبب أخطاء كثيرة ، خصوصاً في الحلي والملابس مثلاً .. عرضت بعض الحلي من الفضة .. ومكتوب على إحداها (عقد تتحلى به النساء على رؤوسهن من عُمان) وترجم هذا النص بالفرنسية والإنكليزية .. ولا ترى إلا علامات الدهشة من الناس .. إذ كيف يلبس السواد على الرأس » .

« أيضاً في قسم الملابس ، امرأة تلبس على أكتافها البشت الرجالي الأسود « بالزري » وشعرها آخر تسريحة ، بدون هلية « أي غطاء الرأس » ! ! أين الدقة في التقديم . لم يعرض من الحلي إلا الفضة والتافه منها لدينا . والحجة هي عدم التأكد من التأمين ! كان بالإمكان التأمين عليها في أي شركة تأمين في بلادنا قبل نقلها . الثياب كلها تجارية .. أي ما يباع في السوق الآن لا يوجد شيء أثري قيم .

« أنا متأكدة أنه لو وجه نداء للمواطنين لما قصروا في تقديم أغلى ما لديهم من ملابس تراث قديمة لتعرض في أسبوع كهذا » .

وهكذا عشنا مع صفحة من صفحات تطويع تراثنا ليناسب طريقة التشكيل للفنون ، بما يتناسب مع الثقافة الأوربية المعاصرة ، وكذلك مع نموذج من نماذج ذبح التراث على مسرح المدينة ، ومع الجانب الذي يصورونه لنا بأنه هو الفولكلور وهو الفن وهو الثقافة الفولكلورية ، التي يجب أن نهتم بها فقط .

مثال آخر :

وهناك أمثلة أخرى كثيرة ، يتبين منها استخفاف كثير من الناس بالتراث

استخداماً وحديثاً . وقد جاء معظم ذلك تقليداً للغرب في استخدامه تراثه زينة (ديكوراً) في الحياة ، مثل استغلاله ليكون جزءاً من الملابس أو المباني كتحفة أو شكل جميل أي كحلية له . ومن هذا ما نراه في بعض البلاد العربية ، من جعل خدم الفنادق الكبرى يرتدون ملابس مستمدة من الفولكلور العربي .

وكذلك ما يفعله مسؤولو هذه الفنادق من إقامة (ليالي سمر) وحفلات - مستقلة أو مترافقة مع حفل زواج مثلاً تحتوي على عروض ومشاهد تمثل تراثنا بجميع نواحيه ، وذلك بحشد جميع مظاهر الملابس الشعبية ، والأطعمة التقليدية اللذيذة ، والعادات القديمة ، وبعض الظواهر التي نراها تنتشر في الحارات القديمة غالباً ، مثل تمثيل شخصية (المجذوب) أو (الأبله) أو (الحكواتي) واللعب بالسيف والترس ، بالإضافة إلى عروض للملابس القديمة الفولكلورية ، مع الغناء الشعبي القديم .. كل ذلك ، طبعاً ، يكون مصحوباً بألوان الترفيه والرقص والغناء الحديث المخالف للقيم الإسلامية ومثل هذا الأسلوب يجمع كثيراً من الناس لمشاهدته (والترحم) على الماضي المندثر . ناسين قيم الماضي التي صنعت هذا التراث .

إن هذا التشبه الكاذب بحياة الناس في القديم ، تشبهاً ظاهرياً ، دون استلهام مضمون ذلك التراث ، خلقاً وتطبيقاً ، يحمل في طبيعته التظاهر بالانضمام إلى ثقافة المدينة الكبيرة التي من صفاتها البارزة : احتواء الفردية ، وتحقيق الإبهار الثقافي الشكلي بجمع ألوان من التراث على سبيل الترفيه والمتعة من خلال إحياء ليلة سمر ، أو حفلة زواج تحقيقاً للرفاهية .

وبمثل هذه الطريقة المتجاهلة لمضمون التراث ، توجه ضربة مهينة إلى حياة مليئة بالعمل والجد والتسلية البريئة ، عاشها أجدادنا حياةً متكاملة ، وابتسرها بعضنا إلى ذلك الشكل الضيق الساذج ، لتقدم ضمن برنامج الحفل مع غيرها من ألوان التراث لكي يستمتع بها الجمهور ، ضمن الترس الذي بشكل ثقافة المدينة الكبيرة وإبهاراتها الثقافية .

مثال ثالث :

استعرضنا سابقاً مثالين من الواقع الدال على أشكال الإبهار الشكلي الرخيص في استهلاك تراثنا ، الذي تأثرنا فيه بالغرب في طريقة التعامل مع التراث الفولكلوري لحضارتنا الماضية ، وإن مثل هذا كله ينطلق من أيديولوجية الغرب وموقفه من تراثنا .

فبالأمس القريب تم له سلب كنوز تراثنا ، سواء الفكري منه أو ما يتعلق بالشواهد المادية التي ذهبت إلى متاحف الغرب .. . ولا يزال يواصل هذه السرقة لتراثنا .

ونحن نعتقد بأنه لا يمكن أن يكون هناك حضارة معاصرة بدون تراث تستند إليه أو تتفتق عنه . وقد شاعت في الوقت الحاضر أساليب متعددة في السطو على التراث ، ونسبته إلى حضارة أخرى ، وهذا من الأسباب التي جعلت بعض الشعوب تتحمس لتسجيل تراثها وحفظه من الضياع أو استهلاكه في التيارات المعاصرة ، التي تعمل على تفتيته وسلب معرفته أو تشويهه ، أو نسبته إلى حضارتها .

فنجد مثلاً أن كثيراً من عناصر رقصاتنا وملابسنا الشعبية أو موسيقانا الفولكلورية تدرس وتسلب منا ، ومن حضارتنا ، ثم تطوَّع لصالح الحضارة الغربية وأيديولوجيتها ، ثم تصدر إلينا على أنها من المعطيات الأوربية ، وذلك بعد أن ينزع منها كل قيمنا ومبادئنا وعاداتنا المرتبطة بعقيدتنا ، أو كل الخيوط التي تربطها ، بشخصية حضارتنا .

وليست أشكال حضارتنا الفولكلورية وتراثنا ، أكثر من الأشياء الثمينة التي يتم حفظها في صندوق ، ثم تؤخذ بعض عناصرها لتستهلك بين فترة وأخرى لتكون في خدمة إشعاعات المدن الكبيرة ، التي تصدر عنها مودات الحضارة الأوربية وصناعاتها ، وما تسعي إليه في إشباع الرغبة عند الإنسان في التجديد

والتغيير بين وقت وآخر .. . إنها طرق مختلفة من استهلاك تراثنا والاستهزاء به ، وتتضمن عملية تفتيت كل تميزه ، ليكون في خدمة أيديولوجية الغرب لإدماج الثقافات الفولكلورية واستهلاكها لصالح فكرة العالمية ، التي تسعي لتشكيل الثقافات جميعها ضمن إطار (عالمية الثقافة) البشرية ؛ وهذا عكس ما هي عليه في حقيقة واقع الثقافات البشرية وفطرتها .

ومثال رابع :

وتظهر المعركة حامية الوطيس في أعمال سلب التراث الفلسطيني ، بعد أن قام الصهاينة باغتصاب الأرض وسلبها .. فقد ذكرت مجلة « سيدتي » في مقالة بعنوان « الأزياء الفلسطينية مهددة بالسرقة والتشويه » .

ما يلي :

« حين رأت الوكالة الصهيونية أنها قد فشلت في أخذ بصمات الشعب الفلسطيني ، بدأت في استخدام طرق أخرى من أجل تجبير هذا التراث لصالحها ، فأقامت عدداً كبيراً من المعارض ، في عواصم العالم الكبرى ، للأزياء الشعبية الفلسطينية ، مدعية أنها أزياء إسرائيلية ، كما قامت أيضاً بإنعاش صناعة الألبسة الجاهزة في دولة الكيان الصهيوني ، وتحمل الخسارة الناتجة عن الفروق بين سعر الكلفة والتصدير ، من أجل احتواء هذه الأزياء ، ومن أجل إيهام العالم بأنها الدولة الأولى في المنطقة ، التي تصنع الألبسة القطنية ، محاولة تجاوز دور مصر الريادي في هذا المجال .

« كذلك فقد سنّ الكنيست الصهيوني عام ١٩٧٤م قانوناً بتوفير المبالغ الطائلة لتأسيس مؤسسة تعني بالأزياء ، لتزييف الأزياء الشعبية الفلسطينية ، وقد جعل هذه المؤسسة رديفاً لميزانية جيش الدفاع الإسرائيلي .

« وفي منتصف السبعينات قامت زوجة « موشى دايان » بإقامة معرض للأزياء الشعبية في البيت الأبيض (مقر الرئاسة الأمريكية) اشتملت على أزياء من مدن

مختلفة من المناطق الفلسطينية ، مدعية أن هذه الأزياء هي أزياء تراثية إسرائيلية »[1] .

كما نقرأ في الصحف المحلية بين فترةٍ وأخرى عن مواجهة اليهود الصهاينة لكل ما يحدد الهوية ، الفلسطينية في ملامحها ، فمثلاً نجدهم « يسرقون الأزياء الشعبية لترتديها مضيفات طائرات « العال » .. ، كما يعملون على تهويد الموسيقى الشعبية الفلسطينية بإفعامها بنغمات غربية[2] وبالطريقة نفسها يواجهون الرقص الشعبي الفلسطيني . كأنما هي معركة حضارية ذات طلقات نارية ، لا تنطفيء لها جذوة تتناول جوانب الثقافة من الناحية الصناعية والعلمية والفنية ، وكل الجوانب الأخرى .. . بل إنها لكذلك فعلاً ! !

مثال خامس :

وثمة مثال يدل على الاستهتار بالقيم التي صنعت الفولكلور فقد أقامت إحدى الجمعيات النسائية المسلمة مناسبة لعرض جانب من جوانب فولكلورنا الشعبي الإسلامي ، وكان ذلك في أحد البساتين المجاورة التي تبعد عن المدينة بمسافة قليلة .

وكانت الحاضرات يتابعن كل صغيرة وكبيرة حول بعض الصناعات في تراثنا الإسلامي وكيفية صنعها وقد مر وقت الظهر ودخل أذان العصر ولكن القليل من الحاضرات هن اللاتي قد اهتممن بشعائر الصلاة .

وهذا يدل على أننا أصبحنا نهتم بمظاهر الفولكلور ونهمل أو نتنكر للقيم الدينية والثقافية التي ساهمت في صنع هذا الفولكلور ، الذي يمثل عصرها وقيمها السائدة .

---

(١) مجلة سيدتي (الأزياء الفلسطينية الشعبية – تاريخ وتراث وحضارة يحاولون طمسها) العدد ٧١ ، ٢٤ يونيو ١٩٨٤ – ٢٤ رمضان ١٤٠٤هـ .

(٢) جريدة الرياض – طلقات الفن النارية – العدد ٧٤٥٠ – ٦ ربيع الآخر ١٤٠٩هـ .

دفاعاً عن ثقافتنا الفولكلورية :

إن الفن الشعبي ، أو التراث الفولكلوري ، ليس « ديكوراً » أو وسيلة ترف وتزويق وتجميل ؛ إنه أصالة وحضارة ناتجة عن الإبداع ؛ في الفكر والعمل لأن الفن إبداع وهذا الفولكلور ، باعتباره يمثل شريحة من الحضارة ، له جانبه البنَّاء المضيء ، وله جانبه المظلم ؛ ذلك لأن الفن باعتباره إبداعاً ، قد يكون جائزاً شرعاً ، مثل كل الفنون التي يبني الإنسان بها احتياجاته ويحقق خاصيته الفكرية المسترشدة بهدي الله ، أو قد يكون ذلك الفن ممنوعاً ، يخالف عادات الإسلام وتقاليده ، كالنحت وبعض الصور أو فنون الترف أي أنه يخضع لثقافة المجتمع المسترشدة بمنهج الله .

وهذا التراث الفولكلوري ، باعتباره شريحة من الحضارة الماضية - يجب أن ندرسه بشكل متكامل ، وباستيعاب تام ، على ضوء مفاهيمنا ومقاييسنا وأصولنا ؛ وذلك من أجل الإعداد والتخطيط لعمليات التغير نحو أهدافنا المطلوبة .

كما أن من واجبنا أن نحمي التراث ، من كل أساليب التشويه والاستلاب لقيمنا ومفاهيمنا ومبادئنا وصيغنا الحضارية ، من واقع الرجوع إلى أصالتنا في وصل الماضي بالحاضر بما يبني حاضرنا بناءً سليماً ، ويكون دعماً لمستقبلنا ومستقبل الإنسانية جمعاء .

والأهم من هذا كله يجب أن ندرك بوضوح تام أن الثقافة بما تتضمنه من فكرة دينية انتظمت بها الملحمة الإنسانية في جميع أدوارها من لدن آدم[1] فهي ليست علماً يتعلمه الإنسان ، بل هي محيط محيط به ، وإطار يتحرك داخله ، وأن الفكرة الدينية أو الشرارة الروحية هي التي تعمل على تغذية جنين الحضارة فتتكون في هذا الوسط جميع خصائص المجتمع المتحضر ، وفي هذا الوسط تتشكل فيه كل جزئية من جزئياته تبعاً للغاية العليا التي رسمها المجتمع لنفسه وهكذا يتركب التاريخ .

---

(١) مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، دار الفكر ، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م .

موقف الإسلام من انتشار الثقافات

حظي موضوع انتشار الثقافات باهتمام كبير من قبل الباحثين . ولا شك أن طبيعة العلاقات بين الأمم والشعوب تفرض حتمية التأثر فيما بينها ولا يخلو هذا من انتقال عادات وثقافات غير مرغوب فيها .

ومنذ البداية ، نجد أن الإسلام كان له موقف واضح من عبادة الأوثان ، التي جاءت إلى العرب في الجاهلية ، لكي تقربهم إلى الله زلفى ، وكانت قد أتت عن طريق التجارة مع الشام ، حيث أتى التجار بمثل هذه العادات أثناء احتكاكهم الحضاري مع تجار الشام ، فحملوها معهم إلى الجزيرة العربية ، ومن ثم انتشرت عندهم مثل هذه العبادات . فحاربها الإسلام ، ووقف منها موقف الخصم بكل وضوح . وكذلك فعل سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

كما كان للإسلام أيضاً موقف واضح ، مما كان يحدث في الحفلات ومناسبات المجون واللهو في الجاهلية ، القائمة على تمجيد الفرد والبذخ واللهو والترف . فقد عالج الإسلام موضوع كثرة الأعياد فوحّدها في عيدين ، وألغى مناسبات المجون والترف . وبشكل عام ، قام الإسلام بكل وضوح ، فصحح انحراف ثقافة الجزيرة العربية القائمة على التوحيد .

وهناك أيضاً سلوك آخر غريب ، اتخذ منه الإسلام موقفاً واضحاً ، وعارضه في مناسبات عدة ، وهو ازدراء المهن والصناعات والعمل باليد وقاوم ادعاء أنها من عمل العبيد والطبقة الدنيا في المجتمع وهي ادعاءات قد تسربت إليهم من الثقافة اليونانية والرومانية أيضاً ، فقام عليه الصلاة والسلام في كثير من مواقفه وأحاديثه وبين للصحابة والمجتمع تكريم الإسلام لعمل اليد وللصناعة فقد شارك عليه الصلاة والسلام أصحابه في بناء مسجد قباء ، وفي بناء مسجده ﷺ .

وكان رسول الله عليه السلام قد دفع ابنه إبراهيم إلى زوجة (أبي سيف) —

وهو عبد حداد في المدينة – لكي ترضعه ، فكان الرسول يأتي إلى منزل أبي سيف الحداد وهو ينفخ في كيره ، وقد امتلأ البيت بالدخان[1] .

ويروي ، أيضاً ، أن الناس في عصره كانوا لا يستجيبون لصانع إذا دعاهم إلى طعام ، ولكن الرسول ﷺ كان يخالف ذلك ، فحينما دعاه (خياط) في المدينة إلى طعام استجاب الرسول لدعوته ، واصطحب معه أنس بن مالك رضي الله عنه .

كل ذلك ، وغيره كثير – يعبر عن مدى احترام الإسلام للعمل اليدوي وللصناع والعمال .

وقد استولى علينا في هذا العصر حب التقليد للأجنبي ، في الشر والخير ، وكان هذا من بين ما اُبتلينا ، فأصبحنا لا نعجب بأثر من آثارنا ، أو عادة من عاداتنا حتى نسمع تقريظ الأجنبي لها فنقرظها تبعاً له ، أو نرى اهتمامه بها وعنايته بدراستها فندرسها اقتداءً به وقد ظلت « ألف ليلة وليلة » دهوراً . لا يكترث لها إلا السوقة والفارغون وأصحاب المجون ، حتى رأينا الأجانب يترجمونها ويوهمون الناس أن حياة الشرقيين ليست إلا صورة مما تسوقه أقاصيصها ، فتنبه لها باحثونا عند ذلك ، وتناولتها أقلامهم بالدراسة والتنقيح والتهذيب والاقتباس وكذلك شأننا مع الفولكلور »[2] .

ومما يذكر أنثروبولوجيا ، بهذه المناسبة « أن الباحثين الأوربيين لم يعرفوا عن تراثنا الشفاهي إلا ما اطلعوا عليه من ترجمات لهذا الكتاب العربي الشعبي « ألف ليلة وليلة » خاصة بعد أن ظهرت ترجمة جالاند « لألف ليلة وليلة » وحيث إن « الليالي » مشكوك في أن مصدرها الأصلي هو الهند .. . فقد تشكلت نظريات هجرة المأثورات الشعبية على أنها مأثورات هندية ، ترسبت

---

(١) د / محمد محمد حسين (حصوننا مهددة من داخلها) ص ٦١ .

(٢) عبد العزيز بن إبراهيم العُمري (الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول ﷺ)،الطبعة الأولى،١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م،رسالة علمية للماجستير من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

في اللاشعور الجمعي للشعوب الأوربية . وكان أسلاف الأوربيين من الشعوب (الهند أوربية) قد حملوها معهم ! ! .. وكان رأي (الأخوان جرم) في تراث الحكاية الشعبية الألمانية مشابهاً ؛ فحتي طرز الحكايات التي لها شبيه في ألف ليلة وليلة ، أرجعها وليم جرم إلى أصلها الهندي(١) .

وأما عن تأثر الفنون الشعبية العربية بالمرحلة الإسلامية من الحضارة العربية ، فالصورة مختلفة ، وكما ذكرنا فإن الإسلام ألغى فنون المجون والترف واللهو والإسراف من الاحتفالات التي تمجد الفردية ، وأباح كل أنواعه التي تلتزم بالطابع الأخلاقي ؛ فالمنع في الإسلام للفنون الانحلالية جعل ألواناً من الفنون الشعبية الإسلامية تظهر وتزدهر ، كالرقصات الشعبية التي برزت في الأعياد ومواسم العمل .

كما أن تحريم الإسلام للأكل بأواني الذهب والفضة ، جعل نوعاً من الفن الفخاري يزدهر في بلاد الإسلام ، ويصبح عالي الشهرة ، وهو الخزف ذو البريق المعدني وبينما كانت قضية المنع في الإسلام عاملاً لتمُّيز حضارة المسلمين عن حضارة الغرب ، اعتبرها الاستشراق – بعنصريته الغربية ، السبب في عدم بلوغ فنوننا مرتبة الفن الجميل مثل فن التمثال .

والحقيقة أن الفن في الإسلام ينبع من نظرة إلى الحياة ، مختلفة تماماً عن الفلسفات اليونانية والمادية : (فالفن في الإسلام ، عموماً ، هو أخلاقيٌّ أولاً وأخيراً ، بمعنى أن الفن يقوم – عموماً – بإعلاء القيمة الإنسانية ، وأن يكون تعبيراً عن العقل الواعي للإنسان ، وليس عن العقل الغائب .. المشوش ، ومن ذلك إلغاء الإسلام لامتهان الجسد البشري ، أو الفكر البشري ، أو الكلمة السوية .

---

(١) عمر عثمان خضر، المأثورات الشعبية في المملكة العربية السعودية ، مجلة الدارة ، السنة الثانية ١٣٩٦ العدد الثاني ، الرياض ، ص ٢١٣ .

« وإذا تناولنا موضوع امتهان الجسد ، فإنه لا يمكننا أن نتناول الرقص الشرقي من حيث هويته الانحرافية ومدى انتمائه للفنون الشعبية العربية عموماً ؛ ذلك لأن الرقص نشأ عموماً صورة من صور الزياضة ، وهو ما يبدو واضحاً في النقوش الفرعونية المصرية القديمة . إنه اهتمام بالجسد وليس امتهاناً له وهو بالتالي اهتمام بجسد المرأة ورياضته وتجميله .. لا بالجنس »[1] .

أما الرقص الذي التصق بنا على أنه شرقي – وهو في الحقيقة دخيل علينا – فإنه على العكس من ذلك تماماً فهو اهتمام بالجنس وليس بالرياضة وبمعنى أنه أصبح يركز على الجنس أكثر من تركيزه على الرياضة .

ومثل ذلك يقال عن جمال النظرة وليس جمال العين .. هذا ما عرفته الحضارة المصرية الفرعونية القديمة .. فعلى سبيل المثال ، (كان الجسد دائماً مغطّى بغلالة لا تكشف ما تحتها .. بينما في الحضارة الإغريقية ، انصب الاهتمام على الجسد كجسد ، بالمفهوم الجنسي . ثم جاء عصر القيان والسبايا ، ودخولهن إلى العالم العربي .. فقد كنّ لا يُجدن العربية ؛ ولا يحفظن القرآن الكريم ، ولا يروين الشعر .. فكيف يمكنهن العيش في القصور .. ؟ ما مواهبهن الأخرى ؟ .. لم يجدن إلا الجسد كان وسيلتهن الوحيدة ؛ ولهذا تجد أن المكانة الأولى في عصور ازدهار حضارتنا وسيطرة قيمنا الإسلامية كانت للمرأة الحافظة للقرآن الكريم ، ومن ثم من لها القدرة على نقاش الأدباء والعلماء ورجال الدين ، تليها راوية الشعر والمحدثة بأخبار السلف ، ثم المغنية أو العازفة ، وبالذات من تجيد العزف الشرقي منهن . ثم تأتي بعد ذلك الفئة الأدنى من النساء ؛ الراقصات »[2] والأن أصبح الرقص الشرقي هذا كأنه ملتصق بنا ، مع أنه غريب عن فكرنا وبيئتنا وفنوننا وانقلبت الموازين – ولا سيما في عصور الانحلال – فأصبحت قضية حفظ القرآن عند المرأة هي أدنى مؤهلاتها بل أصبحت المؤهلات الأخرى الدنيوية والثانوية هي رئيسية في

---

(١) (٢) صفوت كمال (فنوننا الشعبية) مرجع سابق .

خصائصها .

لقد تميز الإسلام بالفعالية الواعية لرسالة الإسلام في رحلاته الأنثروبولوجية ، سواء أكانت رحلات للتجارة ، أم رحلات لطلب العلم والمعرفة . وقد حمل الإنسان الغربي المسلم عاداته وتقاليده معه أينما ذهب ، ففي عصر هارون الرشيد[1] مثلاً .. أرسلت البعثات الثقافية والدبلوماسية لمعرفة عادات شعوب دول وحضارات أخرى ، فالحضارة العربية الإسلامية أعطت وأخذت ، ودخلت في تبادل حضاري من نوع فريد ونذكر هنا ، بعثة ابن فضلان إلى كييف في روسيا والفايكنج في الدانمارك ، وبعثة إبراهيم يعقوب الأشرفي إلى شمال أوربا ، وغيرهما .. وكلها نماذج تظهر فعالية الثقافة العربية في موقعها بين الحضارات المختلفة المحيطة بها . ونؤكد أن الثقافة أخذ وعطاء ، فقد جاء ركوب البحر المبكر سبيلاً فريداً للإنسان العربي ليحمل حضارته إلى غيره ، ويستقي من الآخرين خصائص حضاراتهم التي توافق مبادئه .

وهكذا كانت ثقافة الإسلام مبنية على أسس راسخة من حرية الفكر واحترام الإنسان وتأكيد الثقافة العربية بالإقناع المتوازن وليس بوسائل القهر الذهني كغيرها من الحضارات ، وأكبر مثال على ذلك ما نجده حالياً من أساليب القهر الإعلامي الذي تمارسه الحضارة الأوربية بمنتجاتها الصناعية مقترنة بإغراقها الفكر الفردي عن طريق أساليبها الإعلامية والسياسية في صناعة الرأي العام وهذا يرجع بسبب العلاقة الوثيقة بين المعرفة والإنتاجية المربحة المسيطرة والتي تسلب الخصوصية والمعرفة بالذات وتعمل على احتواء التحرر ويوضح ذلك المفكر الأوربي ماركيوز فيقول :

« إن الموضع التكنولوجي يقتضي بالضرورة تنسيقاً سياسياً وفكرياً ومن شأنه أن يزيد إلغاء الفردية عند الإنسان » وكان حديثه هذا في معرض كلامه عن قضية اغتراب الذات الإنسانية في الحضارة المعاصرة .

---

(١) المرجع السابق .

الفصل الثاني

أهمية الأنثروبولوجيا الاقتصادية في أعمال التغير

تمهيد :

لقد عمل الاستعمار ، في غيبة من وعينا ، على طمس معرفتنا في الجانب الذي يهتم بفرع الأنثروبولوجيا الاقتصادية ، من أجل تحقيق غاياته الاستعمارية لتوجيه أعمال التغير الاجتماعي والاقتصادي فيما يحقق مآربه لإبقاء شرقنا وبلادنا في إطار التبعية الاقتصادية للبناء الحضاري الأوربي .

وسنحاول أن نبين أهمية هذا الجانب الفولكلوري من خلال أقوال المتخصصين في الدراسات الأنثروبولوجية والفولكلورية .

فإذا حللنا مهنة من المهن الفولكلورية ، فإننا نلاحظ مدى ترابطها مع الأنساق التي تمثل الجوانب المختلفة للمجتمع سواء الجانب التربوي فيه أم الديني أم الأخلاقي أم العلمي ، وكذلك الجانب الأسري فيه والسياسي وغير ذلك من الجوانب .

إن من الأمور الهامة في بناء ذاتنا الثقافية والشخصية ، أن نهتم بفرع الأنثروبولوجيا الاقتصادية ، ونهتم بالعناصر الفولكلورية المساعدة فيه ، وكل الأمور التي تساعد على تحقيق التواصل الثقافي بين الماضي والحاضر ؛ لتوجيه مسيرة التغير في المجتمع لصالحه ولصالح أهدافه وغاياته ، أي أن يستعيد ملامح شخصيته مستفيداً من تراث أجداده وما يحتوي هذا التراث عليه من إمكانيات وخبرات تساعده على حل مشكلات المستقبل وإعداد أسباب القوة له .

قال تعالى :

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة .. ﴾ .

الأنثروبولوجيا الاقتصادية (المهنية)

إن مهمة تصحيح مسار الفولكلور ، باعتباره علماً ومفهوماً توجب علينا أن نفرغه من محتواه التغريبي .

وحتى نصل إلى تحقيق هذا ، فمن الضروري أن تحدد الغاية المطلوبة من دراستنا للفولكلور ، وأن نحيط بالعلوم المتعلقة به نظرياً وعملياً ؛ بما يهئ لنا شمولية المعرفة وتكاملها نحو الانسان وحضارته .

كما أن علينا أن نركز الاهتمام بالمواضيع الفولكلورية في تراثنا وذلك بالانتقاء والتحقيق والنشر ، والتطبيق العملي لما يمكن أن يدعم مسيرتنا الحضارية ، مع التحديد الدقيق لوظيفة الدراسات الفولكلورية في بنائنا الاجتماعي والحضاري ، بالإضافة إلى ضرورة اتباع الخطوات العلمية والعملية لدراسة قضايا وعمليات التغير الاجتماعي المعاصر .

وعلينا ، أولاً وأخيراً ، أن نأخذ جميع الاحتياطات ، وأن نحذر كل الحذر ، من أن يتم استغلال هذا العلم ، من قبل الاستعمار ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، ضدنا ، وضد سعينا الدائب ليكون لنا مكان رفيع بين الأمم ، استمراراً للدور الريادي الذي قام به مفكرونا الأوائل وأسهموا به في بناء الحضارة الإنسانية .

وإذا كنا نريد الاستفادة ، حقيقةً ، من هذا العلم فيما ينفع مجتمعنا ، فإن من واجبنا ألاّ نردد التعريفات الدالة والموجهة لجهودنا ، التي تعبر عن الجانب الشفاهي من فولكلورنا ، بالرغم من تطور هذه التعريفات وشمولها للجانب المادي أيضاً ؛ وذلك لارتباط مثل تلك التعريفات ، التي تقتصر على الجوانب الشفاهية والأسطورية (الميثولوجيا) ، بالاتجاهات الاستعمارية وأغراضها تجاه ما يسمي بالعالم الثالث .

ومن واجبنا ، الاهتمام الكافي والضروري بالجوانب الأخرى من العناصر

الفولكلورية في المجتمع وخصوصاً ، المتعلقة بالجانب الاقتصادي ، وتسليط الضوء عليه وتسجيله والاحتفاظ بتراثه ، وذلك من أجل الإحاطة بشمولية أبعاد الواقع الاجتماعي الفولكلوري ، باعتباره يمثل الشريحة السابقة في البناء الاجتماعي لحضارتنا ، قبل أن تصلها مرحلة التحديث المعاصرة ، وحتى لا يقتصر اهتمامنا على جوانب القول دون العمل .

إن أحدث ما توصلت إليه أبحاث العلماء في هذا المجال ، هو ضرورة التركيز على الاتجاهات الوظيفية والبنائية في دراسة الواقع الاجتماعي الذي يعد من الجوانب الهامة والأساسية في دراسة بناء حضارة الإنسان وواقعه الاجتماعي والثقافي ، حيث يقول العلماء في هذا : إن مجال « الأنثروبولوجيا الاجتماعية » هو الحياة الاجتماعية لشعب من الشعوب من كل جوانبها . وإن الاتجاه الوظيفي هو محاولة النظر في حياة شعب ما بمجموعه وباعتباره وحدةً وظيفية ، وبما أن وجهة النظر الوظيفية تتطلب ، على هذا الأساس ، بحث كل جوانب الحياة الاجتماعية بقدر الإمكان ، وبدقة ، باعتبارها جميعاً مرتبطة بعضها ببعض ، لذلك فإن من الواجب أن لا ننظر إلى ذلك الجزء إلا بمنظار الكل ، الذي يجمع الحضارة ؛ هذا إلى جانب ضرورة توجيه الجهود لشمولية المعرفة في تراثنا ، النظري منه والعملي ، المعنوي وما يتعلق به من عادات وقيم ، والمادي وما يتعلق به من وسائل وأدوات ، أو ما يسمونه بعلم الأركيولوجي .

وبناء على هذا ، فإن من واجبنا أن نسلط الضوء على تراثنا الحرفي والصناعي والمهني ، بما يشمله من أنظمة اجتماعية وتربوية وتعليمية وأخلاقية وقانونية ، ووسائل آلية ومادية ، نسجلها ونحتفظ بآثارها وبجميع المعلومات عنها ، والتي كان عليها مجتمعنا وآباؤنا قبل مرحلة التحديث .

ومن أجل هذا ، يجب أن نهتم بالفروع الأخرى لعلم الإنسان كتلك ، التي تدرس الجوانب الاقتصادية ، والتي أولاها الغرب اهتمامه الكبير عندما قام بدراسة عمليات التثاقف بين ثقافة استعمارية وثقافة أخرى ، لم تدخل إليها الآلية

الحديثة بعد . مثل اهتمامه بعمليات التغير الاجتماعي والثقافي ، وفرع « الأنثروبولوجيا الاقتصادية » .. . فقد أولى الغرب هذه العلوم اهتماماً كبيراً خلال القرون الأخيرة من تاريخنا .

تحتوي سجلات الدراسات الفولكلورية الغربية رصيداً كبيراً للمعرفة الأنثروبولوجية والفولكلورية التي تمثل واقعنا الاقتصادي الفولكلوري قبل مرحلة التحضر وعمليات التغير ومراحلها ، في أثناء دراسة طبيعة مراحل عملية التثاقف بين الثقافة الأوربية وثقافتنا الفولكلورية .

إنني أرى أن من واجبنا الاهتمام بالجانب الفولكلوري الحرفي والصناعي ، وكل ما يتعلق بالجانب الاقتصادي للإنسان ، مثل اهتمامنا بالجوانب الأخرى وذلك ، لربط ماضيه بحاضره ؛ حيث أن هذا الجانب الحرفي له جوانبه الفكرية والعقائدية والأخلاقية الهامة ، التي تترابط فيها جوانب الإنسان وحضارته .

ويمكن لنا أن نستفيد الشيء الكثير ، عند مقارنة ماضينا وما كان عليه من تقاليد ونظم ، بما عليه حاضرنا في حرفنا وصناعاتنا ، وما يسير عليه من أخلاقيات ومفاهيم تربوية وتعليمية لإعداد الأجيال .

يجب أن ندرس ما إذا كان أجدادنا قد تفوقوا علينا في إعداد الأجيال للصنائع ، أم أننا قد تفوقنا عليهم ، وأننا نسير في الطريق الذي يجعلنا كريشة في مهب الريح ؛ لأننا تركنا أصولنا ، وخلاصة ما تراكم من معرفة لدى أجدادنا ، التي تمثل حصيلة خبرة تكونت على مدى السنين الطويلة ؟

يجب ألاّ نضيع ذلك الجانب من التراث المضيء الذي تركته لنا أجدادنا ، وأن نبحث عن أشكاله وخبرته في جميع أقطار العالم العربي والإسلامي ، لأنه يمثل تنوعاً يدل على غنى الثقافة الإسلامية ، وغنى الخبرة الإنسانية التي استظلت بظل الإسلام .

إن جميع ذلك التراث هو إرثنا الحضاري ، وإن جهودنا في بعثه هي دليل

ملكيتنا المشروعة لتراثنا العظيم ، في عصر أخذت تعيش فيه الشعوب في هوة ثقافية تفصل ماضيها عن حاضرها ، وما يمكن أن يكون عليه مستقبلها في هذا العالم الذي أخذت مفاهيمه التكنولوجية تقوض خبرة الإنسان ، وعطاءه الحضاري ، وتسخر منه . بل إن الإنتاجية المربحة له تعمل على تقويض فرديته واستيعاب ذاته وعقله وإرادته عن طريق إيقاعه في أسر التكييف الذهني الذي يسترشد بالمصالح الاجتماعية والاقتصادية وعقلانيتها ، على حساب الجوانب الروحية والأخلاقية والإنسانية .

أهمية الأنثروبولوجيا الاقتصادية
في البناء الاجتماعي

ينطبق فرع الأنثروبولوجيا الاقتصادية على عدة مجالات من حياة الإنسان الحضارية ، البدائية أو الحضرية ، ومن الممكن أن يأخذ هذا التخصص حيزاً هاماً من دراسة الثقافة الفولكلورية ؛ لأهميته وحيويته ، وخاصة إذا أردنا أن نسلط الضوء على هذا الجانب في دعم حياتنا المادية والاقتصادية ، التي هي جزء هام من الثقافة المتعلقة بحضارتنا .

ولكن الاستعمار بتغريبه لعلومه ومفاهيمه وتعاريفه ، قصد أن يغض الطرف عن هذا الجانب الهام ؛ من أجل طمس المعرفة به ، حتى نهمل نحن هذا الجانب ونركز اهتمامنا على الجوانب الشفاهية والنظرية ، التي تعتبر دراستها ، وحدها ، دون إلقاء الضوء على الكل الشامل . غير ذات فائدة ، وضياعاً للجهود المبذولة وتبديداً لعامل الزمن ، دون الوصول إلى نتيجة علمية مفيدة لعمليات التغير الاجتماعي ، التي تهدف إلى أن تكون مثمرة على ضوء أهداف حضارتنا .

ومن العلماء الذين كان لهم دور واضح في الدراسات الأنثروبولوجية الاقتصادية ، الباحث « مالينوفسكي » فهو على الرغم من أن أساسه الاقتصادي لم يكن منظماً من وجهة النظر الاقتصادية البحتة ، فإنه – مع ذلك – قد استولت عليه دراساته في الأنثروبولوجيا الاقتصادية طوال حياته العلمية تقريباً .

ونرى هذه الناحية واضحة في دراسته لسكان استراليا الأصليين ، حين درس لديهم طبيعة حق الملكية ، وخاصة ملكية الأرض ، كما درس موضوع تقسيم العمل ، واقتصاديات الأسرة الفردية .. . وقد تساءل :

إلى أي مدى تعتبر هذه الأسرة وحدة اقتصادية ؟ .. وإلى أي مدى تتحد

فرديتها عن طريق الحقائق الاقتصادية[1] ؟

كما بحث علاقة الزواج بالموضوع الاقتصادي ، وغير ذلك من العوامل التي تؤثر في هذا الجانب .

وحول أهمية الملاحظة في الجانب الاقتصادي يرى الباحث أنه ، إذا كان مجتمع الدراسة هو القرية ، « فلا يجوز أن يكتفي الباحث بملاحظة قيام أهل القرية بأعمالهم خارج المنزل ، بل عليه ملاحظة ما يدور من نشاط اقتصادي داخل المسكن ، وفي الطريق العام للقرية ، والحقول .. الخ . ومن خلال زياراته يستطيع ملاحظة تفاصيل الحياة اليومية دون سؤال ما ، إلا ما غمض عليه فهمه ، ويمكنه أن يدعم ملاحظته عن طريق اتباع نظام رتيب في ملاحظة العادات كالسير في شوارع مجتمع الدراسة في أوقات معينة ، كأن يكون ذلك بعد الفجر مباشرة ، أو قبيل الغسق ؛ لملاحظة أفراد القرية عند خروجهم للعمل ، أو عودتهم منه . وقد تكون الملاحظة لعملية الحصاد »[2] أو العمليات الأخرى التي تتبع ذلك .

وقد نشأ عن الاهتمام بهذا الجانب علم هام وهو :

(علم الأركيولوجي) وهو العلم الذي يختص بدراسة الآلات والأدوات ووسائل الإنتاج وقد جاوزت مسألة تطور وسائل الإنتاج للصناعات المختلفة ، على اهتمام الباحثين في علم الأنثروبولوجيا والفولكلور ، لأهمية المعرفة في هذا الجانب ، الذي يدل على تطور تفكير الإنسان في الوسائل التي يستخدمها من أجل إنتاجه وصناعاته .

ونحن نجد أن المعرفة التي اختصت بدراسة تطور وسائل الإنتاج هذه ، أخذت مداها الواسع ، منذ المراحل التاريخية الطويلة ، أي منذ أن قام الإنسان باكتشاف القراءة والكتابة ، ليشمل مختلف الصناعات الأخرى التي لجأ إليها

(١) د / عبد الحميد لطفي (الانثروبولوجيا الاجتماعية) ص ١٧٢ .
(٢) د / زكي محمد اسماعيل (الانثروبولوجيا والفكر الإسلامي) ص ٢٣٢ .

الإنسان لتحقيق صناعاته وبنائه الحضاري .

أهمية التخصص المهني والحرفي أساساً للبناء الاجتماعي

قام بعض العلماء الأنثروبولوجيين بتسليط أضواء على أهمية العامل الاقتصادي في نظرية البناء الاجتماعي حيث درس كثير منهم العوامل الهامة التي تؤثر في البناء الاجتماعي وتماسكه هذا البناء الذي يمثل الإطار العام[1] الذي يعيش فيه الأفراد والمجتمع من النظم القانونية والسياسية والاقتصادية والاخلاقية ، فرأوا أن هذا كله يؤلف بناءً له درجة معينةٌ من الثبات والاستقرار .. بمعنى أنه يستمر في الوجود فترات طويلة من الزمن يحتفظ خلالها بأهم مقوماته التي تنتقل من جيل إلى جيل .

وقد تركز بعضهم على مسألة العلاقات وأهميتها في البناء الاجتماعي واستبعد العلاقات الفردية التي تقوم بين فرد وآخر ، كالتي بين الأب وابنه ، وذلك لضمان نوع من التماسك والتوافق بين أجزائه ، وتجنب التناقض الصارخ أو الصراع ، أي إنهم بحثوا عن ضرورة توافر العلاقات التي تتمتع بدرجة عالية من الثبات والانسجام والترتيب .

وقد قام العالم « ريموند فيرث » من خلال دراسته لمجتمع التيكوبيا[2] بالتركيز على النسق الاقتصادي ، فرأى أن البناء الاجتماعي يعتمد أساساً على التخصص المهني أساساً بنائياً حتى في المجتمعات البدائية التي يظهر فيها مثل هذا التخصص بصورة ضئيلة ، بعكس المجتمع المتحضر الذي يعتمد على التخصص وتقسيم العمل بأوسع معانيه .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٣٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣٨ .

ويرى « فيرث » أن مكانة مهنة الأفراد تتباين بتباين المجتمعات نفسها فقد تكون مهنةً محترمة في مجتمع فتنال التكريم ، وقد تكون نفس هذه المهنة منبوذة في مجتمع آخر .

ومن هنا نرى أن للتخصص المهني والحرفي أثره الكبير باعتباره أساساً هاماً للبناء الاجتماعي . كما أن وظيفة أي مهنة تختلف من مجتمع إلى آخر حسب طبيعة البناء الثقافي والاجتماعي لهذا المجتمع .

وفي ضوء هذا نكون قد استطعنا التعرف على أهمية الجانب الاقتصادي في الدراسات الفولكلورية والأنثروبولوجية ، يقول تعالى : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم** ﴾ .

أي أن العمل الإنساني الذي توجهه المعرفة وقيم الأخلاق ينمو مع حضارة المجتمع ويصبح حرفاً وصناعات وتقنية تعود بالخير على الإنسانية .

مهننا الفولكلورية وخصائصها الفكرية

ذكرنا فيما سبق أن الإسلام كان له موقفه العظيم ، المتمثل في إيجابيته نحو تكريم العمل باليد ، وتشجيع الصناعة وتكريم أهلها .

وقد أورد القرآن الكريم آيات تؤكد أن الأنبياء كانوا قد جمعوا بين رسالتهم الفكرية والعملية في بعض الصناعات بما يؤكد ذاتهم الإنسانية بما يحقق ما يهدفون إليه من غايات .

كما جاءت السنة الشريفة تشجع الصناعة ، وتكرم أهل الصنائع ، وتحث على الأخذ بها بما يكفي المسلمين وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قدوة حسنة في تكريم أصحاب المهن ، فقد كان يزاول بعض الأعمال في بيته . ولا نريد أن نتوسع فيما أعطته الدولة الإسلامية من اهتمام بجميع جوانب الصناعات التي يحتاج إليها المسلمون ، في أيام السلم والحرب .

لكن الذي نريد أن نوضحه هنا هو ما ألمحنا إليه سابقاً من أن الإسلام قد صبغ مختلف الصناعات بصبغته ، كما أنه أخضع العلوم لأسسه ومفاهيمه .

وهناك أمثلة كثيرة من الصنائع العملية وأنظمتها ، توضح كيف أن الإسلام كان قد أسبغ على هذه الصناعات معانيه وقيمه الإسلامية ، بالإضافة إلى ما فيها من خصائص فكرية في صنعتها ، تستند إلى علوم دنيوية ، كعلوم الكيمياء أو مفاهيم الجمال ، وكلها تستظل معانيها بظل الإسلام .

وليس من شك في أن هذا الجانب الفكري ، يختلف من حيث الكمية والكيفية بحسب وظيفة الصناعة في المجتمع ، وحسب ارتباطاته بجوانب الحياة والمجتمع والبيئة وعلومها . ومع هذا الاختلاف ، فقد أكد كثير من الباحثين في الفن ، على وحدة الفن الإسلامي ؛ فإنك إذا نظرت إلى زخرفة على خنجر

أو على محبرة أو أي شيء آخر ، فإنك تشعر – من الوهلة الأولى – بطابع الفن الإسلامي ووحدته . ويرجع هذا إلى وحدة الفلسفة الجمالية الإسلامية ، وتميزها عن غيرها من الثقافات .

ولنأت بعدة أمثلة على تلك الصناعات ، لكي نتبين خصائصها الفكرية ، سواء في معانيها أو أخلاقياتها وقيمها ، أو ما تستند إليه من علم ومعرفة بعلوم دنيوية ، كالكيماء والفيزياء ، أو علوم الهندسة أو الحساب أو غيرها .

صناعة البناء والعمران :

نلاحظ أن هذه الصناعة تستند إلى علوم تتعلق بالمواد وخواصها ، وقدرة تحملها . وقد تستند إلى معرفة كيميائية ، أو معرفة بإمكانيات البيئة وخواصها ، ومعرفة عملية بطريقة تصنيعها . هذا بالنسبة للمواد وخواصها وأمر إعدادها .

أما بالنسبة لعملية البناء نفسها ، فإنها تستند إلى علوم هندسية ، ومعرفة بصناعات متعددة مرتبطة بها ، وإمكانية تحقيق أكبر قدر من الجمالية والمنفعة ، ومقاومة عوارض الطبيعة .. أي أن يحقق البناء احتياجات الإنسان في الاقتصاد والجمال والمنفعة ، بالإضافة إلى ضرورة تحقيقه لحاجة الأسرة إلى الراحة ، ومراعاة القيم الدينية والأخلاقية في أسلوب الحياة الأسرية الاجتماعية .

صناعة الأثاث المنزلي :

إن ما ينطبق على البناء ينطبق على صنع الأثاث ، واستخداماته لمادة الخشب ، وفنون حفره وتصنيعه ومعرفة إمكانيات البيئة ومواردها ، وأنواع هذه الإمكانيات ذلك أن النوع الذي يصلح لغرض أو صناعة شيء ، قد لا يصلح لصناعة شيء آخر ، لاختلاف خواص المواد .

إن صناعة الأثاث في الإسلام ، تراعي القيم الاقتصادية والجمالية ، والبساطة ، وتراعي قضية الجمال وتوافقها مع قضية الحلال والحرام ، كما هو الحال بالنسبة لتحريم استخدام التماثيل ؛ لأن قيمنا الجمالية تنمو من الثقافة

الإسلامية وقيمها كتجسيد روح الجماعة والبساطة وكرم الضيافة وهذا ما يطبع أثره في الأثاث المنزلي وجماليته .

صناعة التعليم :

كان للتعليم والتربية ، باعتبارهما من الصنائع في مفهوم ابن خلدون ، تقاليدهما الإسلامية العريقة ، مستمدة من القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وكان للعلماء والمفكرين المسلمين إسهام واضح في إثراء المكتبات بالكثير من المؤلفات عن الجوانب التربوية التعليمية . ومن هؤلاء ابن خلدون والغزالي ، وابن سينا[1] .

ومن الواجب علينا تجاه هذا التراث الفني ، أن نتعهده بالدراسة والتحليل والنشر ، لاستخلاص سياسة صالحة للسير بنا على طريق الحضارة ، بالإضافة إلى الاستعانة بما يصلح من دراسات تربوية حديثة ثبتت صلاحيتها ونفعها ومما يثلج الصدر أن هناك جهوداً فردية وجماعية تبذل لإحياء التراث التربوي الإسلامي ، ومن ضمنها جهود المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التربية العربي لدول الخليج .

وحول النسق التربوي والتعليمي لحضارتنا الفولكلورية الماضية ، نجد أنها تحتوي على جوانب التراث الذي منه الجيد والنافع ، وفيه الذي لا يصلح مع الأساليب التربوية الحديثة أي أن فيه الجوانب المضيئة وفيه الجوانب المظلمة ، وهذا يتطلب منا بعد الرجوع إلى الذات من خلال دراستنا الفولكلورية غربلة التراث من أجل الاستفادة من النافع منه عند رسم خططنا التربوية لإعداد الأجيال في مجال التربية والتعليم .

ومن تقاليدنا الحسنة في مسألة امتحان طالب المعرفة أو الصناعة سواء العملية

---

(١) راجع كتاب (التربية الإسلامية وفلاسفتها) محمد عطية الأبراشي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ط٣ ، ١٣٩٥ - ١٩٧٥م ، ص ٢١١ وما بعدها .

منها أو العلمية أنه كان ينظم من أجل امتحان الطالب مواجهة بينه وبين مشايخ العلم أو الصنعة في مجتمعه وفي هذه الفكرة توطيد لعلم الطالب مع المجتمع لأن مثل هؤلاء العلماء أو المشايخ لهم خبرتهم الطويلة وصلتهم الواسعة مع المجتمع والواقع الاجتماعي .

موقفنا من الآلية الحديثة والحرف اليدوية

إن من واجبنا أن نحافظ على الحرف اليدوية التي تستخدم بها الآلية البسيطة وغير المعقدة في حياتنا واستخداماتنا اليومية بما يلبي احتياجاتنا ؛ لأن هذه الآلية البسيطة تمكّن الإنسان من السيطرة على ذبذبات عمله ، وتحافظ على إرادته في العمل ، وتؤكد ذاته الإنسانية التي أضاعها العصر الحديث .

إننا – وإن كنا قد دخلنا عصر الآلة والتكنولوجيا – فإن هذا لا يعني أن نجعل طغيان الآلية والتكنولوجيا يتحكم بالقيم الإنسانية ، ويجعل ذات الفرد والذات الجماعية للجماعات والأفراد مغتربة عن نفسها فهل يعني هذا أن نهجر الآلية الحديثة ؟

الجواب : لا . والمطلوب هو أن نحافظ على الحرف اليدوية ونحميها ، ونجعلها تحاور الإنتاج الآلي وتتوازن معه وتخاطبه ، ويرتفع صوتها فلا تندثر أو تنمحي مع تقويض العصر الحديث للذاتية الإنسانية ، بل تعيش وتتنسّم هواءها .

إن مثل هذا التوازن يجعل الرأسمالية المربحة تحدُّ من طغيانها التكنولوجي على قيم الإنسان وتقويضها لإرادته ، واختلاق استهلاكات كاذبة لا تعبر عن الاحتياجات الحقيقية للإنسان . وإن هذا التوازن أيضاً يعيد للفن مفهومه الحقيقي ، الذي حُكم على صورته ومعناه بالعزلة ، فيستعيد الفن اتصاله بالمجتمع وبالنفس الإنسانية وفطرتها وقيمها والمعنى من حياتها .

ويعيد بذلك للفن صورته الحقيقية التي تعبر عن إعطاء الإنسان جمالية لجميع

نشاطاته في الحياة ، كما يعود للفن ارتباطه بالارادة المتكاملة وعطاء النفس وعطاء الذات الحقيقية للإنسان ، ونقله عنه الأسر الذي جعله سجين دائرة الترف الصناعي ومظاهره الحضارية .

وهذا يتحقق بشرط أن يكون لنا مقياسنا الخاص لاستبعاد الفنون الضارة ، وفق ما يرشدنا إليه منهجنا القرآني ، الذي يحمي الإنسان من الإساءة لنفسه أو لغيره ويحثنا على استخدام النعم في بناء الحياة والحضارة وليس في الترف وهدم الذات والمجتمع .

وها نحن نعيش عصر فتاة الإعلان حتى أصبح الإنسان ذرةً في هذا العالم .. يواجه الغزو الثقافي في تحرر المرأة واغتراب وظيفتها عن بيتها وقيمها[1] . أفلا يجدر بنا أن نعيد النظرة إلى بعض المهن في مجتمعنا الإسلامي ، التي هي وطيدة الصلة بالنساء والبيوت ، لنأخذ العبرة والعظة والحكمة من الحلول التي أوجدها آباؤنا المسلمون في قضاء أمور دنياهم ، مع مراعاة أمور دينهم ؟

حَرِيٌّ بنا أن نبعث من جديد المهن الفولكلورية ، سواء التي كانت تزاولها المرأة في البيت أو مع مجموعة من النساء في مكان خاص بهن يخضع لتنظيم معين وتحت إشراف من يسمى بشيخ الحرفة (أو شيخة الحرفة) وهي وظيفة يجب أن تبعث من جديد .

كان كل ذلك يتم في إطار من الضمانات الشرعية التي كانت تحكم عمل أصحاب المهنة واتصالاتهم ، بدءاً من شيخ المهنة ، وامتداداً إلى كل المنسوبين إليها . وبالإضافة إلى ما سيحققه هذا النوع من الإحياء للمهن الفولكلورية النسائية مما سيوفر عشرات الأعمال للنساء بعيداً عن الاختلاط المحرم - فإنه إلى جانب ذلك ينظم - كما يدلنا تراثنا - العلاقة بين الرجال والنساء ، في الأعمال الحرفية ، تنظيماً اجتماعياً يقوم على الأخلاق الإسلامية وما تفرزه من عادات وتقاليد .

---

(١) هيام الملقي (المرأة بين التعليم والعمل) دار الكتاب العربي ، ط١ ، بيروت ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

إن الصناعات الفولكلورية وتقاليدها ، بما فيها الاقتصاد المنزلي ، تعبر عن تراث غني وأصيل ، يجب البحث عنه وتسجيله ، بجميع ألوانه ، في العالم الإسلامي ، إذ إنه يعبر عن وحدته الفكرية ، وتنوع الخبرة الإنسانية في آن واحد . وفي الوقت نفسه علينا أن نترك سيئه الذي تراكم عبر عصور الجاهلية ، أو أتانا من خارج بيئتنا الإسلامية . ونحتفظ بثمينه قبل أن يندثر ويضيع أدراج الرياح ، مع هبوب عواصف العصر العاتية ومتغيراته السريعة .

لابد لنا من تسجيله وحفظه ، واستيعابه والاستفادة منه ، لإيجاد حلول ناجعة ، تجسد مقاييسنا المعاصرة من ذاتنا الحضارية وتقاليدها في العلوم والصناعات ؛ فإن تراثنا العظيم لجدير بالاحترام والتقدير ، وأن تسترشد بنافعه على ضوء منهجنا القرآني ، وسنة نبينا الكريم ﷺ .

ونردد قول ابن خلدون ، في تعريف الحضارة :

« والحضارة الكاملة تفيد عقلاً ؛ لأنها مجتمعة من صنائع في شأن تدبير المنزل ، ومعاشرة أبناء الجنس ، وتحصيل الآداب في مخالطتهم ، ثم القيام بأمور الدين ، واعتبار آدابها وشرائطها . وهذه كلها قوانين تنتظم علوماً ، فيحصل منها زيادة عقل . والكتابة من بين الصنائع أكثر إفادة لذلك ؛ لأنها تشتمل على العلوم والأنظار ، بخلاف الصنائع .

إن من واجبنا أن نستوحي من ماضينا من أجل بناء حاضرنا دون أن نترك فجوة حضارية فقد أصبحنا نستفيد من منتجات التقنية الحديثة كما نستفيد من المنتجات اليدوية البسيطة ، بل إن منتجات التقنية الحديثة التي تفوقت فيها أوربا وما حدث من جراء تأخرنا عنهم في هذا المجال من فجوة تقنية أخذت هذه تضغط علينا عبر الحدود لتعمل على تفتيت طرق اعتمادنا على أنفسنا وتميت مهننا اليدوية الفولكلورية وتزيحها إلى متحف التاريخ بعد أن تعمل على تقويضها كما أن هذه الحضارة الغربية التقنية وما فيها من قيم أيديولوجية غربية المنشأ والمحتوى أخذت تفتت من قيم تراثنا ومبادئنا وأخلاقياتنا وتجرفها مع تيارها الهادر لتخرجها خارج

ساحة واقعنا العملي في بناء حضارتنا المعاصرة . إن التسويق والإعلام التجاري والاتصال الجماهيري هي علوم جديدة تقوم على استمالة النفس البشرية للاهتمام بمنتج جديد وكيفية انتشاره بين الناس وإقبالهم عليه . ونحن نعيش الآن متأثرين بظاهرة الحضارة الضاغطة وتدفق أشيائها عبر حدودنا لاننا نمثل الحضارة المضغوطة أو المجتمع المضغوط[1] .

فما أجدرنا أن ندرس تلك العلوم الجديدة ونبحث في كيفية تأثيرها على استمالة المجتمع المتخلف ، لتقليد المجتمع المتقدم في أشيائه وأفكاره وعاداته على أن تكون الدراسة والبحث من أجل تقليل تلك التأثيرات أو تحجيمها أو وضع قائمة أولويات لها ، إن كان ولابد من الانصياع لها .

وهذه دعوة نوجهها لشباب الأمة من الباحثين في مجالات العلوم الاجتماعية[2] .

---

(١) (٢) د / محمد محمد سفر (دراسة في البناء الحضاري) طـ١ – مطابع مؤسسة الخليج للنشر والطباعة – قطر – ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م ، ص ٣١ .

نموذج من مهننا الفولكلورية

(التنجيد)

إذا أتينا على اختيار نموذج من صناعاتنا في الحضارة الفولكلورية الماضية ، نلاحظ أمراً هاماً فيما يتصل بخصائصها الفكرية والثقافية ويتمثل ذلك في الطريقة التي يصبغ بها الإسلام جوانب حضارته وصناعاته ولكي يتضح لنا هذا نختار نموذجاً من هذه الصناعات التي توضح ارتباطها بجانب العقيدة والأخلاق في المجتمع ، بالإضافة إلى علومه وخبرته ومفهومه عن الجمال ، كما نلاحظ ارتباط هذه المهنة بنظام المجتمع بما فيه من نظام تعليمي ونظام امتحانات تؤهل الفرد للعمل بتلك المهنة ، نحاول أن نعرض مختصراً لها ، كما جاءت في أحد الكتب الذي يصف هذه المهنة وهي في مطلع القرن العشرين .

حرفة التنجيد :

إن حرفة التنجيد[1] لها صلة قوية بالدور ، وبالتالي بالنساء بشكل خاص ؛ فالمنجد يدعى إلى الدار لإصلاح فراشٍ أو لحاف أو وسائد قطنية أو صوفية ، فيذهب مصطحباً معه قوسه وكيس خيطانه والأجير ، فيضطر وهو في البيت بحكم المصلحة ، أن يغير قوالب الفرش أو اللحف أو الوسائد ، أو أنه يجد لها وجوهاً وقوالب مهيأة فإذا أراد إصلاحها يجدها طويلة أو قصيرة ، أو تحتاج في بعض أوضاعها إلى الخياطة .

وكان من المألوف أن يتصل بالنساء داخل الدار ، لإنجاز تلك المهمات المسلكية أو أن صاحبة المنزل قد تضطر إلى ترك المنجد في الدار ، وتخرج لقضاء بعض شؤونها ، فيبقى المنجد وحيداً في الدار .

---

(١) أحمد حلمي العلاف (دمشق في مطلع القرن العشرين) منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٧٦ .

مقتضيات المهنة :

وكان من مقتضي هذه المهنة أن يكون المنجد أميناً مهذباً خلوقاً ، ذا أخلاق كريمة ، محافظاً على دينه . ودفعاً لكل ما يمكن حدوثه من الشذوذ من بعض الجهلاء والشباب ، وحرصاً على سمعة المهنة ، وتوثقاً من أمانة المتعلمين والصناع والمعلمين ، اتفق رؤساء هذه المهنة أنه ما لم يكن حائزاً على شروط ضرورية واجبة يقدرها رئيس المهنة وأعضاؤها ، فلا يسمح لأحدٍ بمزاولة مهنة التنجيد إلا بعد توفرها فيه ، وبمقتضي مراسيم خاصة ، تدور على النحو التالي[1] .

في الأسبوع الأول[2] يبدأ المعلم تعليم الأجير الأمور الأدبية والخلقية والمهنية المتعلقة بصنعته كنظافة الثياب ونظافة اليد والأمانة والتواضع وغض الطرف ، ويأمره بالصلاة وطريقة جلوسه من الصباح حتى الغروب ساعة الانصراف . هذا بالنسبة للأسبوع الأول من التعليم . وإذا مضى أسبوع وهو على هذا الوصف ، بدأ بتعليمه بعض المسائل البسيطة للمهنة ، كتشميع الخيوط ، وكناسة الحانوت ، مع مراقبة أوضاعه : سعاله ، عطاسه ، جلوسه ، كلامه ، لهجته ، نظافته ولا يتساهل في تأديبه إذا فرط في هذا ، عن طريق الضرب بالسوط . ثم يراقب تناوله للطعام ، مع تصحيحه بأن يأكل بأدب ، فلا يشرك جميع كفه وأصابعه ، وألا يظهر للمضغ صوتاً ، وألا يتلفت أثناء الطعام ، وأن يتلطف باللقم ويأخذها بتأنٍ ، وأن يغسل يديه قبل الطعام وبعده ، وذلك خوفاً على مختلف القماش العائد للناس من الوساخة أو تفشي الأدهان .

ثم يمرنه على إدخال الخيط في الإبرة ، وتفتيح قطع الصوف والقطن (التنفيش) وتشميع الخيوط ، ثم يعلمه أصول الندف ، ومباديء تخطيط

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٠ وما بعدها .

(٢) بتصرف عن المرجع السابق ، ص ١٥٢ — ١٥٥ .

الفُرُش واللحف .

وإذا شاهد اعوجاجاً منه طرد فوراً ، ولا يجوز لمعلم آخر أن يقبله عنده . أما إذا رأى الاستقامة منه فيبقيه عنده ويدربه ، ويأخذه معه إلى الدور (البيوت) ، ويفهمه قبل الذهاب كل الأمور التي يتجنبها ؛ لإظهار التعفف نحو الأكل وفقاً لآداب الإسلام ، ثم يشب هذا الأجير ويتعلم الصنعة تماماً .

وقد يحدث أن يكون لمعلم عدد من الأجراء والصناع ، وهم لديه درجات ، وصاحب الدرجة الأعلى يراقب دوماً حركات من دونه من الأجراء ، ويسدي النصائح في غياب معلمه ، وينقل ما يراه من الشذوذ إلى المعلم . وإذا اتضح للمعلم صحة ما فعل ، أمر كبار الأجراء برفع رجلي المذنب ، ونزل به بعدد من الأسواط تناسب ما اقترفه من الذنب .

أسلوب تخريج المتعلمين الجدد :

يتم هذا الأمر برفع المعلمين إلى لجنة المنجدين المعقودة تحت رئاسة المعلم الأعلى المعين ، يرفعون إليه أسماء ما لديهم من الصناع الذين بلغوا درجة كافية ، تساعدهم على العمل على انفراد . وبحضور اللجنة والرئيس يجلسون في مكان مخصص لهم بكل أدب واحترام . ويتم في هذا اليوم طرح الأسئلة على معلميهم ، واحداً بعد آخر ، عن آدابهم ، أمانتهم ، نظافتهم والمحافظة على صلواتهم . فيزكونهم ويطلعون الرئيس على واقع حالهم تماماً .

ثم يعين يوماً آخر يتم فحصهم مسلكياً في مكان متسع يكون غالباً في ساحة أحد المساجد ، أو في دار أحد أهل الأعضاء أو المعلم ، أو الرئيس . وعند الاجتماع ، يوجه أعضاء اللجنة بعض الأسئلة ويناقشونهم ليختبروا مدى معلوماتهم ، مثل تفصيل أجهزة العرائس ، تقسيم الجوادل[1] ما تحتاج إليه من القطن إذا كان طوله كذا وكذا ، ويسألون عن تحمل الأقمشة ، والفرق بين المحشو من اللحاف القطني والصوفي ، الوسائد ، البرادي ، الجوادل ،

---

(١) جمع جَوْدَل وهو نوع من اللحف التي يتغطى به الإنسان .

المخدات وما تحتاج من القطن أو القش .. . إلخ .

ثم يطرح الرئيس عليهم سؤالاً عملياً ، فرداً فرداً ، فيأخذ الأجير القماش ويبدأ بالقياس والتفصيل ووضع الخطوط . فإذا وجد الرئيس واللجنة أن هؤلاء المتعلمين صالحون للاستقلال بعملهم هنأهم تهنئة تمهيدية لقبولهم لحفلة الشد ، وإذا رأى أحدهم مقصراً أعاده إلى معلمه أو أي معلم آخر .

حفلة الشد[1] :

يعينها الرئيس واللجنة ، ويوجه الرئيس دعوة عامة إلى كافة المنجدين وصنّاعهم ، إلى مكان معين ، ويكون بستاناً غالباً . فيجتمعون بذلك البستان مستصحباً كل منهم غداءه معه من الصباح إلى الغروب . ويتم ترتيبهم على الصورة التالية :

١ - مجلس الرئيس في مكان مرتفع قليلاً ، إلى جانب أعضاء اللجنة .

٢ - وإذا تم الترتيب دعا الرئيس كافة المعلمين والمدعوين مع أجرائهم ، إلى استعراض الناجحين ، فيمرون زرافات ، ثلاثة ثلاثة ، أو أكثر أو أقل ، ليتعرفوا على الناجحين ويهنئوهم .

٣ - يعين الرئيس حدوداً لهم جميعاً في البستان ، لا يتجاوزونها . وخلال ساعة يختار كل منهم مع أجرائه ومع بعض المعلمين ناحية يستقرون بها ، ويتجولون هنا وهناك ، وتقام الألعاب على اختلافها ، ويجلس للمشاهدة من لا يريد الاشتراك في الألعاب . وتحدد منطقة وسطى ، تقوم فيها طائفة بألعاب مضحكة ؛ فكل طائفة تتمتع بحريتها الكاملة من أحاديث وضحك وقصص وألعاب ، ضمن حدود الأدب ، حتى آذان الظهر .

فإذا قرب موعد الصلاة ، تنادوا استعداداً للوضوء والصلاة جماعة ، فيتقدم الرئيس أو غيره فيأتم الجميع به . فإذا ما انتهوا من الصلاة ، جلسوا حلقات

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٥ - ١٥٩ .

خلف بعضهم البعض ، وبدأ كل معلم يزكي أجيره الناجح ، ويشيد بأخلاقه ومزاياه ، على مرأى ومسمع من المجتمعين . فإذا انتهوا تفرقوا إلى ألعابهم وسرورهم ، ويتناولون طعام الغداء متفرقين كيفما يشاؤون ، فإذا أذَّن العصر عادوا إلى الصلاة .

وعقب الصلاة يجلس الرئيس وسط هلال من أعضاء اللجنة وعلى طرفي الهلال المعلمون ، فبقية المعلمين على بعد عشرة أو خمسة عشر متراً ، فتشكل من الأجراء حلقات على شكل أهِلَّة باتجاه المعلمين . يعلن الرئيس قراءة الفاتحة ، والصمدية ، ثلاث مرات . فإذا أُتمت القراءة أعقب الرئيس بالعبارة الآتية ، بعد البسملة والحمدلله والصلوات على النبي ﷺ يقول ما خلاصته :

لقد من الله تعالى بفضله على مهنتنا ، فجعلها أرقى المهن ، وخصها بالسرور والأفراح ؛ إذ لا يأتينا طالب عمل إلا لفرح أو لمسرات أعراس وسواها وخصها بالأمانة ؛ لأن أموال الناس بين أيدينا ، وكذلك أعراضهم في عهدنا وذمتنا وأمانتنا ؛ ندخل دورهم وكأننا منهم ، ونجلس إليهم وكأننا من محارمهم ، ونأكل طعامهم كأنفسهم ، ولهذا أكسبنا المولى تعالى من الأخلاق أتمها وأكملها ومن الدين ما كبحنا به جماح نفوسنا وحرصنا على هذه المهنة وشرفها وأمانتها ، نحن ومن كان قبلنا ؛ سلاسل مروءة متصلة متسلسلة ، نسلمها لمن بعدنا كما تسلمناها من قبلنا . والتسليم لا يكون إلا لأيادٍ نظيفة ترعي حرمتها ، وتحفظ عهدها .

وقد نشأت طائفة جديدة ، سارت على سنن معلميها ، فنشؤوا على الأمانة والدين والتقوى .. وهم .. (ويعدد أسماءهم مع أسماء معلميهم) ثم يقول : لذلك قدمهم معلموهم إلى « الشد » وسنشدهم ونوصلهم بحلقتنا ، بعد أن تبين لنا منهم الكفاءة على تحمل شروط المهنة . وإننا نبتهل إلى المولى تعالى أن يثبت قلوبهم على التقوى والأمانة والاستقامة والغيرة على الإخلاص .. إلخ .

ثم يناديهم فرداً فرداً ، كل واحد مع معلمه ، فيتقدم ويجلس أمام الرئيس

على ركبتيه ، ومعلمه إلى جانبه ، فيمد الرئيس يده اليمنى ويقبض على يد المشدود ، ويأمره أن يتلو العهد الذي هو متعارف عليه ؛ فإذا تم ذلك ربت الرئيس على كتفه وهنأه ، ودعا له بالتوفيق . فينهض ويطوف على سائر المعلمين ، وينحني لمصافحتهم فيهنئونه ، ويدعون له بالتوفيق .

وهذا هو الشد ، الذي كان يطلق على إدخال المتعلمين من أرباب هذه المهنة في عداد محترفيها[1] .

ومن هذا نلاحظ كيف أن هذه المهنة أخذت مراسيمها من خصوصيات المجتمع ، في محافظته على المرأة والبيت ، والاهتمام بعامل الأخلاق والدين والأمانة ، وذلك لأهمية هذه الأخلاق بالنسبة لطبيعة مهنة التنجيد ولغيرها من المهن التي لابد له فيها من دخول المنازل لإتمام عمله ، وقد يعرض له الاطلاع على بعض خصوصياتها وحبذا لو تبعت هذه التقاليد من جديد في إطار يجمع بين الأصالة والمعاصرة .

ومن هنا نستنتج أن الإسلام لم يمنع تعامل المرأة مع الرجل - كما هو الحال في الأسواق والصناعة والتعليم وفي البيوت - ولكنه قام بتنظيم هذه العلاقة لتكون خاضعة للتشريع الإسلامي وما يصدر عنه من عادات وتقاليد تعارف الناس عليها .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

الصناعات وفنونها سر الحضارات

حقيقة مفهوم الفولكلور الشفاهي :

قد يظن الفرد منا ، ولأول وهلة ، عندما تتردد على مسامعه في التعريفات الفولكلورية مسألة اهتمامها بالجوانب الشفاهية ، أن الأمر يقتصر على تسجيل الشعر الشعبي والغناء الشعبي والأمثال والمواويل والرقصات الشعبية .. وغيرها من جوانب التعبير الإنساني .

ولكن ما يقصد بالتراث الشعبي الشفاهي – حقيقة الأمر – هو تسجيل نوع المعرفة الشعبية المتعلقة بالخبرة البشرية التي تتناقلها الأجيال جيلاً بعد آخر ، دون أن يتم تسجيلها ، سواء ما يتعلق بجوانب الحياة المعنوية ، أو ما يتعلق بالجوانب العملية المتعلقة بالحرف والصناعات ، وذلك من منطلق تحقيق شمولية المعرفة في فهم حضارة الإنسان وأعماله التي تراكمت مع السنين ، قبل ظهور عوامل التحديث المعاصرة .

ويرجع السبب في كل هذه التأكيدات التي وردت في التعريفات الفولكلورية للجوانب الشفاهية ، إلى أن الطبقة المثقفة في المجتمع قد اعتادت أن تسجل كثيراً من المعرفة التي تملكها عن الجوانب المختلفة في عصرها كما أن المتاحف التي نشأت ، على اختلاف أنواعها ، كانت تتولى جمع الآثار التاريخية والشواهد الدالة على الحضارة . ولكن هناك نوعاً من الناس يملكون كثيراً من المعرفة الفولكلورية أو الخبرة البشرية في صدورهم ، وينقلونها من جيل إلى آخر .

وبمعنى آخر ، فقد اعتاد بعض أفراد المجتمعات في الماضي أن ينقلوا التراث من الآباء إلى الأبناء دون أن يدوّن مثل هذا التراث ؛ حرصاً على حفظ أسرار المهن والصناعات ؛ فكثيراً ما كانت تموت بعض تلك السرار بموت أصحابها ؛ كما أن غالبية الأسر والمجتمعات قديماً كانت منغلقة على نفسها ، بعكس ما هو

عليه الحال في المجتمعات المعاصرة بعد تقدم وسائل المواصلات . ولا تغيب عن الذهن ، العبارة الدارجة التي كان كثير من المهنيين يطلقونها ليبرر عدم نشرهم لصناعاتهم « هذا سرّ المهنة » .

ومع التغيرات الاجتماعية الواسعة التي طرأت على المجتمعات القديمة بعد حدوث الاكتشافات والمخترعات الآلية الحديثة ، وتغير أساليب الصناعة والإعلام والتربية والمواصلات وأساليب الحياة عامة ، فإن هذا قد أثر بدوره في طبيعة الأسرة نفسها ، وأسلوب حياتها ووسائلها ، كما اثر في طبيعة المجتمعات ، وكان له تأثيره أيضاً في طريقة حياة جميع فئات المجتمع ، من شباب وأطفال وكبار في السن ..

وما يهمنا في هذا المجال هو اختلاف طرق التعليم ونقل الثقافة من جيل إلى آخر ، حيث ظهرت المدارس ، وطرأ تغيير على طبيعة المعلومات التي أصبحت تعطي للأجيال القادمة : المتمثلة بالهوة الثقافية بين نوع المعرفة الماضية ونوع المعرفة الجديدة ، ومعنى هذا أن تلك المعرفة التي كان يمتلكها أصحاب المهن التقليدية ، وشيوخها والآباء أصبحت مهددة بالانقراض ، بعد ظهور الثقافة المعاصرة .

إن حدوث مثل هذه المتغيرات الهائلة في المجتمعات الأوربية ، وهذا الاختلاف الجذري ما بين الثقافات القديمة والثقافات المعاصرة ، مع ظهور عوامل التفتيت لجميع ألوان الثقافة الماضية – كل هذا جعل الانكباب على تسجيل ذلك التراث الأوربي وغيره المتعلق بالجوانب المادية أو الجوانب المعنوية في الحضارة الماضية ، التي تتصف بعطاء الذات ، والمهددة بالزوال .. جعل ذلك الانكباب أمراً حتمياً ؛ لأن مثل هذا التراث المادي أو المعنوي كانت تنتقل خبرته في الماضي من جيل إلى آخر ، أما الآن ، فقد اختلف الأمر : الشباب ذهبوا إلى المصانع ، والأطفال ذهبوا إلى المدارس ، وأصحاب المهن والحرف ضعفت مواردهم ، فإما أنهم اضطروا لتركها للعمل في المصانع أو أي مكان آخر ، أو أنهم أصبحوا من كبار السن الذين حفظوا هذه العلوم ومهاراتها في صدروهم ، وانزووا على أنفسهم ، أو أنهم استمروا يزاولون مهنتهم وهم يصارعون ظروف الحياة ، فيرضون

بدريهمات تكفيهم سد احتياجاتهم الضرورية .

فمن هذا المنطلق ، نفسر أحد عوامل اختلاف اهتمامات التعاريف الأوربية ، حيث أن بعضها يركز على الجوانب الشفاهية[1] لأهمية هذا النوع لحفظه في هذه المرحلة وبعضها يتطرق لشمولية المعرفة عن كل ما يتعلق بشريحة الحضارة قبل أن تطرأ عليها عوامل التحديث المعاصرة بجوانبها المادية والمعنوية معاً ، والتي تمثل تراكم خبرة الأجداد ، وهي مهددة بالزوال والانقراض .

وكان من الطبيعي أن الوسائل الهامة للحصول على المعرفة الفولكلورية هو أن نجمعها من حفظتها من المسنين ، ثم نقوم بتصنيفها جيداً ، ثم نحللها أيضاً ، لنتعرف على تفسيراتها ، ثم نصوغها بأسلوب يناسب العصر .

والعجيب في الأمر ، أن مجتمعات العالم الثالث - كما يطلق علينا - قد وصلت إلينا المعرفة الفولكلورية بأنها تقتصر على الجانب الشفاهي فيما يختص بالأدب الشعبي والأمثال والراقصات الشعبية ، وما يتعلق بأعمال السحر والتنجيم ، وليس من سبب يفسر هذه المعرفة الناقصة ، سوى حملات الغزو الفكري التي خطط لها الاستعمار ، وأهدافه في التغريب .

وهكذا نرى أن التراث الشفاهي فيه صفات ازدواجية المعنى فبعضه مختص بأمر الاهتمامات الأوربية من جهة ، وبعضها الآخر معد للتصدير[2] الفكري للعالم الثالث جهة أخرى .

الاستشراق وجمع تراثنا :

سبق لحركة الاستشراق الغربية أن اهتمت بجمع المعرفة في بلادنا عن كثير

---

(١) يدخل في باب الأدب الشفاهي موضوع الاشاعات وأثرها في المجتمع وخصوصاً في مجال الحرب النفسية بين الأطراف المتنازعة .

(٢) ارجع للعلاقة الجدلية بين المعرفة الاجتماعية كنظرية والسياسة الاستعمارية في (الباب الثاني الفصل الأول : (الأنثروبولوجيا والاستعمار) .

من الصناعات وأساليب الحياة ، أي أنها اهتمت بجميع أنواع المعرفة الثقافية ، سواء من أصحابها شفاهياً أو عن طريق الوصف أو التصوير والرسم أو جمع نماذج من الآلات والأدوات القديمة التي استخدمها إنسان حضارتنا من أجل صناعاته واحتياجاته كما اهتمت بجمع كتب التراث وأوراق البردي وقطع الأنسجة المختلفة والتحف الثمينة[1] ، كما أجرت الحفريات لدراسة مثل هذه الحضارات وجمع آثارها .

وقد ألفت الكتب حول المعلومات الاستشراقية عن الشرق ، حيث لم تترك حركة الاستشراق جانباً من جوانب الحياة إلا اهتمت به ، وخصصت له رجالاً كانوا يتبعون إدارة المستعمرات . وقد تم توزيع الأشياء التي جمعتها حملات الاستشراق ، فمنها ما كان مصيره المتاحف ، ومنها قد خصص له المكتبات المتخصصة ، فنجد أوراق البردي خصصت لها في أنحاء أوربا مكتبات خاصة لحفظها والعناية بها ، علماً بأنه تم التنافس بين دول أوربا على جمعها[2] .

وقد تم تأليف الكتب الاستشراقية عن أخبار الرحلات لبعض الدارسين الغربيين . ومن بين هؤلاء الرحالة الذين قاموا بوصف عادات الشعوب في العالم العربي والإسلامي : الرحالة بيترو إلى العراق ، والرحالة فيجرسون ، وجيمس بكنكهام - والأخيران من بريطانيا ، ووصفهم لملابس أهل العراق ، وكتابات مدام فيولا عن ملابس أهل بغداد عام ١٨٨٠[3] .. وغيرهم .

ومما يروي حول ذلك أن بعض المستشرقين استطاع أن يجمع أنواعاً من نفيس القماش ، حيث وجدها تغطي قبور أصحابها بناء على وصية لهم ، فقام بشرائها بثمن زهيد ، وكان ذلك في إحدى مناطق تركيا . وقد كانت كثير من المعلومات الهامة عن الصناعات ، تكتب على شكل مخطوطة يخبئها أصحابها في بعض أركان

---

(١) (٢) الدكتورة عائشة عبد الرحمن (تراثنا من ماضٍ وحاضر) دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٣٨٩ - ١٩٧٠م ، ص ٣٢ - ١٣٠ .

(٣) د / وليد الجادر (الأزياء الشعبية العراقية) مرجع سابق ، ص ٣٦ ، ص ١٦٢ .

منازلهم أو دكاكينهم .

والحقيقة أن ما يقصد من تسجيل التراث ، في نهاية الأمر . بجوانبه وبالوسائل المختلفة ، هو تحقيق شمولية المعرفة لحضارة من الحضارات ، خلال فترة من الفترات التاريخية ، التي هي متصلة بفترة أخرى تسبقها أو فترة أخرى تتبعها .

وفي النهاية ، فإن الدراسات الفولكلورية متصلة اتصالاً وثيقاً – كما رأينا – بالدراسات الأنثروبولوجية ، التي هي من ثمَّ تدرس حضارة الإنسان وأعماله خلال الفترات التاريخية المختلفة .

وهكذا نرى أن أعمال الإنسان وخبراته المختلفة من خلال صناعاته وأعماله ، يكمن فيها سر الحضارات ، وسر تقدمها . وكم نحن بحاجة إلى الكتابة عن تراثنا المحلي من وجهة نظرنا ، قبل أن تلحقه عوامل التفتيت المعاصرة . ويجب أن تكون هذه الكتابة ضمن خطة مرسومة تراعي الأولويات في حضارتنا الفولكلورية .

ونكون بذلك قد أوضحنا السبب الرئيسي في اهتمام بعض التعريفات الفولكلورية بالمواضع الشفاهية لتغطية الجانب الذي سينقطع التواصل فيه بين الأجيال ، بسبب عمليات التفتيت المعاصرة ، التي تأتينا عن طريق التغيرات الحضارية التي يعيشها العالم ، هذا من جهة ، وعن طريق عوامل الغزو الثقافي في الحضارة الأوربية المعاصرة وثقافتها من جهة أخرى .

الفصل الثالث

تأصيل المعرفة الفولكلورية
من أجل خدمة البناء الثقافي

وظيفة المعرفة الفولكلورية
في البناء الثقافي

حاولنا فيما سبق ، الاطلاع على الاستخدامات المتعددة في دراسة المادة الفولكلورية ، سواء في أيام الاستعمار المباشر أو غير المباشر ، أو في توظيف ذلك الفهم للعناصر الفولكلورية والمعلومات الأنثروبولوجية ، لتكون في خدمة الاستعمار ، متخذاً طريقة إحداث التغير المنشود على شكل عملية تثاقف بين ما يسمونه ثقافة بدائية والثقافة الأوربية ، أو عن طريق التنمية وإدخال التكنولوجيا خلال فترة ما يسمى بعقد التنمية ، بما يوجِّه عمليات التغير أو التثاقف لتكون في صالح أهداف الاستعمار والتغريب .

ترى ما الوظيفة التي تقوم بها المعرفة الفولكلورية في بلادنا ؟

ولكي نتفهم واقعنا الحالي عند توظيف المادة الفولكلورية في الوقت الحاضر ، لابد لنا من توضيح ناحيتين :

الناحية الأولى : وهي مفهوم الوظيفة وعلاقتها بالبناء في الأنثروبولوجيا ، لنتفهم وظيفة أي نسق أو نظام داخل مجموعة الأنظمة المتفاعلة ، داخل البناء الاجتماعي كلاً واحداً .

الناحية الثانية : وهي حالة البناء الحالي لمجتمعاتنا ، بعد حدوث تأثيرات الاستعمار المباشر وغير المباشر ، وأعمال التنمية التي كانت موجهة لصالح الاستعمار ، واستلاب أهم الفعاليات الثقافية التي تدعم شخصية المجتمع .

وسنحاول إعطاء هذين الموضوعين حقهما من الشرح والتوضيح ، ولو بشكل موجز .

لقد عرّف الأنثروبولوجيون الوظيفة الاجتماعية[1] Social function بأنها الدور الذي يلعبه الجزء في الكل ، أي النظام في البناء الاجتماعي الشامل .

والوظيفة هي الحركة الديناميكية المتمثلة في الدور الذي يلعبه كل نظام أو نسق في داخل البناء ؛ لأن البناء – إذا تصورناه بدون وظيفة – لن يكون سوى تجمع أو حشد طارىء مفكك ، ليس به هذا التساند أو الكيان الدائم الذي تحققه الوظيفة .

ولهذا فإن الوظيفة في « البناء » هي التي تحقق له ما يسمى بالتكامل الوظيفي بين أجزائه ، بحيث يفقد النسق أو البناء الاجتماعي معناه المتكامل لو انتزع منه نظام ما[2] .

فمثلاً لا يمكن للبناء الاجتماعي الإسلامي أن يحتفظ بوحدته وكيانه لو انتُزِع منه النظام الإسلامي ، أو شوّه فكره المتمثل في عقيدته وشريعته وعباداته .

وكذلك الحال بالنسبة للنظام التعليمي فإنه لا يمكن أن يقوم بوظيفته إذا طمست المعرفة الحقيقية ، أو شوهت ، أو تم استلاب العناصر الثقافية الهامة ذات الفعاليات الاجتماعية والثقافية ، وما ينطبق على وظيفة الدين ، ووظيفة التعليم ، ينطبق أيضاً على وظيفة المعرفة الفولكلورية في حال تشويه وظيفة المعرفة فيها ، لكي تصبح في صالح الاستعمار أكثر من صالح المجتمع ، فتوظّف من أجل تحقيق غاياته أكثر من أهداف المجتمع وغاياته .

لذلك اتجه الأنثروبولوجيون لدراسة المجتمعات البدائية دراسة مركزة Intensive تشمل كل أنساق المجتمع ونظمه ومختلف نشاطاته ، كوحدة واحدة لا يمكن فهم أي نسق أو نظام به بعيداً عن البناء الكلي الشامل ، ومن ثمَّ مقارنة ذلك بواقع مجتمعات أخرى على ضوء فهم نظمها ووظيفة هذه النظم داخل البناء الاجتماعي .

---

(١) (٢) د / زكي محمد إسماعيل (الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي) ص ٢٤٠٠

الاختلاف في وظائف الأنظمة :

ومن هذا المنطلق السابق فقد وجد الأنثروبولوجيون أن نظاماً معيناً كان له وظيفة اجتماعية في مجتمع ما ، تختلف عن وظيفته في مجتمع آخر داخل بنائه المتكامل[1] ، كما هو الحال في دراسة مالينوفسكي لوظيفة السحر في جزء التروبرياند في المحيط الهادي ، حيث يقوم ساحر الحديقة مستغلاً السحر في دور إيجابي لتنشيط عملية الإنتاج ، بعكس ما هو عليه الحال في وظيفة السحر بالنسبة لمجتمعات أخرى . وإن مثل هذا الاختلاف بالنسبة لدور الرقص نجده في دراسة (رادكليف براون) للمفهوم الوظيفي للواقع الاجتماعي لسكان جزر الأندمان في المحيط الهندي ، حيث خرج راد كليف براون من دراسته ، بأن وظيفة الرقص لا تتمثل في أنه وسيلة للعب أو الترفيه ، كما يبدو لأول وهلة ، بل كان يساهم بوظيفة اجتماعية في بقاء المجتمع ككل[2] .

ومن هنا ، اهتم العلماء بدراسة الوحدة الوظيفية ، أو التماسك الداخلي ، للأنظمة الاجتماعية ، داخل وحدة وظيفية متكاملة .

فالوظيفة ، في رأي العلماء ، هي مساهمة النشاط الجزئي في النشاط الكلي . فوظيفة أي نظام أو نسق اجتماعي هي ما تساهم به هذه القاعدة في الحياة الاجتماعية كلها ، باعتبارها عملية وظيفية للنسق الاجتماعي كله .

و(الوحدة الوظيفية) تعرَّف بأنها : الوضع الذي يتميز بعمل كل أجزاء النسق الاجتماعي معاً ، مع الاحتفاظ بدرجة كافية من الانسجام أو التماسك الداخلي ، أي دون أن يوجد صراع لا يمكن حله أو تنظيمه ، على اعتبار أن الصراع المنظم يعتبر ظاهرة هامة في كل نسق اجتماعي .

---

(١) د / عبد الحميد لطفي (الانثروبولوجيا الاجتماعية) ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(٢) المرجع السابق ، ١٨١ .

البناء الاجتماعي في المجتمعات العربية بعد فترة عقد التنمية :

لقد عملت مرحلة الاستعمار المباشر ، أو مرحلة التنمية ، على التأثير في كثير من الأنظمة في بعض المجتمعات العربية ، التي رزحت تحت نير الاستعمار ، فعملت على تغيير وظائفها بما يحقق الأغراض الاستعمارية ، ويشوه معالم شخصيتها ، ويطمس المعرفة الحقيقية في مسيرتها نحو التنمية الحقيقية ، أو يحافظ على تقولب المعرفة فيها بما يخلق حالة الجمود في وظيفتها .

ومن الجدير بالذكر ، أن ما يحدث في أي بلد عربي ، ليس بمنفصل عما يحدث في بلد عربي آخر .

لقد عمل الاستعمار على تغيير وظيفة الجهاز التعليمي ، ووظيفة الجهاز الديني ، بالإضافة إلى وظيفة نظام التجارة والصناعة والزراعة والاقتصاد ، في البلد الواحد[1] ، أو بين الأقطار العربية . كما غيَّر نظام المواصلات والاتصالات ووسائلها بما يحقق التبعية الاقتصادية له ويزول بذلك ما كان متحققاً من تكامل اقتصادي بين أنحاء العالم العربي والإسلامي . كما استغل الدراسات الفولكلورية ، وشوَّه وظيفتها ، وكذلك فقد غير من وظائف القوانين المتعلقة بالأنساق والأنظمة التي ذكرناها .

إن تشويه أنظمة المجتمع بزراعة أنظمة ومبادئ أخرى ، يعَدُّ بحد ذاته تخريباً في الوظائف العضوية لأنظمة المجتمع ، بحيث تصبح شخصية المجتمع كحال مشية الحمامة التي أعجبتها مشية الطاوس فقلدتها ، فنسيت مشيتها ، ولم تتقِنْ مشية الحمامة ، فلم تعد تعرف على أي قدم تسير ..

والرأسمالية : بحد ذاتها ، بأنظمتها المادية ، تمتد إلى كثير من جوانب المجتمع ، فتعمل على تفتيت كل شيء قديم ، وقد لمس مفكرو الغرب هذه

---

(١) د / وجيه كوثراني (بلاد الشام) مرجع سابق ، ص ٣١٠ وما بعدها .

العملية ، عندما عايشوا المتغيرات التي حدثت في مجتمعهم وأنظمته ، التي كانت عليها أوربا في القرون الوسطى . سواء أكان ذلك على المستوى الاجتماعي ، كالأسرة والمجتمع المحلي والعادات والقوانين وفردية الإنسان ، أم على المستوى الثقافي والاقتصادي ، كدخول عوامل التجارة إلى النسق الثقافي ، وعدم الأخذ بالقيم الأخلاقية السابقة . كان كل ذلك نتيجة عقلانية التنظيمات الاقتصادية والإدارية ودخول الآلية الحديثة ، على حساب المفاهيم الاجتماعية السابقة ، التي كانت تعيشها المجتمعات في القرون الوسطى .

ونتيجة تأثيرات الرأسمالية العالمية في مجتمعاتنا . كان من الطبيعى أن تنشأ المتاحف الفولكلورية والمكتبات التراثية ، بعد تلك المتغيرات التي طرأت على مجتمعاتنا ؛ نتيجة التطور التكنولوجي والتعليمي والعمراني والإعلامي ، ودخول الآلية الحديثة ، وما يتضمن كل ذلك من عوامل التغريب .

وكانت هناك حركة علمية فولكلورية في عدة أنحاء من البلاد العربية . ولكن قضيتها مثل قضية الفن فهي بدون قاعدة علمية توظيفية سليمة تنسجم مع قيم المجتمع وعقيدته .

أخطاء تعاملنا مع تراثنا الفولكلوري :

لقد اعتدنا أن نتناول الكثير من العناصر الفولكلورية ، دون قاعدة علمية أنثروبولوجية ، تحدد وظيفة أي ظاهرة فولكلورية داخل علاقتها بالأنظمة والأنساق الأخرى في المجتمع . فسواء في مجال الصناعة أو في مجال الفن أو التعليم ، فإننا لا نعمل على التوفيق بين قيمنا في الماضي في النواحي الدينية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، على ضوء المتغيرات الحديثة .

إننا نعرض التراث الفولكلوري ، سواء في المتاحف أو المهرجانات والمناسبات والاحتفالات ، ونقتصر على وظيفة كونه مظهراً نادراً ، أو لتحقيق المتعة والترويح ، أو لإشباع الحنين إلى الماضي ، أو لإثارة الاندهاش والغرابة ، أو لتحقيق

الربح المادي الشخصي من هذا العرض ، مع تشويه هذا التراث وكلها أعمال تدل على امتهاننا لتراثنا ، وعدم توظيفه الوظيفة السليمة لكي يؤدي غرضه .

إن من واجبنا أن نتجاوز مثل هذه الأساليب ، بعد دراسة فولكلورنا دراسة أنثروبولوجية ، لأنه يمثل الشريحة الحضارية الماضية لما كان عليه بناؤنا الحضاري في الماضي ، من عطاء الذات الإنسانية .

ومن واجبنا أيضاً – بعد أن قامت الحضارة الأوربية المعاصرة ، بتأثيراتها ، بتفتيت التراث وهدمه واستلاب كنوزه – أن تعمل على تسجيل هذا التراث وفق رؤيتنا ، والاحتفاظ به وفق الطرق العلمية الأنثروبولوجية ، وحفظه من التلف والضياع ، لأنه يمثل ماضينا الحضاري بكل تراكماته الثقافية الحضارية عبر السنين التاريخية الطويلة ، من خلال عطاء الذات ، بعكس ما هي عليه المتغيرات الثقافية الجديدة ذات الهوة الواسعة بين ماضينا وحاضرنا ؛ أي ماضي الثقافة بشكل عام مع حاضرها .

كما أن من واجبنا أن نتجاوز مسألة عرض التراث الذي يدل على بدائية التفكير ، وعلى عدم إعطاء تراثنا حقه من الاستفادة منه ، ومن حكمته وكنوزه . ومن المؤسف أن تكون أعمالنا مساهمة أخرى في سلب المعرفة لصالح الحضارة الأوربية ، وتصديرها للمتاحف الغربية ومكتباتها ، لتستخدم لحسابها ، فيكون تراثنا – على أكبر تقدير – كالصندوق الذي يحتوي العناصر الثمينة ، ترجع إليه الصناعة الأوربية فتخرج منه ما تشاء ، وتأخذ بعض عناصره وتصبغها بالأيديولوجية الغربية ، ليصدر إلينا على شكل موضات غربية تراثية ، كما يحدث مثلاً بالنسبة للملابسنا التراثية واستخداماتها لصالح الموضات الغربية .

ويجب علينا أيضاً أن نتخلى عن استخدامه في مشاريع استهلاكية ، لتزجية الوقت وللمتعة والترفيه ، أو الاستهانة به عند تطويره ؛ فنستهين بالقيم التي كان عليها المجتمع في الماضي عندما صنع هذه الحضارة إن موقفنا ، بذلك ، لا يختلف عن موقف الحضارة الغربية من عناصر تراثنا الفولكلوري ، فهو حينئذ ، أشبه

بالعقد الذي انفرطت لآلئه ، وتؤخذ حباته لتوظف توظيفاً جديداً يحقق مصالح الحضارة الغربية وتبعيتنا لها .

وعندما نقول كلمة التراث ، فإننا نقصد بها كل ما صنعه إنسان حضارتنا عبر تراكمات السنين الطويلة ، من تراث فكري وعملي ، يتضمن أيضاً جوانب فكرية فيه ، كما أنه ليس كل ما في تراثنا يستحق التقدير والتمجيد ، إن منه ما يستحق أن يكون فقط في مكتبات ومتاحف التاريخ ، ولا تقتصر العملية على الوقوف على ما في تراثنا من جوانب فكرية وعملية وأخلاقية في صنع الحضارة ، بل لابد لنا من دراسة الواقع المعاصر دراسة واعية عميقة وشمولية .

إن المذهب الوظيفي في الأنثروبولوجيا المعاصرة ، يعتبر أن أي حضارة هي كلٌّ وظيفي متكامل ، وهي أشبه ما تكون بالكائن العضوي ، ولا يمكن فهم أي جزء من هذا الكل إلا في ضوء صلته بالكل نفسه ؛ فوظيفة أي نموذج حضاري في النظام الاجتماعي ، أو النسق الاجتماعي ، ككل ، هي التي تفسر وتوضح حقيقته[1] .

إن عرضنا الحالي لتراثنا الفولكلوري ، واستخداماتنا له ، بدون قاعدة علمية منظمة ومشاريع توظيفية ، يذهب إلى مجالين أو وظيفتين :

المجال الأول : لتستفيد منه مكتبات الفولكلور في أوربا ومعارضها ومتاحفها ، لحرصها على جمع النواحي الثقافية والفولكلورية في حضارات العالم أجمع ، وخصوصاً كل ما يتعلق بالتراث الفكري والصناعي والفني للحضارة الإسلامية . وإن حرصها هذا لا يأتي من أجل خدمتنا فيما يساعدنا على بناء حاضرنا ومجالاته ، ولكن رغبة في اقتناء الدول الأوربية المتقدمة صناعياً لهذه المعروضات ، ولتحقيق مزيد من المعرفة الفولكلورية والأنثروبولوجية عن مجتمعاتنا ، ومن أجل أن تدعم به تصديرها الفني والتجاري والصناعي ، وكل ما يتعلق بالحضارة ، بعد امتلاكها

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٣ .

لأسرار المعرفة . وإن مثل هذا يؤدي إلى مزيد من اندثار أسباب قوتنا وملامح شخصيتنا ، وخاصة عندما نبقى من الأمم المستهلكة غير المنتجة لاحتياجاتها التي تقبع في أماكن الضعف .

المجال الثاني : إن طريقة عرضنا لفولكلورنا أحياناً لا تتعدى وظيفة تحقيق الربح المادي الآني والتجاري أو الإعلامي ومن خلال هذا العرض الذي لا يبني على قاعدة علمية راسخة ، فإننا نسيء لفولكلورنا عندما نشوه معالمه ، ونخلط بين عرض النواحي الجيدة من الفولكلور ، وبين الفاسد منه والمريض ، وما يتعلق بجهل المعرفة كأعمال السحر والخرافات والأساطير والتنجيم وسفاسف القول وبذيئه ، أو الساقط من الفن كالتعري وما شابه . إن مثل هذا يساهم في إعاقة حركة تقدمنا ، ويكسر قاعدة الحلال والحرام المتوجب على المجتمع أن يحترمها .

إن كلا المجالين لا يحقق الفائدة المرجوة لمجتمعاتنا ، بل إن المستفيد الوحيد هو الأجنبي الذي يروج لضعفنا ، ويسعى نحوه ، لإخراجنا من ديننا وثقافتنا الإسلامية ، كما يزيد من سلب المعرفة بإلهائنا بالعلوم والفنون التي تبعدنا عن التقدم الصناعي الحقيقي ، بسبب إساءة توظيف تراثنا .

وفي نهاية هذه الوقفة لابد لنا من حركة فولكلورية أنثروبولوجية ، تقوم على قاعدة علمية سليمة ، لا تفصل الروابط القائمة بين الأشياء في الجوانب الحضارية للمجتمع ، مثل قيمه وعقائده وتربيته واقتصاده وثقافته ، ونظمه الاجتماعية التي تتعاون فيما بينها على تكوين شخصيته .

إن الوظيفة الأساسية من دراستنا لفولكلورنا ، هي الوعي به والإحاطة خاصة بالعناصر الهامة فيه ، ومن ثم النظرة إليه نظرة شمولية ؛ لنأخذ العبرة من صنيعتنا في الماضي من أجل توظيفه في بناء حاضرنا ومستقبلنا الحضاري توظيفاً علمياً ، على ضوء تقدم علم الأنثروبولوجيا في خدمة الإنسان وحضارته .

ضرورة تصحيح تعاملنا
مع تراثنا الفولكلوري

تكلمنا فيما سبق عن مسألة التصدير الاستعماري للمفاهيم الفولكلورية التي تعمل على تشويه المعرفة الحقيقية عن جوانب الفولكلور في حضارتنا السابقة وأرجعنا السبب للعلاقة الجدلية بين المعرفة الاجتماعية كنظرية وبين السياسة الاستعمارية كواقع مجتمعي تاريخي ، ثم قمنا بالتأكيد على أهمية الصناعات الفولكلورية على أنها سر الحضارات ، وأن ما تمر به من ظروف يرجع لطبيعة العصر ومتغيراته ، كما قمنا بالاسترشاد بما جاء في تراثنا حول مفهوم الحضارة الكاملة بأنها مجتمعة من صنائع ، وكذلك بما أطلق على العلوم النظرية اسم صناعات ، كما جاء في تراثنا الاجتماعي في فكر ابن خلدون .

ولكي ننظر إلى تراثنا الفولكلوري نظرة شاملة ومتكاملة ، فإننا نقوم بمحاولة الاسترشاد بالطريقة المتبعة في تراثنا المذكور فنقوم بتقسيمه إلى نوعين من الصناعات : أولهما الصناعات العلمية الفولكلورية (الكتابية) .

وثانيهما : الصناعة العملية الفولكلورية (اليدوية) .

صناعاتنا العلمية الفولكلورية :

إن أعمال الكتابة والفكر هي من أسس الحضارة والتقدم ، إذا أحسن الإنسان استخدامها ، وهي تشمل العلوم المختلفة التي تزيد الإنسان ذكاءً في عقله ، وإضاءة في فكره ، بكثرة الملكات في التعليم والصنائع .

ونجد في مقدمة ابن خلدون شرحاً وافياً عن تقسيم احتياجات الإنسان إلى صنائع ضرورية وغير ضرورية . والعلوم الكتابيةهي من أبرز الصنائع الحضارية ، فبعضها مقصود لذاته ، وبعضها الآخر آلي لغيره وبشكل عام ، فإن في تقسيم

ابن خلدون للصنائع ، وما تتضمن من علوم وفنون وصناعات ، ما يغنينا عن التقسيم التقليدي للعلوم والفنون الأوربية ، الذي يضر بفكرنا ، والذي نجد بعضاً من مظاهره في تقسيم العلوم التي يؤخذ بها في مكتباتنا ، أو تقسيم الفنون في العلوم الحديثة حيث إن التقسيم التقليدي للفنون الحديثة يقسمها إلى فنون جميلة وفنون صناعية .

وإذا أخذنا بالتعريف الذي سبق لنا اعتماده عن فولكلورنا ، بأنه يمثل شريحة الحضارة التي كنا عليها قبل عملية التحديث المعاصرة ، نجد أن الاستعمار قد قام في مجال « الأنثروبولوجيا التطبيقية » باستخدام هذا العلم في تسجيل ما كانت عليه مجتمعاتنا ، لكي يحيط علماً بوضع مجتمعاتنا من جميع النواحي ، ليتمكن من التحكم في دفة التغير الاجتماعي التي أقبلت عليها مجتمعاتنا كإقبال جميع دول العالم ، بعد حدوث الثورات العلمية والتكنولوجية المعاصرة ، ولتكون هذه المتغيرات محققة أهدافه وغاياته على حساب أهدافنا وغاياتنا .

ولقد قام الاستعمار بدراسة وضعنا خلال هذه الفترة ، من خلال الواقع العملي الاجتماعي الذي كان عليه المجتمع ، فقد درس جوانب فكرنا من مزايا وعيوب ، وأمزجتنا وعقائدنا وديننا وتقاليدنا ولغتنا ولهجاتنا وتراثنا الشفوي ومأثوراتنا الشعبية .

وهكذا درس الغرب من خلال فولكلورنا الشعبي كل ما يحيطهم معرفة بمجتمعنا من جوانب اقتصادية وثقافية واجتماعية ، مع دراساتهم الأنثروبولوجية لأنساق المجتمع ، وتعمقوا في الجانب الاقتصادي الهام في حضارتنا فيما يسمى (بالأنثروبولوجيا الاقتصادية) ، كما درسوا أنظمتنا التعليمية والسياسية والتربوية ، وغيرها عن طريق فروع الأنثروبولوجيا ؛ درسوا كل ذلك ، ودرسوا معه نقاط ضعف أنظمتنا وجوانب قوتها ، لكي يجهزوا عليها ، كما تعرفوا على عقليتنا من خلال ذلك .

أي أنه لم يكن كل ما يحويه فولكلورنا من ثقافة وصناعات انتظمت على

شكل علاقات داخل أنظمة ؛ لم تكن كلها تستحق الاحترام والتقدير ؛ فإلى جانب ما كان في هذه الثقافة من قيم فكرية وعناصر فولكلورية جيدة ، كان في بعضها ما يدل على الجمود الفكري الذي أساء لمسيرة تقدمنا الحضارية الجديدة ، التي أقبلنا عليها مثل إقبال العالم أجمع على تلك المتغيرات .

وقد تابع الاستعمار عملية التثاقف بين ثقافته الأوربية الغازية وبين ثقافتنا الفولكلورية التي كنا عليها ، فقام من خلال ذلك بالتحكم في عمليات التغير وفق ما تمليه مصلحته الاستعمارية . وكذلك الحال عند استيرادنا للتكنولوجيا وتطبيقاتها لما يسمى بأنثروبولوجيا التنمية ، التي أشرنا إليها ، وما داخل هذه العملية من أغراض استعمارية لاحتواء وتفتيت معالم شخصيتنا الحضارية .

صناعاتنا العملية الفولكلورية

إذا أخذنا بالتعريف الذي سبق أن اعتمدناه عن الدراسات الفولكلورية ، من أنها تمثل دراسة شريحة الحضارة الماضية للثقافات أو الحضارات البشرية المختلفة ، التي سبقت مرحلة التحديث المعاصرة .. فمن هذا المنطلق تأتي دراسة فولكلور حضارتنا . والحديث ذو شجون عن واقع حال صناعاتنا الفولكلورية التي تصارع موتها وهي ما تزال تستصرخ خوفاً من الضياع والاندثار ، وهي تقاوم عوامل التفتيت المعاصرة لحضارتنا ، مثل طغيان التكنولوجيا المعاصرة ، أو بسبب سياسته واتجاهات الرأسمالية العالمية ، التي أخذت تصيب بالوهن ممارسات الاكتفاء الذاتي والاعتماد على النفس لدى الجماعات البشرية ، حيث كانت مثل هذه الممارسات تشكل الدعامة للروح التقليدية للجماعات البشرية قبل عملية التحديث الأوربية المعاصرة ، وكذلك ممارسات اغتراب الاحتواء بسلب المعرفة بالذات الحقيقية .

وهذا ما يفسر به (نزيت) Neset أسباب الحرمان الوجداني في العلاقات الإنسانية ، حيث أن تجريد البيئات الثقافية والاجتماعية من الصفة الشخصية يشكل أكبر عوامل قيام هذا الحرمان[1] .

---

(١) د / السيد علي شتا (نظرية الأغتراب من منظور علم الاجتماع) ص ١٧٦ .

إن عوامل التفتيت المعاصرة التي جاءت مع المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية الحديثة ، التي أصبحت تعيشها مجتمعاتنا ، أخذت تؤثر في أنظمتنا الفولكلورية العمرانية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية الحديثة ، فنجد أن المهن القديمة التي كانت بارزة في شواهد حضارتنا الفولكلورية في الأحياء القديمة أو الأسواق القديمة ، كلها تستصرخنا الدعم ؛ خوفاً من الموت والاندثار والضياع .

ومن الجدير بالذكر أن هذه الصناعات تمثل تراكمات الثقافة الماضية عبر السنين ، وتمثل ذاتية الإنسان وإرادته الفردية ؛ أي تمثل عطاء النفس ، بعكس ما هي عليه الحال في الصناعات التكنولوجية الحديثة . كما أنها تمثل فولكلورنا الإسلامي الذي يتصل بفنوننا الإسلامية ، لأنها اصطبغت بصبغته وأخلاقياته في مختلف البلاد العربية والإسلامية ، وتمثل أيضاً عطاء بيئتنا الحضاري والعلاقات التجارية التي كانت عليها حضارتنا ، وتمثل اكتفاءنا الذاتي في صنع احتياجاتنا ، وهي مرتبطة بعاداتنا وتقاليدنا التي كنا عليها ، ووسائلنا الحضارية التي كنا نستخدمها ، أي إن كل صناعة من هذه الصناعات مرتبطة بجوانب فكرية ثقافية ، وجوانب اجتماعية واقتصادية ، تصطبغ بسمات شخصيتنا الحضارية ، التي أصبح بينها وبين الثقافة المادية المعاصرة فجوة ثقافية كبيرة ، بحيث تختلف كل منهما في معطياتها .

إن كل صناعة فولكلورية من هذه الصناعات تتعدد ألوانها وخبراتها مع تعدد الأخطار الإسلامية وتعدد ثقافاتها ، وهي مرتبطة مع ذلك ، بخيوط مشتركة تجعلها تجتمع ضمن نسيج واحد ، يمثل الثقافة الإسلامية ، وما نشأ عنها من عادات واحدة تقريباً ومترابطة .

وكما ذكر ابن خلدون في مقدمته فإن بعض الصناعات تشتهر في بلد أكثر من بلد آخر ، فنجد مثلاً أن القماش الموصلي ينسب إلى الموصل لشهرتها فيه ، وكذلك الحال فيما ينطبق على صناعة غذائية أخرى .. وهكذا .

ومن أمثلة هذه الصناعات صناعة المعادن والحديد والخزف ، وصناعة الأنسجة الشعبية ، وصناعة الملابس الشعبية والحياكة ، وصناعة الأثاث المنزلي ، وصناعة

البسط والسجاد ، وصناعة الخشب والحفر عليه ، وصناعة البناء والعمران وتخطيط المدن ، وما يرتبط بجميع هذه الصناعات السابقة من فنون زخرفية ، بالإضافة إلى صناعة الذهب والفخار ، وصناعة العطور ، وما كانت عليه الصناعات الغذائية والزراعية وصناعة الجلود . وإن أغلب هذه الصناعات أصبحت مصطبغة بصبغة الإسلام ومرتبطة بتعاليمه . ويدخل في باب الصناعات العملية عند ابن خلدون الصناعات التي تدعو إليها عوائد الترف في المدينة ، مثل قرع الطبول وتعليم الطيور .. والحمر الإنسية ، وتخيل أشياء من العجائب ، والمشي على الخيوط[١] وتعليم الغناء والرقص ، اللذين يختلفان عن الرقص الشعبي والغناء الشعبي ، وحاجة المجتمع إليهما .

ومن المؤلم جداً ، أن نرى بعض الصناعات الحضارية التي اشتهر بها بعض أقطار العالم العربي ، تكاد تموت ، لاعتمادنا على اليد الأجنبية والشركات الأجنبية مثل صناعة الحَفْر على النحاس أو الخشب أو الفنون التي تتعلق بالمعادن ، علماً بأن ابن خلدون بين لنا في مقدمته سبب اجتهاد الناس في تعلم مثل هذه الصناعات ، وهو الطلب عليها ، كما يعتبر الدولة هي السوق الأعظم[٢] لهذه الصناعات .

وإننا قد نجد بعض أخبار هذه الصناعات في تراثنا الكتابي الفكري ، أي بين دفات الكتب سواء في مكتباتنا أو داخل الكتب التي أخذها المستشرقون إلى مكتبات أوربا . أما شواهدها فهي موجودة في المتاحف الأثرية بشكل عام ، والمتاحف الإسلامية في أقطار أوربا وأمريكا بشكل خاص .

وقد أوضح ابن خلدون في مقدمته عن حديثه عن علم الاجتماع البشري ، كثيراً من مسائل الفعاليات الثقافية التي تفيد في تعلم هذه الصناعات وأخذها عن شيوخها ، مثل الرحلة في طلب العلم .

---

(١) مقدمة ابن خلدون (فصل الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري) دار العودة ص ٣١٨ .

(٢) المقدمة ، (فصل الصنائع إنما تستجاد وتكثر) ص ٠٣٢ .

كيف واجهنا تيار التغريب

كانت أمتنا عندما تتعرض في السابق لأي عدوان خارجي مباشر ، تجمِّع قواها ، وتقوم بإصلاح جبهتها الداخلية ، فتصحح الوظيفة الاجتماعية لأنساقها ، وتطهر صفوفها من عوامل الضعف ؛ لكي يعمل جسم الأمة كله على مجابهة الخطر الذي كان يترقب مداهمة معاقلها .

ولكن الأمر يختلف في هذا النوع من الاستعمار الحديث غير المباشر ، الذي أصبح يعرف دقائق عيوبنا ونقاط قوتنا ، وكانت له عيون تسهر على تحقيق مصالحه ، وجنود يتسترون باسم العلم والإنجاز الحضاري من أجل تحقيق مهامه .

فالموقف الآن مختلف ، والأمور تجري بشكل آخر ؛ العدو قد استعمر البلاد فترةً من الفترات ، وترك بصماته على جميع مرافق المجتمع ؛ قبل أن يغادرها ؛ لتستمر الأمور تجري وفق رغباته فقد عمل على سلب المعرفة ، وطمس الفعاليات الثقافية وحصارها ، وتغيير وظائف الأنساق والأجهزة ، وتفكك عراها ، وانغلاقها على نفسها ؛ لكي يظل المجتمع يحتاج إلى الحضارة الأوربية ومعطياتها .

فعند بدء دخول الحضارة الغربية إلى العالم العربي والإسلامي ، كان هناك تيار مرتبط بالتراث ارتباطاً تقليدياً من جهة ، ومن جهة أخرى أدار ظهره لمعارف الغرب وحضارته ، فقد ظل يغلق عقله وقلبه دون الحضارة الأوربية ، وعندما أغرته الحياة المادية بالاستمتاع « بأدواتها وسلعها » أقبل على الأدوات والسلع ، في حين استمر عقله وقلبه غريبَيْن عن جوهر هذه الحضارة وثمرات علومها ومعارفها ؛ لأن عقله وقلبه قد ظلا في محبس العصور المظلمة ، عصور الانحطاط ، والركاكة ، والجمود[1] .

فمثلاً كانت هناك دعوة لتقنين « فقه المعاملات » الإسلامي ليكون قانوناً

(١) د / محمد عمارة (:التراث ضوء العقل) ص ٨ -٩ .

وتشريعاً للدولة الحديثة ، فوجدت هذه الدعوة مقاومة وجموداً فكرياً ، وتم رفض تقنين الفقه ، فكان المجتمع مضطراً إلى الأخذ بترجمة القانون الفرنسي[1] ، واعتماد العمل به ، وأصبح القانون الغربي ، بوجه عام ، المصدر الذي نستلهمه بدءاً من تركيا فمصر – من ذلك التاريخ ، وانسلخت أمتنا عن قَسمة من قَسَمَات حضارتها وتراثها ، وحرمت من إيجابيات في تراثها القانوني ، ربما كانت – لو طُور هذا التراث وقُنِّن – أكثر تقدماً ، في كثير من المجالات .

وهكذا احتل التراث القانوني الغربي عقلنا التشريعي ، مثلما احتلت جيوش الغزو قواعدنا ، والشركات الرأسمالية مواردنا الاقتصادية سواء بسواء[2] .

وكان الغرب سعيداً بجمود المؤسسات الفكرية التقليدية ؛ مما نفر المحدثين من تراثهم وحضارتهم ، فأخذوا يعملون على نشر حضارة الغرب وفكرها وثقافتها وذوقها وفنها وأدبها ، ونمط المعيشة ، وأسلوب الحياة في ربوع بلادهم ، الأمر الذي يجعل من بلادنا هامشاً حضارياً لأوربا ، كما قد أصبحت قواعد لأمنه وهامشاً تابعاً لاقتصاده ، وفي ذلك تأييد للنهب الاستعماري ، الذي هو اللب والجوهر من وراء سعي الاستعمار للسيطرة على هذه البلاد .

وبالتأكيد هناك مناهج عقلية في تراثنا ، قادرة على غربلة تيار التغريب واختباره ، مثل « منهج اليقين » المؤسس على الشك الذي دعا إليه الجاحظ ، فاعتبر « الشك المنهجي » هو أداة للتيقن ، وليس مانعاً للإيمان ، بل يراه السبيل الدائم لاختبار الفروض ، والانتقال منها إلى ما هو يقين[3] وبالتالي ، ففي ضوء الأصول التي لا يمكن الاعتداء عليها ولا على النصوص ، يمكن التجريب وفهم اختلاف البيئات والوصول إلى قوانين معتمدة على الكتاب والسنة وتحقق مقاصد الشريعة وتحافظ على قواعدها ، بدلاً من الجمود والتحجر .

(١) المرجع السابق ، ص٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص٧ .
(٣) المرجع نفسه ، ص ١٥ .

أضواء على الرؤية المعاصرة لتراثنا الفولكلوري

ليس من شك في وجود نهضة فكرية ثقافية تتحسس مشكلات ثقافتنا وتراثنا والعمل للرجوع إليه لامتلاك ذاتنا الحضارية على ضوء معرفة ماضينا ، لكي تساعد مثل هذه المعرفة على الوقوف على نقاط القوة والضعف في حاضرنا لتصحيح وتقويم مسيرتنا الثقافية ، لكي تصبح جهودنا محققة أهداف الوصول ، إلا أننا بحاجة لاستجماع قوة مادية ومعنوية أكبر لتكريسها لعمل يتناسب مع حجم المسؤولية الملقاة على عاتقنا في هذا الزمن المتسارع في خطاه ومتغيراته .

إن من الحقائق الهامة التي يجب أن نعيها ، بعد أن تم الوقوف عليها فيما يتعلق بتراثنا :

أولاً : العلاقة بين الأدب العامي والأدب الفصيح ، التي تستند إلى أطر منهجية ونظرية عربية الوجه واللسان والمنشأ والتاريخ ، تتناسب مع واقع أدبنا وسياقه التاريخي والحضاري وذلك فى مجال الدراسات الشعبية[1] .

إن الأدب الفصيح والأدب العامي عاشا جنباً إلى جنب منذ صدر الإسلام مروراً بالعصر الذهبي ، عصر ازدهار العربية وآدابها ، ثم المرحلة التي سميت بعصر الانحطاط ، أو أحلك عصور العربية . لكن مع ذلك لم تتغلب العاميات على الفصحى و لم تقض عليها ؛ لأن القرآن الكريم نزل بها وضمن لها القدسية والخلود والدرجة العالية الرفيعة ، بل ازدهر الأدب الشعبي إلى جانب الأدب الفصيح وأصبحا متداخلين متشابكين في مفهوميهما وفي مادتيهما ، ولا يمكن النظر إلى أحدهما بمعزل من الآخر ، أو اعتبار أن أيا منهما يشكل خطرا على الآخر .

---

(١) د / سعد الصويان (محاولة أولية نحو تحديد مفهوم عربي للمأثور الشعبي) جريدة الجزيرة ، عدد ٥٢٨٧ ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

وفي مقدمة لكتاب الدكتور عبد الله العتيبي (دراسات في الشعر الشعبي الكويتي) يقول الدكتور محمد رجب النجار[1] . « إن الأدب الشعبي – شئنا أم أبينا – جزء ضخم من تراثنا الثقافي والأدبي ، ومتمم له ، به تكتمل دائرة هذا التراث ، وبه تكتمل دائرة البحث الأدبي ؛ ذلك أنه لا يمكن فصله ، في دراسة الآداب القومية ، عن دراسة الأدب المكتوب . لقد كان – ولا يزال – هذا التفاعل الخلاق قائماً بين الأدبين على مر العصور » .

كما يؤكد الدكتور العتيبي أن الأدب الشعبي يقوم بإثراء التراث العربي حيث لا يقل في أهميته وفعاليته عن الشعر الفصيح بل يغنيه ويثريه عمقاً وتأصيلاً ، وذلك لما للأدب الشعبي بحكم تكوينه ومجال انطلاقه وممارساته من مقدرة فعالة في تغطية الجوانب الدقيقة لحياة المجتمع وعلاقاته الخاصة التي تقف عند حدود الأدب الفصيح دون التغلغل في تصويرها . وحينما يعاني الأدب الفصيح من الفراغ الإبداعي في عصور الانحطاط ، فإن الشعوب العربية تقصي إلى القرار العميق من وعيها الأدب الفصيح وتلجأ إلى أدبها الشعبي .

ثانياً : أقسام العناصر الفولكلورية : (الفرق بين التراث والمأثورات) :

يرى علماؤنا المعاصرون أن التراث الشعبي يشكل جزءاً لا يتجزأ من التراث العربي المدون ، غير أن هذا التراث الشعبي ينقسم بدوره إلى قسمين كبيرين أحدهما لا يزال يقوم بوظائفه الحيوية الفكرية والنفسية والجمالية ، حياً فاعلاً ومؤثراً في بنية الفكر العربي ، وهذا هو ما يسميه علماء الفولكلور « بالمأثورات الشعبية » ، وثانيهما هو هذا الجزء من المادة أو العناصر الفولكلورية التي تحجرت أو توقفت وظائفها منذ زمن بعيد ، وتحولت إلى مجرد « رواسب ثقافية » احتفظت بها كتب التراث العربي أو متاحفه ، ولم تعد لها من قيمة سوى قيمتها التاريخية ، وأطلق عليها التراثيون العرب كالنويري والقلقشندي مصطلح « الأوابد » على

(١) نقلاً عن د / سعد الصويان (نحو تحديد مفهوم عربي للمأثور الشعبي) جريدة الرياض ، العدد ٦٨٤٧ ، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

حين يطلق عليه الفولكلوريون المعاصرون مصطلح (التراث الشعبي)[1] . فالعناصر الفولكلورية في التراث الشعبي ينقسم إذن إلى (مأثورات شعبية) لا تزال حية فاعلة ، والرواسب الثقافية (الأوابد) . وبمعنى آخر فإن « التراث الشعبي » هو المصطلح المعاصر الأوسع الذي يمكنه أن يتضمن المادة أو العناصر الفولكلورية بقسميها : ١ - الحية « المأثورات » ٢ - غير الحية « الأوابد » .

وقد نشطت أعمال التراثيين العرب إبان عصر الجمع والتدوين حيث جمعوا المادة الشعبية الحية الفاعلة منها ، وهي الذائعة بين العوام أو في ذلك العهد .

مثال : أغنية لأم عربية قد اندثرت مفهوم كلماتها مثل : بابا وشبا ، وعاشا حتى دبّا .. إلخ وهذا عكس ما هو عليه الحال في أغنية (طلع البدر علينا) الذائعة والرائعة والتي كانت نساء المدينة يتغنين بها على أنغام الدفوف في استقبال الرسول ﷺ عند هجرته إلى المدينة[2] ، ومطلعها :

طلـــع البــــدر علينـــــا مــــن ثنيــــات الـــــوداع
وجب الشكــــــر علينـــــا مـــا دعـــا للـــــه داع

ويرى الدكتور محمد رجب النجار أن التمييز بين العناصر الشعبية الحية والعناصر الشعبية غير الحية أو المتحجرة يقتضي أن نقوم ، في بادئ الأمر ، بجمع هذه العناصر جمعاً مكتبياً ، في ضوء سياقها الثقافي والتاريخي من مصادر التراث العربي المدون ، ثم تصنيفها تصنيفاً فولكلورياً معاصراً ، يسهل معه رصد هذه المادة أو العناصر الفولكلورية المتناثرة في كتب التراث وحصرها والإفادة منها وسهولة العودة إليها عند الدراسة المكتبية .

وهذا من ضمن البرنامج الذي يقوم به مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية ، الذي يسعى إلى القيام بمشروع جمع العناصر الفولكلورية في التراث العربي [3] .

---

(١)و(٢) د. محمد رجب النجار ، مصادر الموروث الشعبي في التراث العربي ، جريدة الرياض ، العدد ٦٨٤٩، ٢٥ رجب ١٤٠٧هـ .
(٣) المرجع السابق نفسه .

إننا بحاجة إلى دعم مثل هذه المشاريع أدبياً ومادياً وفنياً ، أي إعداد هذا المركز بخبراء من علمائنا ، وأن نقدم الدعم المادي لما تحتاج إليه في الوقت الحاضر من نظرة شمولية لماضينا فيما يدعم حاضرنا ومستقبلنا .

وتأتي أهمية دراسة ماضينا الثقافي الفولكلوري وقراءته قراءة فولكلورية من منظور فولكلوري ، وفي ضوء معطيات هذا العلم الجديد « علم الفولكلور » .

كما يرى علماؤنا أن مثل هذه القراءة سوف تكشف موقع المأثورات الشعبية من السياق التراثي العربي والبيئة الاجتماعية والتاريخية ؛ ومن ثم سوف تحسم كثيراً من القضايا عند عملية غربلة التراث من رؤية معاصرة – تفيد من عناصرة الحية الفاعلة – ، تستلهمها وتطورها ، وتقف عند عناصره غير الحية ، فتجعلها وفقاً على الدرس الأكاديمي فقط .

إن مثل هذه الدراسة لا تقتصر على فهم واقعنا الاجتماعي المعاصر بحيث يكون أكثر واقعية وموضوعية فحسب ، بل تخرج بقضية التراث من كونها قضية الماضي لذاته ، أو كونها إسقاطاً للماضي على الحاضر ، إلى كونها قضية الحاضر نفسه ، على اعتبار أن الحاضر يكون نتاجاً لحركة صيرورة تتفاعل داخلها منجزات الماضي وممكنات المستقبل تفاعلا دينامياً صاعداً [1].

وبمعنى آخر فإن النظر إلى التراث من منظور فولكلوري معاصر يمكّننا من إعادة امتلاك هذا التراث على أساس جديد ، تتكون عناصره المعرفية والفكرية من مجموع العناصر الحية والمحركة لعملية بناء الحاضر المعاصر ، التي هي – في الوقت نفسه – عملية بناء للمستقبل المنشود .

إن قراءة تراثنا الفكري والحضاري المدون من وجهة نظر علم الفولكلور ومناهجه ونظرياته ، أي طبقاً لرؤية معاصرة ، ليس مجرد مرحلة من مراحل الوعي بالذات القومية والحضارية ، بل إنها تعمل على تحقيق أمرين :

أولهما : المساعدة على فهم أعمق للظواهر الفولكلورية الحية الإيجابية أو السلبية ، فتعمل على تطويرها أو استلهامها أو تغييرها أو تجاوزها ، كما تسهم في

(١) المرجع السابق نفسه .

إضفاء قدر كبير من الجدة على هذا التراث .

ثانيهما : تلافي القصور الثقافي الناجم عن عد تملك هذا التراث معرفيا وإخضاعه لعملية الانتقاء ؛ مما يجعلنا مطية بيد الاستعمار الفكري في ظل غياب الوضوح والتمييز في العقل العربي أو غيابه عن المعرفة التاريخية الواعية بالذات القومية(١) .

إن غياب هذه القراءة الفولكلورية ، سوف يبقي أحكامنا على التراث العربي ، ومن ثم العقل العربي ، غير صحيحة ، وغير موضوعية ؛ نستقي الأحكام على ضوء القراءة الاستشراقية لتراثنا الذي قام بتشويه المعرفة في تراثنا بوسائل مختلفة منها فصل الوقائع عن سياقها التاريخي ليفتعل التضليل المعرفي في ثقافتنا ؛ لكي يتحقق له تعميم الأحكام الخاطئة عن تراثنا ، أو أن يدعو إلى معايير ومقاييس تروّجها مدارس الفولكلور الغربية ، التي تتناقض مع الأطر المنهجية المنسجمة مع واقعنا الأدبي وسياقه التاريخي في مسيرتنا الثقافية(٢) .

ثالثهما : إن جيل التراثيين العرب لم يعرفوا تلك التفرقة البغيضة بين ثقافة العامة والثقافة الخاصة ، فهيأوا بذلك لنا مادة فولكلورية خصبة وطاغية ، تكشف لنا – عند الدرس العلمي – عن جذور الثقافة الشعبية العربية ، والفولكلور أبرز جوانبها . وهذا يعني ، في التحليل العلمي الأخير ، حقيقة هامة – نحن بأمس الحاجة إلى إبرازها وتجسيدها ، وهي « وحدة الثقافة » للمجتمع العربي ، الناجمة عن وحدة الإرث أو التراث الفكري والحضاري المشترك ، كما يؤكد مقولة التواصل الثقافي العربي(٣) .

ويمكننا أن نقوم بجولة كاشفة غايتها استنطاق هذا التراث فولكلوريا ، بأن ننتقي نماذج من هذه المصادر في ضوء هذا التراكم الكمي والنوعي الكبير لمصادر التراث ، ثم نعطي بعضها أولوية النشر والتحقيق العلمي الحديث ثم الطبع ؛ لما لها من صلة وثيقة بالمأثورات الشعبية العربية مادةً وعلماً .

---

(١) (٢) (٣) المرجع السابق نفسه .

من فنون التراث العربي في الشعر الشعبي والقصص والأمثال والتأليف الموسوعي

أبدعت الحضارة العربية والإسلامية ألوانا من الشعر الشعبي ، فقد كان الشعر يعتبر أداة الحرب القولية فيها . وقد قال ابن رشيق في بيان وظيفة الشعر الجاهلي في قبيلته : « إنه يحمي أغراضها ، ويدافع عن أحسابها ويخلّد مآثرها ، ويشيد بذكرها » .

وقد أجمع التراثيون ، ابتداءً بالجاحظ وانتهاءً بابن خلدون(١) ، على أن الشعر هو ديوان العرب ، وأخبارهم وحكمهم في الجاهلية وصدر الإسلام ؛ ومن ثم فهو من التراث الشعبي الشفاهي . كما يلحق به كم هائل من الشعر الشعبي الذي يُجهل قائله ، ذاع في العصر الجاهلي وإبان عصر الفتوح الإسلامية ، ونراه في كتب الأدب وكتب المغازي والسير والفتوح وأيام العرب في الجاهلية والإسلام ، وقد صنفها الدكتور محمد رجب النجار ، ونعرضها هنا باختصار حسب التصنيف التالي :

١ - **شعر الحداء والرجز** : لاشك في شعبية هذا اللون من الشعر طبقاً لما وصلنا من نصوص عن العصرين الجاهلي والإسلامي ، فقد كان إنشاد الشعر غناءً ، وإبداعه مرتجلاً ، وموضوعاته شعبية بدءًا من حداء الإبل والهجاء والفخر ومروراً بأغاني الطفولة وأناشيد الحروب وأدعية المتسولين ، وغناء البناء والعمل والسوق .

٢ - **الشعر الجاهلي** : وله اتجاهات متعددة مثل شعر المعلقات السبع ، وشعر الشعراء الفرسان ، وشعر الصعاليك ... وغيرها .

٣ - **شعر الأوابد** : وهو ضرب من الشعر صرخ به شعراء القبائل والأمصار

---

(١) د / محمد رجب النجار (مصادر الموروث الشعبي في التراث العربي) جريدة الرياض ، العدد ٦٨٥٠ ، ٢٦ رجب ١٤٠٧هـ .

في وجه الولاة والعمال المستبدين ، وهو مثبوت في كتب الأدب والتاريخ .

٤ – شعر اللصوص والشطار : وهو ضرب من شعر الرفض الاجتماعي[١] ذاع بين الرواة والعامة بنزعته المتمردة ودلالته الاجتماعية والطبقية والاقتصادية ، حيث يروي لنا الجاحظ في البيان والتبيين أن من لم يروِ شعر اللصوص وأحاديثهم كان لا يعد من الرواة في عصره .

٥ – شعر المكديين والطوافين والجوالين : وهو من شعر الرفض الاجتماعي أيضاً .

٦ – الشعر الساخر : وهو من الشعر الشعبي ، ظاهره المجون والرقاعه ، وباطنه السحر والتمرد ، كما يفيض بروح النقد الشعبية الدالة . ومن الشعر الشعبي الساخر شعر النقائض بروحه الشعبية الساخرة ، وبقالبه الفني ، وبأسلوب أدائه مع وظائفه وغاياته ، ومنها نقائض جرير والفرزدق ، وديوان الأخطل ، وما يتضمن ذلك من تعرية للواقع الاجتماعي للقبائل[٢] وعاداتها وتقاليدها ومثالبها ومفاخرها .. إلخ .

٧ – الشعر العذري ، وشعر المديح النبوي المتأخر : ويردد في الأفراح والمواسم والمناسبات الدينية ، وله وظائفه النفسية ، ويلبي احتياجات اجتماعية كثيرة .

٨ – الشعر المرتجل وفنونه : وهو ضرب من الشعر الشعبي الذي كانت تتبارى به القبائل العربية في البوادي ، وله فنون متنوعة .

٩ – الفنون الشعبية غير المعربة : وهو ضرب من الشعر الشعبي الملحون ، بفنونه وقوالبه المتعددة ، مثل : الزجل ، وفن الموال ، والتوما ، والكان وكان ، والشعر البدوي الذي ذاع في المشرق العربي[٣] .

ومن أهم المصادر التراثية التي دافعت عن الشعر الشعبي أو العامي ودراسته ،

---

(١) (٢) (٣) المرجع السابق نفسه .

مقدمة ابن خلدون ؛ حيث دافع فيها دفاعاً علمياً عن القيمة الفنية والجمالية ، والغايات الوظيفية ، الفكرية والنفسية للشعر البدوي ولشعر عروض البلد .

١٠ - الشعر المعرب : ومن أهم مصادره : كتاب الأنوار ومحاسن الأشعار للشمشاطي ، وهو كتاب محقق في جزأين كبيرين وبالغ القيمة بالنسبة للفولكلوريين ؛ فهو يتضمن الأشعار التي قيلت في كثير من الموضوعات التي تندرج اليوم تحت المجالات الفولكلورية المعروفة ولاسيما الصناعات والحرف والآلات وغيرها ، مما يدخل في مجال الثقافة المادية ، وكذلك العادات والتقاليد ، وكذلك المعارف والمعتقدات الشعبية ، وهذه الأشعار مصنفة موضوعياً تسهل معه الاستفادة العلمية من الكتاب)[1] .

كتب التراث الأدبي القصصي :

إن تراثنا يملك مجموعة قصص تراثية هائلة في هذا المجال ، لم تلق - للأسف - حظها من الدراسة حتى اليوم ، بالرغم من أنها تراث شعبي مدون في المقام الأول ، وهذا الفن يعكس قدراً هائلاً من واقع الحياة اليومية ، ومن ثم الثقافة الشعبية للمجتمع العربي في البوادي والأمصار العربية الإسلامية ، ولسنا مبالغين إذا قلنا إن قُلَّ أن تجد لها نظيراً في مصادر تراثية أخرى .

ومن مواضيعها ، على سبيل المثال لا الحصر : القَصَص الفكاهي والحكايات المرحة التي عرفت في التراث العربي باسم (النوادر) ، وهناك القصص العاطفي والاجتماعي ، وقصص الجان والخوارق ، والقصص التعليمي والقصص الفلسفي ، مثل قصة الغفران لأبي العلاء المعري بمغزاها النقدي السياسي والاجتماعي . ولعل عودة عاجلة إلى فهرست ابن النديم توقفنا على هذا الكم الهائل من أسماء القصص والحكايات التي كانت رائجة في عهده وأنماطها[2] .

---

(١)،(٢) المرجع السابق نفسه .

ومما يتميز به القصص العربي في هذا المجال أنه تجاوز الحدود الجغرافية واللغوية ، وترك بصماته جلية على الآداب القصصية العالمية .

ومن المؤلم أننا ننساق وراء ادعاءات بعض المستشرقين الرافضين للثقافة العربية (مثل رينان) ونردد أن العرب أمة غير قصصية .

إن هذا التراث القصصي العربي الهائل ، كالذي لا يمكن تقويمه اليوم إلا بمنظور فولكلوري ، يمكن أن يدر عن العقل والفكر العربيين كثيراً من التهم ، ويثبت أن العرب ، شأنهم شأن غيرهم من الشعوب ، عرفوا التراث الأسطوري والعقلي والتمثيلي والملحمي .

كتب الأمثــال :

يعتبر التأليف والتصنيف في مجال الأمثال علماً قائماً بذاته ، وقد خضعت بعض كتب الأمثال[1] إلى الدراسات العلمية الحديثة ، وقد كشفت هذه الدراسات والبحوث عن القيمة اللغوية والأدبية والاقتصادية والفولكلورية والمنهجية لهذا اللون من التراث العربي ؛ فهي تتضمن مادة فولكلورية أصيلة تتعلق بالحية الشعبية ؛ والأمثال مرآة الشعوب كالعادات والتقاليد والمعتقدات والمعارف الشعبية ، ولا سيما ما يتعلق بالأنطولوجيا الشعبية وما يتعلق بها من تصورات شعبية عن الوجود والكائنات .. كما تتضمن مادة فولكلورية خصبة عن الحرف والفنون والصناعات الشعبية وأخرى عن الطب الشعبي والعلاجات الشعبية ، ومنها ما يتعلق بالبيئة وتضاريسها ومناخها واقتصادها وتاريخها والعلاقات الاجتماعية والطبقية السائدة فيها .

إن نشوء هذا اللون من العلم في كنف اللغويين العرب لا يمنع من تصنيفه تصنيفاً علمياً وفق مناهج التصنيف الدولية أو الغربية للفولكلور .

ونجد – مثلاً – في دراسة الأمثال الجزائرية شيئاً من هذا القبيل ، كما هو الحال في كتاب (الأمثال الزراعية) للدكتور عبد الملك مرتاض في جامعة

---

(١) المرجع السابق نفسه .

وهران[1] .

كما نجد اهتماما أجنبياً بتراثنا في هذا المجال في كتاب الأمثال الشعبية الجزائرية تأليف الأستاذ فاده بوتارن مدير معهد اللسانيات بالجزائر ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن حاج صالح .

التراث الموسوعي والمجاميع الأدبية وكتب المعارف العامة :

ليس من شك في أن التراث العربي المدون حافل بالكثير والكثير من الكتب الموسوعية أو ذات الطابع الموسوعي ، في المجالات العلمية والأدبية والبلاغية والنقدية والمعارف العامة . ولم يفرق أصحاب هذه الموسوعات بين ثقافة الخاصة وثقافة العامة عند رصد معلوماتهم ومروياتهم وأخبارهم عن العرب ، واحتفوا بالثقافة بمفهومها الأنثروبولوجي الدقيق ، ولا مِرَاء ، أيضا ، في أن الفضل في جمع المادة الفولكلورية العربية يعود إلى هذا الرعيل الأول من الموسوعيين العرب العظام ، الذي بدأ بالجاحظ وانتهى بابن خلدون .

ونحن بأمس الحاجة إلى قراءة هذه الموسوعات اللغوية قراءة فولكلورية ؛ وذلك لاستخراج العناصر أو المواد الفولكلورية منها ، وإعادة تصنيفها ثانية طبقاً للحقول الفولكلورية المعروفة ، ليتهيأ لدينا عدد رائع من المعاجم الحضارية المتخصصة ، التي يفيد منها المؤرخون وعلماء الاجتماع وفروع الأنثروبولوجيا .

وقد نشر المستشرق الهولندي المعروف (دوزي) في عام ١٨٤٣م ، أي منذ أكثر من مائة سنة ، أول معجم متخصص في الأزياء هو (المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب) ويمكن أن يسد حاجة العلماء الأنثروبولوجيين إلى معاجم أخرى في جوانب من الثقافة المادية ، حيث تحتوي كتب التراث

(١) د / عبد الملك مرتاض (الأمثال الزراعية) جامعة وهران ، ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر .

على جوانب ومواضيع مختلفة ، مثل وصف الصناعات والأدوات والحرف والأطعمة والأشربة والمسكن والبنيان والأزياء والملابس وأدوات الزينة وأنواعها وأسمائها ... إلى غير ذلك ، مما يدخل في مجال العلوم الفولكلورية الحديثة وتخصصاتها[1] الهامة .

---

(١) د/محمد رجب النجار ، مصادر الموروث الشعبي ، جريدة الرياض ، العدد ٦٨٥٠ .

واجبنا نحو ماضي الثقافة الفولكلورية

لقد أوضحنا فيما سبق كيف قامت الاتجاهات الاستعمارية ، مستفيدة من تقدم علم الأنثروبولوجيا ، بدراسة حالة مجتمعنا الحضارية قبل مرحلة التحديث ، دراسةً فولكلورية ، لتقف على دقائق نظم المجتمع وجوانبه الثقافية ، والعلاقات الاجتماعية داخل البناء ، والوظيفة الاجتماعية لكل نسق داخل المجموعة الوظيفية المتكاملة لأنساقه .

إن مثل هذه الثقافة الحضارية الفولكلورية لم تأت من فراغ ، إذ إن لها ماضياً له امتداد عبر فترات تاريخنا الإسلامي وما قبله ، حيث يسمى ذلك بماضي الثقافة . وأخبار هذه الثقافة موجودة في كتب التراث (وقد نقل منها الكثير عن طريق حركة الاستشراق التي كانت تمثل طلائع الاستكشاف لحركة الاستعمار الأوربي لبلادنا في العصر الحديث ، حيث كان العديد من المستشرقين يومئذ جنوداً عاملين في دوائر المخابرات .

لذلك كان المغزى الاستعماري لعمليات النهب التي حدثت لمخطوطات تراثنا الفكري ، يتمثل في أن هذه العمليات هي السبيل إلى دراسة عقليتنا ونقاط قوتنا ، وعناصر ضعفنا ، والثغرات التي باستطاعتهم استغلالها كي يقهرونا .. . كما أن في نهبها الحرمان لنا من ذلك الزاد الفكري الذي يستطيع أن يشحن وجدان أمتنا ويزودها بأسلحة تعينها على التحرر وتحطيم القيود)[١] ولكننا لا نستطيع أن نواجه المستقبل دون تراث إننا من أمة تملك تراثاً عظيماً استفاد منه أعداؤها ، وإننا لا نستطيع أن نواجه المستقبل بدون تراث فكري نتسلح به ونحن نجد أنه في هذا العصر قد أخذت بعض الشعوب تزيف لنفسها تاريخا[٢] وتفتعل تراثاً مثل أمريكا لكي تركن اليه في حاضرها ومستقبلها ، ونجد أن اسرائيل تحول القصص الخرافي والأوهام إلى بناء قومي ، وتحاول أن تجعل لنفسها امتداداً في التاريخ ! !

(١) د /محمد عمارة (التراث في ضوء العقل) ، ص ٢١ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٩ .

موقفنا من التراث

إن موقفنا من التراث له جانبان نستعرضهما فيما يلي ، من أجل رؤية مستقبلية أفضل، هما: رؤية تقويمية لأعمالنا؛ وضرورات مستقبلية.

أ - رؤية تقويمية لأعمالنا :

لا يختلف اثنان في أهمية ماضينا الثقافي الذي يمثل تراثنا الفكري على مر التاريخ ، فنحن بحاجة ملحة إليه ، ومن الضروري أن نحافظ عليه ، ونعمل على إحيائه ، والتعريف به .

وإن دوائر الفكر في وطننا العربي كان لها دورها الوظيفي نحو التراث ، إلا أن تجربتها كان لها إيجابياتها وكان لها سلبياتها ومعوّقاتها من أجل الوصول إلى الهدف .

ويضيق المجال عن استعراض أحداثها في هذا المجال ونحن نرى مثل هذا موضحاً في بعض الدراسات المتخصصة[1] .

كانت لهذه التجربة إيجابياتها حيث إن كل ما ينشر من جراء جهودها مفيد ؛ لأنه يكشف عن صفحة من صفحات تراثنا الفكري ولكننا لا يمكننا السكوت عن سلبياتها التي تعيق حركة الاستفادة منها بشكل وافٍ ومعقول .

لقد كانت الجهود ومازالت مبعثرة ، يعوزها التخطيط الذي ينسقها ويوجهها بما يحقق التكامل بينها ، ويحميها من الفوضى والارتجال ، ويحدد لكل هيئة منها دورها في إحياء التراث . وبمعنى آخر إننا بأمس الحاجة إلى وضوح الرؤيا ، واعتماد التخطيط والمنهج العلمي ، والابتعاد عن التلقائية في التخطيط ، لإحياء هذا التراث .

---

(١) انظر د / عائشة عبد الرحمن (تراثنا بين ماضي وحاضر) ص ٦٦٠٥٧ .

فمثلاً « عندنا اليوم بمصر لجنة لإحياء التراث بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، ومركز لإحياء التراث بالهيئة العامة للكتاب .. . ولجنة ثالثة للتراث بمجمع البحوث الإسلامية ، وليس هناك رابط يربط بين هذه المراكز فينسق خطتها ويوحِّد رؤيتها ، ويجمع جهودها كي تكون أكثر فعالية في الحقل الذي تعمل فيه .. ثم لدينا تلك الجهود الفردية ، وهي غالباً ما تتفوق على جهود المراكز واللجان – وهو الأمر الذي تنفرد به دون بقية البشر .

« ومثلما يحدث بمصر من تلقائية وانعدام للتخطيط ، هو حادث في بلادنا العربية من الخليج إلى المحيط ! .. »[1] .

إننا بأمس الحاجة إلى المنهج العلمي في التفكير لأن تحديات العصر وضرورات التقدم تدعونا إلى التسلح بأسلحة العقل[2] ، وذلك لأن في تراثنا نصوصاً كثيرة ، نستطيع بإحيائها ونشرها ، وإلقاء الأضواء على قضاياها ، أن نُشِيع هذه القيم في الحقل الفكري ، ونشد جماهير مثقفينا إلى تأصيل قيمهم المستقبلية والمعاصرة ؛ حتى ينطلقوا ، وتنطلق أمتنا ، لإنجاز مهامها الحاضرة والمستقبلية .

وقد نخضع الكتب المرشحة للتحقيق والنشر ، للمزاج الفكري الفردي ، أو الاسم الرنان للكتاب ، أو الشهرة لمؤلفه ، بعيداً عن احتياجات العصر من فكر وثقافة .

وإن مثل هذا يتنافى مع إمكانيات التحقيق والنشر التي ما زالت محدودة ، فلابد أن يكون هناك الأهم ، فالمهم ، فالأقل أهمية ، إذا قيس ذلك نسبياً أمام مخطوطات تراثنا التي تزيد عن الثلاثة ملايين [3].

إننا بأمس الحاجة إلى تراثنا الفكري ، لكي ندعم به حركتنا الفكرية في صراعها نحو تحقيق وجودها وإثباته ، أمام عمليات الطمس والتضليل وتشويه

(١) د / محمد عمارة ، المرجع السابق ، ص ١٧ إلى ١٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٩ .

شخصيتنا الحضارية ، إننا بحاجة إلى هذا النوع من الطاقة والزاد ، لكي تتحقق إنجازاتنا الحضارية ، كما نحتاج إلى هذا النوع من الأسلحة الفكرية لكي تعيننا على مقاومة الوسائل التي توجَّه إلى عقولنا وعواطفنا ونفوسنا . وعلينا ألاّ ننسى في الوقت ذاته ، أن دوائر الفكر الأوربية قد تسلحت بعقلانية الفكر العربي ، وبساطة الدين الإسلامي ، ومازالت تستزيد من معين التراث العربي ومنابعه ، كي تدعم أيديولوجيتها العلمانية في مجتمع أوربا .

ب ـ ضرورات مستقبلية:

ذكرنا سابقاً أن أغلب آثارنا الفولكلورية من صناعات وفنون ، موجودة في المتاحف الأوربية كذلك الأمر فإن أغلب مخطوطات تراثنا الفكري في مكتباتهم بعيدة عن الباحثين والمحققين من العرب والمسلمين ، كما ذكرنا حاجتنا الماسة إلى هذه المخطوطات في معركة البقاء وإثبات الوجود التي نعيشها ؛ فتلبية لضرورات نهضتنا ، وطموحاتنا المشروعة ، فإننا نؤكد على ضرورة تصوير أغلب هذه المخطوطات ، إن لم يكن كلها ، حتى تكون السبل ميسرة أمام حركتنا الفكرية حاضراً ومستقبلاً ، كي نرى تاريخنا الفكري رؤية واضحة ، تساعدنا على صنع المستقبل ، مستفيدين من أخطاء الماضي .

إن مثل هذا يتكلف رصد الاعتمادات من العملات الصعبة لتصوير مخطوطاتنا من الخارج . ويقترح الدكتور محمد عمارة حلاً ذاتياً يبتعد عن نطاق الترف الفكري في رصد العملات الصعبة لتصوير تراثنا ، حيث نلجأ إلى مثل هذا الحل الذاتي من أجل إنجاز المهام الصعبة المتعلقة به ، ذلك عن طريق استخدام الطاقات والإمكانيات المتاحة ، دون أن يضاف عبء جديد على ميزانية المال العام ، ذلك يكون عن طريق الاستعانة بالمبعوثين الذين يدرسون والمهاجرين الذين يعملون ، والأساتذة والخبراء الذين يقيمون في كل الدول التي بها وبمكتباتها كنوز مخطوطاتنا .

فإنه عن طريق تكوين لجنة من وزارة الثقافة ، تشترك فيها دار الكتب والوثائق القومية ، وأمانة الشباب ، وإدارة البعثات ، ومعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية[1] .. وغيرها من الإدارت وبعد ذلك تحصر قوائم مخطوطاتنا في تلك المكتبات الأوربية والأمريكية عن طريق ترشيح

(١) وما يمكن أن يتحقق في مصر يمكن تحقيقه في كل بلد عربي ، ومن ثم الارتفاع إلى مستوى الأعمال العربية الإسلامية المشتركة ! !

هذه القوائم ونشرها بين أوساط المبعوثين ، من أجل التنافس على تصويرها وإرسالها إلى دار الكتب عندنا ، إذ أن تصوير كل مبعوث مخطوطاً واحداً لا يكلفه سوى قروش لا تذكر ، ثم تعلق قوائم بأسماء هؤلاء المبعوثين ، وعندما تحقّق وتنشر هذه المخطوطات ، يشار في صدرها إلى أصحاب الفضل في تصويرها من هؤلاء المبعوثين ، وبذلك نكون قد حققنا استثمار هذه الطاقات والإمكانيات المتاحة ، كي نعيد إلى حياتنا الفكرية كنوزها المنهوبة ، وبلا اعتمادات أو ميزانيات(١) .

ويرى الدكتور عمارة أيضاً ، أن هذا سيوجه الفرصة أمام مبعوثينا للتنافس على ميادين الفكر ، التي هي أفضل من اقتناء الكماليات وسلع الاستهلاك ، كما سيلفت نظرهم إلى صفحات من أمجاد أمتهم ؛ لعل الكثير منهم لا يعلمون عنها الكثير ، وسيرفع من مكانتهم أمام أقرانهم من أبناء الأمم الأخرى .

كما أن مثل هذا سيساعدهم على رؤية أنثروبولوجية طبية واجتماعية لواقعنا ومستقبلنا ، على ضوء رؤية صحيحة وسليمة لتاريخنا .

والحق أن اقتراح الدكتور محمد عمارة جدير بأن يؤخذ بكل جدية ، وأن تتبناه كل الدول الإسلامية والعربية ، وأن يصبح شرطاً من شروط الابتعاث ! ! ولكن للأسف لم يلق اقتراح الدكتور محمد عمارة أذناً صاغية ! !

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣ .

اختلاف التعاريف الفولكلورية:المشكلة .. والحل

كما رأينا في مشكلة اختلاف تعاريف مفهوم الثقافة بمعنى الحضارة ، فإن طالب المعرفة والاطلاع باطلاعه على علم الفولكلور ، يواجه أيضاً مشكلة اضطراب مفاهيم الفولكلور واختلاف تعريفاته ، وكثرتها .

وإن مثل هذا السيل المختلف من التعاريف الفولكلورية أيضاً يشكل عقبة في التحصيل العلمي بسبب عدم وضوح الرؤيا العلمية ، من أجل الانطلاق إلى مرتبة أعلى من المعرفة العلمية المرتبطة بمفهوم حضارة الإنسان .

ونحن نجد أن كثيراً من الأسباب التي تنطبق على مفهوم الثقافة تنطبق على مفهوم الفولكلور أيضاً فقد مرّ هذا العلم في أوربا بالمرحلة الرومانسية ، قبل أن يصل إلى المرحلة الموضوعية في الدراسة العلمية هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد ارتبط علم الفولكلور بعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) منذ بداية ظهوره ، ورافق خطوته الأولى ظهور الاستخدامات الاستعمارية أثناء تحصيل المعرفة الفولكلورية والأنثروبولوجية مما سمي بالمجتمعات البدائية سواء في أفريقيا أو آسيا أو غيرها من أنحاء العالم . وقد تمثل ذلك بشكل واضح في فرع الأنثروبولوجيا التطبيقية ، أو أنثروبولوجيا التنمية ، أو عمليات التثاقف ، حيث كان للدراسات الفولكلورية نصيب الأسد في الإحاطة بالمعرفة عن الشعوب المختلفة ، واكتشاف « ديناميات » تغير الثقافة في مواضع اتصال الثقافات . وهي مهمة خطيرة ، تخدم عمليات الاستعمار المباشر وغير المباشر .

وقد لاحظنا فيما سبق تطور مفهوم هذا العلم ، وتطور تعريفاته ، بعد مشاركة العلماء الأنثروبولوجيين في العالم الثالث ، ومن ثم ظهور فرع « الأنثروبولوجيا الجديدة » وظهور وظائف فروع الأنثروبولوجيا المختلفة . وقد كانت هناك محاولات تشير إلى اهتمام الأنثروبولوجيين المعاصرين بالموضوعات الفولكلورية ،

خاصة « بعد أن أصبح الفولكلور علماً ثقافياً يختص بقطاع معين من الثقافة ، وهي الثقافة التقليدية أو الشعبية ، يحاول إلقاء الضوء عليها من زوايا تاريخية وجغرافية واجتماعية ونفسية ، تفيد المشتغلين برسم السياسة الاجتماعية والثقافية . فهو إلى جانب قيمته العلمية النظرية ، يقدم خدمة تطبيقية علمية لا يمكن إنكارها »[1] .

وقد تكلم الكثير من العلماء حول مسألة تبعية الفولكلور ، أو استقلاله باعتباره علماً قائماً بذاته . وراحوا يؤكدون الصلة الوثيقة بين الأنثروبولوجيا والفولكلور ، والتي صاغها ليفي ستروس في قوله بأن دراسة الفولكلور مرتبطة – ولا شك – بالأنثروبولوجيا ، إما من خلال موضوع دراسته ، وإما من مناهجه ، وربما من خلالهما معاً[2] .

وقد أكد كثير من العلماء « العلاقة الوثيقة بين الفولكلور والإثنولوجيا ، لدرجة يصعب معها وضع خط فاصل سميك بين الميدانين ، كما أن متاحف الفولكلور في أمريكا الجنوبية تعد متاحف إثنولوجية ، لاهتمامها بالعادات والتقاليد الشعبية ، بالإضافة إلى جوانب الثقافة المادية »[3] .

إن مجال التعاون وثيق ومشترك بين دراسات الفولكلور والأنثروبولوجيا من حيث الموضوعات التي يشتركان في دراستها تكاد تكون واحدة ، سواء في المجتمعات المتخلفة أو المتقدمة ، لاهتمام كل منهما بدراسة الخرافات والأساطير والحكايات والفن الشعبي والأدب الشفهي ، بالإضافة إلى دراسة الصناعات والحرف اليدوية ومراسم الأعياد والزواج والوفاة والحفلات الشعائرية في المناسبات المختلفة ، لدرجة أصبح من الصعوبة إيجاد خط دقيق يمكن وضعه بين مجاليهما[4] . على حد قولهم علماً بأن كليهما يشكلان فرعين متعاونين من فرع

---

(١) (٢) د / حسين فهيم (قصة الانثروبولوجيا) ص ١٤٤ – ١٤٥ .

(٣) (٤) د / زكي محمد إسماعيل (الانثروبولوجيا الاسلامية) ص ٢٠٠ .

الأنثروبولوجيا .

ومما سبق ذكره من المعلومات عن المادة الفولكلورية التي تشمل الجوانب الشفاهية والمادية معاً ، فإننا نستبعد التعريفات الفولكلورية التي تقصر اختصاص الفولكلور على الجوانب الشفاهية ، وخاصة بعد اطلاعنا على تجربة جمع الفولكلور الألماني أو الإيرلندي .

ويمكن أن نرجع هذه التعريفات ، إما إلى المرحلة الرومانسية لهذا العلم ، أو لأسباب أخرى كتصدير المعرفة لدول العالم الثالث ومن الأمثلة على هذا القصور في بعض التعريفات ما قام به تايلور من تعريف الفولكلور بأنه : المواد التي انتقلت شفاهة من جيل إلى جيل دون أن يعرفها مؤلفها الأصلي ويؤيد (هرزوج) هذا الرأي ويقول : إن الفولكلور في الولايات المتحدة هو التراث الشفاهي من حكايات ، وأغانٍ شعبية وأشكال التعبير الشفهية كالموسيقى والرقص والعادات والتقاليد .. إلخ . ويقرر باسكوم Bascom في قاموس الفولكلور الأمريكي : أن الفولكلور هو أشكال التعبير الفني التي تستخدم الكلمة ، فالفولكلور هو الأدب الشعبي . كذلك يقول جادو Gaidoz إن الفولكلور هو المأثورات الشعبية بكافة أشكالها ، وأسسها الشفهية والتلقائية)[1] .

ومن التعريفات الأخرى ما ورد في القاموس الأمريكي عن الفولكلور بأنه « ذلك الجانب من ثقافة الشعب الذي حفظ شعورياً أو لا شعورياً في العقائد والتقاليد والممارسات والعادات والحكايات الشعبية .. » .

ويعرف ليتش Leach الفولكلور بأنه « المعرفة المدخرة » .

وقد أوصى مؤتمر الفولكلور ، المنعقد في أرنهيم Arnhem في هولندا عام ١٩٥٥م بتعريف الفولكلور بأنه « المأثورات الشعبية بكافة أشكالها ، والأغاني الشعبية والأمثال الشعبية والفنون التشكيلية الشعبية .. الخ[2] .

---

(١) (٢) عمر عثمان خضر (المأثورات الشعبية في المملكة ..) ص ٢١٦ .

يلاحظ من التعريف السابق ، أنه أكثر شمولية مما سبق من تعريفات وكذلك نجد ما يشبه هذا الشمول في تعريف باليس Balys « إن الفولكلور هو الإبداع الشعبي ، مهما كانت درجة التمدين ، وعلى أي مستوى حضاري » .

ومما سبق نلاحظ الاختلاف الواضح بين تعريفات الفولكلور الأوربي والتعريفات الأمريكية للفولكلور ، وقد يعزى هذا – كما ذكرنا – إما لتطور المفاهيم على يد العلماء ، أو لمسألة التخصص في فروع الأنثروبولوجيا أو الفولكلور ، أو أن من نماذج هذه المفاهيم تستحدث لتصديرها لدول العالم الثالث من باب طمس المعرفة في المفاهيم العلمية للعلوم الاجتماعية ، وبالتالي خلق بلبلة تحول بيننا وبين وضوح الرؤية الذاتية لهذه العلوم .

ومن أمثلة التوجيهات الفولكلورية الاستعمارية – المفروضة – التي تقصر اهتمامها على المواضيع الشفهية ، بصحبة أحد مختصي الفولكلور في إحدى الجامعات الأمريكية ، التي قدمها أثناء زيارته للقاهرة عام ١٩٧٠م ، حيث ذكر أن علينا – نحن العرب – واجباً ثقيلاً هو أن نسارع لجمع تراث المأثورات الشعبية الشفهية ، وإنشاء أرشيف لها »[١] .

ونحن إذا وقفنا موقف الناقد من اختلاف الأنثروبولوجيين في تعريفات الفولكلور ، وقصور بعض هذه التعريفات ، فلا يعني هذا إغفال أهمية التراث الشفاهي ، الذي من الواجب علينا جمعه . ولكننا نعجب من قصور كثير من التعريفات على الجانب الشفاهي ، الذي أصبح دارجاً لدينا في العالم العربي ، دون التعاريف الفولكلورية التي تشمل دراسة الجوانب المادية والصناعية والحرف اليدوية ، إلى جانب الأدب الشفاهي الذي انتشر مفهومه لدينا .

أي وبعبارة أخرى فإن علينا أن ننظر إلى تكامل الجوانب الاقتصادية مع

(١) المرجع نفسه ، ص ٢١٧ ، وللأسف فان ورود هذه النصيحة المغرضة لم يتبعها توضيح لما ورد عليها .

الجوانب الأخرى للثقافة الفولكلورية ، وبنظرة شاملة على أنها تمثل شريحة الثقافة الشعبية ، التي يتمثل فيها عطاء الذات الإنسانية ، بخلاف ما هو عليه الحال في الثقافة الأوربية المعاصرة ، التي تعمل على إخضاع الذات لها .

ومن أجل إلقاء الضوء على مزيد من المعرفة المتعلقة بالثقافة الشعبية الفولكلورية ، نستعرض تقسيم العلماء لهذا العلم إلى أربعة ميادين رئيسية كالتالي :

١ – المعتقدات والمعارف الشعبية .

٢ – العاداتت والتقاليد الشعبية .

٣ – الأدب الشعبي .

٤ – الثقافة المادية والفنون الشعبية[١] .

ويقوم بعض العلماء بتحليل الثقافة إلى عناصرها وسماتها ومركباتها ونظمها المتعددة ، وفي ضوء ما توصلوا إليه ، فإنها تشتمل على قطاعات ثلاثة هي : القطاع الفكري الرمزي ، والقطاع المادي ، والقطاع الاجتماعي . والحقيقة أن هذا التقسيم هو تقسيم نظري فقط ، لا ينطبق على الواقع الاجتماعي ، وذلك لتداخل هذه الجوانب وتشاركها بعضها مع بعض ؛ فالقطاع المادي ، مثلاً ، له جانبه الفكري ، الذي يستند إلى العلم والثقافة والعادات والعقائد ، كما أن له جانبه الفني أيضاً .

ويرى العلماء أن القطاع الفكري الرمزي ، يحتوي على الأفكار والعقائد والقيم والاتجاهات[٢] التي يؤمن بها الأفراد وينشئونها . أما القطاع المادي فيعتمد على الأشياء المادية المحسوسة ، التي يعطيها الإنسان معنًى معيناً ، وغالباً ما تكون من صنع الإنسان نفسه ، كالتكنولوجيا بمختلف وسائلها . أما القطاع الاجتماعي فيعبر عن صورة العلاقات المختلفة التي تحدد خطوطاً بين أفراد البشر بعضهم ببعض أو بين البشر والأشياء .

---

(١) د / محمد الجوهري (علم الفولكلور) ص ٥ وما بعدها .

(٢) د / زكي محمد إسماعيل (الانثروبولوجيا والفكر الاسلامي) ص ١٣٦ .

ولو أعملنا التفكير في جميع التعريفات السابقة عن الثقافة الفولكلورية أو الحضارة الفولكلورية ، لوجدناها في معظمها تستند إلى تطلعات الثقافة الغربية وظروف الاهتمام بفولكلورها ؛ مما يبعدنا عن أصالتنا وتراثنا . وإذا كان لنا أن نحيط علماً بهذه التعريفات ، ونستفيد منها فيجب ألا ننسى أن الثقافة الفولكلورية هي التي تمثل الشريحة الماضية من الحضارة بكل أنساقها ، قبل أن تؤثر فيها عوامل التحديث المعاصرة ، نتيجة تأثيرات الثقافة الغربية واتجاهاتها المادية .

وبمعنى آخر ، فإن ما سبق لنا عرضه من تعريفات ، لا يمثل ثقافتنا[1] وحضارتنا تمثيلاً حقيقياً . إن الذي يمثل ثقافتنا الفولكلورية هو رجوعنا لمفهوم الحضارة الماضية ، التي سبقت عمليات التحديث ، والتي هي مرتبطة بتراثنا الفكري ومنطلقاته ، التي تستهدي بهدي الإيمان وكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وتستفيد من تراثنا الفكري الذي تركه علماؤنا عن دراسات الحضارة ، كما هو الحال عند ابن خلدون وغيره من العلماء الذين أسهموا في دراسة الثقافات أو الحضارات المختلفة .

كل ذلك من أجل أن تعبِّر منطلقاتنا الأنثروبولوجية والفولكلورية عن قاعدة ذاتية تعبر عن خصوصيات ثقافتنا ، المختلفة تماماً عن الثقافة المادية الأوربية .

وإذا نظرنا إلى هذه الثقافة الحضارية الفولكلورية ، فإننا ننظر إليها على أنها تمثل كلاً وظيفياً متكاملاً ، لا يمكن لنا فهم الجزء إلا في ضوء صلته بالكل الحضاري . كما أنها الثقافة التي يتجسد فيها إشعاع الذات أثناء تفاعلها بالأخذ

---

(١) ونحن نطمع إلى تحديد دقيق للتعريفات الخاصة بنا ، والمنبثقة من أصولنا في العلوم الانسانية كالفولكلور والأنثروبولوجيا (علم الإنسان) وعلوم الحضارة والثقافة بصفة عامة . ولن يتأتى لنا ذلك إلا إذا عملنا ودرسنا الثقافات وعانينا المشكلات وعالجناها معالجة بيئية مباشرة ، وسرنا في مجتمعاتنا الإسلامية نفتش عن ملامحنا وخصائصنا وأمراضنا ، ونحاول من خلال ذلك التعرف المباشر على هذه الخصائص والأمراض إلى أن نصل إلى حلول علمية وعملية في آن واحد ، مبنية على عمق التفكير وشمولية المعرفة على أن تأخذ هذه الحلول بمجتمعاتنا شيئا فشيئا إلى الأفضل ، وذلك بدلا من السطحية الظاهرة في استيراد المفاهيم من غيرنا وأمراضهم وحلولهم أيضا .

والعطاء مع ثقافة أخرى ، دون أن يمس هذا العطاء أي أثر أو مفهوم يعمل لتقويض ذاتيتها .

الاستفادة من موضوعية هذا العلم :

إن الاتجاه إلى تحقيق الموضوعية في هذا العلم له فائدة كبيرة ، ذلك لأنه يُنتفع به لدراسة الأحوال المختلفة لطبيعة الثقافة الفولكلورية التي يتمثل فيها عطاء الذات وإبداعاتها ، وذلك عندما تمر بالمواقف المختلفة ، سواء في حالات التثاقف أو الصراع مع ثقافة أخرى .

كما أن مثل هذه الدراسات الفولكلورية ، يمكن أن يستفاد منها في دراسة المواقف المختلفة التي تمر بها الثقافة الفولكلورية في أي مستوى حضاري ؛ ومهما كانت درجة تمدينها ؛ أي في حالاتها المختلفة التي تكون عليها وهي في حالة صراع ثقافتها الذاتية مع ثقافات أخرى موافقة أو مخالفة ، سواء بدرجة كبيرة أم ضئيلة .

إن تحقيق مثل هذه الموضوعية ، يساعد على فهم المواقف ودراسة حالات مثل هذه المجتمعات دراسة علمية ، بما يعين الباحثين في خططهم لتمكينها من إثبات خصائصها الذاتية ، من أجل تحقيق أهداف حضارية أفضل ، تساعدها وتساعد غيرها من المجتمعات البشرية ، لما يحقق خير الإنسان في كل مكان .

ونحن في ضوء هذا نتطلع إلى إزالة هذه البلبلة في المفاهيم المستوردة ، والاضطراب في المعرفة ، هذا مع الحد من الاختلاف في تعريفات علم الفولكلور ، تلك التي تسبب تعثر خطوات طلاب المعرفة الفولكلورية ، وتحول دون تركيز جهودهم العلمية والتطبيقية في دراسة الشريحة الحضارية ، لمرحلة ما قبل عمليات التحديث الأوربية ، أو ما يتعلق بعمليات التثاقف بين حضارتنا والحضارة الأوربية .

ونستشهد ، هنا – مرة أخرى – بما ذكره ابن خلدون حول هذه المشكلة ،

وهي أن كثرة التأليف في العلوم من الأسباب المعيقة لتحصيل هذه العلوم[1] .

وينطبق هذا على كثرة التعاريف الفولكلورية واختلافها ، حيث يؤدي ذلك إلى اضطراب المفاهيم وبعثرة الطاقات وتضييعها ، وخصوصاً بالنسبة للمبتدئين في هذا العلم .

ويأتي سبب اهتمامنا بهذا العلم وتعريفاته ، لكونه يرتبط بعمليات هامة في المجتمع ، كالتغير الاجتماعي وعمليات التوجيه والتخطيط . ومن جهة أخرى يرتبط بالأنثروبولوجيا ، والإثنولوجيا بشكل عام ، حيث تشترك جميعها بالاهتمام بحضارة الإنسان في الماضي والحاضر ، وما يمكن أن تكون عليه حضارة الإنسان في المستقبل . كما نتطلع للاهتمام بهذا العلم ، بما يمكننا من توظيفه بعد استناده إلى أساس من قاعدة علمية مرتبطة بمفهوم أصيل لهذا الفن أو العلم وبذلك تستطيع هذه القاعدة أن تكون لها تطلعاتها الذاتية في أن تجعل هذا العلم يحمل صفة الإيجابية لما فيه خير مجتمعاتنا الإسلامية أولاً ومن ثم الإنسانية جمعاء ثانياً وقد يساعد على ذلك النظرة العالمية الموحدة نحو هذا العلم من أجل تحسين علاقة الإنسان بالإنسان وتحسين تعامله مع البيئة ومن أجل استغلاله علم الفولكلور لمنفعة الإنسان وحضارته وفي طريقة تعامله مع أبناء الحضارات والثقافات الأخرى .

---

(١) مقدمة ابن خلدون، دار العودة ، ص ٤٤٢ .

وبالرغم من هذه السلبية التي يعيشها كثير من شبابنا المثقف فإن بوادر اشتراك كثير من علمائنا العرب في الدراسات المعاصرة للعلوم الإنسانية والاجتماعية هو أمر يثلج الصدر ، ويدعو إلى التفاؤل وخصوصاً فيما يتعلق بجهودهم التي أفادت في توجيهات هذا العلم الهام الذي يتعلق بمصير الإنسان والحضارة الإنسانية بشكل عام .

وقد ثبت لنا ، من خلال دراستنا لمحتوى « علم الفولكلور » أنه علم ثقافي يهتم بالحضارة البشرية ، ويساعد على رسم السياسة الاجتماعية والثقافية ، وتوجيه عمليات التغير الثقافي والاجتماعي لهذه المجتمعات ، مستفيداً من التغيرات العصرية والحديثة . وبهذا فهو علم مرتبط بمفهوم الحضارة ، وبمفهوم الثقافة وعناصرها ، ويتم توجيه فعاليات عناصر هذا العلم الوجهة التي يحددها القائمون على هذا العلم في المجتمع .

ومن هنا يتبين أن لهذا العلم إيجابياته في توجيه حضارتنا أو الحضارة الإنسانية ، فيما يحقق سعادتنا وسعادة البشرية جمعاء ؛ وله سلبياته أيضاً في إمكانية توجيه حضارتنا نحو التفكك والانحدار والانهيار ، ومن ثم الحضارة الإنسانية ، جمعاء ويرجع هذا لمدى ممارستنا لهذا العلم وسيطرتنا عليه وإخضاعه لمفاهيمنا وغاياتنا أثناء تحقيق خبرتنا به .

إنه علمٌ مرتبط بنوع الحضارة أو الثقافة التي تقوم على التوازن بين جوانب حياة الإنسان ، أو بمعنى آخر ، يتعلق بفنون الإبداع الشعبي في صناعاته المختلفة المرتبطة بالثقافة التي تقوم على التوازن بين جوانب حياة الإنسان في تأمين حاجاته وبناء حضارته ، هذه الثقافة أو الحضارة التي تربط بين جوانب الإنسان الدينية والأخلاقية ، وجوانب الإنسان المادية والمعيشية . كما تعترف هذه الثقافة أيضاً باختلاف الجماعات البشرية في طريقة تعاملها مع بيئاتها ،

واستغلال خيراتها ، دون أن يسيء إليها الإنسان أو يسيء إلى نفسه ، أو أخيه الإنسان ، إذ أن من طبيعة الأمور أن تتعدد ألوان الإنتاج الحضاري ، بما يحقق الاكتفاء الذاتي للجماعات البشرية . وهذا بعكس ما هو عليه الحال في الثقافة الأوربية المعاصرة التي تسعى إلى توحيد هذه الطرق والأساليب التي اعتاد عليها الإنسان داخل نطاق مفهوم الثقافة العالمية ، وما يتضمن ذلك من إخضاع ذاتية الأفراد والجماعات ؛ أو بمعنًى آخر ، احتواء الذات الإنسانية بشكل عام لهذه الثقافة وتكنولوجيتها المعاصرة .

وقد قام المستعمر ، من خلال الفروع المتعلقة بهذا العلم ، كالأنثروبولوجيا التطبيقية وعمليات التثاقف مع الغرب ، أو ما يسمى بالاحتكاك الثقافي ، قام بتوجيه حضارتنا الوجهة المادية ، ومارس ألوان طمس المعرفة بما يحقق بغيته منا .

ولكننا ، مع ذلك ، يمكن أن نصحح مسيرة هذا التوجيه بما يعمل على تحقيق وعي إنساننا بحضارته واستعادة توازنه مع احتياجاته الحقيقية . فعلم الإنسان ، نستطيع أن نستفيد من إيجابياته في تدعيم الوحدة العربية في العالم العربي ، وثقافة الإنسان العربي ، فتظهر بشكل جلي وواضح عن طريق الثقافة الفولكلورية ، وما هي عليه حقيقة فنوننا الشعبية في العالم العربي ، ومن ثم الإسلامي ، من وحدة ثقافية إسلامية ، تربطه من المحيط إلى الخليج ، وكذلك بالعالم الإسلامي أيضاً .

ومن الواجب أن نبعد بكل قوانا تلك النماذج التي تستغل في هذا العلم ، فيما يكرس النزعة العنصرية لدى إنساننا العربي ، وداخل مناطق الوطن العربي ، التي تشتت وحدته القومية واللغوية والثقافية .

ومن أجل تحقيق أنثروبولوجيا محلية ، فإن من واجبنا دعم مفهوم الثقافة الفولكلورية التي تمثل شريحة ثقافتنا الحضارية الماضية ، بكل تراكمها الثقافي المادي والمعنوي سواء بجوانبها الأسرية أو التعليمية التربوية أو نسق العقيدة

والأخلاق ، أم لجوانبها الصناعية وما يشمله هذا المعنى من علوم وفنون تدعم صناعة العمران والزراعة والمأكل والمشرب والآداب والاقتصاد المنزلي[1] والإدارة وكل جوانب الصناعات التي تحتاج إليها في بناء الحضارة وعمرانها ، وذلك بغرض حفظ هذا التراث من الضياع ونحن نعيش المتغيرات الحديثة .. وهكذا فمن واجبنا أن نسعى لتنظيم جهودنا العلمية لصون حضارتنا الفولكلورية من أجل الوعي بها ، وتسخير الطاقات العلمية والبشرية من أجل هذا الحفظ أولاً ، والاستفادة منه بدراسته دراسة واعية للاستفادة به أثناء تحقيق بنائنا الحضاري الجديد وما يمكن أن يكون عليه من متغيرات في ضوء أولويات حضارتنا ومقاييسها وموازينها ونظرتها لكل أمر منها على حدة ، ومن ثم نظرتنا إليها ككل يجمع جوانب حضارتنا في ماضيها وحاضرها ومستقبلها .

ويجب أن نؤكد هنا ، أن مفهوم الفولكلور ، لا يقتصر على الأدب الشفاهي ، الذي كثيراً ما يحتوي على فكر ركيك ، وعبارات ضعيفة ، ولهجات محلية إقليمية ، على حساب اللغة الموحدة التي تجمع شمل المسلمين والتي تؤكد وحدة أمتهم[2] ، علينا أن ننظر إلى الفولكلور نظرة كلية شاملة ونختار العناصر التي تقوى ثقافتنا ونستبعد العناصر الفولكلورية التي تعيق تقدمنا .

أما الأدب الشفاهي فنأخذ منه ما يفيد في تسجيل أسرار صناعاتنا وفنونها ، وهي تواجه معركتها المصيرية مع طغيان التكنولوجيا المعاصرة وعقلانيتها ، التي تعمل على تفتيت كل القدرات الذاتية للأفراد والجماعات ، وما يرتبط بها من عادات تسعى لتأكيد الذات الإنسانية عن طريق صناعاتها ؛ التي تدعم ذاتية الأفراد والجماعات البشرية ، كما يجب أن نتحاشى كل الآراء والمفاهيم والعبارات التي تسعي لترويج ما يفسد مفاهيمنا نحو العقيدة واللغة والشعر ،

---

(١) من المعروف أن كثيرا من العلوم الحديثة جاءت إما منفصلة عن تراثنا ، أو أنه قد تم تشويه حقيقة هذا التراث .

(٢) د / محمد محمد حسين (حصوننا مهددة من الداخل) ص ٢٥٩ .

ومفاهيمنا نحو التربية والأخلاق ، عن طريق ترويج الآراء والأساليب التربوية والنفسية المنحرفة والفاسدة والمضللة .

ومن أجل تحقيق أنثروبولوجيا محلية ، فإن من واجبنا أيضاً ، أن ندعم مفهومنا نحو علم الاجتماع الإسلامي ، ونبعد كل مايروجونه في مؤتمراتهم من مفاهيم في علم الاجتماع الحديث تتضمن تعاليم وأوهام يضعونها في مكان التقديس الذي يحظى به الدين وذلك حتى لا نسلم أنفسنا وعلومنا لسموم أهداف اليهودية العالمية[1] .

ويرى المؤرخ الشيال أن الفرصة واسعة أمامنا لإعادة فحص التراث العربي والإسلامي ودراسته – وهو الذي يتصف بالعمق والتنوع والغزارة وذلك من أجل كتابة تاريخ الأنثروبولوجيا من جديد ، لأنه قد يوجد في هذا التراث كثير من المفهومات والنظريات عن الجنس البشري والحضارة الإنسانية وأوجه الحياة اليومية ومشاكلها ، مما يشغل بال الباحثين والأنثروبولوجيين المعاصرين . كما يمكن لهذا التراث أن يقدم لنا أرضية وأفكاراً ومعلومات تخدم النطاق المحلي ، وتتجاوزه أيضاً ، لتساهم في حل مشاكل الإنسان ونقتدي بما طبقه علماء الهند عندما أعادوا قراءة تراثهم القديم في إطار عصري ، وقدموا إسهامات كثيرة تراجع المفهومات الأنثروبولوجية الغربية ، كما طوروا دراساتهم الأنثروبولوجية لتتشكل في إطار الجمع بين الفكر الهندي التقليدي والأنثروبولوجيا الاجتماعية المعاصرة[2] .

ويرى المؤرخ الشيال أيضاً أنه بالإضافة إلى حاجتنا للوقوف على ما في تراثنا من مادة إثنوجرافية أو عناصر فولكلورية ، يجب علينا التوسع فيها والتعمق خاصة في فهم المنهج ، كما يدعو إلى ربط هذا بالأجواء الفلسفية والعلمية للفكر العربي المعاصر ، مشيراً في هذا إلى دعوة بعض مفكرينا إلى أهمية البحوث

---

(١) المرجع نفسه ، ص١٩٨ – ١٩٩ .

(٢) نقلا عن د/حسين فهيم (قصة الانثروبولوجيا) ص٢٥٩ .

الأكاديمية التي تتناول نشر التراث الفلسفي نشراً محقَّقاً ؛ لأنه بمنزلة وضع حجر الأساس الذي يقوم عليه البناء الجديد ، إذ لا نجد أية نهضة ثقافية إلا واقترنت بإحياء التراث القديم ، كأنما يريد الأبناء أن يستوثقوا من استقامة طريقهم إذ هم سائرون على سبيل موصولة بأسباب الحضارة ، يسلم منها الآباء خبرتهم للأبناء ، وأنه لا مندوحة لنا عن مطالعة ما قد تركه الباحثون في هذه الدراسات[1] .

ومن نماذج الكشف عن الذات الحضارية ، استعادة المفاهيم الأصيلة عن الصناعات وعلومها وفنونها ، والروابط التي تربط بين هذه الصناعات والعلوم والفنون ، التي تم طمس معرفتها بالإضافة إلى ما كانت عليه من خلقيات وقيم وتنظيمات اجتماعية وعلاقة ذلك كله مع النسق الأسري والتربوي .

لقد اعتاد الإعلام الحديث أنه إذا مضى على موضوع من المواضيع أو حدث تاريخي من الأحداث وقت من الزمن فإنه يمكن نشر ما يتعلق به من وثائق ورسائل وتقارير بما فيها من أسرار ، كان محظوراً نشرها في حينها ، والمبرر لنشرها الآن هو مرور الوقت واستهلاكها وانتفاء الفائدة منها .

وقياساً على هذا فإننا نجد أن أسرار صناعاتنا وما ينطوي عليها من علوم وفنون ومنها التي تم جمعها بجهود المستشرقين وعملائهم منذ وقت مضى قد تم نشرها بعد ذلك ولكن نشرها هذا قد تم بنوع من طمس المعرفة في أمر صناعاتنا هذه وعلومها وفنونها ، فقد اقتصر على نشرها تحت مسمى الفنون الإسلامية حيث وجدنا الاهتمام الأوربي في المتاحف الخاصة لهم يُصر على هذه التسمية متجاهلاً الاسم الحقيقي لها وهي أنها صناعات إسلامية .

وفي المناسبات المختلفة كان ذلك بدافع الاهتمام الرأسمالي بمثل هذه المقتنيات الفنية الثمينة أو بدافع الاهتمام العلمي المجرد بها .. مع إغفال لجوانبها الصناعية والعلمية الإسلامية ! !

---

(١) نقلاً عن المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .

إن استحداث عبارتي (الفنون الإسلامية) و (الفولكلور) قد ساهم في فصل (ماضي) هذا النوع من الثقافة عن (حاضرها) فماضى هذه الثقافة ، وما تحمله من ذاتية فكرنا الحضاري يحمل اسم « الفنون الإسلامية » ، أما حاضر هذه الثقافة وما نحن عليه من بقاياها ، فيحمل اسم « الفولكلور » .

إن مثل هذا الفصل قد ساهم في منع تحريك الفعاليات الثقافية للمواءمة بين ماضي هذه الثقافة وحاضرها ، بسبب هذه المسميات المختلفة للعلوم التي لم تتضح الرؤية فيها بشكل جلي ؛ وذلك بسبب عدم ربطها بمقاييسنا ومفاهيمنا وقيمنا وأصولنا الفكرية .

وهناك نقطة هامة وهي أنه عندما تثار قضية الفولكلور والتراث في المجتمعات ، يمتليء القلب بالحنين ، ويتحرك الوجدان بالشوق إلى ماضينا ، ونتحمس لإظهار هذه المناسبة بكل ما عندنا من صناعات مرتبطة بماضينا ونقوم بعرضها دون أن نعرف قيمتها الحقيقية ، ويذهب الكثير منها ليضاف إلى متاحف الغرب ومقتنياته ، إما عن طريق بيعها في سوق المزاد ، أو تقديمها لهم كهدايا .

فالفولكلور عندهم له وجهان : وجه مرتبط بحضارتنا الماضية وصناعاتنا ، كما يعرفونها هم وحدهم تماماً ويدركونها في جوانب الفعاليات الثقافية التي تحتاج منهم إلى مزيد من الطمس في المعرفة يتناسب مع عمليات التغيير التي يوجهونها لبغيتهم ، ووجه آخر كما يصوره الاستعمار ويروجه لنا ؛ حيث يظهره – متعمداً – على أنه تراث القول وأدب العوام وما إليهما ، بالإضافة إلى توجهه لإبراز كل ماله علاقة بالترف الحضاري ، أو الذي لا يوجد منه فائدة ترجى ، أو النوع الفاسد منه الذي يكون إظهاره على حساب العناصر والقيم ، النافعة التي تبني جوانب الحضارة .

يجب أن ندرك مثل هذه الجوانب النافعة ، التي تبني الحضارة ، هي المجالات التطبيقية العملية المتصلة بالمنجزات العلمية وما يوجه هذه من ثوابت فكرنا ومقاييسنا وخلقياتها ونظرتنا إلى الأمور ، والتي عمل الاستشراق والتنصير

طويلاً على هدمها وتسريب الشبهات في تكوينها ؛ لخلق حالة من عدم الثقة بالنفس بصلاحيتها ؛ لكي تجرفنا رياح غزوه الثقافي الحديث ، مع مشاريع التفتيت لكل جانب يؤكد تمايزنا الحضاري ، عنهم ؛ ولتسهل عملية احتوائنا بعد ذلك مع موجات تفوقهم العلمي الصناعي والاقتصادي ، المرتبط بالتكنولوجيا .

إن أول خطوة تمهد طريقهم هذا ، وهي عملية قطع الصلة بين مرحلة الثقافة الحاضرة ، وماضيها ؛ فالماضي عندهم – كما يصورونه لنا – ليس أكثر من فنون إسلامية ، مصيرها متاحف التاريخ أما الحاضر ، فهو بنظرهم ليس أكثر من فولكلور شفاهي[1] أو صناعات فولكلورية ساذجة ، ليست خليقة بالاحترام والتقدير والاهتمام ، وأن استخداماتها لا يتعدى أن يكون تحفاً فولكلورية للاقتناء في المتاحف ، أو لتزيين المنازل ، أو لتساهم في تشكيل الترس الثقافي في المدينة الكبيرة .

الابتعاد عن الاتجاه الاستهلاكي في الفن الشعبي :

لقد درج استخدامنا لمفهوم الفن من خلال إعلامنا ، سواء في صحفنا أم في مجلاتنا المحلية ، على أنه يتركز على جوانب معينة من الترويح ، كالتمثيل والغناء والموسيقى والرقص ، وكل ألوان الترويح ومغرياته الحديثة .

ذلك لأن التوجيهات التي أصبحت سائدة عن الفن هو أن يكون استهلاكاً لجوانب الحضارة ، وأن يقتصر على الدائرة التي تقوده إلى حالة الترف الحضاري ؛ ليساهم في تشكيل ثقافة المدينة الكبيرة .

وقد بينا أن مثل هذه النوعية من الفنون قد ساهمت في طريقة توجيه الفنون

(١) الفولكلور الشفاهي عندهم له وجهان : وجه كما يعرفه ويفهمه الاستعمار بجميع جوانب الحضارة وفعاليات وعناصر التغير ؛ ووجه آخر يصورونه لنا في الجوانب الحضارية التي لا تفيد بل تساهم في تضييع جهودنا وطاقاتنا ، التي كان أولى بها أن تبني واقعنا المعاصر .

الشعبية واستهلاك نماذجه الضعيفة ، وخاصة عن طريق فن الإعلام والصورة ، لكي تكون على حساب المجهودات الدراسية . لذلك فمن الواجب الابتعاد عن هذا النوع من الاستهلاك ، الذي لا يدع الفرصة لمثل هذه المجهودات العلمية ، في أن تميز بين صالحه وطالحه ، وأيضاً بين العناصر الثقافية الراقية ، والعناصر الثقافية المنحطة : أو يكون مثل هذا الفن سبباً في تكسير قاعدة الحلال والحرام عن طريق الاستمتاع بالمتعة الحرام ، وتسخير أحدث التقنيات العلمية من فن الصورة والسينما لتكون في خدمة ذلك ، بدل أن نعرض فيها ما يساعد على تحقيق التوازن بين احتياجاتنا بما يحقق أهدافنا ، ولكن الاتجاه الاستهلاكي في الفن عامة ، قد أثر في الاتجاه بالفنون الشعبية إلى أن تكون استهلاكية أيضاً .

فلابد من الوعي بأصولنا الثقافية وجذورنا الحضارية ، من أجل استعادة أسباب قوتنا في أعمال البناء والفن والصناعة ، وخدمة ذاتيتنا الحضارية ، ومن ثَمَّ ذاتية الإنسان المعاصر ، التي قوَّضتها الثقافة المادية العصرية ، ولابد من الابتعاد عن كل الفنون والصناعات وعلومها ، التي تؤدي إلى الاستهلاك وفي حضارتنا ، وخاصة عندما تكون مفصولة عن قيمنا ومقاييسنا ومخالفة لمقومات حضارتنا ، إذ إن الاستمرار في الأخذ بها يعمل على تفتيت مقومات حضارتنا وإفسادها ، داخل عمليات التغيير المرتبطة بالأنثروبولوجيا وفروعها ، التي درج الاستعمار على استخدامها .

نحن والتراث

ونحن نعيش المتغيرات الحديثة ، لابد لنا أن نسجل جميع جوانب فولكلورنا ، الذي يخشى عليه من الاندثار والضياع مع تحديات العصر وتياراته المتلاطمة ، واختلاط أوراقه ومتغيراته وإن مسألة التراث تعني كل الجوانب المتعلقة بثقافتنا في ماضيها وحاضرها ، وذلك من أجل وعي ذاتيتنا ، ووضع تصوراتنا لما ينبغي علينا تنفيذه من أجل وضع خطط مستقبلنا الحضاري ، والسعي لتحقيق أهدافنا .

ويشمل موضوع الثقافة ، وكل ما يتعلق فيها من تراث مكتوب أو مخطوط ، أو آثار مادية وشواهد عملية ، إما محفوظة في المتاحف أو المكتبات أو أن بقاياها لا زالت تعيش واقعها العملي ، وهي تمثل ما بقى من نماذجنا الحضارية ، ومن الجدير أن نذكر أن هذا التراث لا ينطبق على قرآننا الذي تكفل الله لنا بحفظه ، فقال تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ (سورة الحجر - ٩)

لأن قرآننا إنما هو منهاج لنا ودستور لواقع حياتنا ومعاشنا ، ونور لدرب حضارتنا وطريقها ، ما إن تمسكنا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فلن نضلَّ طريقنا أبداً .

وقد ثبت تخفّي العلمانيين والتغريبيين خلف كلمة التراث ؛ ليهدموا أصولنا ؛ ومن ثم جميع جوانب حضارتنا ؛ لكي يتم لها إذابة شخصيتنا الحضارية في بوتقة مفهوم الثقافة العالمية التي تطرحها موجات الفكر الغربي .

أما نماذجنا الحضارية المتعلقة بأعمالنا وصناعاتنا التي تقع تحت مسمى الفنون الإسلامية أو الفنون الفولكلورية المادية أو غير المادية ، وما يدخل تحت هذه المسميات من ألوان رقص وغناء وأمثال شعبية وملابس شعبية .. فيجب ألاَّ نسخر منها بطريقة تعاملنا معها ، كما تفعل موجات الثقافة المعاصرة ؛ بأن تقتصر على استهلاكها داخل قفص مسرح المدينة ؛ لكي تنضم إلى ثقافة المدينة ، فتساهم في تشكيل ترسها الثقافي ، الذي يذيب فردية الإنسان ، أو أن نقوم على تهذيبها

لكي تكون وسيلة من وسائل الترفيه والإبهار الثقافي في المدينة ، بعد أن تطمس خصائصها الأساسية ومدلولاتها العلمية وروابطها ، وما شابه ذلك من أشكال السخرية من التراث ومن قيمه الدينية والخلقية .

وبمعنى أوضح ، أن نمتنع عن أسلوب التيارات الحديثة التي تعتمد على عدم إتاحة الفرصة لتراثنا الفولكلوري كي يتنسَّم هواءه في حياة الحضارة المعاصرة ، بل توجه تياراتها لتفتيته وهدمه باليد اليمنى ، والسخرية منه وجعله ضمن ثقافة المدينة الكبيرة ، باليد اليسرى .

إننا نعتبر نماذجنا الحضارية ، وما فيها من صناعات حضارية ، وفنون العمران التي تسمي بأم الفنون[1] ؛ هي رصيدنا الحضاري أو الثقافي الذي من واجبنا حمايته من عوامل التفتيت في التيارات المعاصرة ، والعمل قدر الإمكان على أن نتنسم هواءه ، ونبدع أشكاله في بنائنا الحضاري الجديد ، على ضوء المتغيرات الحديثة ، ونضع خططنا على ضوء دراسة متغيرات ثقافتنا ، وعلى ضوء النظرة الشاملة التي تمثل الكل الحضاري في ماضيه وحاضره ومستقبله .

إن دراسة ثقافتنا في أشكال تراثنا ونماذجنا الحضارية دراسة وافية على ضوء العلوم الأنثروبولوجية والفولكلورية الحديثة .. إن مثل هذه الدراسة تقدم مساعدة كبيرة كي نحافظ على شخصيتنا المميزة بلا خوف من الضياع ضمن تيارات العصر ؛ فالعودة إلى الأصل هي أسلم الطرق وأقصرها لتحقيق واقع حضاري معاش ، يساير العصر ، ويرتكز بنفس الوقت على أساس متين .

ومن هذه النماذج الحضارية ، التي يجب أن نحافظ عليها ، صناعاتنا التي تمثل حرفنا الفردية والجماعية ، والتي تدعم ذاتية الفرد وذاتية الجماعات ، والتي تمثل كل عوامل الاكتفاء الذاتي للمجتمع ، والتي كانت عليها حضارتنا في الماضي كما كانت عليها كل الحضارات البشرية الماضية ؛ ذلك لأن مؤثرات التكنولوجية

(١) د / زكريا إبراهيم (فلسفة الفن في الفكر المعاصر) فلسفة الفن عند ألان ، ص ٣٣٦ - ويسمي فن العمارة بأم الفنون ، لما يحتوي على فنون كثيرة تلحق بهذا الفن .

المعاصرة قد سحقت الاحتياجات الفردية والجماعية الحقيقية عن طريق طغيانها الآلي ، وتكنولوجيتها المتوسعة ، لكي تحتوي عوامل الاكتفاء الذاتي التي كانت بمثابة إيديولوجية بالنسبة للجماعات البشرية .

وما يدعم هذا ويؤكده في العقيدة الإسلامية أن القيام بالصناعات فرض كفاية على المسلمين[1] ، كما يأثم المسلمون إذا كانت هناك صناعة يحتاجونها ولم يأخذوا بها كصناعة الملابس وصناعة الأغذية وصناعة البناء .. إلخ . ذلك لأن من أولويات ثقافتنا الإسلامية ، تأكيد فردية الإنسان عن طريق صناعاته التي يجب أن ترعى قدراته ، وتكون في موقف متوازن مع الآلية الحديثة .. . بل ينبغي أن تتفوق في قيمتها الاجتماعية على الإنتاجية الآلية ، وإذا قامت بتأدية حاجات الإنسان ولم ندع العامل المادي والرأسمالي يقوض هذه المعادلة المتوازنة في تأمين احتياجات الإنسان الضرورية أو الحضارية ، لأن العامل الإنساني هو الأساس في صنع الحضارة ، وهذا ما يجب أن نؤكد عليه في كل مجال .

(١) عبد العزيز بن إبراهيم العمري (الحرف والصناعات) مرجع سابق ص ٦٠ .

الحاجة إلى تحقيق شمولية المعرفة

إن ما يتميز به الفكر الإسلامي من الدعوة إلى النظرة الشمولية إلى الإنسان وحضارته أمر مفيد جداً في هذا المجال لأن الإسلام يحث الإنسان أن يستخدم عقله وقدراته وينظر إلى ما تقدم يداه ، ويدعونا إلى دراسة التاريخ ، وأخذ العبرة والعظة منه . يقول تعالى : ﴿ **ولا تقفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا** ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ **أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض** ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل** ﴾[٣] .

فالإسلام ، كما أنه يهتم بجميع جوانب حياة الإنسان ، فإنه يدعو إلى النظرة الشمولية لوجود الإنسان في هذا الكون .

إن عصور الضعف والانقسام التي مرت بها الأمة العربية والإسلامية كانت تتميز بالعجز عن تحقيق الرؤيا الشاملة والتي كانت بعكس ما تتطلبه خاصية الإسلام وسماته التي تطبع ثقافة الإسلام عن طريق أصوله الفكرية[٤] .

وتأتي مميزات العمل الأنثروبولوجي بما يتفق مع تحقيق هذه الشمولية في المعرفة ، التي يتطلبها الإسلام . فإلى جانب ما تتميز به دراسة الأنثروبولوجيا لكافة المجتمعات ، باعتبار ذلك إنما هو يمثل جزءاً من منظورها الشمولي ، يتجه الأنثروبولوجيون (علماء الإنسان) عند دراستهم لأسلوب حياة مجتمع معين إلى

---

(١) سورة الاسراء ، الآية (٣٦) .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (١٨٥) .

(٣) سورة الروم ، الآية (٤٢) .

(٤) د / محمد عمارة (التراث في ضوء العقل) ص ١٩٠ .

الربط[1] بين الجانبين المعنوي والمادي لما يدور في الحياة اليومية للناس ، وإبراز الكيفية التي ينظم بها الأفراد والجماعات وسائل معيشتهم والمحافظة على بقائهم ؛ لهذا لا تفحص الأنثروبولوجيا نظاماً أو نشاطاً معيناً إلا في إطار ترابطه وصلاته بالنظم الأخرى ؛ ومن ثَمَّ ، أصبحت الدراسة الحقلية ، التي تقوم على الاتصال المباشر والمكثف بمجتمع الدراسة ، سمة مميزة في تقاليد العمل الأنثروبولوجي لدراسة الثقافات البشرية .

ولعل من السمات أو الخصائص الأخرى التي تنفرد بها الأنثروبولوجيا ، أنها تأخذ أيضاً بمنهج المقارنة الموسعة . وهي في ذلك تختلف عن العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى في أنها تسعى في تعميماتها إلى مقارنة النظم ، أو أوجه النشاط الإنساني ، موضع البحث عبر الأماكن وعبر الأزمنة . ولقد استفاد الأنثروبولوجيون ، في تعميق هذا النوع من المقارنة ، مما حدث من تطوير لوسائل توثيق المادة وتحليلها باستخدام أدوات التكنولوجيا المتقدمة .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن تحقيق شمولية المعرفة عن جوانب حياة الإنسان ، بالإضافة إلى مختلف جوانب حضارته وثقافته ، هو أمر يتميز به هذا العلم ؛ حيث نشأ عن ذلك تعدد فروع الأنثروبولوجيا ، وتعدد فروعها وتخصصاتها ، كما رأينا سابقاً .

ونتيجة لهذا ، فقد اضطر بعض العلماء ، مثل الدكتور شاكر سليم ، إلى حسم مشكلة هذا التعدد في قاموس الأنثروبولوجيا من أجل تسهيل المعرفة ، فحددها في ثلاثة تخصصات رئيسية فقط ، وهي : الأنثروبولوجيا الطبيعية ، والأنثروبولوجيا الثقافية ، والأنثروبولوجيا الاجتماعية ، وذلك في تعريفه[2] حيث يقول : « إن الأنثروبولوجيا هي علم دراسة الإنسان طبيعياً واجتماعياً وحضارياً » .

---

(١) د / زكي محمد إسماعيل (:الانثروبولوجيا والفكر الاسلامي) ص ٦٥ – ٧٢ .

(٢) د / حسين فهيم (قصة الانثروبولوجيا) ص ١٨ .

أي أنها تشكل في النهاية منهجاً يسعى إلى تجميع المعرفة بالإنسان من كافة الجوانب ، وذلك بهدف تقديم فهم متكامل ومترابط عن الإنسان وحياته ونتاجه الحضاري في الماضي والحاضر ؛ ومن ثَمَّ يكون لديها القدرة على استقراء أنماط الحياة المستقبلية .

ويعتبر علم الفولكلور علماً هاماً في المعرفة الأنثروبولوجية ؛ فهو – كما رأينا – فرع من فروع علم الأنثروبولوجيا ، ولكي نقوم على توضيح وظيفته بشكل جلي ، من أجل تفادي توظيفه الاستعماري ، ولتوجيهه وجهته الوظيفية البناءة ، فإن معرفة وظيفة الجزء لا تكون إلا في ضوء معرفة وظيفة الكل ، الذي يتمثل بعلم الأنثروبولوجيا . وقد أثبتت المعرفة الأنثروبولوجية اتصال هذين العلمين . بعضهما ببعض اتصالاً وثيقاً ، وأن فروع الأنثروبولوجيا وتخصصاتها عموماً ، ما هي إلا روافد يغذي بعضها البعض من أجل المعرفة الأنثروبولوجية عن الإنسان وحضارته . وكما أن علم الانثروبولوجيا يملك إمكانية توظيفه لخير المجتمع كذلك فإن أحد فروعه وهو علم الفولكلور يمكن أن يتم له ذلك ، أي أن هذه المعرفة جميعها يمكن توظيفها توظيفاً بناءً وإيجابياً لما يحقق خير مجتمعاتنا والإنسانية جمعاء .

شمولية المعرفة ومواجهة العقبات

إن تحقيق شمولية المعرفة تساعدنا كثيراً في مواجهة العقبات التي تقف في طريق تحقيق أهدافنا ، كما أن هذه تعتبر من الوسائل الفكرية التي تساعدنا في معركة التحدي لإثبات وجودنا الحضاري ، بعد أن وصلنا إلى ما وصلنا إليه من ضعف حضاري .

ذلك لأن عمليات التغيير التي شملت العالم أجمع في التقدم الحضاري التكنولوجي والعلمي والاقتصادي ، لم تصل إلينا بمفردها بل رافقها تأثيرات الحضارة الأوربية باتجاهاتها الاجتماعية والعلمانية والسياسية ، التي وقفت خلف تقدمها الاقتصادي والتكنولوجي ، لتعمل على أن تذيب شخصية مجتمعنا الإسلامي ، محاولة أن تقضي على كل مظاهر حياتنا القديمة ، لتحيلها إلى متاحف التاريخ ، وتستبدلها بمظاهر الحياة الغربية وأساليبها .

ورافق ذلك أيضاً ، التركيز على تغيير أنظمتنا التعليمية والتربوية والاقتصادية والاجتماعية ، سواء عن طريق أعمال الاستشراق والاستعمار وأعوانه ، أو عن طريق التأثير الفكري للعلوم الجديدة ، أو أساليب الحياة الحديثة التي تطرحها الثقافة المعاصرة . وقد لعبت التعريفات العلمية الأوربية التي صدرت إلينا دوراً كبيراً في طمس هذه المعرفة العلمية وتوجيهها الوجهة الاستعمارية ، مما جعل جهودنا بلا جذور ولا نظرة تكاملية .

إن توسيع معرفتنا الأنثروبولوجية عن الشعوب الأخرى هو أمر حثت عليه الآيات القرآنية ، ويشمل ذلك ما يتعلق بالثقافة الأوربية وأعمالها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن من واجبنا أن نرجع إلى ذاتنا الحضارية بما تحتويه من تراث ونماذج حضارية فولكلورية فندرسها دراسة واعية ، ونتعرف على مقاييسنا وأولويات فكرنا ، كما نتعرف على الروابط التي تربط بين الأشياء ، والتي

عمل الفكر الاستعماري كثيراً على طمس معرفتها ، عن طريق تغيير المفاهيم واستبدال التعابير ، وعن طريق إثارة الأضواء للاهتمام بجوانب معينة تهم أعماله ، دون الجوانب الأخرى ، وفي ذلك إنما تعبر عن أصالة اهتماماتنا وينابيع فكرنا الإسلامي المستمد من القرآن الكريم والسنة الشريفة .

إن واجبنا ، عندما تتضح لنا معرفة الأمور ، أن نقوم بتحصين ذاتنا بمقوماتها الفكرية ، ونتمسك بمقاييسنا ، ونظرتنا إلى الأشياء ونستعين على ذلك بتسجيل تراثنا الذي نخشى عليه من الفقدان مع زوابع العصر وتياراته مع التمييز بين صالحه وطالحه . وبعد أن نتمكن من فهم ذاتنا الحضارية ، فإن من الواجب أن يرافقها النظرة المتكاملة والشاملة والمتوازنة بين حضارتنا والحضارة الإنسانية في آن واحد ، وأن نكون حريصين في الوقت نفسه على المحافظة على الحبل السري مع ثقافتنا ، التي تمثل ذاتنا الحضارية والتي تساعدنا على تنظيم جهودنا وطاقاتنا ، من أجل البناء الحضاري الجديد على هذا الأساس .

الباب الرابع

مفهوم الثقافة والحضارة
النشأة والتطور

الفصل الأول
حول إشكالية مفهوم
الثقافة والحضارة والحل

الفرق بين الثقافة الشعبية والثقافة الأوربية المعاصرة :

قبل أن نوضح الفرق بين مفهوم الفنون الشعبية والفنون الإسلامية لابد لنا أن نوضح أوجه الاختلاف بين الفنون الشعبية وفنون الحضارة الأوربية الحديثة ..

إن هذا الفرق يتمثل في أن عطاء الفنون الشعبية ، بشكل عام ، مختلف تماماً عن عطاء الحضارة الأوربية المعاصرة .

وهذا الاختلاف يرجع إلى أن الثقافة المعاصرة بمعطياتها ، تسعى إلى تقويض الذات الإنسانية ، وتتنكر لعطائها عن طريق اغتراب الاحتواء لهذه الذات ، لأسباب اجتماعية وثقافية واقتصادية . كما تسعى لاغتراب الجماعات البشرية وطُرُقها في اعتمادها على نفسها ، عن طريق التفوق التكنولوجي والإعلامي ، الذي تملكه النخبة الفكرية ، التي تقف خلف هذه الثقافة[١] .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الحضارة الحديثة باتجاهها العلماني ، تسعى إلى التنكر لفكرة الأديان السماوية ، وتعتبرها من زمرة العقائد التي يصنعها الإنسان بتصوراته ، ونتيجة لهذا ، فقد تأثر الفن بأساليب الحياة الحديثة وعقائدها الاجتماعية ؛ مما جعل الفن يفقد روابطه بجوانب خبرة الإنسان المختلفة ، سواء بصناعاته التي كانت تسيطر عليها ذاته ، أم بجوانب الإيمان والأخلاق التي قامت عليها العلاقات البشرية في المجتمعات السابقة ، وأصبح الفن المعاصر ، مرتبطاً ، إما بالتكنولوجية الحديثة وصناعاتها أو بالفلسفات المادية المُعاصرة ونظرتها إلى الفن الجميل والفن المثالي[٢] ، الذي يجد الإنسان فيه التعويض عن حرمانه الوجداني من حاجات الروح .

---

(١) د / السيد علي شتا (نظرية الاغتراب) ص ١٧٢ وما بعدها .

(٢) د / زكريا إبراهيم (فلسفة الفن في الفكر المعاصر) مكتبة مصر ، القاهرة ١٩٦٦ انظر إلى فلسفة كامي وهربرت .

أما الفنون الشعبية ، فهي عفوية مرتبطة بفطرة الإنسان ، ومشاركة الذات الإنسانية والكيانات الفطرية في صنع ثقافته وحضارته ؛ حيث اعتاد الإنسان أن يعطي قيمة جمالية لنشاطاته وخبرته البشرية .

وتأتي مشاركة الإنسان في صنع ثقافته هذه ، عندما يتم الأخذ والعطاء بين ذاته الإنسانية وثقافة مجتمعه ، بما فيها من عقائد وقيم وعلوم وصناعات ، تراكمت من خلالها خبرة الآباء والأجداد فكانت جوانب الإبداع في أعمال الإنسان ونشاطاته ، فالفن الشعبي يتناول جميع جوانب حياة الإنسان من صناعات عملية مختلفة ، أو كتابية مثل فنون القول والشعر وكتابة النثر والعلم والتاريخ .

وقد صنف الإنسان معارفه إلى علوم وفنون ، ومن ثقافته الشعبية أيضاً ، ما يشمل فنون الترفيه والرقص والغناء والحكايات ، وفنون الأهازيج والمواويل .. . وكلها من عطاء ذاتية الإنسان وفرديته التي كانت محترمة ومصونة داخل الجماعات الفطرية عند تعاملها بالأخذ والعطاء ، مع ثقافة المجتمع من خلال العلاقات الاجتماعية الطبيعية التي كانت تلازم هذه الجماعات .

وقد أطلق على هذه العلاقات الاجتماعية ، داخل المجتمع المحلي (١) ، بالعلاقات الطبيعية المتكاملة ، لأنها تختلف عن العلاقات في المجتمعات الحديثة المتسمة بدرجة عالية من عقلانية الصناعة والثقافة والتي يغلب عليها الطابع المادي .

وقد قامت الدراسات الأنثروبولوجية والفولكلورية بدراسة الثقافات الفلكلورية في مختلف الجماعات البشرية ، ولكي تتمكن هذه الدراسات من

---

(١) إن طبيعة المجتمع المحلي لها علاقة وثيقة بالنماذج الفولكلورية المتعلقة بفنون العمران ؛ قبل دخول عوامل التحديث ، وذلك لأهمية هذا النوع من الفن الذي سماه بعض فلاسفة الفن بـ (ام الفنون) وإذا فكرنا في هذا التعبير نجد فعلا أن الفن المعماري يرتبط به كثير من الفنون ، ويتضمن في العمران ، ابتداء من فنون عمران المنازل ، إلى فنون عمران المجتمع المحلي ؛ إلى فنون عمران المدينة بكاملها ، وما يرتبط به من صناعات فنية أخرى .

استيعاب كل جانب على حدة . فقد قامت التخصصات المختلفة لتخدم فكرة تعمق المعرفة في كل جانب على حدة ، وبشكل كامل . إلا أن جميع هذه التخصصات ، تلتقي ، في النهاية لتدرس الإنسان وحضارته من خلال خبرته البشرية ، بما يحقق شمولية المعرفة عن الإنسان وأعماله .

ونتيجة للجهود الاستعمارية لإبعادنا عن مجالات الصناعة ، فقد تم تصوير الفولكلور على أنه الخبرة البشرية المتعلقة بالتراث الشفاهي والترفيهي كالرقص ، وفنون القول مثل الزجل والمواويل وأعمال السحر والتنجيم ؛ لكي لا تقوم لنا صناعة تنهض بنا . إلا أن التعمق في المعرفة الأنثروبولوجية تبيِّن أن الدراسات الفولكلورية شملت دراسة خبرة الإنسان وخبرة الشعوب من خلال الحضارة الماضية ، التي سبقت نزعة التحديث المعاصرة والاهتمام بها جميعها ؛ لما يتمثل فيها من عطاء الذات الإنسانية ، وعطاء الفنان الشعبي ، من خلال نفحاته الإنسانية . وإن الثقافة الشعبية أو الثقافة الفولكلورية ؛ إنما هي استيعاب ذلك التراكم الثقافي على مر العصور ، خلال الأزمنة السابقة ، إلى ظهور المجتمعات ذات التقنية الحديثة ، ومعطيات الحضارة الآلية واتصالاتها الحديثة . كما ان الفهم الأوربي لهذه الثقافات ساعد على توجيه عمليات التغير الثقافي من خلال تأثير الثقافة الأوربية المعاصرة وعمليات التنمية التي وجهتها الدوافع الاستعمارية .

وهكذا ترى أن حقيقة الفولكلور لها وجهات : وجه لما يهمهم أن يعرفوه ويفهموه ، ووجه آخر لتصدير المعرفة الاستعمارية للعالم الثالث .

كيف ينشأ الفن الشعبي :

الفن الشعبي يخضع للتقاليد ، حيث ينشأ ، من ثمَّ ، داخل المجتمع الذي يرعى الكيانات الفطرية ، سواء على مستوى الفرد أو الأسرة أو المجتمع المحلي . وإن هذا هو عكس ما هو عليه الحال في المجتمعات الحديثة ؛ حيث يكون الفرد فيها كالذّرة داخل المجتمع الكبير ، أو المجتمع الجماهيري ؛ ومن ثَمّ ، تكون ثقافة هذا المجتمع

هي المسرح الذي يحتوي الإنسان داخله ، حيث تطغى ثقافته على الروح الذاتية(١) للفرد ، وتعمل على تقويضها .

أما في المجتمعات القديمة ، أو الفولكلورية التي ترعى الكيانات الفطرية ، ومن ثم الإرادة الفردية المسماه بالإرادة الطبيعية ، فإنه يتم الأخذ والعطاء المتبادل بين ذاتية الإنسان المتمثلة في حريته وإرادته ، وبين ثقافة المجتمع التي تلتقي وتتوازن فيها العلاقات المتبادلة بين هذه الكيانات الفطرية .

ومن الطبيعي أن يصدر عن مثل هذه العلاقات التعبير التلقائي العضوي عن دافع الإنسان ورغباته ، كما يتوافر فيها كل عناصر الحب والولاء والشرف والصداقة ، وما إلى ذلك في المجتمع المحلي .. . وينشأ عن مثل هذه الإرادة ما يسمى بالعادات والتقاليد ، بعكس ما هو عليه الحال في المجتمع الكبير ، الذي ترافقه ، الإرادة العاقلة ، أي الإرادة الرشيدة التي تلازمها سلطة القانون ، وهي تفتقد للتلقائية والدافعية والعناصر الأخلاقية والإيجابية ، التي صاحبت الإدراة الطبيعية في المجتمع المحلي والتي نشأعنها ما يسمى بالفنون الفولكلورية .

أما طبيعة الفنون في المجتمع الكبير ، الذي تلازمه الإرادة العاقلة (الرشيدة) فهو الفن التشكيلي الحديث ، الذي يختلف عن الفن الذي ينبع من التراث .

ومن أجل إيضاح مثل هذا الاختلاف ، نستعين بوصف « ماكس فيبر » لطبيعة العلاقات التي تتسم بها المجتمعات الصناعية التكنولوجية ، والتي تكون ملازمة للمجتمع الكبير في الحضارة المعاصرة ، حيث أنها تسيطر على الإنسان ، وتسلبه حريته التي كان ينعم بها في الماضي ، كما أن مثل هذه العقلانية تعمل على التهام المجتمع التقليدي والثقافة التقليدية ، وتهدد الإبداع والتحرر ، وتدمر العقل(٢) .

ويرى البعض أنه ليس هناك فنٌّ منفصلٌ عن التقاليد الموروثة(٣) ، ولكنها بشكل عام ، تكون أكثر وضوحاً في شخصيتها العامة في التراث أو الفنون الشعبية . عما هو عليه الحال في الفن الحديث .

---

(١) (٢) د / السيد علي شتا (نظرية الاغتراب) انظر فكر زمل ، تونيزة ، وماكس فيبر .

(٣) عبد الرحمن المزين (موسوعة الأزياء الشعبية الفلسطينية)

نماذج من فنون الشعوب وأثر الإسلام فيها

ذكرنا سابقاً ، أن أهم ما يميز الفنون الشعبية ، كثقافات قديمة سميت بالتقليدية ، أنها تمثل عطاء النفس وعطاء الذات الإنسانية ؛ حيث عملت المجتمعات قديماً للمحافظة على فرديتها وذاتيتها بحيث تنمو هذه الذات ، وتكبر وهي تمارس عملية أخذ وعطاء مستمر مع ثقافة المجتمع ، بما يتضمن من تربية وعلوم وصناعات وعاداتٍ ، كما تتأثر بعقيدته وتصوراته عن الألوهية والكون والسحر والعادات الاقتصادية وألوان الترويح عن النفس والأمثال الشعبية ، وكل العادات والقيم التي ورثها الأبناء عن آبائهم جيلاً بعد آخر .

ومن المعروف أن الإسلام قد انتشر في البلاد العربية أولاً ، ومن ثم انتشر في ربوع أخرى شملت أجزاء مختلفة من العالم .

وقد عُرفت المنطقة العربية بأنها تتصف بخصائص روحية منذ القدم ، جعلت فنونها تحمل طابعاً موحداً في جميع العهود والأمصار العربية[1] .

ويحدثنا خبير الفن « عفيف مهنسي » عن قضية الوحدة الفنية بين الأقطار العربية التي لاحظها كثير من خبراء الفن الأجانب ، حيث يقول عن هذه الوحدة الفنية : إنها تمتد ، ليس فقط لكي تشمل العهود الإسلامية ، بل لكي تصل في قدمِها إلى الجذور الأولى للأمة العربية ؛ فالتقاليد التي وضعت أصول الفن الآكادي الآشوري ، والتي امتدت إلى الفن الآرامي والفينيقي ، هي نفسها التقاليد التي ورثها العرب بعد الإسلام . فلقد كره الساميون الأجداد تصوير الأجساد وأقاموا عمارتهم على أسس تصاعدية فعكست بذلك روحيتهم المتعالية ، كالزيقورات والأبراج التي أخذت شكل المآذن ، فصورت انكفاءهم وتأملهم الباطني بطراز عمارته المغلق الداخلي ، الذي نرى نماذجه شائعة حتى اليوم[2] .

---

(١) (٢) د / عفيف بهنسي (جمالية الفن العربي) ص ٦٩ .

ومجمل القول ، أن هناك عقائد وأخلاقيات اتسمت بها هذه المنطقة ، فكانت على شكل تقاليد في بناء حضارة العرب والإسلام ، وصناعاتهم وفنونهم ، وأخذت طابعاً معيناً . وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

ومعنى الحديث أن هذه المنطقة العربية ، وغيرها من المناطق المتأثرة بالحضارة الإسلامية كان فيها الكثير من مكارم الأخلاق على شكل ما يسمونه اليوم بالتراث الثقافي ، وجاء الإسلام ليسد ثغرة قائمة ويتمم ما نقص من بناء هذه الحضارات ، ويصحح ما فسد بسبب هذه الثغرة ، من البناء الاجتماعي .

من فنون الشعوب :

إن الفن الشعبي يخضع بشكل عام للتقاليد وأخلاق المجتمع وعقائده ، أكثر مما عليه الحال في الفن التشكيلي الحديث ، الذي يتبع ثقافة المجتمع الكبير ، مثل مجتمع العاصمة ، التي تتميز فنونها بالعقلانية ، وتسترشد بالعقل الرشيد .

فإذا درسنا موضع الملابس في الفنون الشعبية المتعلقة ببلاد اليابان مثلاً ، فإننا نلاحظ أنهم كانوا قد تعارفوا على أزياء خاصة بملابسهم سواء بما يخص الرجال منهم على حدة أو ما يخص النساء ، أو ما يخص الشباب من علامات مميزة لكل منهم ، وكذلك الحال بالنسبة للأطفال ؛ فهناك تدخل في ملابسهم إضافات أو مميزات ، بحيث تُعرف مرحلة عمر الإنسان من ملابسه . ولهم أيضاً عادات في الملابس خلال أعيادهم وأفراحهم ، وملابس للعمل ، كل هذه تتبع تقاليدهم التي تعارفوا عليها من خلال ممارسة الفردية لإرادتها المتكاملة داخل الجماعات الفطرية ؛ ومن ثم تأثيراتها في المجتمع الكبير من خلال نشوء هذه العادات .

وعادة ما تكون هذه الملابس من معطيات بيئتهم ، كما أنهم يعتمدون على أنفسهم في صناعة نسيجها وشكلها العام (زيها) وزخرفتها بالأشكال التي

تناسب عوائدهم ، وما يرتبط بها من عقائد وأخلاق توارثها الأجيال عن آبائهم جيلاً بعد آخر . وبمقارنة الأزياء الشعبية اليابانية هذه مع الأزياء الشعبية الفلسطينية ، من حيث كونها تنبع من فطرة الإنسان ، فإنها تتفق من حيث أخذها بمبدأ التمايز بين مراحل العمر مثلاً ، وكذلك ناحية الاعتماد على النفس في صناعاتها ، يأتي اختلافها حسب معطيات البيئة وتاريخ الشعب وثقافة المجتمع وجغرافيته . وهذا ما سنلاحظه عند عرضنا لبعض سمات الأزياء الشعبية الفلسطينية .

كيف يغير الإسلام بعض عقائد الشعوب وعاداتها ؟

قبل أن نبين أثر الإسلام في العادات ، لابد من إعطاء فكرة موجزة عن بعض منها فإذا درسنا العادات الشعبية المتبعة في مجال الملابس في أحد الأقطار العربية . ولنأخذ مثالاً على ذلك بلاد الشام ، وبالتحديد الملابس الفلسطينية نجد أن هناك عادات شعبية تأخذ بمراعاة السن في ألوان القماش وطريقة زخرفته .

فمن العادات الشعبية في فلسطين أن ينظر إلى أن من صفات الفتاة الناجحة التي يتمناها أي شاب أن تكون عارفة بهذا النوع من العمل الفني اليدوي « التطريز » فتقوم الفتاة بتطريز عدد من الثياب لها قبل الزواج . وقد تعارفوا على تسميته « الجهاز » حيث يأخذ ذلك وقتاً منها .

كما أن العادة والتقاليد تحتم على كل فتاة أن يكون لها ، على الأقل عدد من الثياب المطرزة تضعها في صندوق مزخرف من الخارج ، لا تمسها ولا تخرجها إلا في المناسبات الخاصة ، كالأعياد والمواسم . وغالباً ما تنقل الفتاة معها هذا الصندوق إلى بيت عريسها[1] ، ونجد أن مثل هذه العادات الشعبية كانت معروفة في أجزاء أخرى من البلاد العربية ، مثل سوريا ولبنان ومصر وغيرها .

إن مثل هذه العادة . عندما ظهر الإسلام في البلاد العربية ، فإنه قد أقرها

---

(١) عبد الرحمن المزين (موسوعة الأزياء الشعبية الفلسطينية) ص٩٢ .

وثبتها ؛ لأنها توافق سلامة الفطرة البشرية ، وتحث الفتاة على الاجتهاد والمشاركة في بناء حضارة مجتمعها ، فيما يخصها من صناعات وفنون بلادها .

الفنون التقليدية تخضع لعادات الشعوب ومعتقداتها :

منذ أن عرف الفنان الفلسطيني فن النقش على العظم ، وعلى الجدران ابتداء من العصر الحجري المتوسط ، ابتعد عن رسم الحيوانات والأشخاص ، وعندما رسم الحيوانات أو نحت نماذج لها ، فإنه اعتمد على الرمز ، وكان رمزه عبارة عن الجزء ليدل على الكل . وقد عثر على مناجل كانت مقابضها تمثل رؤوس الوعول والثيران ، وتاريخها يعود إلى ١٢,٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وقد بقيت هذه الرمزية من أهم مميزات فن النقش والنحت بفلسطين وحتى زخارف الثياب ابتداء من عصر البرنز حتى الآن ، تمتاز بخلوها من تمثيل بعض الكائنات الحية وخاصة الإنسان[١] .

ومن أشهر الوحدات الزخرفية ، الوحدة الزخرفية العددية الشكل ، وذلك مثلما يظهر في الرقم « ٧ »[*] كوحدة زخرفية أساسية على الثياب . وهو يمثل شكل ورقتي شجرة وذلك أشبه بورق شجر الزيتون . وليس المقصود به الرقم العددي بل الشكل الزخرفي المنجل للأوراق فقط .

وقد ابتكر هذا الاستخدام الفني لهذا الرقم بعد الفتح الإسلامي ، حيث يطرَّز على الصدر في مواضع كثيرة وهو يظهر في الغالب على ثياب كبيرات السن من النساء ، وتتدلى منه بعض الوحدات ، الفنية مشكّلاً شكل القلادة . ويزين هذا

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٩٠

(*) إن رقم ٧ له رصيد كبير أيضاً في التراث الإسلامي ، فهو يأتي دلالة على الكثرة والفخامة بطريقة مجازية أكثر من حقيقية فعندما تشير النصوص إلى أن هناك سبع سماوات أو سبع أراضين فليس ذلك حقيقة ، وإنما هو كناية عن الكثرة وعندما يشبه القرآن الكريم الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فإنما يريد أن الله تعالى سيبارك في عملهم ويستثمره لهم وليس الأمر على الحقيقة وهكذا نستدل على أن رقم (٧) قد أصبحت له مكانته العظيمة في النفوس بعد انتساب هذه البلاد إلى أرقى عقيدة سماوية وهي الإسلام .

الشكل أيضا على صدر الصبايا ولكن زخارف صدر الصبابة أكثر من زخارف صدر العجائز . وقد تظهر مثل هذه الوحدات الزخرفية عند تزيين قطع الأثاث المنزلي ، كالشراشف والمخدات وأغطية الطاولات وغيرها[1] ..

صحيح أن مثل هذه الزخرفة الشعبية متقيدة بالتقاليد ، إلا أنها لا تخضع للتقليد وحده فحسب ، وإلا أصبح حتماً عليها أن تكون مصدراً للثبات والبلادة والمحافظة فهي تخضع أيضاً ، إلى جانب خضوعها للتقاليد ، إلى (ملكة الإبداع) عند الفنان الشعبي ، فيضيف أو يغير في الأشكال دون أن يمس الوحدة التاريخية المتوارثة ، أو الخامة المستخدمة ، أو وحدات الزخرفة التاريخية[2] .

الزخارف الحيوانية في عادات التطريز :

ابتعد الفنان العربي عموماً عن رسم الأشخاص وعندما رسم الحيوانات ، فقد اعتمد على الرمز ؛ « لذلك لم تطرز الفتاة الفلسطينية على ثيابها منذ سبعة آلاف سنة وحتى الآن أشكال الإنسان أما الحيوان فقد طرزت أشكالاً مجسمة للأسود والخيول ، وبعض الحيوانات ، رُمزت إليها بجزء منها مثل عين الجمل ، عين البقرة ، قدم الجمل ، رأس الحصان » .

والحصان كان يمثل رمزاً لقوة أهل الحضارة الكنعانية على أرض فلسطين ، حيث بقى هؤلاء الكنعانيون متعلقين بالخيل ، التي تمثل رمزاً لانتصاراتهم . وقد ارتبط الحصان بالفرس الثائر ، ولذلك لم يبرز الحصان ، موضوعاً للزخرفة ، إلا على ثوب زوجة « الفارس الثائر » . كما يظهر في ثياب منطقة القدس على الصدر والبنائق . والفنانة الشعبية لم تطرز رسومات الحيوانات كاملة ، إلا في منطقة القدس[3] واقتصر على حيوانين هما « الأسد والحصان » . وهذا لا يعني عدم ظهور رسومات مطرزة لحيوانات أخرى ، فقد طرزت الفنانة الشعبية رسومات

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨٤ - ٨٦

(٢) المرجع نفسه ، ص ٦٢

(٣) المرجع السابق ص ٨٦ - ٨٨

رمزية للبقر والجمل والحصان ، حيث اقتصرت على استخدام الجزء ليدل على الكل ، وهذه ميزة من مميزات الفن التشكيلي في فلسطين عبر التاريخ .

ومن النقوش التي استمر الأخذ برسمها من عهد الأجداد الكنعانيين إلى العصر الإسلامي « الأسد الخرافي »[1] فالوجه واليدان منه يرمزان لإنسان يمسك بشكل زخرفي أشبه بشجرة الحياة ، وباقي الجسم لأسد له جناحان .

الوحدات الزخرفية من معطيات البيئة وتاريخها :

عادة ما يكون الفن الشعبي ذا أسلوب تلقائي وعفوي صادق ، يستلهم مواضيعه من البيئة والطبيعة ، ولدى دراسة الوحدات الزخرفية في تراث الأزياء الشعبية الفلسطينية ، نجد أنها (تحمل رموزاً أسطورية تاريخية فلكية وجغرافية شعبية ، ورموزاً مرتبطة بالأرض والخضرة والطيور ، وأن معظمها يعود إلى فترة موغلة في القِدم ، وقد استمرت حتى الآن دون انقطاع فهي تمثل هوية الشعب العربي الفلسطيني ، كما تمثل وجوده التاريخي على أرضه)[2]

العقيدة الإسلامية تؤثر في عقائد الشعوب وعاداتها :

١ - **بالنسبة لما يتعلق بالعقائد** : فإننا لن نستطيع الإحاطة الآن بكل أطراف موضوع الأزياء الشعبية ، وشكلها الجديد الذي أخذته بعد دخول البلاد في الإسلام ، إلا أننا إذا تناولنا طرفاً منه ، وهو ما يخص استمرار الزخارف الشعبية عبر السنين وتشكيلها الجديد ، فإننا نستعين لتوضيح ذلك بعلم الفنون الشعبية حيث أصبح من المعروف أنه عندما تتغلب عقيدة راقية أو دين سماوي على الفكر الأسطوري والممارسات الأسطورية فإن العنصر المغلوب لا يفنى ولا ينعدم مرة واحدة ، ولكن يظل موجوداً ومؤثراً فترة طويلة من الزمان وربما ظل دهراً يشبه الخلود . ولكن هذه العناصر المغلوبة تتفكك عقدتها ، وتتبعثر إلى وحدات يستقل بعضها عن بعض ، وتتعدد وظائفها وقد تتحول من شعيرة

---

(١) المرجع السابق نفسه .
(٢) المرجع السابق ، ص ٩٠ - ٩٢

عقيدية إلى مجرد شعيرة اجتماعية .

كما أن هذه الوحدات ، بعد أن تتناثر من الأصل الذي كان يجمعها وهو أن تتحول من قمة الكيان الاجتماعي إلى سفحه ، ومن طبقات الصفوة إلى القاعدة الشعبية العريضة ، ذلك لأن هذه الوحدات تعيش بين الآحاد العاديين فترة أطول . وتظهر هذه الوحدات كمعتقدات دينية ، أو ممارسات شبه سحرية في لحظات الضعف أو اليأس أو غياب الوعي ! ! .

فعندما حلت الأديان السماوية وخاصة الدين الإسلامي ، أصبحت معظم فلسطين تدين بالإسلام ؛ فإن العقيدة الراقية السماوية تغلبت على العقيدة الوثنية ، فترك الناس الآلهة الوثنية وأصبحوا يؤمنون بالله . أي بإله واحد[1] وتركوا أماكن عبادة الآلهة الوثنية من الهياكل والأشجار ، وبنوا المساجد . ولكن رموز هذه الآلهة لم تنته ، وبقيت تظهر في العادات والتقاليد والممارسات اليومية في الزخارف الشعبية على الأزياء الشعبية الفلسطينية .

مثال على تحول وحدة عقيدية[1] :

كانت شجرة الحياة ترمز لآلهة الكنعانيين القومية والمحلية ، حيث كان يرمز إليها بشكل زخرفي هندسي أعطى شكل شجرة الحياة ذات السبعة فروع . وعندما حل الدين الإسلامي ، وذهبت العبادة الوثنية الكنعانية ، لم تذهب مثل هذه الأشكال ، بل بقيت ولكن احتراماً للدين السماوي ، أطلقوا عليها اسماً جديداً وهو « الريش » . وتعتبر هذه الوحدة الزخرفية من أساسيات فن التطريز على الأزياء الشعبية الفلسطينية[2] .

وخلاصة القول ، فإن معظم الوحدات الزخرفية التي تستخدم على الأزياء الشعبية الفلسطينية هي وحدات أسطورية مثل الوحدة الزخرفية باسم الأنشطة ، وهي الخطوط المسننة ، وترمز لحماية صاحب الثوب .

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٣)،(٤) المرجع السابق ، ص ٨٤ – ٩٢

كما أن سعف النخل ترمز إلى بداية حياة جديدة ، وإلى الخلود . وإن الرقم « ٧ » كان يعتبر من الأرقام المقدسة ، وكلها أمور ضعف أثرها ولم تعد تؤثر في عقيدة الإسلام التي آمنت بها النفوس ، وأصبحت لها مكانتها الكبيرة لدى الناس .

٢ - فيما يتعلق بالتمايز بين الجنسين :

عمل الإسلام على التمييز بين المرأة والرجل في وظيفتها الاجتماعية ودعا إلى أن يكون لكل منهما لباس خاصّ ، بحيث لا يختلط الأمر بينهما ، فلا يتشبه النساء بالرجال بالملابس بعض السلوكيات ولا الرجال بالنساء . فقد حث الإسلام الرجل مثلاً على عدم الأخذ بالزينة ، كما تفعل النساء ، كما حث المرأة على عدم إظهار زينتها أمام الرجال إلا لزوجها أو لمحارمها منهم .

وكان الرجال والنساء والشيوخ والأطفال عامة في فلسطين ولبنان والأردن وسورية ، قبل الفتح الإسلامي ، يرتدون ثياباً مطرزة . عندما جاء تحريم تشبه الرجال بالنساء والعكس أيضاً ، بقيت ثياب النساء مطرزة ، وأما الرجال فقد ابتعدوا عن الثياب المطرزة .

وبالرغم من ذلك لم تختف الزخرفة « التطريز » من على ثياب الرجال فجأة ، فنجدهم يبتعدون عن التطريز ، لكنهم استعاضوا عنها بثياب ذات زخارف منسوجة ، ومنها الزي الشعبي الذي يعرف بأسماء شعبية متعددة . منها : الدماية – الصاية – الكبر .. واستعاضوا عن التطريز عليه بزخارف منسوجة عبارة عن خطوط طولية متوازية ، وهي متعددة الألوان ، وكذلك الحال في ابتعاد الرجال عن تطريز « الحطة » بعد ظهور الإسلام[١] .

وكما نشر الإسلام ظله في الربوع العربية ، فقد استطاع أن ينفتح على الحضارات الأخرى الفارسية والهندية واليونانية ، فأحاط بتراث الإنسانية

(١) المرجع السابق ، ص ٦٢ – والحطة هي المعروفة في الخليج بالغترة

العقلاني لمختلف الحضارات ، مع المحافظة على التفتح الفكري الواعي من موقع المميز الراشد ، والتفاعل المعرفي ، والتعامل من موقف الند ، والحفاظ على خصائص العرب وأخلاقياتهم ، وتراث الإسلام[1] .

وهكذا احتضن علماء الإسلام تراث الإنسانية الحضاري ، وأحيوا مواته ، وطوروه وأضافوا إليه كمّا وكيفاً وخلقاً وإبداعاً ، وصححوا فاسده دون أن يصبحوا فرساً أو هنوداً أو يوناناً .

الرقص الشعبي :

هو ظاهرة ثقافية تعارفت عليها المجتمعات منذ القديم ، كما يمثل نوعاً من الخبرة البشرية ، يأخذ الطابع الفني في هذا اللون من النشاط الحركي حيث يؤدي وظائف متعددة بالنسبة للجماعات داخل كل مجتمع ومن هذه الوظائف أنه يعتبر رياضة بدنية تنشط الأجسام ، كما أنه يروِّح عن النفس ، ويظهر المواهب ، ويحقق روح التآلف بين أفراد الجماعة وشعورهم بالوحدة الاجتماعية والنفسية أثناء ممارستهم لهذا النشاط .

وتخضع هذه الظاهرة الثقافية لعوامل الانتشار الثقافي ، ومن هذه الرقصات ما يقترن بألوان الأدب الغنائي .

وقد أثر الإسلام في ثقافات البلاد التي انتشرت فيها عقيدته فطبعها بطابعه ، أو بتعبير آخر صبغها بصبغته .

إن من عادة الإسلام أن يشجع الظواهر الاجتماعية التي تعود بالفائدة والصحة على النفس البشرية ، التي تنتظم داخل جماعات ومجتمعات ، كما يقوم باستنكار الجوانب التي تعود بالضرر على الجسم أو العقل أو الجماعة والمجتمع ككل .

---

(١) د / محمد عمارة (التراث في ضوء العقل) ص٩

فكثير من تلك الظواهر الثقافية أخذت تتبدل في بعض جوانبها وتتغير تلك التي تخالف قيم الإسلام بحيث يتناسب ذلك التغير مع ما أصبحت عليه مكانة الإسلام في النفوس واحترام الناس لأوامره ، وابتعادهم عن نواهيه ، كما حدث من تغير بالنسبة للحفلات والاحتفالات التي كان عليها المجتمع في الجاهلية .

وقد اشتهرت البلاد العربية والإسلامية برقصات متعددة لها أهميتها ووظيفتها الاجتماعية والترويحية بما لا يتعدى أخلاق حضارة الإسلام . فالرقصات الشعبية هذه تختلف أزياؤها وإيقاعات نغماتها وبالتالي تختلف الأدوات المستخدمة فيها ، فتأخذ ألواناً مختلفة تنسجم مع معطيات البيئة وثقافاتها التي اشتهرت بها كل منطقة على حدة ؛ مما يجعلها عاملاً حسناً في تعدد ألوان الثقافة في الحضارة الإسلامية ، وهذا ما يسمى بعوامل التمايز بين منطقة وأخرى إلا أنها جميعها خضعت لقيم الإسلام وأخلاقياته ، مما يشعر الدارس لهذه الفنون بوحدة الفن الإسلامي ومعطياته .

وهناك رقصات شعبية متنوعة في جميع الأقطار ، نذكر بعضاً منها ، دون الدخول في تفاصيلها ، ودون ذكر أسماء البلدان التي تنتشر فيها . فهناك مثلاً ، في المناطق الساحلية التي تشتهر بصيد السمك وأعمال البحر ، رقصات يؤديها الصيادون في أوقات انتهائهم من أعمالهم ، مثل رقصة البحارة كما أن هناك رقصة الحرب ورقصة الفروسية ، بالإضافة إلى الرقصات الشعبية التي تؤدى في الأعياد الدينية ، ابتهاجاً وفرحاً ، وكذلك الرقصات الجماعية التي تؤدى في الأفراح والمناسبات العامة . كما اشتهرت بعض البلدان برقصات متنوعة يؤديها الفلاحون في مواسم الحصاد ..

وبشكل عام فإن الرقص الشعبي يعتمد على الحركات الرياضية للجسم ، وعلى الجانب التعبيري للإنسان ، بعكس ما هو عليه الحال في الرقص الحديث الذي يقوم على عامل الإثارة الجسدية ، كما هو الحال بالنسبة لما سمي بالرقص الشرقي ، علماً بان هذا الرقص في الأصل غريب عن ثقافتنا ، كما سبق ذكره (انظر الباب الثالث – الفصل الأول « موقف الإسلام من انتشار الثقافات »).

الاختلاف حول مفهوم الثقافة والحضارة:المشكلة والحل

حول مفهوم الثقافة وصلته بمفهوم الحضارة :

عندما يحاول طالب المعرفة الاطلاع على الكتب التي تكلمت عن الأنثروبولوجيا ومفهوم الثقافة ، فإنه يواجه سيلاً مختلفاً من التعاريف لمصطلح الثقافة ، اجتهد في وضعها العلماء الأوربيون ، وعلى الأخص منهم العلماء الأمريكيون .

فقد تم استخدام مفهوم الثقافة مع الكتابات الأنثروبولوجية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ، كموضوع محوري للإثنولوجيا . فقد كانت نظرية تطور المجتمعات الإنسانية من الأسباب التي حثت الكثيرين على طرح مسألة تفسير تباين الثقافات ، من أجل بحثها منهجياً[(١)] .

وقد تداخلت الاتجاهات الاستعمارية الأوربية ، فأثرت في هذا العلم فجعلت من دراسة الثقافات الأخرى غير الأوربية أمراً رئيسياً ، كما وصفت هذه المجتمعات بالبدائية ، واتجهت لمعالجة الثقافة والحضارة كدراسة مختلفة عن علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الحضارة .

ويعتبر تعريف الأنثروبولجي الشهير « إدوارد تايلور » للثقافة ، من أشهر التعريفات التي تزخرُ بها كتب الأنثروبولوجيا وسنقوم بعرضه فيما بعد في هذا الفصل .

ويرجع سبب الاختلاف الواضح في تعريف مفهوم الثقافة إلى طبيعة تطور هذا المفهوم مع تطور الدراسات الأنثروبولوجية، وسيرها في طريق النضج ، وطبيعة الجماعات موضوع الدراسة وظروفها الاجتماعية والثقافية ، من جهة ، وإلى الغاية

---

(١) د / حسين فهيم (قِصة الأنثروبولوجيا) ص١٣٨ .

من الدراسة ، وأيديولوجية الدارسين في هذا المجال من جهة أخرى .

لقد كان مفهوم الثقافة من مواضيع الأنثروبولوجيا الثقافية ، التي تعد من أوسع الكتابات انتشاراً ولا سيما في محيط الأنثروبولجيا الأمريكية ، التي تتبنى الاتجاه الثقافي في مقابل المدرسة البريطانية ، التي تتبنى الاتجاه البنائي الوظيفي . وقد قام الأنثروبولوجيان الأمريكيان (ألفريد كروبير) و (كلايد كلكهوهن) بعرض ما يزيد على مائة وستين تعريفاً للثقافة[1].

كما يواجه طالب المعرفة ، اختلاط مفهومي الثقافة والحضارة ، وتعدد وجهات النظر في هذا المجال ، وسنحاول إلقاء الضوء على هذا الركام من التعريفات ، مستعينين بالأصول الثقافية العربية الإسلامية ، وسنجد أن العلامة المسلم ابن خلدون يطرح مثل هذه المشكلة الفكرية في مقدمته ، فيُخصص فصلاً يذكر فيه أن كثرة التآليف في العلوم عائقة عن التحصيل[2] .

والحقيقة أن مفهومي الثقافة والحضارة هما مفهومان مترادفان في كثير من الأحيان ، ويقصد بهما جوانب الحضارة المختلفة عند كثير من العلماء .

فنجد أن استخدام تعريف الثقافة[3] عند عالم الاجتماع الألماني هيجل (يحمل معنى واسعاً يمتد ليشمل كل ما ينتجه الإنسان ، ابتداءً من التقنية حتى الشعر ، بما في ذلك السياسة والدين والفلسفة ، أي يشتمل هذا التعريف على كل ظروف النشاط الذي يمارسه الفرد أثناء محاولته التسامي بذاته إلى مستوى الكلي) .

وقد وقع بعض الدارسين في أخطاء التفرقة بين الجانب المادي في الحضارة ، والجانب المعنوي فرأى بعضهم خطأً أن الثقافة هي الجانب المعنوي في الحضارة ، كاللغة والفكر وما إليه ، بينما يمثل مفهوم الحضارة الجانب المادي الملموس منها ، كمظاهر العمران والصناعات والأدوات وما إلى ذلك .

---

(١) د / زكي محمد إسماعيل (الأنثروبولوجيا والفكر الاسلامي) ص ١٢٢

(٢) مقدمة ابن خلدون دار العودة (فصل في أن كثرة التأليف مخلة بالعلوم) ص٣٤٢

(٣) المرجع نفسه ، (فصل الصنائع تكسب صاحبها عقلاً) ص ٣٤٠

ومنهم من قام بتقسيم الثقافة إلى مادية MATERIAL CULTURE وثقافة غير مادية NON MATERIAL CULTURE فبينما يشتمل النوع الثاني على اللغة والأفكار والقيم والتقاليد والمعرفة فإن الثقافة المادية تشتمل على الأشياء كالآلات والعدد والسيارات والمصانع والمباني ووسائل الزراعة المختلفة(١) .

والحقيقة أن الفصل بين الجانبين هو فصل تعسفي ؛ إذ يرتبط كلا النوعين بالآخر ارتباطاً عضوياً ، هذا من جهة . ومن جهة أخرى . فإن الجوانب المادية في الصناعات ، كالعمران وما يتضمن من صناعات أخرى كأعمال الخشب والحديد وفنون صناعاتها ، لها جوانبها الفكرية أيضاً عند ابن خلدون . لذلك نجد أن تعريف ابن خلدون للحضارة ينم عن تكامل الأفكار وأصالتها ، عندما عرف الحضارة الكاملة بأنها مجتمعة من صنائع ، كما رأى أن الصنائع لها خاصيتها الفكرية كأعمال النجارة والبناء والحدادة وما إليه ، كما رأى ابن خلدون أن تعليم العلم هو من جملة الصنائع ، ومنهاأيضاً تحصيل الآداب ومعاشرة أبناء الجنس ، والقيام بأمور الدين ، واعتبار آدابها وشرائطها ، وأن هذه كلها تنتظم قوانين وعلوماً(٢)

ابن خلدون وأصل الحضارة :

وقد بيّن ابن خلدون ، في جوانب مختلفة من مقدمته ، أن الحضارة أصلها من البداوة ، أي المجتمعات البدائية ، وأن مثل هذه المجتمعات هي أصل للحضارة ، « وأن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نِحَلِهم من المعاش ، فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون . على تحصيله ، والابتداء بما هو ضروري منه وتنشيط ، قبل الحاجيّ والكماليّ(٣) .

كما بين أيضاً العلامة ابن خلدون أن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما يكون

---

(١) د ، السيد علي شتا (نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع) ص ٤٩

(٢) د / زكي محمد إسماعيل (الانثروبولوجيا والفكر الإسلامي) ص ١٢٦

(٣) مقدمة ابن خلدون ، دار العودة فصل (أحيال اليد والحضر طبيعة) ص ٩٥

برسوخ الحضارة وطول أمدها ، وأن رسوخ الحضارة يؤدي إلى رسوخ الصنائع واستحكام صنعتها .

وذكر أيضاً ، أن الصناعة[1] هي ملكة في أمر عملي فكري أما أنواع الصنائع فمنها البسيط ومنها المركب ، والبسيط يختص بالضروريات ، والمركب هو الذي يكون للكماليات . والمتقدم من هذه الصنائع في التعليم هو البسيط لبساطته أولاً ، ولأنه مختص بالضروري الذي تتوافر الدواعي على نقله فيكون سابقاً في التعليم ، ويكون تعليمه لذلك ناقصاً ، كما بين « أن الفكر لا يزال يخرج أصنافها ومركباتها من القوة إلى الفعل باستنباط شيئاً فشيئاً على التدريج ، حتى تكمل ، وأن ذلك لا يحصل دفعةً ، وإنما يحصل في أزمان وأجيال . وبمعنًى آخر ، فإن خروج الأشياء من القوة إلى الفعل لا يكون دفعة واحدة ، لا سيما في الأمور الصناعية ؛ لأنه لابد لها من زمان »

كذلك نجد الصنائع في الأمصار الصغيرة ناقصة ، ولا يوجد فيها إلا البسيط ، بعكس ما هي عليه المجتمعات التي تزيد حضارتها .

ويرى ابن خلدون أن الصنائع والعلوم إنما هي للإنسان من خصائص فكره الذي يتميز به عن الحيوانات ، والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية إنما هو مقدم لضروريته على العلوم والصنائع ، وهي متأخرة عن الضرورة[2] .

بين ابن خلدون ومالينوفسكي :

إن مثل هذا الربط بين الحاجات الضروريةعند ابن خلدون وما يتطور عنها من نظم حضارية نجد شبيها له عند الأنثروبولجي مالينوفسكي ، الذي قام بدراسة حاجات الإنسان البيولوجية ، والمظاهر الحضارية التي لا تخرج عن

---

(١) المصدر السابق ، فصل (الصنائع تكتمل بكمال العمران الحضري وكثرته) ص ٣١٨ إن الموضوع الذي أشار إليه ابن خلدون في مقدمته عن (اكتمال الصنائع باكتمال العمران الحضري وكثرته) هو نفس ما يراه العلماء المعاصرون حول نمو الثقافة واكتمالها ، وان ذلك يحتاج إلى زمن .

كونها استجابة أو ضرورة لتحقيق هذه الحاجات . وتلك الحاجات الضرورية عند ابن خلدون ، لا تخرج عن الضرورات لأربع التي حددها مالينوفسكي ، والتي لا تختلف عن النظم الاجتماعية الرئيسية التي تتميز بها المجتمعات الإنسانية عامة ، قديمها وحديثها ، متقدمها ومتخلفها .

ويرى مالينوفسكي أن التحقيق الحضاري ، أو الاستجابة الحضارية لهذه الحاجات البيولوجية الأساسية ، قد فرض على الإنسان عدداً من الضرورات الثانوية التي انبثقت عن هذه الحاجات الإنسانية ، ومن أبرزها نشأة نوع من التنظيم الاقتصادي بسيطاً كان أو معقداً ، ويتضمن هذا التنظيم أنساقاً وطرقاً لاستخدام واستهلاك الأشياء ، وأنساق الإنتاج والاستهلاك والتوزيع ويخص بالأهمية ملكية الأراضي ، وتقسيم العمل والثروة . ، وقيمة الأشياء .. ويرى أن القيمة هي المحرك الأساسي للجهود الإنسانية المنظمة .

كما يرى مالينوفسكي أن ضرورة التعاون والإنتاج للتحكم بالبيئة التي تحيط بالإنسان نتج عنه ضرورة الأخذ بالمعايير الأخلاقية كالتضحية والعمل المشترك وتفضيل المصلحة المتبادلة على المصلحة الفردية ؛ مما تطلب قواعد معينة لتنظيم السلطة والضبط الاجتماعي ؛ لتنظيم الدوافع الجنسية ، واستخدام الطعام ، وامتلاك الثروة ، وإرضاء حاجة الإنسان إلى النجاح ، بالإضافة إلى تحديد القيادة والسلطة ، والتقسيم الطبقي إلى النواحي الاجتماعية التي اهتم بها الإنسان ، وعرفها في أقدم مجتمعاته .

ويرى بهذا مالينوفسكي[1] ، أن الضرورة الثالثة هي ما يسمى بالتنظيم السياسي .

أما الضرورة الرابعة عنده . فهي التي تتعلق بالثقافة والتعليم ، وتضم كل ما يتعلق بالطرق والوسائل التي يمكن بها للتراث الاجتماعي أن ينتقل من جيل

(١) د / عبد الحميد لطفي (الانثروبولوجيا الاجتماعية) ص١٦٨

إلى آخر[1] .

وعند اطلاعنا على التراث الفكري لابن خلدون نجد أنه قد سبق مالينوفسكي في تقسيمه لاحتياجات الإنسان إلى ماهو ضروري وما هو كمالي ، وما هو بسيط وما هو مركب وغير ذلك ..

وأثناء طلبنا للعلوم الحديثة ، تعترضنا مشكلة مسميات العلوم الحديثة الأوربية ومقاييسها ، وكما رأينا فهناك مشكلة كثرة تعريفاتها واختلاف اجتهاداتهم في تفسير العلوم لجانب دون آخر وهذا ما يعرضنا إلى خطر فصل الروابط بين الأشياء ، مثل فصل رابطة الفن عن العلم ثم عن الصناعة ، وكذلك فصل الأمر النظري عن العملي ، أو فصل جوانب الروح والدين ، عن جوانب الحياة الأخرى ؛ ممّا يعرض أبناءنا إلى الضياع الفكري حول هذا لذلك فمن أهم واجباتنا عند مسايرة الاطلاع على العلوم الجديدة وتقسيماتها النظرية أو المادية من وجهة نظر الفكر الأوربي ومنطلقاته ، أن نكون واعين لمفهوم الثقافة بمعنى الحضارة في العلوم الحديثة ، الذي سبق لابن خلدون أن أوضحه في مفهوم الحضارة ، فهو يمثل ينابيع فكرنا ، وما يتسم به من تكامل المعرفة وعدم تجزئتها ويقوم بعد ذلك بتقييم جميع التعريفات على ضوء تعريفنا الأصيل لأنه هو الذي يضمن عدم ضياعنا الفكري من جراء اختلاط العلوم والتعاريف والمفاهيم الكثيرة والمستجدة ، والتي تختلف الآراء حول تعريفاتها مثل الثقافة والحضارة و الفن .. أو غير ذلك .

الجذور الفكرية لمفهوم الثقافة :

لدى تحليل كثير من العلماء لواقع المجتمعات ، وجدوا أن المجتمع له جوانبه الثقافية التي تطبع أثرها على الجوانب الاجتماعية والاقتصادية ، والتي تتفاعل فيما بينها لتكوّن شخصية المجتمع وشخصية حضارته .

---

(١) نحن لسنا مع هذا الترتيب الذي وضعه مالينوفسكي . ونرى أن التنظيم الأخلاقي هو الأساس الذي يقوم عليه البناء السياسي والاقتصادي والتعليمي .

وكما رأينا أن عالم الاجتماع الألماني هيجل قد قدم تعريفاً لمفهوم الثقافة بأنه المعنى الواسع الذي يمتد ليشمل كل ما ينتجه الإنسان ، نجد أن الأنثروبولوجي الشهير « إدوارد تايلور » قدم تعريفاً لمفهوم الثقافة في كتابه « الثقافة البدائية » يقول فيه : إن « الثقافة – أو الحضارة بمفهومها الواسع – هي ذلك الكل المركب الذي يشتمل على المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعادات . وغيرها من القدرات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في مجتمع[1] » . ولما كان تعريفه هذا مقتصراً على التحدث عن الجانب المعنوي أو اللامادي في الثقافة ، فقد فطن « تايلور » إلى نفسه فأشار في موضع آخر من كتابه إلى أن الثقافة تشتمل على الأشياء والعناصر المادية المختلفة كالفأس والرمح والقوس ، كما تشتمل على الفنون العملية كالصيد وإشعال النار وصناعة الحرب .. . إلخ .

أما العالمان[2] « هورتن وهانت.Hunt. C, L. Horton. P. B » فيقدمان تعريفاً أشمل للثقافة من التعريف السابق « فهي كل ما يتعلمه الإنسان أو يرثه كميراث اجتماعي لا بيولوجي ، يكون قابلاً للتطوير أو التعديل أو التغيير ،وبحيث يصبح المقبول من العناصر الوافدة أو المتعلَّم جزءاً من الميراث الثقافي ، الذي ينتقل إلى الأجيال اللاحقة من الأجيال السابقة .

مفهوم الثقافة في تراثنا اللغوي :

إذا رجعنا إلى التحليل الذي يتصل بفقه اللغة التاريخي والمقارن[3] للثقافة ، وجدنا أنها مشتقة من باب « ثقف » . ففي حديث الهجرة : « .. . وهو غلام شابٌّ ثَقِف لَقِنٌ » (رواه البخاري) أي ذو فطنة وذكاء . والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه . ويأتي معنى تثقيف العود ، أي تهذيبه وإصلاحه وفي أساس البلاغة للزمخشري : « ثقفناه : أي أدركناه ، وثقفت العلم أي أسرعت

(١) د / زكي محمد إسماعيل (الانثروبولوجيا والفكر الاسلامي) ص ١٢٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٦ . (٣) المرجع نفسه ، ص ١٢٢

أخذه ، وثاقفه : لاعبه بالسلاح ، ومن المجاز القول : أدبه وثقفه » .

الثقافة والحضارة مفهومان متماثلان :

لدى التدقيق بالتعريفات السابقة لمفهوم الثقافة نجد أن مفهوم الثقافة هو مفهوم الحضارة نفسه تقريباً ، الذي استخدمه العلامة العربي المسلم ابن خلدون ، وهذا ما توضح لدينا من تعريف العالم الأنثروبولوجي تايلور إلا أن ما أخذ به ابن خلدون من مفهوم يتميز عنه بترابط جوانب مختلفة فيه .

ومما هو جدير بالذكر ، أن تعريف ابن خلدون للحضارة ومفهومه لها . وتصوره لأمورها هو أكثر مطابقة وأسلم صحة وتواؤماً وكمالاً مع تصورنا القرآني عن مفهوم الثقافة والحضارة ، وهو يجنبنا كثيراً من الزلات والأخطاء ، الناتجة عن تدخل الفلسفات والتصورات للفكر الأوربي مع هذه التعاريف والمفاهيم والأدبيات عموماً ، عن كثير من الأمور ، مثل تصورهم أن الدين والعقيدة من صنع الإنسان ، وهذا ما نراه واضحاً في تعريف هيجل ومفاهيم تايلور ، وكذلك الحال بالنسبة لتصوراتهم في فصل الثقافة المادية عن الثقافة المعنوية .

إن مثل هذه الأخطاء ، كثيراً ما تبقى عالقة في أذهان أبنائنا ، ونستمر في تدريسها لهم في مناهجهم ، بالرغم من تراجع العلماء أنفسهم عن هذه الأخطاء ، في بعض الأحيان . وكثيراً ما نعطيها أهمية ، بالرغم من أنها تمثل تصديراً لمعرفة الاستعمار الفكري لعالمنا العربي ، وتكريس هذا النوع من التفكير المضلل .

ومن هذا المنطلق ، فإن من واجبنا غربلة هذه المعرفة الجديدة ، على ضوء ما جاء في تراثنا الفكري لعلماء الحضارة العرب ، قبل دخول عوامل الاستشراق والتبشير ، وكذلك على ضوء ما جاء في منهاجنا القرآني ، لنكون مستنيرين بهدى فكرة ومعرفته .

وقد كان لعلمائنا إسهامات كبيرة في الأخذ بيد هذا العلم ، حيث قدم العلماء المسلمون والرحالة جهوداً كثيرة في دراسات الثقافات المختلفة في أنحاء المعمورة ، وساهموا بخدمات جليلة في نشأة الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا (أو علم حضارة الإنسان) وأعماله فنجد في مقدمة ابن خلدون المادة الأثنوجرافية والنظرية معاً(١) . كما توصل ابن خلدون إلى كثير من « القوانين التي تحكم مسار الحياة الاجتماعية للجماعات الإنسانية ، وهذا أمر شغل بال المفكرين لقرون عدة بعد ابن خلدون حتى تبلورت الأنثروبولوجيا ذاتها كعلم مستقل حول بحث قضية الثقافات أو الحضارات الانسانية ومسارها التقدمي(٢) »

منطلقات استخدام مفهوم الثقافة :

انطلق استخدام مفهوم الثقافة من منطلقين : الأول هو بدء الاهتمام الأوربي بدراسة الحضارات البشرية ، وثقافتها مع نهضتها الحديثة ، فنجد مثل هذا الاهتمام على يد أوائل علماء الأنثروبولوجيا الأوربيين في ذلك ومنهم العالم الأنثروبولوجي « إدوارد تايلور » ثم درج استخدامه بعد ذلك . وقد أعطى هذا المفهوم بعد « تايلور » أهمية كبرى حتى إن بعضهم وصف مفهوم الثقافة ذاته بأنه ربما « يعد من أهم المداخل والإسهامات التي قدمتها الأنثروبولوجيا للفكر والعمل الإنسانيين ؛ لأنه من خلال الثقافة – وعلى حد تعبير « كلايد كلوكهون » تصنع الأنثروبولوجيا أمام الإنسان مرآة تمنحه صورة أوضح لنفسه وأقرانه ، أو تسهم في فهم نشأة المجتمع وطبيعة وظائفه ومنظماته .. . إلخ(٣) »

وإن مثل هذا لم يمنع استخدام بعض العلماء لمفهوم الثقافة أو الحضارة ، ليدلا على مفهوم واحد ، كما أخذوا يؤرخون للأنثروبولوجيا الثقافية ، وهو

(١) (٢) د / حسين فهيم (قصة الانثروبولوجيا) ص ٧٠ – ٧٢

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٦٧

الفرع الذي يجعل الثقافة منطلقاً للتحليل والتفسير الأنثروبولوجي ، حيث اعتاد كبار العلماء أن يطلقوا على مفهوم الثقافة والحضارة معنًى واحداً ، في الوقت الذي اتجه فيه بعضهم للتفريق بينهما .

أما المنطلق الثاني، فقد كان من أجل دراسة إمكان إحداث التغيرات في ثقافة المجتمعات المدروسة .

الثقافة وعمليات التغير الاجتماعي :

ذكرنا فيما سبق كيف أن تطوير الاهتمامات الأوربية بعلم الأنثروبولوجيا قد جعل مفهوم الثقافة يدرج استخدامه في دراسة الثقافات المختلفة للجماعات البشرية ، ومقارنة هذه الثقافات ، وما يتبع ذلك في دراسة حضارة الإنسان وأعماله .

ومن هذه الاستخدامات لمفهوم الثقافة ، ما يتعلق بالعلم الجديد الذي يرمي إلى الإحاطة بالمعرفة التي تتعلق بأمور التغير الثقافي وتبدلاته وأسبابها ، أي جميع الدراسات المتعلقة بذلك .

ويرى بعض العلماء « أن الحضارات الإنسانية معرضة للتدهور والاندثار ، مثل الحضارة المصرية القديمة ، والحضارتين اليونانية والإسلامية أيضاً ، ذلك على عكس ثقافات الشعوب أو المجتمعات المختلفة ، فهي وإن تغيرت عبر الزمن إلا أنها تتصف بالاستمرارية ؛ إذ لابد في النهاية من أن يوجد نمط معين من الحياة يهتدي به الناس في مزاولة حياتهم اليومية سواء كانت بسيطة أو معقدة ، ويرى جوزيف شريم « أنه لا يفتقر الشعب ، أيُّ شعب ، إلى الثقافة ، ولكن الشعوب ليست بالضرورة كلها متحضرة[1] »

وبرجوعنا إلى ما كتب في تراثنا عن الحضارة وخصوصاً ما ورد في المقدمة لابن خلدون نجد أنه استطاع أن يتحدث عن الحضارة وعوامل التغير فيها دون

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠

أن يدرج هذا الاصطلاح العلمي لمفهوم الثقافة ، وذلك من خلال حديثه عن الحضارة وصناعاتها ووسائلها وعلومها ، فقد استطاع أن يوضح كثيراً من الفعاليات الثقافية عن طريق توضيحه الصواب في طلب العلم أو الصناعة ، كما بين أسباب كساد العلم وعدم الطلب على الصناعات وأسباب موتها ، واندثارها ومنها نفاق الحضارة وكلها أمور تتعلق بمتغيرات الحضارة أي الثقافة بالمفهوم الحديث ، ومع ذلك لا مانع من تعرف أجيالنا على هذين التعريفين بشرط أن نكون واعين تماماً لأحوالنا الثقافية . وترادف مفهوم الحضارة والثقافة وعيوب التعريفات الجديدة للثقافة .

وبعد .. فإننا نرى أن مفهوم الثقافة الذي يعبر عن معنى الحضارة سواء بجانبها الفكري أو المادي ، قد مر بمراحل ، حيث كانت قد تعثرت مضامين تعريفاته بأخطاء فكرية وعلمية تم استدراكها من قبل العلماء الأوربيين أنفسهم ، على ضوء تطور ونمو الدراسات الحقلية المتصلة بالواقع ومن ثم استدراك شمولها للجانب المادي ، بالإضافة إلى الجانب المعنوي . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن هذه التعريفات والمفاهيم كثيراً ما كانت تعبر عن منطلقات مادية ، أثناء شروحها لجوانب الثقافة التي هي بمعنى الحضارة ، ومن أهم مظاهرها انشطارية المعرفة وعدم تكاملها[1] .

وهذا بخلاف ما يتميز به تعريف ابن خلدون للحضارة وأهم جوانب تفرده وعدم فصله لمفهوم الصناعة عن مفهوم الفن والعلم . وأن كلاً من الفن والعلم ينطوي تحت اسم الصناعة .

وإذا اضطررنا إلى التعامل مع هذه العلوم باستخداماتها المتنوعة والمستوعبة لبعض الجوانب فإن من الواجب علينا – اطّلاعنا على هذه الأبحاث الجديدة ، التي لا تنكر قيمتها العلمية في ضوء المتغيرات المعاصرة – أن يتم استيعابنا لمثل

(١) أنور الجندي (شبهات التغريب) ص ١٠٥ والانشطارية هي الفصل بين القيم المتكاملة في الفكر والنفس الانسانية .

هذه العلوم وتعاملنا النقدي والإيجابي معها بعد تمكننا من أصولنا الفكرية منطلقاً أساسياً في المعرفة ، بعد أن ثبت لغالبية علمائنا الجادين ما نعانيه من ضياع فكري بسبب تبعثر طاقاتنا، مما يوجب علينا التمسك بالمعرفة الذاتية . وهذا اعتراف منا بتوالد علوم جديدة مع التغيرات الحاصلة للمجتمع البشري ومنها (علم الثقافة) و(علم المستقبل) وغيرها . وإن إبراز مسؤليتنا هو نسج هذه العلوم الجديدة في منوالنا الخاص .

وليس من الصواب أن نستبدل الفكر الانشطاري – وهو قرين الاتجاه المادي – بالفكر المتكامل ، كما أنه ليس من المعقول أن نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير .. .

إن تمسكنا بينابيع تراثنا ، يساعد على اتصالنا بالفكر الذي يوضح جوانب الحضارة ، من واقع ما أوضحه ابن خلدون مثل تقسيمه لاحتياجات الإنسان إلى الضرورية والكمالية . كما أنه يساعد على وصلنا بأمور أخرى ، مثل استنادنا إلى مقاييسنا في تقسيم علومنا وفنوننا التي جاءت ضمن مفهوم الصناعات داخل إطار الحضارة في تقسيم علومنا وفنونها التي تختلف تماماً عن مقاييس الحضارة الهلينية الأوربية المعاصرة ، تلك التي لا تعبر عن واقعنا وفكرنا وشخصيتنا الحضارية تعبيراً سليماً ، بل تخالف ذلك مخالفة صريحة ؛ إذ إننا نمتلك مقاييس وأولويات لجوانب الحضارة ، مختلفة تماماً عما هي عليه في الحضارة الأوربية وثقافتها[1] .

وبعدا عن أخطاء منطلقاتهم المادية ، فإن كثيراً من الدراسات الحقلية تعبر عن واقع تلك المجتمعات – البدائية فعلاً في حضارتها . التي لم تصل إلى مرحلة سلامة الاتجاه الحضاري والفكر لمفاهيمها عن الكون والإنسان والوجود ، بالرغم من سلامة الفطرة ، إذا قسنا ذلك بما وصل إليه الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي

(١) إن من أبرز استخدامات علم الثقافة الجديد ، وضع خطة تربوية تنتظم داخلها العناصر الثقافية ، من أجل تحقيق حضارة الانسان وبلوغ أهدافها ، ارجع إلى كتاب (مالك بن نبي عن « مشكلة الثقافة ») ص ٦٠

من رقي المعرفة وسلامة الاتجاهات في التعبير عن رسالة الإنسان في هذا الكون ، ومفاهيمه عن الوجود وأصل الخليقة ومصيرها .

إن النتائج التي انتهى إليها ابن خلدون المنهجية في الوصول إلى القوانين التي تحكم مسار الحياة الاجتماعية الإنسانية ، والتي استرشدت بالمنهج القرآني وفكره عن سير الحضارات وقصص الأمم الغابرة .. هذه النتائج كانت منسجمة ومتوائمة مع كل الدراسات والاكتشافات العلمية الحديثة التي أثبتها العلم الحديث ، ومع نتيجة الدراسات الأنثروبولوجية عن طبيعة المجتمعات وطبيعة التطور الحضاري للإنسانية بل لقد اعتبر العلماء الأنثروبولوجيون أنفسهم ، أن نظرية ابن خلدون عن التطور الاجتماعي هي ، في نظر العلم ، ولاشك واحدة من أهم المحاولات المنهجية للوصول إلى القوانين التي تحكم مسار الحياة الاجتماعية للجماعات الإنسانية . بل اعتبر كثير من المفكرين أن مقدمة ابن خلدون تعد تراثا إنسانيا ذا قيمة عالية[1] وأهميتها كبيرة في تاريخ الفكر الاجتماعي عامة في مسار العقل الإنساني نحو وضع الأسس المنهجية والعلمية لدرسة أحوال البشر ، ولفهم طبيعة الحياة الاجتماعية ، ومسار الحضارة الإنسانية .

ومن هذا نستخلص أنه من واجبنا التمسك بمفهوم ابن خلدون عن الحضارة التي هي متماثلة مع مفهوم الثقافة ، ومن واجبنا تعليم أبنائنا أن هذا المفهوم هو ما يعبر عن المنهج الصحيح في مفهوم الحضارة أو الثقافة وعلينا أن نبين لهم أن هناك تعريفات لللثقافة قد نشأت مع الفكر الأوربي الذي يعبر عن منطلقاته المادية المخالفة لطبيعة فكرنا ، مع ذكر أمثلة تبين هذه المخالفة وضررها على عقيدتنا — أما علماؤنا الذين يرغبون في التوسع في هذا العلم ودراساته فلا مانع لهم من الاطلاع على أدبيات الحضارة الأوربية في تعريفاتها ومفاهيمها ودراساتها لتوسيع خبرتهم بعمليات التغير الاجتماعي وعمليات (التثاقف) سواء التي تناولت مجتمعاتنا أو التي تناولت مجتمعات الحضارات الأخرى . إن مثل ذلك يساعد على تحقيق شمولية المعرفة عند علمائنا بما يفيدنا في تحقيق بنائنا الحضاري والذود عنه .

---

(١) د /حسين فهيم (قصة الانثروبولوجيا) ص ٧

خاتمة حول إشكالية مفهوم الثقافة والحل

لقد اطلعنا في هذا البحث على كيفية اتساع أبعاد علم الثقافة الجديد ونموه خلال عصر النهضة الأوربية وكيف كان هذا النمو منفصلاً عن تراثنا الفكري في هذا العلم ، ومتأثراً بالمنطلقات المادية الأوربية من عقائد وتوجهات اقتصادية وسياسية أي بفكر مادي يعترف بالعلوم التي تتعلق بآيات الآفاق كالفلك والكيمياء[1] والرياضيات ويتنكر لآيات النفس وسنن الحضارة التي تسير عليها النفس البشرية بأنها تدخل دائرة العلم الكلي بأكمله في البناء الاجتماعي .

كان هذا الفكر بعيداً كل البعد عن منهجنا القرآني وأصولنا الفكرية في النظرة إلى الكون والحياة والإيمان بخالق الكون ، والسنن المتعلقة بالسلوك البشري وعواقبه كما هي موضحة في كتابنا الكريم وقد أسهمت هذه المعارف والخبرات الجديدة لهذا العلم في دراسة اختلاف الثقافات البشرية ، كما ألقت الضوء على توجه الفعاليات الثقافية ومساندتها أثناء عمليات التوجيه التربوي . والاجتماعي في البناء الثقافي الذي ينتج عنه تقدم الحضارة أو تأخرها .

وليس من خلاف على تسميتنا للمعارف الجديدة حين نطلق عليها اسم علم جديد كما هو في (علم الثقافة) الذي يركز اهتمامه على دراسة إخضاع عملية تغير المجتمع لخطة تربوية تتلاءم مع المتغيرات الجديدة للعصر بكل أنواعها ، مع تسليطه الضوء على العوامل المضيئة ذات الفعاليات الثقافية والعوامل الممرضة والقاتلة[2] التي تؤخر تقدم المجتمعات وتشل حركاتها وتقودها إلى الجمود والتأخر ؛ أي تخضع هذا العلم لقيمنا وأهدافنا وسيطرتنا ، ذلك لأن من طبيعة العلوم أن تتوالد من بعضها البعض ، ولكن هناك شرطاً أساسياً وهو ألا ننسى

---

(١) جودت سعيد (اقرأ وربك الأكرم) مرجع سابق ص ١٣٢ ، ١٣٣

(٢) مالك بن نبي (في مهب المعركة) مرجع سابق ص ١٣٢

أصول هذه العلوم وتطوراتها ، وخصوصاً ما يتعلق بمعارفنا ومناهجنا وتراثنا الفكري ، وأن ندرك عناصر مفاهيمنا وروابط هذه العلوم بعضها مع بعض وذلك بشكل واع ومدرك للأبعاد .

والسبب الأكبر في هذا يعود إلى تداخل الأغراض الاستعمارية في استخدامات هذه العلوم الجديدة ، وحيث كان لها نصيب الأسد في تطبيقاتها نحو العالم الثالث ، وكان ما كان الكثير من طمس المعرفة الإسلامية لكثير من العبارات والمدلولات في تراثنا الفكري الذي تركه أجدادنا في دراسة مختلف جوانب الثقافات للجماعات البشرية وعناصر فولكلورها ، بالإضافة إلى طمس هذه المعرفة الاستعمارية لكل ما يساعد على دراسة وكشف السنن والنتائج التي تربط تقدم الحضارة أو انهيارها بالأسباب التي مهدت لتلك النتائج ، والتي جذب القرآن النظر إليها في كثير من آياته .

إن أعمال الاستعمار في فصل المعرفة عن أصولها وتضليل طريقها .. قد أضاع فرص إمساكنا لطرف الخيط في هذا العلم للسيطرة عليه وتسخيره في توجيه عمليات التغير الاجتماعي التي مرت بها مجتمعاتنا خلال التقائها بحضارة الغرب ، بما فيها من ثقافة مغايرة ووسائل حضارية جديدة ، وكان وضعنا العلمي كمن هو في ظلام دامس لا نرى أو نشعر باستخدامات الاستعمار لهذا العلم في تغريب مجتمعاتنا ، واحتواء ثقافتنا على شكل عمليات تثاقف بين ثقافة لم تستخدم بعد التكنولوجيا المعاصرة وبين ثقافة استعمارية بيدها كل وسائل التقدم التكنولوجي ، المدعوم بعالم الأفكار للمجتمع الأوربي الحديث ونظرياته التي تدعم أغراضه الاستعمارية .

وقد رأينا أن المنطلقات الأوربية حول بعض مفاهيم الثقافة ، تعتبر العقائد والدين كلها بلا استثناء من صنع الإنسان وخيالاته وتصوراته وتخضعها لرؤى نظرية عن فكرة التطور تخالف مخالفة صريحة لما جاء في عقيدتنا سواء بالنسبة لمفهوم ثقافتنا الإسلامية عن فكرة التطور .. تطور الإنسان وأعماله وخبرته البشرية منذ وجوده على هذه

الأرض ، وتطور الكون ووجود الخلق فيه ، ونشأته الأولى وتطورها ، وكذلك بالنسبة لمفهومنا عن العقيدة الإسلامية وما يتعلق بها من منهج رباني ثابت .

هذا المنهج الرباني الثابت يوضح للإنسان المفاهيم عن الألوهية والكون ، كما ينظم أحوال العلاقات بين البشر في إطار تشزيع إلهي يتحقق به العدل والخير للناس أجمعين ، كما يحث الإنسان لتحقيق فاعليته في إعمار الكون بالعلم الذي ينير له طريق أعماله ونشاطاته نحو تحقيق الخير بما يساعد على تكوين ثقافته وخبراته .

ولدى مراجعتنا لأدبيات هذا العلم وجدنا أنه قد كثرت فيها تعاريف الثقافة والفولكلور ذات المنطلقات المادية من جهة ، أو من جهة أخرى ، التعاريف التي تعبر عن ثقافة أو حضارة المجتمعات البدائية التي انحرفت في تفكيرها عن المنهج الرباني في تصوراتها العقائدية ، دون إعطاء المكانة الملائمة لمنهجنا الفكري الرائد الذي يلقي الضوء على التفسيرات العالمية والمنهجية لهذه التطورات البشرية من خلال علم التاريخ البشري ومسيرته عبر القرون .

إن استمرار اعتمادنا على أدبيات علم الثقافة الأوربي وما تتضمنه من قيم ومفاهيم وتعريفات منه سيسهم في استمرار تسرب الجراثيم الفكرية والأفكار الممرضة والقاتلة التي تشوه المعرفة فتضيع الأجيال واتجاهاتها الفكرية وتقودها نحو الظلام ، وهذا مما يعوق تحقيق النتيجة السليمة لمجتمعاتنا واتجاهاتها لتحقيق أهدافها .

ولقد بينا أن مفهوم الثقافة هو مفهوم متصل بمفهوم الحضارة حيث إن كثيراً من العلماء قد استخدم مفهومي الثقافة والحضارة ليدلا على مفهوم واحد ومعنًى واحد إلا أن البحوث والكشوفات العلمية في دراسة الجوانب المختلفة للجماعات البشرية قد عمل على تطوير هذا العلم وإخضاعه من أجل استخدامه في دراسة التغيرات الثقافية والاجتماعية في المجتمع ونموه نحو تحقيق الحضارة ، وكذلك في توجيه هذا التغير ضمن خطة تربوية تقوم بتوظيف

الأفكار وما يتبعها من وسائل في عملية نمو المجتمع أو إعاقة نموه وتطوره .

ومن الجدير بالذكر أن نذكر أن العلامة مالك بن نبي قد درس مشكلة الثقافة المتصلة بمجتمعنا العربي والإسلامي ، وكشف أخطاء استعارة تعريفات الثقافة الأوربية ومفاهيمها ، وتطبيق مثل ذلك على مجتمعاتنا ، وألقى الضوء على ما تحدثه من أثر سلبي تتسرب من خلاله ، الأفكار الممرضة التي تنقل الجراثيم الفكرية إلى مجتمعاتنا . كما أوضح أن هذا العلم الجديد كان في تاريخنا الإسلامي واقعاً اجتماعياً لكن من حيث كونه علماً فقد ظهرت معرفته في العصر الحديث[1] .

وقد عمل العلامة مالك بن نبي على ربط علم الثقافة بمنهجنا القرآني والاستفادة من خصائصه ومعطياته لكي يكون منهجاً لصنع الحضارة ، وصنع التاريخ ، بما يحقق أهداف الإنسان وغايته في الوجود ، من واقع ثقافتنا الإسلامية كما أوضح كيفية استخدام هذا العلم في وضع برنامج ثقافي تربوي في عالم الأشخاص ؛ لتوجيه الثقافة توجيهاً يتفق وسمو الغاية التي تسعى إليها ثقافتنا الإسلامية .

وعن طريق هذا العلم يمكن أن يتم الكشف عن العناصر الفاعلة في ثقافة المجتمع والعناصر الممرضة التي تسبب للمجتمع الأمراض الاجتماعية والآلام في العلاقات البشرية ، وقد أطلق على بعضها اسم الأفكار القاتلة أو الممرضة .

ولا يمكن لنا أن نتمكن من هذا العلم لكي يكون علماً نافعاً يحقق الخير لثقافتنا ومبادئنا ، إلا إذا قدمنا الخدمات الجليلة والجهود المتواصلة لهذا العلم وبحوثه ، واشتركنا بمبادئ ديننا في توجيهه الوجهة التي يتحقق منها الخير لمجتمعنا وللبشرية جمعاء . وقد أصبح واضحاً لدينا كيف أن الله عز وجل أمرنا في كثير من الآيات بالسير في الأرض ودراسة كيف بدأ الخلق . وأن

---

(١) مالك بن نبي (مشكلة الثقافة) ٣٤ – ٣٧

هذا سيكون من مسؤولية العلماء ، علماء التاريخ وعلم الإنسان في تخصصاتهم المختلفة ، لإلقاء الضوء على علم تاريخ البشرية وثقافتها ، وكيف بدأ الخلق[1] ، وكيف كانت عاقبة الأمور في هذه الجماعات البشرية وتاريخها في طريقة استخدامها لصناعاتها .

وعند تمكننا من خدمة هذا العلم وتوجيهه بما ينفع الإنسان في تقدم علومه عن السلوك البشري وقيم المجتمعات وأخلاقياتها – عندها يكون لعلم الثقافة مفهومه العميق والواسع في لغتنا العلمية وآدابها .

إن الثقافة في حقيقتها مرتبطة بفاعلية الإنسان في هذا الكون ، بأوسع معانيها وقد بينا سابقاً أن معنى الثقافة هو عين معنى الحضارة التي وردت في كتابات ابن خلدون . كما بينا أسباب اختلاف هذا المفهوم عند بعض العلماء الأنثروبولوجيين الأوربيين . وهي اختلافات ثبت خطأ الفكرة فيما بينها وكانت منطلقات الاستخدام لأسباب متعددة وهي أسباب نظرية تتعلق بالعلم الذي تطور عن علم الحضارة من أجل دراسة اختلاف الثقافات البشرية وعملية التغير الثقافي ، أو عمليات التثاقف وكل ما يتعلق بالتحليل الأنثروبولوجي ، وما هي في حقيقتها إلا عمليات تدخل في باب التغير الحضاري ، سواء كان في نموه إلى الأمام أو تراجعه إلى الخلف ، والذي يؤدي لسقوط الحضارة أو تقدمها ، وقد كان للأغراض الاستعمارية النصيب الكبير في هذا الاستخدام .

إن ماضي الثقافة ما هو إلا العطاء الفكري والمادي للحضارة التي انهارت ، والتي كان عليها أصحابها قبل انهيار حضارتهم أو العكس .

إن هذا الاستحداث كان قد ساهم في خدمة الأغراض الاستعمارية ، في تغيير المفاهيم وطمس المعرفة الإسلامية ذلك لأن ارتباط علومنا بمفهوم الحضارة وما كانت عليه الأمم في ماضيها الثقافي يساعد أكثر على ارتباطنا

---

(١) ان تفسير معنى كيف بدأ الخلق واسع يشمل خلق الإنسان والكائنات وتشكيل الإنسان لحضارته وما تتضمنه من صناعات وعلوم وشواهد مادية ..

بالمفاهيم القرآنية التي جاءت عن سنن بقاء الحضارات أو انهيارها ، متمثلة بمقدمة ابن خلدون .

ومن هنا يتبين أن أسباب ازدواج مفهومي الحضارة والثقافة ، تتمثل في أسباب نظرية علمية ، أو تطبيقية لهذا العلم ، كثيرا ما سيطرت عليها منطلقات الحضارة الأوربية واتجاهاتها الاستعمارية ، في غض الطرف عن تراثنا العلمي في هذا المجال .

وعلى أية حال ، يجب أن نكون واعين بأن مفهوم الثقافة هو عين مفهوم الحضارة ومن المستحسن أن نتمسك بمفهوم الحضارة الذي جاء في فكر ابن خلدون ، من خلال مقدمته في علم الاجتماع البشري ، ذلك لأنها أقرب إلى مفاهيمنا التراثية ، كما أنها تحل لنا كثيرا من الضياع الفكري في متاهات الثقافة الأوربية الحديثة ومقاييسها وعلومها الجديدة .

ويمكننا أن نحل المسألة العلمية باستخدام ثقافة بدائية وثقافة متحضرة ، بتعبير « حضارة بدائية » و« حضارة كاملة » . أو « حضارة ذات ثقافة بدائية » و « حضارة ذات ثقافة مستجدة في العمران » . ولا يوجد أي غضاضة في ذلك .

وهناك محذور أيضاً في استخدامنا لمفهوم الثقافة ، لأن المنطلقات المادية الأوربية تعتبر العقائد والدين كلها من صنع الإنسان وخيالاته وتصوراته ، بعكس ما هو عليه الحال في حضارتنا التي يتم بها الأخذ والعطاء المتبادل بين الذات الإنسانية والمنهج الرباني في رسالة السماء ، والكتب المنزلة على الأنبياء .

وقد تم توضيح أن المنطلقات المادية الأوربية كثرت فيها أدبيات تعاريف الثقافة أو الحضارة للمجتمعات البدائية ، التي انحرفت في تفكيرها عن المنهج الرباني في تصوراتها العقائدية عن الإله والكون ، وما يرتبط بذلك من ثقافة . وإن مثل هذا يعتبر أمراً يساهم في تصنيع فكر أجيالنا ، عند عدم وضوح ذلك ،

واستمرارنا في استخدام مفهوم الثقافة واستبعاد الأخذ بمفهوم الحضارة الذي ورثناه عن تراث أمتنا الفكري من واقع التصور القرآني وإذا استعنا بتعريف ابن خلدون عن مفهوم الحضارة ، نجده يجمع فاعلية الإنسان في بنائه الحضاري في مجموعة ، صنائع سواء أكانت صنائع فكرية أم عملية ؛ لأن الصنائع العملية عنده لها خاصيتها الفكرية أيضاً ، كما أن الأخذ بالتعريف يوفر علينا كثيراً من الانزلاقات في انشطارية الفكر الغربي النظري ، لما يتسم من منطلقات مادية بحتة ، بعكس ما هو عليه في حضارتنا الملتزمة بالمنهج الرباني ، الذي يجمع بين المادة والروح .

ويمكننا الاستفادة بما جاءفي تعريف ابن خلدون عن مفهوم الحضارة وتطبيق ذلك مثلاً على واقع الحضارة الفولكلورية الماضية من حيث أنها تفيد عقلاً لأنها مجتمعة من صنائع في شأن تدبير المنزل ومعاشرة أبناء الجنس ، وتحصيل الآداب في مخالطتهم ، ثم القيام بأمور الدين واعتبار آدابها وشرائطها وهذه كلها قوانين تنتظم علوماً وكما قسم أجدادنا الأوائل الصنائع ، إلى نوعين صنائع عملية وصنائع علمية ، علماً بأن الصنائع العلمية ترتبط وتكمل الصنائع العملية وتنير لها طريقها لأن الصنائع العملية بحدذاتها لها خاصيتها الفكرية أيضاً .

الفصل الثاني

أضواء على بناء ذاتنا الثقافية

الثقافة الفولكلورية
وأهمية الرجوع إلى الذات الحضارية

تمر معظم المجتمعات بأزمات متنوعة خلال تاريخها ، وعند حدوث أزمة ما ينشط كثير من العلماء والمفكرين والهيئات بالدراسة والتحليل ؛ لتحديد الأسباب واقتراح الحلول الناجحة للخروج من الأزمة .

إن طريقة علاج المجتمع لأزماته تبين لنا درجة نضجه ووعيه ؛ حيث إنه لا ينبغي للمجتمع أن يتجاهل الأزمة أو يتجاوزها ، بل إنّ مواجهتها هي السبيل .

وباستقراء التاريخ ، نجد أنه لا يمكن لأية دولة أن تبني حضارتها المعاصرة إذا لم تستند إلى تراثها الحضاري ، وتستفيد منه في البناء الجديد ، وهذا إنما يعد من مميزات الثقافة الفولكلورية بالإضافة إلى اعتماد التربية وسيلةً رئيسيةً في هذا ؛ لإدخال ما يُقترح من حلول في صلب العملية التربوية والتعليمية .

ومن الأمثلة على هذا – في عصرنا الحديث – ألمانيا ؛ حيث رمت بأزمتها إبان الاحتلال الفرنسي لبلادها ، فلجأت بعد رحيل الاحتلال إلى القيام – بمحاولة – جادة – قوية – للكشف عن ذاتها وحشد مجموعة من العلماء والمفكرين جهودهم لاستخلاص اللغة الجرمانية الأصيلة ، والطابع القومي لحضارتها ، وزراعته في نفوس الناشئة ، فاستطاعت أن تحقق نظاماً تعليمياً وتربوياً يحقق لها السبق الاقتصادي والعلمي ، والنهضة – القوية الحديثة .

ومن الأمثلة الحديثة أيضاً تلك الأزمة التي مرت بها الولايات المتحدة الأمريكية إثر إطلاق الاتحاد السوفيتي أول قمر صناعي إلى الفضاء ، متفوقاً بذلك على الولايات المتحدة ، التي تعتبر نفسها متقدمة عليه بمراحل في هذا المجال ؛ مما سبب صدمةً عميقة للمجتمع الأمريكي ، تداعى بعدها العلماء والمفكرون لإدخال تغيرات جذرية في مناهج التربية ونظمها ؛ حتى استطاعوا –

بعد سنوات قليلة – اللحاق بالسوفييت والتفوق عليهم بإنزال أول رجل على سطح القمر . ويؤكد أحد الباحثين أهمية النسق التربوي والتربية فيقول : « فما التفات الولايات المتحدة الأمريكية إلى العملية التربوية ، بعد إطلاق الاتحاد السوفيتي للقمر الصناعي في الخمسينات ، إلا اعتراف جادّ وصائب بدور التربية ، وتقدير له . وما توجُّه العالم إلى التربية اليابانية بعد التقدم الهائل الذي حققته اليابان في اقتصادها دون أن تفقد أصالتها كما يبدو إلا إشاهد آخر لما نقول . ولعل ما نجده الآن في الدول المتقدمة ، من إعادة النظر في برامجها وخططها التربوية ، هو مصداق لما نقول ، حتى اعتبر التخلف النسبي عن التنافس بين الدول المتقدمة ، خطراً يهدد الأمم المتنافسة ، وحتى غدت بعض الدراسات الأخيرة في الغرب تتسِّم بالتشاؤم والحذر ، وربما بالتهويل في نظرتها إلى المستقبل ؛ نتيجة ما اعتبرته تخلفاً في ميدان التربية »[1]

أما فيما يتعلق بمجتمعنا العربي والإسلامي فإن مسألة العودة إلى الذات والتمسك بها ليست أمراً سهلاً في هذا العصر ؛ لأن الاستعمار عمل على أن يسلب كل جوانب ثقافتنا معناها وفعاليتها ؛ لكي لا تسترد قوتها ؛ حيث نشر بغزوه الثقافي والعلمي ، طرقاً وأساليب فكرية عصرية ، تشتّت قوانا ، وتبعثر طاقاتنا ، وتذيب شخصياتنا .

لذلك فإن مسألة رجوعنا إلى ذاتنا الحضارية تحتاج منا إلى أن نكون على وعي فكري[2] بثقافتنا ومنطقتنا وما تتميز به ثقافياً وتاريخياً وجغرافياً وإن كل هذا متصل بحاضرنا ، ومتصل بما نأمل أن تكون عليه عذه الذات مستقبلاً ؛ من أجل استرداد دورنا الحضاري بين ثقافات العالم التي تمثل جماعاته . كما أن من واجبنا أن نفهمها باعتبارها نظاماً تربوياً تطبيقياً يشمل جميع طبقات

(١) حكمت البزاز ، مجلة رسالة الخليج العربي ، السنة التاسعة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م ، العدد ٢٨ ، ص ١٧٩

(٢) د / علي شريعتي (العودة إلى الذات) ، الزهراء للإعلام العربي مدينة نصر ، القاهرة ١٤٠٦ – ١٩٨٦ ص ٣٢

المجتمع[1] .

أي إن هذا الوعي يجب ألاّ يكون مفصولاً عن الرؤيا الشاملة للعوامل التاريخية والجغرافية التي مرت بها حضارتنا ، وما تضمنته ذاتيتنا الثقافية من أفكار إيجابية كان لها دورها الحضاري في منطقتنا ..

وإن اهتمامنا بهذا الجانب ، يجب ألا يجعلنا نهمل العوامل والأفكار السلبية التي جعلت الضعف والوهن يدب في جسم أمتنا ، وينال منه الاستعمار الحديث ما ينال من تفتيت لوحدتها والتحكم بمقدراتها ، حتى أصبحت فعاليات ثقافاتنا على هاش الأحداث العالمية والمجتمع الدولي[2] .

إن العودة إلى ذاتنا نحتاج منا إلى أن نأخذ بعين الاعتبار مؤثرات العصر الحديث ، وخصوصاً ما استجد فيه من اتساع ظاهرة الاستعمار مع النهضة الأوربية الحديثة وتنوع أساليبها ووسائلها . مع نشوء ظاهرة الأنظمة المادية الحديثة ، والرأسمالية منها أو الاشتراكية .

لقد جعل نشوء ظاهرة الرأسمالية الاقتصادية الدول الأوربية تتنافس على بسط سيطرتها على أهم المناطق ذات الفعاليات الثقافية فترة من الزمن ثم استتاب نفوذها على حضارتها تلك ؛ لغرض هيمنتها الثقافية عن طريق إخلاء[3] ذات الشعوب المستعمرة من عناصرها الثقافية ، التي تمثل شخصيتها ، وتورثها العقم ؛ وذلك لكي تحافظ على تبعيتها الثقافية والاقتصادية للحضارة الأوربية .

إن من أهم واجباتنا أن ندرس الظاهرة الاستعمارية الحديثة[4] بالمقدار الذي درس فيه أصحابها والقائمون عليها نقاط قوتنا وضعفنا ، وتمكنوا بوسائلهم بعد

---

(١) مالك بن نبي (مشكلة الثقافة) دار الفكر ، لبنان ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م ص ٥٩ - ٦٤

(٢) د / محمد عمارة (التراث في ضوء العقل) دار الوحدة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٠ ، ص ١٨٥ - ٢٠٠

(٣) د / علي شريعتي (المرجع السابق) ص ٣٩ - ١٠٨

(٤)(٥) د / علي شريعتي (العودة إلى الذات) ص ٣٦ - ٦٣

ذلك من النفاذ إلى مجتمعاتنا والنَّيل من ذاتنا الثقافية ، التي يقع العبء الكبير على كاهلها في بناء حضارتنا .

ولقد اعتاد الاستعمار أن يسلب عناصر الثقافة معناها الحقيقي ، مثل قضايا : البحث عن الذات ، والتعليم ، والفن ، والأدب ، والصناعة .. فتختلط الأوراق ويستطيع بذلك أن يذيب شخصيتها .

وإن من أنواع الاستعمار الحديث أن تقع ذاتنا الثقافية فريسة الوهم للثقافة الإنسانية العالمية . والتي في حقيقتها تمثل الثقافة الأوربية ، فيكون اشتراكها مع الثقافة الأوربية اشتراك الثقافات المحلية المفَرَّغة من ذاتها ومن محتواها الإنساني والفكري ؛ بفعل هيمنة الثقافة الأوربية ، فتقع ذاتها في وهم الشخصية العصرية[1] التي تحرص على السير في طريق الاستهلاك للمنتجات الصناعية الأوربية الحديثة ، وتكون علاقة هذه الذات بها علاقة الشخصية المفلسة بالشخصية العاملة المنتجة لثقافتها ، التي تصنع أشياءها بنفسها .

فالعالمية وَهْمٌ إذا لم نُحسِن فهمها واتّباع طريقها السليم ؛ والعصرية خدعة إذا لم نحسن بناء ذاتنا شخصيةً خلاقةً فاعلةً ومنتجةً .

كما أن الاستعمار لم يكن باستطاعته أن ينفذ إلى ذواتنا لو لم تكن في شخصيتنا العيوب والاستعداد للخضوع له .

لقد ورثنا من العهود السابقة – شخصية لذاتنا الحضارية مليئة[2] بالثغرات التي أتاحت ، وتتيح الفرصة للاستعمار أن ينفذ إليها ويسيطر على مقدرات نمو ثقافاتها وعناصر فعاليتها . وبالرغم من أن عالم الأفكار في ثقافتنا يحتوي على الجوانب المضيئة .. إلا أننا ورثنا أيضاً الأفكار القاتلة والمميتة[3]، والقوالب الفكرية القديمة التي عملت على تسيير مجتمعاتنا نحو الجهود والمرض والشيخوخة .

---

(١) المرجع السابق نفسه .   (٣) د / محمد عمارة (التراث في ضوء العقل) ص ١٨٨

(٣) مالك بن نبي (في مهب المعركة) ص١٣٠ – ١٣٢

وقد وجدنا ذاتنا الحضارية ، إثر فترة الاستعمار ، مكبلة بالقوالب الفكرية الحديثة ، التي تجعل ذاتنا خاضعة للذات الممسوخة[1] التي تعلمناها على يد الغرب من خلال علومه الحديثة وقوالبه الفكرية « وموضاتها » وكل جوانب غزوه الفكري بالوسائل احديثة .

إن وقوعنا في شراك الاغتراب الثقافي[2] هو أسوأ أنواع الاغتراب ، وخصوصاً عندما وجدنا علومنا وثقافتنا مفصولة عن تاريخ الأمة ، وشخصيتها المعنوية والدينية والثقافية . وبذلك وقعنا في داء التبعية للغرب وتقليده ، كما وقعنا في مرض التعالم بعد أن تعلمنا من إسلامنا أن العلم ضمير وليس صناعة أو مهنة أو فتنة علمية .

لقد عمل الاستعمار على أن يمسخ شخصيتنا المعنوية والدينية والثقافية قبل أن يغادر أرضنا .

لو قارنا مثلا مسألة إقبال مجتمعاتنا العربية والإسلامية على الثقافة الغربية بإقبال المجتمع الياباني على هذه الثقافة . نجد أننا دخلنا المدرسة الغربية في الوقت نفسه تقريباً عام ١٨٦٠م . ولكن الحقيقة التي لا جدال فيها هو اختلاف النتيجة تماماً .

إذ نجد بعد قرن (معجزة اليابان) في ميدان الفن والصناعة والاقتصاد ، ومن طرف آخر في المجتمع الإسلامي ، نجد دون ريب مجهوداً لا ينكر فيما تسميه (النهضة)ولكنه مجهود تشله (الأفكار الميتة) ؛ فمعجزة اليابان لا تفسر قطعا إلا بموقف فيه فعالية أكثر اتخذ اليابان من الثقافة الغربية ، لأنه تخلص من الأفكار الميتة من عهد (الشوغون)[3] كما أنه لم يدع الفرصة للقاوالب الفكرية الغربية أن تسيطر على مقدرات فعاليات ثقافية ، بل استطاع أن يربط

---

(١) د / علي شريعتي (العودة إلى الذات) ص ٣٠ - ٣٢
(٢) مالك بن نبي (مشكلة الثقافة) ص ٧٢
(٣) د / مالك بن نبي (في مهب المعركة) ص ١٣٤

ثقافته الحديثة ، بكل القيم الأصيلة التي تحتويها ثقافته القديمة ووضع الحواجز التي تحمي ثقافته من أن تسيطر عليها قيم الغرب وبذور أفكاره التي ينشرها وقوالبه الحديثة التي يدعو إليها ، والتي ثبت أنها لا تورث إلا العقم الفكري .

إن الاستعمار لم يعط النخبة اليابانية الأفكار المثمرة الخلاقة ، بل على العكس فإنه أعطاها (الأفكار القاتلة) والعقيمة ، ولكن الثقافة اليابانية والمفكرون اليابانيين أشاحوا بوجوههم عن هذا ، وعرفوا طريق صنع ذاتهم الثقافية ، ومن ثمَّ الحضارية .

فلم يخدعهم التضليل الفكري الاستعماري ومخترعاته الفكرية المزيفة ، التي اعتاد أن يضعها في طريق الشعوب الناهضة ، فإن اليابان أصابت الهدف عندما رجعت إلى ذاتها وأقامت ثقافتها المعاصرة في خطة تربوية متماسكة ، تشمل العناصر التي تكفل لها شروط الحياة والتقدم ، وابتعدت عن العناصر المميتة القاتلة بأشكالها القديمة والحديثة فمثلاً نجد أن من العناصر المميتة القاتلة التي يضعها الاستعمار في طريق شعوبنا فكرة العودة إلى الذات العرقية لكي تقع ذاتنا فريسة للعرقية والفاشية والجاهلية والقومية ، وهي عودة رجعية[1] .

كذلك يروج الاستعمار لكل دعوة تقرىياً إلى ما يشبه عبارة التراث أو العودة إلى الإسلام حالة كونها تقليداً أو وراثة ، ويبعدنا عن أن تكون الثقافة الإسلامية السليمة مناراً لدربنا والإسلام وعقيدته نظاماً يحكم مجتمعنا ، وينظم علومه وفنونه ، ويعمل على إشعاع نور ثقافته .

ومن الأفكار القاتلة التي حدد بها الغرب علاقته مع الشرق لاستعماره ثقافياً واقتصادياً ، ما يتمثل بنظرية[2] جدلية (سوردل) ، وفيها يتضح أن الغربي لا ينكر على الشرقي ثقافته وتاريخه وشخصيته حتى لا يقف موقف الدفاع ، ولكنه من خلال هذه النظرية يتم تحديد مكانة الشرقي أنه من الدرجة الثانية ، وأن

---

(١) (٢) د / علي شريعتي (العودة إلى الذات) ص ٣٦ – ٤٩

الغربي هو الجنس الأعلى والدرجة الأولى ؛ ذلك لأن للأوربي عقلاً يفكر ويصنع ، وعلى الشرقي فقط أن يَنْظِمَ الشعر ، وأن ينسج نظريات العرفان (التصوف) فالنظرية هذه تعتبر أن في الدنيا جنسين : جنساً صانعاً وجنساً غير صانع للحضارة . الجنس الذي لا يصنع الحضارة يشتغل لخدمة صانع الحضارة ويستعبد له .

وعلى هذا الأساس ، تكون علاقة الذات الشرقية مع الذات الغربية علاقة الشخصية المفلسة بالشخصية العاملة المنتجة لثقافتها التي تصنع أشياءها بنفسها .

وتجاه هذا فإن من واجبنا أن نبتعد عن كل الدعوات التي ترجح عوامل العرقية والجاهلية وتؤدي إلى الجمود القومي والقبلي التي يعمل الاستعمار على تكريسها بل نركز على الذات العربية الإسلامية التي تركت في التاريخ علامات على أن الإنسان استطاع أن يخلق فنونه وعلومه وثقافته[1] ، أي أن نعود إلى الذات التي في العقل والتي في قلب المجتمع ووجدانه وضميره حتى نصير مثل نبع من ينابيع الطاقة ، فتلهم المفكر والصانع والعامل والمعلم .. وهي ذاتنا الثقافية المعنوية والإنسانية التي اكتشفنا أنها تبلورت في حضارة ما أو عصر ما على أنها هي الثقافة الإسلامية الحية الفاعلة .

وهي ذات لها إحساس عميق بالقيم الروحية والإنسانية ، نبعت رسالتها من الصحراء فوحدت أركان العروبة والإسلام وحطمت أعتى القوى الاستعمارية في شرق العالم وغربه والواجب أن نعي ذاتنا ، التي توقفت عوامل فعاليتها عدة مئات من السنين بل آلافاً من السنين ، وعياً يرتكز على تاريخ أمتنا وثقافتها على أن يرتكز دور المفكر ورسالته في هذا على تاريخ السواد الأعظم من المجتمع .

أنها تلك الذات الثقافية الإسلامية التي وضعت حداً بين ذاتنا قبل الإسلام وذاتنا بعده ، وهي ذات قوة معنوية تفعل فعل السحر وتثير الدهشة ، فتقضي على كل الأشياء التي كان قد اشتد رسوخها في سبات عميق فتحرر المجتمع

(١) المرجع السابق ص ٣٦ — ٥٠

من جميع أنواع القالب التي جمدته فتنتقل به من الموت إلى الحياة ومن السكون إلى الحركة[1] .

إنها ليست تلك الذات الممسوخة التي تعلمناها على الطريقة الأوربية ، والتي تعبر عن طريقة تعامل سطحي مع تراثنا ونماذجه الفولكلورية ، كما أنها ليست الذات التي نستخف بحضارتها وتراثها ، بل تتعامل مع جوهر وروح حضارتها قبل مظهرها الذي عادة ما يتأثر بهذا الجوهر وتبقى بصماته ظاهرة عليه[2] .إن الإسلام لم يحارب الطرق المختلفة للشعوب . ولم يعمل على أن يكون قوم من الأقوام مستعمرين لآخرين . بينما خاطب الاستعمار العالم الثالث – كما سمانا – وشعوب أفريقيا ، وتحايل عليهم فكرياً تحت شعار الدين المسيحي ؛ لكي يرضخوا للاستعمار الأوربي وللثقافة الأوربية الواحدة .

إن الإسلام لم يفعل كما فعلت سياسة الاستعمار الغربي نحو أحادية[1] الزراعة ، أي تركيز فئة من الناس على حساب محصول واحد لكي يكون الاستعمار سيد الدنيا والمال في يد فئة من الناس على حساب الضعفاء .[3] كما لم يعتبر الإسلام أن العالم مزرعة له عن طريق توحيد المحصول في دولة ما بالاستعانة بالآلية الحديثة على حساب إفقار السواد الأعظم من العاملين بالزراعة وعلى حساب النمو الاجتماعي للسكان لصالح مجموعة من الرأسمالية العالمية . وإنه وإن توفرت الوسائل الآلية[4] فإنه يحارب مثل هذا .

فالرأسمالية العالمية وضغوطها وأساليبها أصبحت من معالم الاستعمار المباشر وغير المباشر حيث تقف وراء كثير من حوادث المجاعات في كثير من بلدان العالم ، ووراء كثير من الحروب والفتن .

إن هذا هو عكس ما فعله الإسلام في البلاد التي نشر ظله عليها ، عندما

---

(١) (٢) المرجع نفسه ص ٣١ – ٤٧

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٧ – ٣٨

(٤) فرانسيس مورلابييه – جوزيف كولينز (صناعة الجوع خرافة نادرة) مرجع سابق ٩٨ وما بعدها .

حكمٌ شريعة السماء لكي تكون ذاتية الأفراد والجماعات تحكمها علاقة خلقية مبنية على الإيمان والتقوى فانتشرت العدالة في الأرض وزال استغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، وتفتحت الطاقات الإنسانية على الحضارة وتم إعمار الأرض بالحضارة الإنسانية وازدهرت خيراتها ؛ مما يمكننا أن نطلق عليه بلغة العصر (حسن التعامل مع البيئة)

كما إن الإسلام لم يثر الحروب بين الناس ولم يرق الدماء أو ينشر المظالم البشرية .

إن من واجبنا أن ندرس الاستعمار دراسة علمية ، كما درسنا هو حتى أصبح يتصرف في مواقفنا الاجتماعية والوطنية(١) من حيث نشعر أو لا نشعر ، والاستعمار لا يتصرف في طاقاتنا الاجتماعية إلا لأنه درس أوضاعنا النفسية دراسة عميقة ، وأدرك مواطن الضعف فينا فسخرنا كما يشاء ، ونال منا ما يشاء ، وإن له أقلاماً تكتب وأبواقاً تتحدث بفكره وعلمه ، وتسرح وتمرح مستغلة جهلنا(٢)

إن الحضارة الإسلامية أعطتنا منهجاً فريداً في صنع الذات على أحسن مستوى يكشف لنا أفكار الجاهلية والاستعمار ، ويخلصنا منها لكي نكون مؤهلين وقادرين على حمل أفضل رسالة للبشرية .

إن الإنسان المسلم يستطيع تحقيق ذلك بدراسة الثقافة كمنهج(٣) تصنع به حضارتنا المقبلة ، لكي نحتل دورنا في هذا العصر بين الأمم ؛ فنساعد على خدمة الإنسان لنفسه ولأخيه الانسان ، وتحقيق السعادة للبشرية ، وتخليص الإنسانية من مشاكل الاغتراب والاستعمار الذي يسوم الإنسانية سوء العذاب ثم يوجه أعمال الإنسان وضميره نحو الغايات التي تتقدم بالنوع البشري وتبتعد به عن سبل شقائه . ومثل هذا يتواءم مع رسالة السماء للبشرية .

---

(١) مالك بن نبي (شروط النهضة) دار الفكر دمشق، ١٩٧٩.، ص ١٥٥

(٢) د / علي شريعتي – العودة إلى الذات – ص ٢٣٢

(٣) مالك بن نبي (مشكلة الثقافة) ص ٦١ وما بعدها .

رسالتان إلى ثقافتنا

رسالة من عربي مسلم :

إن ثقافة المجتمع بجوانبها المختلفة تشكل كلاً متسقاً متبادل التأثير بين نسق في المجتمع والآخر، سواء في الجوانب الاقتصادية ، أو السياسية ، أو الدينية ، أو اللغوية وغيرها ، حيث تتعاون كلها لتؤدي وظيفتها بشكل متكامل كما أن للثقافة ماضياً وحاضراً ومستقبلاً متصلاً بعضه ببعض ومتبادلاً في التأثير ولنا في الاطلاع على رسالة الأستاذ الكبير محمود محمد شاكر الموجهة إلى ثقافتنا ، والتمعن في معانيها ، ما يفيدنا من أجل العمل لمستقبل ثقافتنا ، حيث تقول هذه الرسال على لسان مقدمها[1] :

إن الأستاذ الكبير يعلن الحرب على حركة الاستشراق جملة وتفصيلاً ؛ لأن المستشرقين قاموا بعد احتلال العثمانيين القسطنطينية يجوبون بلادنا شرقاً وغرباً طوال مائتي سنة ، فسرقوا منها أسرار علومها وفنونها ؛ ونقلوها إلى أوربا فبدأت بها نهضتهم المعروفة في القرن السادس عشر .

وهو يرى أن فتح العثمانيين للقسطنطينية سنة ١٤٥٣م قد دفع أولئك المستشرقين إلى الاستماتة في التجسس على البلاد العربية ، حتى سقطت غرناطة آخر إماراتنا في الأندلس سنة ١٤٩٢م ، أي بعد سقوط القسطنطينية .

فأي قوةٍ سرية جبارةٍ استنبطتها حركة الاستشراق من علومنا وفنوننا في أربعين سنة لا أكثر ، واقتُنصت بها غرناطة من أيدينا ، وكم مستشرقٍ كان في ركاب الملكة إيزابيلا المتعصبة وزوجها فرديناند القادر حين دخلا غرناطة فاتحين ! !

إن طليطلة ، أول عاصمة للأندلس ، قد سقطت في يد ألفونس السادس سنة

---

(١) (محمود محمد شاكر يكتب رسالة إلى ثقافتنا) الشرق الأوسط – العدد ٣٢٩٤ /٥ /١٢/ ١٩٨٧ بقلم كمال النجمي

١٠٨٥م قبل فتح القسطنطينية بأكثر من ثلاثمائة وستين سنة .. . ثم سقطت قرطبة وإشبيلية وبلنسية ومدن الأندلس الكبرى في أيدي القشتاليين « الأسبان قبل أن يقتحم السلطان محمد الفاتح أسوار بيزنطة بزمن طويل ، وقبل استفحال حركة الاستشراق ، بل قبل قيامها . ونتساءل عن الحملات الصليبية التسع على الشرق العربي ، وهل كان وراءها المستشرقون ؟ . وهل كان لويس التاسع حين هجم على دمياط مستشرقاً واحداً ؟ .

وهو يرى « أي الأستاذ » أن الفساد لم يدخل إلى ثقافتنا إلا بعد التصادم المخيف الذي وقع بيننا وبين الثقافة الأوربية الحاضرة ؛ أي منذ مائتي سنة تقريباً في غزوة بونابارت لمصر ، ثم عصر محمد علي .

ثم يضيف : نعم إن الأوربيين قد تعلموا منا قديماً لأن الأمم يتعلم بعضها من بعض ، وليست العلوم والفنون من عمل أمة واحدة ، وإنما هي من عمل البشرية جمعاء ، وهي ميراث لكل شعب يستطيع الانتفاع بها ، ولا يمكن أن يقال إن الأوربيين قد سرقوا كنوزنا العلمية ونقلوها خلسة إلى ديارهم ، فلما أحاطوا بها علماً وإتقاناً حاربونا بها وغلبونا على أمرنا ، فكيف لم ننتفع بها كما انتفعوا وهل كنا – نحن أصحاب هذا العلم – نجهله ، وكانوا هم الجهلاء يعلمونه أو يعرفون على الأقل وجهة مصلحتهم فيه ؟ !

لو كان هذا صحيحاً لما وجد خصومنا ما يذمونا به أبلغ منه ، ولكان من حق الأوربيي الآن أن يتهموننا بأننا نسرقُ علومهم وفنونهم لأننا نأخذها عنهم ، ولكان من حقهم أن يتوجسوا خيفة من حرب شعواء نضمرها لهم ..

ثم يشير الأستاذ إلى أن من أهم أسباب فساد الحياة الثقافية في مصر ، بعد اتصالها بحضارة الأوربيين ، دخول أبناء المصريين المدارس الحديثة التي غسلت أدمغتهم ، فكانت معوناً لحركة الاستشراق على تحقيق هدفها ؛ وهو تفريغ الإنسان من ثقافته الأصيلة ووجدانه القومي .

ولكنه ، في الواقع ، لا يمكن لمائة ألف مستشرق أن يفسدوا حياتنا الثقافية لو

قامت على أسس لا تهزها عوامل الفساد .

وليس معقولاً أن تكون مصائبنا كلها ، منذ سقوط غرناطة ، أي منذ خمسمائة سنة ، راجعة إلى دسائس المستشرقين وسطوتهم على كنوزنا العلمية والفنية ، فإن مصائبنا بدأت قبل حركة الاستشراق و لم تنته بعد وليس ذلك دفاعاً عن جرائم المستشرقين ، ولكننا نحبذ أن نكون واقعيين غير حالمين في النظر إلى ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا ، وأن نعرف الأسلحة الحقيقية التي استعملها خصومنا فهزمونا بها وتملكوا ديارنا ومصيرنا زمناً طويلاً .

وما يتعلق بفرع الأنثروبولوجيا اللغوية وما عانته لغتنا من جراء محاولات أعدائنا المستعمرين النَّيل من فكرنا وقيمنا وشخصيتنا ، بشكل عام ، فإننا نستفيد من دراسة الأستاذ الكبير وما جاء فيها :

إن أعراق الأمة العربية وجذورها وعبقريتها المتميزة يراها الأستاذ شاكر ممتدة من خلال لغتها الشريفة ؛ فلا يسلم شرفها ولا يستقيم أمرها دون سلامة الأصل الأول في أدبها وهو الشعر ، ولو جردوها منه لصارت بلا أب ولا أم ولا قبيل ، تكاثر بهم الأمم الأخرى وتقول شعري وشعرائي وأجدادي وآبائي على الدرب .

ومضت أفكار الأستاذ وأعماله وما زالت ماضية فيه ، ولن تزال وفي سبيلها ما يلقى من العنت وما لقى ، كأنه أبو الطيب المتنبي يقول :

لِعَيْنيك ما يَلْقَى الفؤادُ وما لقى   وللحبِّ ما لم يَبْقَ مني وما بَقَى

وإنه ليقف اليوم ، وقد انتهت إليه الرياسة في علوم اللغة وآدابها قائما بسلاحه على نفس الثغرة التي كان يدفع عنها (الأعداء) منذ سنين متفرِّداً متوحِّداً قد خلا الميدان إلا منه ؛ لأن حربه التي أعلنتها على (الفساد) لا تضع أوزارها ...

التعريف بالشخصية :[1]

الأستاذ محمد محمود شاكر من أحد علماء اللغة العربية المعاصرين ، الذين شهدوا

(١) جريدةالرياض – ثقافة اليوم – العدد ٥٦٦٧ ، عام ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٣م .

عهد إفساد اللغة العربية في مصر ، فاختار العزلة لنفسه لكي يتفرغ لعلمه وفكره ، غير مبالٍ بما حرص عليه غيره من شهرة ومناصب ، بدأت عزلته عام ١٩٤٨م وكانت فترات متقطعة ، واقتصر على بعض أصدقائه ، وترك أثناءها الكتابة وانشغل بشيء آخر راه أكثر فائدة وهو قراءة الكتب القديمة وإعادة نشرها بشكل يرضى عنه . ومن أشهر هذه الكتب التي نشرها : (تفسير الطبري) ، نال جائزة الملك فيصل في الآداب لعام ١٩٨٣ ، وكان يبلغ من العمر آنذاك خمساً وسبعين سنة .

ورسالة من مستشرق ياباني :

بدأت حركة الاستشراق الأوربي مذ سنين بعيدة ، وكان أبرزها عند احتكاك الشرق بالغرب أيام الحروب الصليبية .

وفي مجال الاستشراق الأدبي في القرون الأخيرة ، وبالتحديد في عام ١٧٠٤م قام فرانسوا جالان بترجمة كتاب ألف ليلة وليلةو حيث فتحت هذه الترجمة أمام الغرب أبواباً واسعة للإقبال على الأدب العربي ، ودراسة التأثر به .

كما بذل المستشرقون الألمان والسوفييت جهوداً واسعة في القرنين الثامن والتاسع عشر .

الاستشراق الياباني :

جاءت حركة الاستشراق أو (الاستعراب) في اليابان متأخرة جداً . وإن من أبرز من قام بجهود للتعريف بالثقافة العربية الإسلامية وحضارتها وآدابها المستعربين الأستاذ (بان) الذي كان أول من درس العربية في الجامعات اليابانية ، والذي تتلمذ عليه البروفسور (أوسام كيدا) مع الاستاذ (بان) في مشروع ترجمة القرآن الكريم ، بالإضافة إلى ترجمة العديد من كتب التراث مثل (مروج الذهب) للمسعودي وترجمة العديد من أشعار العرب قديمها وحديثها ، والروايات المعاصرة .

من نشاطات المستشرق أكيدا :

قام (أكيدا) بتعميق دراساته للغة العربية وآدابها عام ١٩٦٧م بعد أن ساعدته الحكومة العراقية عن طريق التقائه بأساتذة عرب من جامعة بغداد خلال فترة إقامته ببغداد[١]

وعلى إثر ذلك قام بترجمة أمهات الكتب من التراث العربي مثل (إغاثة الأمة) وكتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ ، وبعض الأجزاء من (مروج الذهب) وغيرها .

له أبحاث في الدراسات اللغوية عند العرب قبل القرن التاسع ثم بعده ، حتى عصر النهضة الحديثة ، وخلال فترة إقامته ببغداد ، اهتم بالأدب العباسي ، ثم تحول اهتمامه إلى القرآن الكريم ، حيث أقبل على دراسته وعلى التعمق في تفاسيره المختلفة مما قاده إلى الاهتمام والمشاركة في مشروع ترجمة القرآن الكريم .

وفي عام ١٩٧٤ ، قام بزيارة مصر ، حيث كانت زيارته هذه فرصة ثمينة بالنسبة له ، تعرف فيها على الأدب الحديث ، ومؤلفات طه حسين ونجيب محفوظ ويوسف إدريس فقد قام بترجمة أهم الروايات العربية المعاصرة وبعض المختارات الشعرية لشعراء الأرض المحتلة ، وفي الفترة نفسها عين عميداً لكلية اللغات في جامعة أوزاكا للدراسات الأجنبية . وقد ازدادت أعباؤه ، ومع ذلك فإنه كان يسرق بعض الوقت لترجمة كتاب ألف ليلة وليلة .

أما عن رأيه في الأدب العربي فهو يرى أن من أبرز خصائص الأدب العربي المعاصر واقعيته ؛ حيث إن هذا الأدب يسهم بدور كبير في التعريف بواقعه إلى درجة يعتقد معها أن الذي يبحث في تاريخ المنطقة العربية وفي واقعها الاجتماعي والحضاري ، عليه أن يقرأ الروايات العربية المعاصرة ؛ ولذلك قام بالتركيز –

(١) نقلاً بتصرف عن مقالة (الأدباء العرب لم يحسموا قضية الأصالة والمعاصرة) جريدة الشرق الأوسط ، العدد ٣٣٨٢ ، ١٩٨٨/٣/٨ .

أثناء ترجمته للأدب العربي – على الروايات . أما عن الشعر العربي المعاصر ، فيرى أنه بالرغم من استناده إلى تقاليد عريقة فإنه بدأ يجنح إلى الغموض المغلق ، يعكس ما تحمله الرواية العربية من ذلك الزخم بعد ترجمتها إلى اليابانية .

تجربة انفتاح اليابان على الثقافة العالمية .. والأزمة المعاصرة :

يذكر أكيدا أن اليابان قامت بحسم قضية الأصالة والمعاصرة بينها وبين الغرب ، وخصوصاً بالنسبة للتيارات الفكرية المتعلقة بالفن والأدب المعاصر ، وذلك بعد أن مرّ اليابان ببعض الأطوار في علاقته مع الغرب ، حيث انتشر فجأة (بعد انهزام اليابان في الحرب العالمية الثانية) – تيار من الأدب الجديد المناوىء للغرب ، فهناك من الكتّاب اليابانيين من امتصّوا تجارب الغرب وتملكوها على مستوى تقنية الكتابة ، ولكن منبعهم الأساسي ظل التراث الياباني .

وحول انفتاح اليابان على الثقافة الأوربية ، وما فيها من نسق تكنولوجي يقوم على أساس التوسع في عقلانيته الزائدة ، مما يؤدي إلى اغتراب الإنسان الحديث . وكما يدرس كثير من العلماء الأوربيين المعاصرين أمثال توكفيل وماركيوز وغيرهم ، مشكلة – اغتراب الإنسان المعاصر بسبب الآلية المفرطة ، فإننا نجد أن أقطاب هذه الحركة الفطرية يقفون حائرين أمام مشكلة سيطرة هذه التكنولوجيا واحتوائها لإنسانية الإنسان كما يخشون مما « يعني دماراً لأهم قيمة في الوجود ؛ أي الإنسان » .

حول هذا كله .. نجد أن أكيدا عند حديثه عن مسألة حسم اليابان لقضية الأصالة والمعاصرة يبدي مخاوفه من هذه التكنولوجيا وأسلوبها المعاصر .. يقول :

« إنني لا أخفي أننا نعيش أزمة من نوع آخر ، فهنالك عدم تكافؤ بين تطور الاقتصاد الياباني المذهل ، وبين تطور المجتمع .. ولسنا ندري من يعبر عن روح اليابان المعاصر أكثر : هل إنسان الكمبيوتر ، أم ذلك الذي مازال متعلقاً ببقايا

روح الشرق القديم وقيمه ؟ »

وعن هذه الأزمة المتولدة عن هذا التناقض ، يحاول أن يعبر الأدب الياباني المعاصر بأشكال متنوعة ، ولكنها تعبر في النهاية عن الأزمة المتولدة في آفاق حضارة أخرى قادمة ، تغرس منذ الآن راياتها لتستقر بيننا .. . إننا نعمل على استقدامها ، ولكننا في النهاية نتوجّس منها ، ونخشاها ؛ لأنها قد تعني دماراً لأهم قيمة في الوجود ، أي الإنسان »

هذا ما قاله المستشرق الياباني ! !

* * *

وإن لمن المفيد في هذا المجال أن نستعرض رأي الأستاذ جودت سعيد حول الاتجاهات التكنولوجية الحديثة ، التي تقوم على المبادىء الاجتماعية التي تعترف بسنن الكون والعلوم المتعلقة بها ، وتتجاهل بل تتنكر لعلم العمران البشري وما يتعلق به من قيم دينية وأخلاقية يتجاهل أن تكون هذه داخلةً ضمن دائرة العلم أو داخل نطاق الكل الاجتماعي .

يقول تعالى : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾[1] فهذه الآية تشير إلى تكامل العلم فهم قد يرون هذه الآيات في الآفاق ، كما سيرونها في أنفسهم أيضاً .

إن القرآن يحول في بعض الأحيان صدق أحكامه وأدلتها إلى المستقبل ، حين لا يكون الماضي كافياً للدلالة ، يقول تعالى :

﴿ **اعملوا على مكانتكم إنا عاملون ، وانتظروا إنا منتظرون** ﴾[2] ويتحدث الأستاذ جودت سعيد عن موضوع التسخير[3] الذي هيأه الله للإنسان

---

(١) سورة فصلت ، الآية ٥٣

(٢) سورة هود ، الآية : ١٢٢

(٣) جودت سعيد (اقرأ وربك الأكرم) ط١ ، دمشق ، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م ص ٢٣٢

فيقول : (إن موضوع التسخير موضوع مهم ، ومع أهمية هذه الآية الكريمة التي ترفع الإنسان إلى المقام الكريم نجد خطورة الوقوع في المنحدر العميق ، وإذا تذكرنا أن المسؤولية التي تقابل ﴿ **سخر لكم مافي السموات ومافي الأرض جميعا منه** ﴾ تبدو لا نهائية ، بل يراها كثير من الناس مسؤولية مستحيلة) ويرى الأستاذ جودت أن توينبي هو من بين من يرون هذا الرأي لأنه يذكر كثيراً أنه لا يمكن أخذ التكنولوجيا الغربية بدون التلوث بمبادئها الأخلاقية ، فمن هذا الجانب نجد توينبي يقف موقف عامة مشايخنا التقليدي من الحضارة الغربية ، فهو يكاد يميل إلى الجواب الذي أجيب به أحد الطائفين بالبيت العتيق ، وهو ينشد :

أهوى هوى الدين واللذات تعجبني
فكيف لي بهوى اللذات والدين

فأجابه أحدهم قائلاً : « دع ما شئت وخذ أحدهما » يعني أنه لا يمكنه الجمع بينهما .

الأزمة وثروات المنطقة :

ونختتم هذه الرسالة بفكرة : (أكيدا) عن أسباب الاهتمام بمنطقتنا العربية بما يفيد في حل مشكلة اغتراب الإنسان المعاصر .

يرى أكيدا أن بداية الاهتمام الحقيقي بالمشرق العربي ، وبالتالي بالأدب العربي ، يعود إلى أزمة البترول عام ١٩٧٣ ، التي فتحت العيون على العالم العربي ، حيث كانت دائرة الاهتمام قبل هذا التاريخ ضيقة جداً . و بعد هذا العام بدأ الاهتمام بالمشرق العربي ، حيث أقبل الناس على معرفة جغرافية المنطقة وتاريخها القديم المعاصر .

ويتوقع (أكيدا) أنه سوف يكون للمنطقة أهميتها الكبرى خلال السنوات القادمة والحقب المقبلة ؛ فهي خزان هائل من الثروات الروحية (وليس النفطية) والقيم التي يتعطش إليها عالمنا المعاصر .

كما يعتقد بأن الإنسانية سوف تعمل على أن تردَ للإسلام اعتباره أكثر من أي وقت مضى، وسوف تلجأ إليه بعد كل أزماتها الروحية المستفحلة يوماً بعد يوم . وقد بدأ ذلك الاهتمام يتجه نحو البحث في تاريخ المنطقة ، والتاريخ العربي الإسلامي ، والبحث في واقع الأمة الإسلامية الاجتماعي والحضاري ، ومن ثمَّ الأدب العربي ، وكل ما يتعلق بالتعريف بالفكر العربي والإسلامي في مختلف تعبيراته ومستوياته .[1]

(١) يقول تعالى: «وأنزلنا إليك الكتاب بالحق، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم، فاستبقوا الخيرات، إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون». (المائدة ــ ٤٨).

الباب الخامس

مسؤوليتنا نحو العالم

أضواء على بناء
ذاتنا الثقافية

من أجل أنثروبولوجيا جديدة وثقافة فولكلورية جديدة مع سلامة وظيفتها الاجتماعية (نحن ومسؤوليتنا نحو العالم)

أكد علماء الأنثروبولوجيا والفولكلور وكل العلوم التي تدرس ثقافة الإنسان .. . أكدوا أهمية هذا النوع من الدراسات . ويذكر الأنثروبولوجي الأمريكي كارلتون كون في مقالة بعنوان « أنثروبولوجيا العرب » :

من الأمور الحيوية ، أن تقوم الشعوب التي تقطن البلاد العربية بالمشروعات الخاصة بها ، وأن تجد الوسائل التي ترفع مستويات المعيشة لجميع السكان ، لا لمصلحتهم هم فحسب ، ولكن لصالح العالم كله .. . لذلك ، فموضوع دراسة الثقافة هام ، وهو اليوم أهم من الدراسة الذرية ، أو الأدب ، أو الأعمال المصرفية العالمية ، . إن دراسة الثقافة مفتاح كرامة النوع الإنساني ومساواته في المستقبل ، كما أنها قد تهدينا إلى سبيل الخروج من الحيرة التي أوقعنا فيها عصرنا ؛ عصر التقدم الآلي الفائق السرعة ، فعلى العرب ، إذن ، أن يُعْنوا بها ، ويدرسوها – أي (الأنثروبولوجيا) – أكثر مما درسوها ، مدركين لتلك الحقيقة التي تتلخص في أن خير طريق يتبعه أي إنسان ، أو أي شعب – إذا أراد صنع شيء من الأشياء – هو أن يحزم أمره ويصنعه بنفسه »[1] .

ونحن نرى – من جانبنا – أن علينا واجبين في دراسة الثقافة وتنميتها :

الواجب الأول تجاه أنفسنا وما يقوّى ذاتنا الحضارية ، التي عمل الاستعمار على إضاعتها عن طريق وسائل كثيرة ، كان من أهمها علم الثقافة والحضارة ، وعلم الفولكلور ، والأنثروبولوجيا التطبيقية وعمليات التثاقف بين ثقافة فولكلورية ، وثقافة استعمارية غازية ، أو ثقافة فولكلورية مع ثقافة ذات متغيرات

---

(١) د / حسين فهيم (قصة الانثروبولوجيا) ص ٢٦٩

تكنولوجية ، كثيراً ما تلحق الضرر بهذه المجتمعات التقليدية ولا سيما في الذات الحضارية ؛ إذ أن دخول الآلية الحديثة كثيرا ما يضر بالمجتمع أكثر مما يحقق له المنفعة والخير .

الواجب الثاني : يتجسد في إدراك حقيقة أنه لم تعد أزمات هذا العصر تنحصر في نطاقها المحلي ، أو القومي ، وإنما نجدها أيضا على المستوى العالمي ، وهذا موجب علينا التدثر بذاتنا ومقاومة عوامل الذوبان .

لقد عجزت الثقافة البشرية المعاصرة ، في وضعها الراهن ، عن معالجة الصعاب ، والتغلب على الأزمات المتراكمة ، التي أصبحت تهدد مستقبل الإنسان ككل .

وإذا كنا نصف هذه الأزمات بأنها عالمية ، يشترك فيها الجنس البشري بعامة ، فإن هناك - أيضا - أزمات أو تحديات محلية أو إقليمية أخرى ، يواجهها إنسان الشرق ، أو العالم الثالث بصفة خاصة .

ويرى الدكتور حسين فهيم أنه بالإمكان - فيما يتعلق بما يستطيع الأنثروبولوجيون أن يقدموه إزاء هذا الوضع - العمل على تسخير المعرفة الإنسانية المتراكمة والوسائل التحليلية المتباينة ، بما فيها استخدام الأدوات التكنولوجية لوضع تصورات لمستقبل الإنسانية ، واقتراح الحلول والبدائل تجنباً للأخطار المحدقة ببني الإنسان ..

ويذكر أحد التقارير الإيكولوجية ، أنه أصبح من الضروري إحداث تغيرات جذرية في إطار العلاقة بين البيئة والحياة الاجتماعية ؛ وذلك من خلال طرح وتطبيق سياسات جديدة ، تتغير بمقتضاها الأسس التي تقوم عليها التنمية الصناعية الزائدة والمكثفة ، .

ويوضح برنامج العمل ، أن مفتاح هذا التحول يكمن - أساساً - في تغيير النسق الاجتماعى[1] ، الذي يعيش في إطاره الأفراد ، كما أن استمرار

(١) المرجع السابق ، ص ٢٧٨

الاستقرار الاجتماعي ، يمكن أن يتحقق ، بل وأن يدعم ، إذا نظّم الأفراد حياتهم في شكل جماعات صغيرة الحجم ، تسود فيها العلاقات الشخصية ، والتعاون ، بالقدر الذي يتحقق معه الاكتفاء الذاتي .

وقد استند هذا البرنامج على المادة الإثنوجرافية عن المجتمعات القبلية ، التي أوضحت أن الحياة في إطار المجتمعات البسيطة التكوين تشبع حاجات الأفراد الرئيسية ، بالدرجة التي تكفل لهم الاستقرار والهناء ، بقدر يفوق ما تقدمه المجتمعات الصناعية المعقدة التركيب ، من أدوات استهلاكية وكماليات .

إن الاكتفاء الذاتي ، والتنظيم الإداري البسيط ، يساعد - ولا شك - على تقليل الحاجة إلى نمط الحياة الباهظة التكاليف ، كما يساعد أيضاً على تقليل الأضرار الأخرى التي تصاحب عادة عمليات التحضّر والنظم السياسية المركزة .

ومن ثم ، يقترح هذا التقرير الأيكولوجي ، ما يشبه عودة نظام المجتمع المحلي ، الذي تقوم على أساسه مجموعات الجيرة ، ويصور الحد الأدنى له ، وذلك في ظل الدولة[1] .

وبعد هذا ، أليس ما يطرحه الأيكولوجيون ، حول علاقة الإنسان ببيئته ، من حلول كلها كانت موجودة في فولكلورنا الإسلامي ، تلك الشريحة من حياتنا قبل أن تصلها نزعة التحديث ، وتعمل على هدمها ؟ أليس من الأجدر أن نسميها « البناء الثقافي للحضارة الإسلامية » ؟ أو البناء الثقافي والاجتماعي الذي كان عليه المجتمع الإسلامي ، قبل أن تصله عوامل تهديم الثقافات ورياح الحضارة الأوربية وأعاصيرها ، وعوامل التنصير والغزو الثقافي ، وكل أعمال التهديم لفولكلورنا وفنوننا ، وصناعاتنا سواء في بناء مدننا ، وجميع صناعاتنا اليدوية ، ومهنها ، وما تحمله من أخلاقية يتكامل نسقها مع حياتنا الاجتماعية ككل .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٧٨

إن مسألة « إفراط الحضارة » قد أشار إليها ابن خلدون في معرض حديثه عن زيادة العمران ، وزيادة الصناعة ، وانفصال الوسائل عن الغايات .. وكان كل حديثه ذاك ، من خلال تصوره القرآني ولكن طمس المعرفة لا يأتينا إلا من العلوم والصناعات التي تأتي من خارج بيئاتنا ، . ومن خارج حضارتنا .

إننا بأمسّ الحاجة إلى إعادة تراثنا ، وتأصيل المعرفة الإسلامية في علومنا ، وعلى الأخص ما يتعلق منها بالعلوم الاجتماعية والإنسانية(١) . ومع الإشارة إلى أهمية هذا الجانب فإننا لا نغفل أهمية الجوانب العلمية الأخرى للمعرفة ؛ فكلها مترابطة ويكون ذلك لشيئين :

– **أولهما** : أن هذا العلم نستطيع أن نعالج بواسطته كثيراً من المشكلات المحلية ، التي أوجدها المستعمر في ثقافتنا وبيئتنا ، عن طريق استخداماته السلبية لعلم الفولكلور ، والأنثروبولوجيا التطبيقية ، وعمليات التثاقف التي استخدمها خصوصاً في الاستعمار غير المباشر .

– **وثانيهما** : أن نقوم بدورنا الإنساني تجاه مشكلات الإنسان ؛ لتعود له إنسانيته ، وليتحكم في عمله وخبراته ، ونتائج أفعاله ، فيوجِّهها إلى البناء الإنساني ، وليس إلى تحطيم نفسه ، وتحطيم العالم من حوله .

(١) ندوة التأصيل الاسلامي للعلوم الاجتماعية ٥و٦/ ١٤٠٧ هـ ، ص ٢٣ الرياض ، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية .

هل تحرر (علم الإنسان) من ارتباطه بالاستعمار ؟

بالرغم من اتخاذ علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) اتجاهاً تحريرياً واستقلالياً منذ حوالي أربعين عاماً تقريباً ، وبالرغم من أنه قد تم وضع قواعد وأسس مهنية وأخلاقية من قبل الجمعيات الأنثروبولوجية المحلية والدولية ، يلتزم بها الآن كثير من الأنثروبولوجيين ؛ .

وبالرغم من ذلك فإن هذا لا يمنع من احتمال استخدام نتائج الدراسات الأنثروبولوجية استخداماً سيئاً وضاراً بالشعوب موضع الدراسة ؛ فهناك مَنْ يخرج عن قواعد المهنة وهم أولئك الذين لا يلتزمون بالقيم الأخلاقية أو المهنية . ، وينطبق هذا على علم الإنسان أو غيره من العلوم[1] .

وإزاء هذا الموقف المتشكك في قيمة الأنثروبولوجيا وأهميتها بالنسبة لواقع مشاكل المجتمع المحلية أو الخارجية ، ينتج احتمالان : إما الرفض المطلق للأنثروبولوجيا أو قبولها كما هي في محتواها الغربي ؛ وهذا يمثل نوعاً من السلبية أو التخلف الفكري ، ولا شك .

ولهذا يجب على الباحثين العرب أن يتخذوا موقفاً نقدياً وتحليلياً من الاستخدامات العلمية والعملية للمعارف الإنسانية ، وأن يتم البحث عن البدائل المنبعثة من تراث العرب الفكري والعقائدي ، وما أطلق عليه بعض العلماء الاجتماعيين الإسلاميين « أسلمة العلوم الاجتماعية » أو تأصيل العلوم الاجتماعية وصولاً إلى قيام أنثروبولوجيا إسلامية ، مقتدين بالمحاولات التي قام بها بعض الأنثروبولوجيين الهنود أو الباكستانيين في نقد نتائج دراسات هذا العلم ، وإنشاء أنثروبولوجيا خاصة بهم [2] .

وفي هذا المجال يقول الباحث سيد علي أشرف ، في مقدمة كتاب عنوانه

---

(١) (٢) د / حسين فهيم (قصة الانثروبولوجيا) ص ٢٦٢ - ٢٦٤ .

« العلوم الاجتماعية والتطبيقية »

« إن وضع صياغة مفاهيم إسلامية للعلوم ليس هدفاً بسيطاً ؛ نظراً لتعوّد الباحثين المسلمين (خاصة أولئك الذين تلقوا تعليمهم في البلاد الغربية) على الفكر والمناهج الغربية والاتجاهات العلمانية . لهذا يحتاج المرء إلى ضروروة إعادة النظر في كل فروع العلوم الاجتماعية كما أن أية مراجعة لابد أن تستند ، أساساً ، على الإيمان ، وتنطلق من المفاهيم القرآنية وتعاليم السنة »(١) .

ويقول الأنثروبولوجي كارلتون كوون CARLETON COON في مقال بعنوان : (أنثروبولوجيا العرب) :(٢)

لا يستطيع شعب من الشعوب أن يعيش منفرداً ، كما أنه لا تستطيع أمة من الأمم أن تتجاهل ما يصنعه أهل الأمم الأخرى ؛ فنحن نحتاج – أول ما نحتاج – إلى التسامح . ولكن التسامح لا يجيء إلا مع الفهم والفهم لا يتحقق إلا عن طريق المعرفة ، التي يتوافر فيها حسن النية . وليس الأوربيون والأمريكيون هم وحدهم الذين يحتاجون إلى أن يعرفوا عن غيرهم من الشعوب ؛ فعبء العالم ليس ملقىً على عاتقهم وحدهم . إن شعوب العالم الأخرى ، في حاجة أيضاً إلى أن تعرف الحقائق عن الأوربيين والأمريكيين ؛ فكل منا في حاجة إلى أن يعرف الحقائق عن غيره » .

ويستطرد كارلتون كوون ، فيشير إلى أنه :

« ليس ثَمَّة تعارض بين الانثروبولوجيا والإسلام لا يستطيع الرجل الأمين اكتشافه . إن من شأن الأنثروبولوجيا أن تزيد المؤمنين إيماناً . وكلما زادت معرفتنا بالنواحي المعقدة من الإنسان ، وبطرق حياته ، أصبح إدراكنا أكثر وضوحا لوجود مبدأ أسمى موحد ، يستر شؤون الكون ، ومن بينها شؤون البشر .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦٣

(٢) نقلا عن المرجع نفسه ، ص ٢٦٤ وما بعدها .

« ولكن الإيمان بمثل هذا المبدأ ، لا يعنى أن علينا أن ننام منتظرين يوم الفصل ؛ فهناك عمل يجب أن يؤدّى ، وهو اليومَ ألزم منه في أي وقت آخر مضى . إن العمل الاختياري الخلاّق جزء من الخطة الكونية ، وهو في الحقيقة ، السر الذي أصبح به الإنسان سيد العالم . إن هذا العمل يتطلب الجهد الكبير ، والنظرة المنهجية السليمة لمعرفة أنفسنا ومعرفة غيرنا » .

« ثم يذكر أن مثل هذا ليس بدعاً على العرب ، الذين من بينهم ابن فضلان وابن بطوطة ؛ وأن عمل علماء الغرب لم يتوصل إلى ما وصل إليه ابن خلدون إلا حديثاً[1] ، مع أنه لم يكن يسمع بمصطلح الأنثروبولوجيا .

ودعا كارلتون ، العرب إلى تقبل الأنثروبولوجيا قبولاً حسناً ، خاصة أن الدين الإسلامي قائم على أساس من التسامح والعالمية . ونتيجة لما سبق فقد أصبح علينا مسؤوليات ضخمة تجاه هذا العالم ، ونحن بدورنا نؤيد ما أوصى به العلماء بضرورة الأخذ بعلم الأنثروبولوجيا وعدم رفضه بسبب منطلقاته الغربية ذلك لأن علينا عبئاً ضخماً يجب أن نقوم به ؛ من أجلنا ومن أجل الإنسانية جمعاء .

لذلك نرى أن إعادة النظر فيما كتب من معرفة في عمليات التثاقف أو الاحتكاك الثقافي ، وكل ما يتعلق بدراساتهم الفولكلورية حول مجتمعاتنا ، التي تتعلق بعمليات التحديث والتغيير الثقافي وفق مشيئة الغرب .. إن مثل هذا يساعدنا على اكتساب الخبرة في هذه العلوم والإمساك بناصيتها فيما يساعد مجتمعاتنا في مسيرتها التنموية .

كما أن من واجبنا أيضاً رصد الصياغة الأيديولوجية في تراث الاستشراق وأعماله ، مع ما يتضمن؛ ذلك من أعمال نقدية نقوم بها تجاه هذا التراث ، لتصحيح كثير من الأخطاء والشبهات التي طرحت في ساحة فكرنا الحديث .

---

(١) نقلا عن المرجع السابق ، ص ٢٦٥ ، ٢٦٦

التغير السريع وإنسانية الإنسان

كان بإمكان الإنسان أن يحدَّ من عملياته الصناعية وإنتاجها الآلي ؛ لكي تكون في خدمة حاجاته الحقيقية ؛ ومن أجل تحقيق سعادته ، بدلاً من سعيه لتحقيق أكبر ربح ممكن وكان يمكن للإنسان - أيضاً - أن يعمل على توازن الجوانب المادية مع الجوانب الأخرى في حياته ، مستهدياً في ذلك بهدى الله تعالى .

ولكن الإنسان آثر غير هذا .. . إنه آثر عقله ومادته على كل الجوانب الروحية والاجتماعية الأخرى ؛ آثر عقلانية الصناعة ، ومن ثم عقلانية الأمور الاجتماعية ، فصار مغترباً عن عملية الإنتاج ، واغترب الفنان عن عمله أيضاً ، وأصبح الإنتاج تابعاً لفئة قليلة . بينما أصبحت مسؤولية العامل العادي لا تتعدى صنع شيء واحد صغير مثل رأس الدبوس ، حسب مبدأ تقسيم العمل داخل العملية الإنتاجية المعقدة ؛ مما أفقده حريته ، وجعله مغترباً عن ذاته .

ونتيجة لهذه العقلانية الآلية الزائدة ؛ واتجاهات الإنسان هذه ، تتابعت الاكتشافات الحديثة ، والمخترعات التكنولوجية ، والبحوث العلمية الضروري منها وغير الضروري ، وحشر الإنسان نفسه في كل شيء ، بعد أن فقد توازنه نتيجة إضاعته لقيمه السابقة[١] .

وخلال نصف قرن أو أقل .. ، تطورت الاختراعات التكنولوجية والطبية ، تطوراً هائلاً مثل الكمبيوتر والمضادات الحيوية ، والطاقة النووية ، وأسلحة حرب الفضاء ، وزراعة الأعضاء بالجسم .. وغير ذلك من الاكتشافات ، التي حدثت فقط خلال ثلاثة عقود تقريباً ، وهي فترة قصيرة جداً نسبياً[٢] ، وتركت آثاراً اجتماعية هائلة ! !

---

(١) (٢) د / حسين فهيم (قصة الانثروبولوجيا) ص ٢٧٦

إن الانتقال من عصر إلى عصر خلال تاريخ البشرية كان بطريقة تدريجية إلى حد كبير ، مما ساعد الإنسان على تقبل هذه المتغيرات ومعايشتها ، والاستفادة منها بطريقة إيجابية .

ولكن المتغيرات الحضارية الحديثة قد فاقت تصور الإنسان ، وأتت متلاحقة بحيث أصبح من الصعوبة أن يتكيف معها إنسان العصر الحديث .

وقد كشف عدد كبير من مفكري الغرب ، عن هذا الانحدار المتسارع للحضارة المادية وهي تسير باتجاهها الانتحاري ، نحو الهاوية ، ونحو الانهيار الكامل .

كان ذلك من خلال (استعباد التكنولوجيا للإنسان ، بعد أن سيطرت الآلة عليه ، وأصبحت معبودة في المجتمعات الغربية ؛ مما جعلها تُفقده إنسانيته في الغرب ؛ ذلك لأنه أضاع إيمانه وقيمه ، وفقد روحه ؛ ومن ثم نتيجة لذلك استحكمت فيه الاضطرابات النفسية ، والتوترات العصبية ، وأصبح الإنسان يعيش حياة تغلب عليها مظاهر السرعة والقلق والاضطراب[1]

لقد أصبح الإنسان ، بسبب آليته هذه ، مغترباً عن ذاته ، يعيش نمط الخضوع والتكيف المطلق مع نمط الثقافة الغربية ، وأساليب العيش فيها ، وأصبح مسيراً آلياً ويرى المفكر (فروم) أن هذا يعبر عن الهروب من حريته .

وقد نقد المفكر الأوربي (ماركيوز) قضية العقلانية ، وما ينتج عنها من احتواء الذات الفردية ، فذهب إلى أنه كلما أصبحت إدارة المجتمع عقلانية ، تعذر على الأفراد أكثر فأكثر تصور الوسائل الكفيلة بتحطيم أغلال عبوديتهم ، والحواجز التي تعوق وصولهم لحريتهم[2]

---

(١) رينيه دوبو (الحائز على جائزة نوبل للعلوم) إنسانية الانسان ونقد علمي للحضارة المادية تعريب د / نبيل صبحي الطويل - مؤسسة الرسالة ص ١٢

(٢) د / علي شتا (نظرية الاغتراب) ارجع إلى فكر ماركيوز عن الاغتراب .

إن سرعة التغير الحالي لم يقتصر أثرها على نطاق مجالها المحلي ؛ كما حدث في الماضي ، عندما كانت المتغيرات التي تحدث في التاريخ البشري ، تقتصر على نطاق استقلالية حدودها ، والسبب في هذا ، يرجع إلى أن التصنيع قد أصبح ظاهرة عالمية تحطمت معه ، أو على الأقل تغيرت بسببه ، غالبية الطرق المألوفة أو التقليدية للتكيف الثقافي[١]

إن التغير الحالي اتخذ صفة العالمية والانتشار ، ومن خلال مادية الإنسان المفرطة صار الإنسان أسير الأجواء الميكانيكية . وكما قال دوبو : (إن العلم والتكنولوجيا أدوات ليس لها أخلاق ، ويمكن استعمالها لخير البشرية ، أو لدمارها)[٢]

وإن الإنسان ، بماديته ، أساء إلى العادات التقليدية التي حفظ الإنسان فيها توازنه مع بيئته وتكيف معها ، فإنه باتجاهه نحو الرأسمالية المفرطة والمادية والآلية المربحة خرَّب كثيراً من العادات الزراعية التقليدية ، وأصبح العامل الزراعي البسيط خارج عملية الإنتاج ؛ مما سبب أزمات الجوع في العالم[٣] ، وقد انتقلت إلى عالمنا العربي مثل هذه الأزمات والسلوكيات .

والمشكلة أن عقل الإنسان وثقافته المادية ، هي السبب في كل الأزمات العالمية :

والآلة هي الإله المعبود في المجتمعات الغربية ؛ حيث فقد الإنسان إنسانيته ، وجافى الفطرة ، ولوّث البيئة ، وخرّب الطبيعة ، وعمل على إفناء أنواع أخرى من الكائنات الحية ؛ وبهذا أفسد توافقه مع البيئة .

الإنسان في مفهومنا الإسلامي ، جزء من الكون . والمخلوقات جميعها — إنساناً وحيوانا ونباتاً وجماداً — تتحد بانتظام وانسجام وتنسيق بديع ، في عبادة

(١) د / حسين فهيم (قصة الانثروبولوجيا) ص ٢٧٦

(٢) رينيه دوبو (إنسانية الإنسان) ص ١١

(٣) فرانسيس مورلابيه ، جوزيف كولينز (صناعة الجوع خرافة نادرة) ص١٠ ، وما بعدها

الخالق والتسبيح له ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ (سورة الإسراء : ٤٤)

إن الدين ، في حقيقته ؛ تعبير عن العلاقة الكونية المتشابكة بين الجزء والكل .

لقد استغرق الإنسان المعاصر في جانبه المادي ؛ وانصرف عن الجانب الروحي ، فاختل توازنه ، وأخلد إلى الأرض ، وأخضع نفسه لقوانين المادة وهي مسخرة له ، واستغنى كما يعتقد أكثرهم بعقله عن خالقه ، فأصبح عقله نِقمة عليه[١] ذلك العقل الذي خلقه الله تعالى نعمة من أجل خدمة الإنسان .

وحول ظاهرة (المدينة الكبيرة) التي قلدنا فيها الغرب ، والتي تحتوي على كثير من الظواهر الملوثة لبيئة الإنسان ، يرى بعض المفكرين أن إنسان الشرق والإنسان المعاصر ، بصفة عامة ، كثيراً ما يخدع بموضوع النمو والتنمية والإنجاز ، دون أن يعي هذا أو يتعمق في فهمه ، حيث أخذنا نسير وراء الغربيين في هذا المضمار مع أنه ليس كل نمو تقدماً .

والخرافة التي تقول إن النمو هو التقدم تحدث عنها السيد « أودال » (ناظر الداخلية الأمريكية الأسبق) فأعرب عن أمله في أن يتصاعد الغضب ويتعاظم الاستنكار ضد هذه الخرافة .. وقال : « إن هذه الشوارع العريضة ، والبنايات الشاهقة ، والأسمنت المسلح ، وزحمة السيارات ، وتكاثف دخان معامل النسيج والتكنولوجيا وتلويث البيئة .. كل هذه لا تشكل مدنية ولا حضارةً حقةً ؛ لأن الإنسان فقد معها روحه وتاه عن الهدف من وجوده »[٢]

وينظر العلماء إلى طبيعة المجتمع الصناعي المتقدم تكنولوجياً بأنه لا يقتصر على كونه عالماً تكنولوجياً بل هو عالم سياسي أيضاً ؛ إذْ إن عقلانية التكنولوجيا – هي بحد ذاتها – عقلانية سياسية أيضاً[٣]

---

(١) رينيه دوبو (إنسانية الإنسان ..) ص ١٧

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩

(٣) د/ السيد علي شتا (نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع) ص ١٧٤ – ١٧٥

إن من واجبنا ألاّ نكتفي بإدراك الآثار المترتبة على صنع الإنسان هذا ، أو محاولة علاج الأمراض التي يعاني منها ؛ فتلك أمور – رغم أهميتها – لا ترقى إلى أهمية إدراك الأسباب التي ورائها وتحديدها والتعامل معها ؛ وذلك لكي تحقق الفائدة مما يبذل .

وما على الإنسان إلا أن يفكر ويدرس ويجرب ليستعيد نمط الإدارة[١] في الصناعة وغيرها ، ذلك النمط الذي يحافظ به على إنسانيته ، ومن ثم يوجه خبرته لكي تكون متوازنة الجوانب ، ومتصلة بوظيفته التي خُلق لها في هذا الكون .

---

(١) السابق نفسه .

عالم اليوم بمتغيراته وثقافاته

بعد أن أوضحنا على لسان بعض علماء الحياة (البيولوجيا) ، والباحثين الأنثروبولوجيين (علم الإنسان) ، طبيعة عصرنا الحاضر الذي أصبح يختلف اختلافاً جذرياً عن العصور السابقة بمتغيراته الحديثة ؛ حيث نجده وقد نسف أساساً ، نظرياً وواقعياً ، الجانب القيمي والروحي الذي طبع أثره على الجوانب المادية في بناء الحضارة ؛ وذلك بسبب اتجاهات الإنسان المعاصر الاجتماعية والتنمية الصناعية الزائدة والمكثفة وتطور الاختراعات التكنولوجية والآلية وظهور استخدام الطاقة النووية ، واكتشاف الكومبيوتر وزراعة الأعضاء ، وأسلحة الفضاء[1] ، وانتشار المدن الكبيرة وفنون عمران الشقق ، والقضاء على فكرة المجتمع المحلي بسبب الاتجاهات الاجتماعية والصناعية .. إن مثل هذا زاد من فقدان الإنسان لقيمه السابقة نحو فرديته وحاجات عقله من أجل تحقيق التوازن السليم مع نفسه ومجتمعه وبيئته .

لقد أفرطت الحضارة الأوربية المعاصرة في اتجاهها نحو الكشف عن الطاقات المادية التي في الكون والخلق الآخر ، على حساب كشف الجوانب الأخرى للإنسان والله قادر على أن يمد الظالمين ويعطيهم ما يشاؤون ويمدهم في ظغيانهم ويمهلهم إلى أجل مسمى ، ومن الدلائل على توسعة الله في خلقه قوله تعالى في القرآن الكريم : ﴿ **يزيد في الخلق ما يشاء** ﴾[2]

وبالرغم من المادية الغربية ، فإن عدداً لا بأس به من العلماء الغربيين الذين انتهوا من دراسة الطبيعة وآيات الآفاق ، أصبحوا مشدودين إلى الإيمان برب الطبيعة ، وخالقها ، فنجد العالم الفيزيائي الألماني الكبير ماكس بلانك

(١) د / حسين فهيم (قصة الانثروبولوجيا) ص ٢٧٦

(٢) سورة فاطر ، الآية : ١

(١٨٥٨ - ١٩٤٧م) مؤسس نظرية الكم ، وأحد أركان ثورة العلم الجديد ، يقول : إن الدين والعلوم الطبيعية يقاتلان معاً في معركة مشتركة ضد الشرك والجحود والخرافة . ، ولقد كانت الصيحة الجامعة في الحرب ، وسوف تكون أبداً إلى الله[١]

ويقول الدكتور جون وليم كلونس أستاذ علم الأحياء والفيزيولوجيا بكلية المعلمين بكونكورديا ، ما يلي : « إن هذا العالم الذي نعيش فيه قد بلغ من الإتقان والتعقيد درجة تجعل من المحال أن يكون قد نشأ بمحض المصادفة .. إنه مليء بالروائع والأمور المعقدة التي تحتاج إلى مُدبر ، والتي لا يمكن نسبتها إلى المصادفة العمياء . ولا شك أن العلوم قد ساعدتنا على زيادة فهم وتقدير ظواهر هذا الكون المعقدة ، وهي بذلك تزيد معرفتنا بالله وإيماننا بوجوده »[٢] .

ويرى كثير من العلماء مدى إضرار الصناعة بطبقة الأوزون الواقعة على ارتفاع خمسين كيلو متراً من سطح الأرض التي لها علاقة بتوازن الأوكسجين والماء ، وبالتالي لها أثر بالغ في تطور الحياة والمحافظة عليها .

كما يجمع العلماء على القول بأن التلوث أشد من الطاقة النووية خطراً على الحياة . ويحذرون من أن الحياة ستختفي وتبيد إذا لم يسارع الإنسان إلى معالجة مخاطر التلوث الناشيء عن تطور الصناعة ونشاطاتها المذهلة .. . إن تزايد النشاطات الصناعية يزيد كمية ثاني أوكسيد الكربون وكمية الجزئيات الممتصة للأشعة ما تحت الحمراء ، الأمر الذي يؤدي إلى ارتفاع درجة الحرارة على سطح الأرض ارتفاعاً يفضي إلى القضاء على الحياة أو تبديلها تبديلاً كبيراً[٣]

موازين القيم وعلاقتها الوثيقة بمصير الحضارات :

لو درسنا تاريخ أعمال البشرية منذ القديم .. . وضروب فنون الإنسان وأعماله

(١) (٢) أحمد الشيباني (سنريهم آياتنا في الأفاق) - جريدة الرياض ، العدد ٧٦١٦ رمضان ١٤٠٩ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

التي استطاع أن ينجزها عبر السنين الطويلة ، لوقفنا مشدوهين أمام عظمة أعماله التي استطاع أن ينجزها بعقله وإرادته وفكره .. . إنه يمتلك طاقات وتسخَّر له عوالم لا نهائية ، يستطيع أن يحقق بها الكثير والكثير ، وبعضها كان فيه خير البشرية ، وبعضها كان فيه شقاؤها وظلمها وانهيار حضارتها فالزمن والتاريخ هما مختبر القيم وميزان الحكم[1] ونضرب على ذلك مثلاً .. . حدث في حضارات الماضي ووجه إليه الحكام الفراعنة شعوبهم في أعمال التسخير والبناء لتشييد الأهرامات .. . لقد كان هذا العمل إنجازاً بشرياً ضخماً لا يزال يشهد على عظمة الإنسان في عقله وإرادته وطاقته ، بالرغم من الوسائل البسيطة التي كان يمتلكها .. . ونقيس على ذلك الأعمال العظيمة نحو تحقيق القوة في الدولة الرومانية .. . ولكن بمقياس القيم ماذا كان المصير ؟

كذلك نجد الإنسان قد استطاع أن يتطور بفكره ويطلع ويتعمق في علوم الفلك والكيمياء والطب والطبيعة وعلم البحار .. ونجد أن هذا قد ازدهر منذ العهد الإسلامي الذي قدم إنجازات ضخمة في طريق الحضارة الذي مهد للحضارة الأوربية سبيل إتمام مراحلها في اختراعاتها الآلية والكيميائية وعلوم الفضاء والذرة .. . أي إن في هذا الكون عوالم وأبعاداً لا نهائية يمكن للإنسان أن يكتشفها ، بعضها يكون استخدامه وممارسته بعد معرفته يشكل ضرراً على الإنسان ، وبعضها الآخر يحقق استخدامه لها ، فيما يحقق ، سعادة البشرية ومنفعتها . والعقل السليم يطلب الكشف عن الطاقات والعلوم المتعلقة بالقيم والأنفس قبل الإقدام على كشف الطاقات المادية لتحقيق سلامة البشرية والاسترشاد بهذه العلوم في توجيه أعمال الإنسان .

ويمكن القول إن الأشياء والوسائل والمخترعات التي يصل إليها الإنسان ليست خيرة بحد ذاتها أو شريرة[2] إنما تكتسب هذه الصفة أو تلك بحسب توجهها

---

(١) جودت سعيد (اقرأ وربك الأكرم) ص ١٣٢ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٦

بواسطة قيم الإنسان ومبادئه وشروط حياته السليمة .

إن اكتشاف الإنسان للمذياع والرائي والإعلام الحديث والحاسبات الالكترونية ، والعقل المبرمج ، واكتشاف الإنسان للذرة .. كلها تتوقف على إخضاع هذه الوسائل لقيم الإنسان وحسن تسخيره لها أو إسائته لهذا التسخير . وإننا نلاحظ أن الاستعمار كان في الوقت الحالي أكثر فاعلية في تسخير هذه الوسائل من قوى الخير .

إن السنن التي يسخرها الله للإنسان قسمان متكاملان : سنن النفس وسنن الآفاق وقد ألح القرآن الكريم ، في كثير من آياته ، على سنن الأولين ، أي إن القرآن قد أعطى السلوك البشري من اهتمامه الشيء الكثير ، وجعله في مركز الصدارة . إن تأكيد الآيات على سنن الأولين لكي يتعرف الإنسان قوانين بقاء الحضارة واندثارها ، فللقيم والأخلاق وأمراض القلوب سنن ثابتة مرتبطة بالعافية .

وكما يهتم القرآن بالسلوك البشري ويجعله في مركز الصدارة فإنه يلح على النظر إلى الشمس والقمر والكواكب[1] والجبال ويلح على النظر في سلوك الأمم وسنن الذين خلوا من قبل .. إن القرآن يعطي الأهمية والأولوية لعلم الأنفس ومعرفة العواقب والحكمة من التاريخ فهو العلم الحقيقي[2] أي إن علم الأنفس وأمراض القلوب تدخل في المرتبة الأولى لعلم الحضارة . إن ما يقصدون من الحث على الاستفادة من كشف الأسباب والنتائج والعواقب هو تجنب الخطأ والإمساك بالصواب لتتم إرادة التغيير ولا تتم إرادة التغيير إلا بالسيطرة على العلوم التي تمسك بزمام النفوس وتكشف سنن الله وعواقب أعمال الإنسان في تسخيره لعالم الكون[3] .

إن إرادة الله لا تنفي إرادة السلوك البشري ، والعلاقة نحوها ليست عبثاً بل

---

(١) المرجع نفسه ص ٨٤

(٢) المرجع نفسه ص ١٤

(٣) المرجع نفسه ص ١٦٧ – ١٦٨

تأتي منسجمة مع قوانين إلهية .. . هذه القوانين تعمل على تنظيم أعمال الإنسان ونتاج صناعاته التي يبني بها حضارته قال تعالى : ﴿ **فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا** ﴾[1] والنظر في عواقب الأعمال ضروري من أجل الحث على إرادة التغيير ، والله لا يغير الواقع إلا إذا بدأنا تغيير ما بالأنفس ، أما إذا عصى الإنسان ربه وخالقه فيما أمره به ، فإن الله يمدهم في طغيانهم .. يقول تعالى : ﴿ **قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً** ﴾[2]

لقد تحدث كثير من العلماء عن العلاقة بين آيات العلم في الآفاق وآثارها في الحياة البشرية ؛ وقد ذكرنا نماذج من أقوال علماء الطبيعة الأوربيين يقول الله تعالى في القرآن الكريم : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾ [3]

فالعلماء هم وحدهم القادرون على كشف العلاقة والصلة بين ما في الأنفس والسلوك البشري ، والاستفادة مما ترك الإنسان من آثار وشواهد على أعماله التي تشتمل على صناعات فكرية وعملية بعضها موجودة دلائله في المكتبات ومخطوطاتها وكتبها ، وبعضها الآخر موجود في المتاحف ، وبعضها الأخير موجود شواهد في بيئاتها الجغرافية وآثار حفرياتها يقول تعالى : ﴿ **قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾[4].

إنّ العلماء هم القادرون على التحقق من سنن الله ، وهم القادرون على دراسة مدى انطباق ذلك على الواقع العملي وهم القادرون أيضاً على كشف المعادلة ذات العلاقة الثنائية بين الأعمال ونتائجها في مصير الحضارة وما تحتاج إليه العملية من

(١) سورة فاطر ، الآية : ٤٣
(٢) سورو مريم ، الآية : ٧٥
(٣) سورة فصلت ، الآية : ٥٣
(٤) سورة الأنعام ، الآية : ١١

تحقيق شمولية المعرفة والقيام بدراسات في أعمال الثقافة والفولكلور والحضارة وكل ما يرتبط بها من إحصاء النتائج وتحليلها .. .

إنهم العلماء المؤمنون القادرون على كشف المعادلة التي تحصر في شطرها الأول كل المخالفات للقوانين الإلهية وتبين في شطرها الثاني العواقب لهذا الانحراف عن منهج الله ، ونتائج ذلك في سنن الحضارة .. .

إن العلماء هم ورثة الأنبياء الذين يبينون آيات الله في كل صناعة من الصناعات أو علم من العلوم ، وفي كل المجالات .

وعندما حدثت المتغيرات الحضارية في مكتشفات الإنسان ومخترعاته أصبح من نتائج ذلك أن واقع العصر الحالي أصبح مختلفاً عن العصور السابقة ، وخصوصاً في مسألة انفتاح الثقافات بعضها على بعض ؛ فكل الشواهد تشير إلى أن العالم يسير بخطًى حثيثة نحو العالمية ، وخصوصاً في العلم وأمور الحياة يوما بعْد يوم مدفوعاً غير مختار ، فيذهب الزبد جفاءً ويبقى ما ينفع الناس[1] .. .

وحقيقة فإننا نجد مؤشرات ودلائل على دخولنا عصر تعرفنا العظيم على الإعجاز الإلهي في آيات الآفاق والأنفس . قال تعالى : ﴿ **وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾[2]

لقد أصبحت نتائج أعمال الثقافات البشرية متبادلة التأثير ، بعد أن كانت الثقافات ونتائج أعمالها تنحصر في نطاق أرضها وبيئتها ، وتكون مستقلة في نطاق حدودها .

أي إن أعمال التغيير وسرعته ووجهته لا تقتصر نتائجها على المجال المحلي ، كما حدث في الماضي ، فنجد مثلاً أن التصنيع قد أصبح ظاهرة عالمية كان لها

---

(١) جودت سعيد – (اقرأ وربك الأكرم) – ص ٢٢٦

(٢) سورة الجاثية : ١٣

آثارها في الثقافات الأخرى ، ونجد أن سياسة الثقافة الأوربية نحو هذا التصنيع قد عملت على تحطيم غالبية الطرق المألوفة والتقليدية[1] ، التي تدعم عوامل الاكتفاء الذاتي للشعوب ؛ كما أن لها فائدتها في آثارها النفسية الإيجابية في الإنسان ، حيث إنه ليس من صالح النفس البشرية أن يتم انقراض هذه الصناعات ، بل أن تقوم بدور يدعم ويتعاون مع الآلية الحديثة ويقوى ذاتية الأنسان وفرديته التي قهرتها حضارة العصر الحديث بآليتها المكثفة .

ونستطيع أن نقول إن الانحدار التاريخي للحضارة الغربية المادية ، الذي يؤدي إلى اتجاهها الانتحاري نحو الهاوية[2] والانهيار الكامل ، أخذ يجر حضارتنا معه ويجر الحضارات الأخرى ذات الشخصية الخاصة إذا هي لم تجمع أمرها وتستدرك مصيرها المحتوم ، وتعمل على التدثر بدثار تراثنا الفكري ، وكذلك بما جاء به قرآننا وسنة نبينا .

لقد أصبح العالم كله - كما يرى العلماء - كالقرية الواحدة .. ومن هنا تنطلق قوة الشرّ والاستعمار لتجرف الإنسانية معها إلى مصير واحد ونتيجة محتومة . يقول تعالى : ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمرناها تدميرا** ﴾[3]

ومن آيات الآفاق ، أن نتاج أعمال الإنسان وصناعاته أصبحت لها علاقة بإمكانية احتمال اصطدام كوكبنا الأرض مع أجسام فلكية أخرى .

لقد بلغ الإنسان عصر انتهاء الدورات الحضارية ، وابتداء عصر إمساك الإنسان لسنن الحضارة . وإن عالمنا الإسلامي أصبح في مواجهة المشكلة العالمية وجهاً لوجه ، دون أن يستعد أو يحسب لها حساباً .

كما أنه أصبح في مواجهة علم الحضارة ، الذي جمع خلاصة خبرات العلماء

---

(١) د / السيد على شتا - نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع - رؤية ماركيوز للاغتراب
(٢) رينيه دوبو - إنسانية الإنسان .
(٣) سورة الاسراء : ١٦

السابقين وخلاصة الآلام والآمال في العلاقات البشرية ، والذي لم تكن ظروف – الحضارة العربية الإسلامية للأسف مواتية وملائمة لإحسان هذا التعامل وتوجيهه لصالح ثقافتنا كما حدث بالنسبة لتراث ابن خلدون[1] . ولكننا انفتحنا عليه – سلبياً وانهزامياً – كما هو الحال في علم الثقافة المعاصر وعلم الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) الذي له علاقة وثيقة بعلم الاجتماع الخلدوني ، كما بينا سابقاً ، وكل ما نحتاج إليه هو تقديم الخبرات والجهود العلمية والعملية التطبيقية وذلك لتأصيل المعرفة الحقيقية بهذه العلوم للحصول على ملكة العلم الحقيقي .

يقول مدير أكاديمية العلوم الإنسانية في نيويورك[2] : « إن عنصر القيادة الذي يميز الإسلام يتوقف تحقيقه على إدخال هذا الدين في الحياة الدولية بمجموعها ، وهو يتوقف بدوره على التقاط قادة المسلمين الخيط الذي انقطع بغزو المغول ومواصلة تقدمهم من هذه النقطة .. . إنك لا تستطيع أن تتجنب مهمة معالجة الآثار التي تركتها السيطرة الأجنبية الغربية في جوهر التعاليم الدينية » .

ويضيف أيضا القول : إن الفكرة الأساسية لابن سينا هي فكرة (الوجود الضروري) إنها فكرة التقدم الذهني للبشر ، وفكرة تقدم المجتمع في حقل السيطرة على الطبيعة[3]

لقد أصبحنا في حال تستدعي ضرورة التمسك بالعلم الذي يكشف قوى النفس وسننها ودراسته كيف بدأ الله الخلق وكيف نشأت العلوم ، وذلك لنخضع هذه العلوم ونسخرها لإنقاذ البشرية والأخذ بيدها من الغربة والاختلاف والفرقة إلى وحدة العلم الذي يجمع البشرية على الحق وسواء السبيل .

إنه علم الحضارة وفقه التاريخ الذي يكشف سنن آيات الله في الآفاق والأنفس معاً ، وهو العلم الذي يكشف عن العلاقة بين السلوك البشري وعواقب أعماله

---

(١) مالك بن نبي (مشكلة الثقافة) ص ٤٧

(٢) (٣) مدير أكاديمية العلوم الإنسانية بنيويورك (الفكر الإسلامي أساس النهضة الأوربية المعاصرة) مجلة الوطن العربي العدد ٢٠٨ ، عام ١٩٨١

ويقوده بشكل حتمي إلى الإيمان والتوحيد بالله .

يقول البروفيسور جورج ايرل ديفنز ، عالم الطبيعة ورئيس قسم البحوث الذرية بالبحرية الأمريكية ما يلي : « إن كل ذر ة من ذرات هذا الكون تشهد بوجود الله .. . إنها تدل على وجود الله حتى دون حاجة إلى الاستدلال بأن الأشياء المادية تعجز عن خلق نفسها »[1] يقول تعالى عن الاختلاف في العلم : **﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾**[2]

تخضع الثقافات البشرية الآن ، في الواقع لفكرة الشعب المختار[3] والنرجسية وعبادة الذات ، وهي في أمسّ الحاجة إلى التخلي عن الأنانية ، واحترام أراء الآخرين ، والبحث عن الجوانب الإيجابية ، والحرص على نشر الهداية .

كما أن واقع الثقافات اليوم يدل على تمسك هذه الثقافات بعبادة التقليد والآباء أو عبادة التراث والتقاليد والتقاليع والموضات والصرعات .. .

إننا نتعامل مع كل هذا ونحن نعيش عصر آيات الآفاق والأنفس ، وانفتاح الثقافات .. .

هذا بالنسبة للثقافات المعاصرة بشكل عام ، وحول ثقافتنا الإسلامية يقول رمضان لاوند :« الإسلام هو القاسم المشترك بين مسلمي العالم ، لم يبق فيه في الحقيقة غير طقوس وحسب ، لا دور لها في صنع الحياة وتشكيل سلوك المسلمين فيها أبداً .

وبالرغم من عودة الحماسة إلى المسلمين منذ جيلين أو ثلاثة فإن هذه الحماسة لم تبلغ من القوة بحيث تتغلب على الولاءات الصغيرة الضيقة والعصبيات المنبعثة من الانتماءات القبلية والعشائرية بل الطبقية أيضاً .

---

(١) نقلا عن مقالة أحمد الشيباني (سنريهم آياتنا في الآفاق)

(٢) سورة الشورى : ١٤

(٣) جودت سعيد - (اقرأ وربك الأكرم) ، ص ٢٤١

إن العالم الإسلامي – برغم كل الكوارث التي نزلت به – لم يفرز حتى اليوم قيادات تاريخية على مستواه وبحجمه ذلك لأن الإنسان العادي فيه لم يتعامل مع الإسلام بَعْدُ على أساس أنه حركة تاريخية ذات طموح عالمي ، وما زال هذا الإنسان حتى اليوم يتعامل مع الإسلام على الطريقة النفعية التي تجنبه مخاطر الجهاد وتبعده عن العيش في الخطر[1] »

ثم يضيف فيقول : « والقيادات ، في الحقيقة لا تنشأ من الفراغ ، بل هي المرآة التي ينعكس عليها المستوى الوسطي في جماهيرها . وبدلاً من أن يقدم العالم الإسلامي قيادات على المستوى التاريخي الرفيع ، الذي كثيراً ما أفرزته الحضارة الإسلامية فقد اختار الخضوع لقيادات صغيرة متفرقة ذات أطماع فقيرة وخيال مجدب ، . وقد صدق القول المأثور (كما تكونون يولّى عليكم) . والعكس غير صحيح ؛ ذلك أن القائد لا يتصرف بنفسه ، فليس هو الذي يقاتل في الجبهة ، وليس هو الذي يدرس في الجامعة ، وليس هو الذي يعمل في حقل الاقتصاد ، وليس هو الذي يعيش في عقول كل الناس وقلوبهم » إن من واجبنا أن ندرس أعمال الاستعمار وما يتعلق بنتائج تقسيم العالم العربي والإسلامي ، والحيلولة دون تمكين الاستعمار من إفراز القيادات التاريخية المجندة لمصالحه منذ عصر المغول والحروب الصليبية .

وإن من الحكمة أن نتبع عصرنا ونتعامل مع الحياة بميزانها الخاص ، في إطار ديننا ، وخاصة بعد أن أصبحنا نعيش مع التغيرات العالمية الحالية .

الإسلام والمعرفة العلمية والاستعمار :

لقد أنعم الله على الإنسان بنعم العقل واللغة والقدرة على وضع الأسماء ..

إنه المقام الذي رفع الله به الإنسان للوصول إلى ما علمه الله وجهلته الملائكة من التغلب على سفك الدماء ، وذلك عن طريق العلم ، وقد أقرت الملائكة

---

(١) رمضان لاوند (لماذا نحن المهزومون حتى اليوم) مجلة النهضة العدد ٨٤٤ ، السنة السابعة عشر ، ٧ يناير / كانون الثاني ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م

بقصور علمهم عما علّمه الله الإنسان .

وقد أشار المفكر المسلم الكبير محمد إقبال إلى أن الإسلام نبت في عصر ما قبل العلم ولكنه انتقل بالإنسان إلى عصر العلم وإلى آية العلم[1] لأن دعوة النبوة إذا نظر إليها بالأسلوب العلمي فهي نوع من العلم والعمل الذي يسعد الناس في الدنيا والآخرة إذا سلك الإنسان طريق هديها ؛ فالتوحيد ما هو إلا إيقاظ ملكة العلم والخروج من الوقوف عند الاهتمام بالأوثان والنظر إلى الوقائع الخارجية للاتصال بالحقائق العلمية .

والإسلام يحث على الاستفادة من كشف الأسباب والنتائج والعواقب ؛ لتجنب الخطأ والإمساك بالصواب ، والقرآن الكريم يجذب النظر للسيطرة على العلوم التي تمسك زمام النفوس وكشف سنن الله .

وقد بين القرآن الكريم في كثير من آياته الأمراض الأخلاقية أو النفسية أو الحضارية ، أو كما يسميها القرآن الأمراض القلبية[2] . ومن هنا نهى النفس عن الهوى وهو جوهر علاج القرآن .

وكما ذكرنا فإن أعمال الإنسان وخبرته البشرية ؛ في مختلف حقب التاريخ ، قد أخذت شكل صناعات عملية كالزراعة وجميع أعمال الصناعات العملية أو الصناعات العلمية التي تتصل بأعماله تلك ونشاطاته تنير سبيل المعرفة فيها .

فالعمران البشري بما يتضمنه من فكر وعلم وقيم ينير سبيل أعمال الإنسان ونشاطاته وتوجهه بقيمها ومثلها نحو عمليات التسخير المختلفة التي تأخذ شكل صناعات عملية لها جانبها القيمي والفكري ، وصناعات علمية وتسمى بالمفهوم الحديث (العلوم النظرية) وهي لا تنفصل عن الصناعات العملية وتطبيقاتها .

وإن الإحاطة بجزء من المعرفة عن تاريخ هذه الصناعات الفكرية العملية لا تعطى معلومات كافية خالية من الأوهام مشتبهة بالخرافات ، إن صناعة الحضارة

(١) جودت سعيد (اقرأ وربك الأكرم) ، ص ٩٢ – ٩٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٨

بجانبها العلمي من بين هذه العلوم ، بل هي من أهم هذه العلوم ؛ لحرصها على الصلة بين أعمال الإنسان ونتائج سلوكه وعواقب أمره ، وهي توثق الصلة بين مافي الأنفس والقلوب والواقع المعبر عن نتائج أعمال الإنسان ، أي أنها من الصناعات التي اهتم بها القرآن وجذب النظر إلى ضرورة دراسة أعمالها للوصول إلى المعرفة النظرية والموضوعية عن هذا العلم الهام والضروري للمجتمع .

وإن الإسلام وما يحث عليه في كثير من آياته من الاهتمام بعلم الأنفس وأمراض القلوب ونتائجها وعلاقة ذلك بمصير الحضارات ودراسة كيف بدأ الخلق – فإنه في هذا إنما يحث على توحيد هذا العلم الحضاري مستنيراً بآيات الله في الآفاق والأنفس ، كما يعمل على كشف الضلالات البشرية نحو صناعاته يقول تعالى : ﴿ **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق** ﴾[1]

إن معرفة كيف بدأ الخلق[2] تضع الإنسان في توجيهه هذا على طريق العلم الحقيقي ؛ إنها عملية تتضمن جمع المعرفة وإحصائها بالعلم من جهة ، وبالواقع من جهة أخرى عن طريق السير في الأرض ؛ أي أن يكون الحصول على معرفة كيف بدأ الخلق من الكتاب ، بالإضافة إلى السير في الأرض والنظر كما أمر بذلك عز وجل ؛ أي الحكم في الكتاب ، والدليل في الواقع من السير في الأرض وآيات الآفاق والأنفس .

إن قيام العلماء والمؤرخين بالسير في الأرض والنظر والدراسة والاعتبار شهادة مقرونة بشهادة الله وملائكته ، شريطة ألاّ يتجاوز العالم حدده في التواضع للعلم بالإضافة إلى أن يحسن طالبو المعرفة التعامل مع الكتاب وموضوع القراءة ، من أجل بلوغ العلم الحقيقي ؛ ذلك لأن من الأخطاء التي يقع فيها طالبو العلم ، تقديسَ أصحاب العلم أشخاصهم أو الأشياء المرتبطة بالعلم .

وقد أوضح علماؤنا على أن الارتباط بالكلمات يعوق الوصول إلى العلم

---

(١) العنكبوت ، الآية : ٢٠.

(٢) جودت سعيد(اقرأ وربك الأكرم) ص ٦٨ – ١٣٢

الحقيقي .. . يقول الإمام الغزالي : « من طلب المعاني في الألفاظ (وحدها) ضاع وهلك كمن استدبر الغرب وهو يطلبه » .

إن الإيمان يحث على جعل الإنسان مرتبطاً بالحقائق الخارجية وتحريره من عالم الأشخاص[1] والصور الذهنية وكل هذا يتعلق بالنهي عن الوقوع بوثنية العلم أو الأشخاص أو الأشياء المرتبطة به ؛ ذلك لأن الايمان هو العلم ؛ والجهل يسير بالإنسانية إلى طريق الشرك .

إننا عندما نبلغ مرحلة العلم الحقيقي الذي يعبر عن الإيمان والتوحيد عندها تصبح الصراعات الأيديولوجية والاعتقادية والمنازعات الدينية على الآباء وعالم الأشخاص والأفكار .. . تصبح كلها خارج العلم ، وعندها تتبدد الصراعات والعصبيات التي تمزق العلاقات البشرية وتورث البغضاء والحقد ، الذي يأتي نتيجة تسرب الجراثيم والأمراض لهذه العلاقات . يقول تعالى : ﴿ **ويرى الذين أوتوا العلم الذي أُنزل إليك من ربك هو الحق** ﴾[2] ويصبح العلم في نهاية الأمر هو الإيمان .

لقد عبث الاستعمار بتضليله الفكري نحو المعرفة الحقيقية بكثير من الصناعات وعلومها وفنونها وقد احتكر لنفسه المعرفة الحقيقية حتى يتم له تسخيرها لأغراضه ويخضعها لأساليبه التي يستخدمها ويمارس فيها كل تعقيم وتضليل فكري مرتبط بها .

إن معرفة نقطة البداية لا تساعد على أن يكون للشيطان سلطان كذلك معرفة تاريخ كل صناعة أو علم آفاقاً وأنفساً ، هي مصدر المعرفة وهي بداية طريق العلم الحقيقي ؛ إذ إن الجزء من المعرفة في تاريخ العلم لا يعطي معلومات كافية خالية من الأوهام .

(١) المرجع نفسه ، ٧٤ – ١١١

(٢) سورة سبأ ، الآية : ٦

وإن عدم وضوح الصلة بين ما في الأنفس والواقع ، هو مصدر كل ضلال ،وإن معرفة آيات الآفاق والأنفس كما - حث عليها القرآن - حددت مكان الدليل ومصدره ، وهو أنه لا يقتصر على الكتاب .

كما أن وصل الحلقات بين كيف بدأ الخلق وما وصل إليه العلم والصناعة ، يزيل أكبر العقبات أمام العلم وتسخير هذه الصناعات وعلومها[1] .

إننا إذا وصلنا إلى العلم الحقيقي المتصل بآيات الأنفس ، وطردنا الظلام الذي ينشره الاستعمار من أجل سيطرته على البشرية ؛ فإن في ذلك مفتاحاً لانطلاق إرادة الإنسان المقيدة ؛ من أجل تصحيح ما في الأنفس ؛ لتتم إرادة التغيير الإلهية ؛ لأن وضوح القوانين الإلهية ، علماً واقعاً ، يساعد إرادة التغيير على أن تسير في الطريق الواضح ..

إن أمامنا امتحان رهيب في دورتنا الحضارية التي نستقبلها على مشارف عصر الآفاق والأنفس ، ولابد للإنسان أن يثبت وجوده في هذا الامتحان الذي علم الله ما فيه من قدرة على بلوغ مرتبة العلم بعقله وقدراته وثقل الأمانة التي قبل الإنسان أن يحملها .

---

(١) جودت سعيد (اقرأ وربك الأكرم) ١٣٠ - ١٣٦

الثقافة البشرية والاستعمار

الاستعمار ظاهرة موجودة منذ القديم .. . إن معظم الشعوب والجماعات البشرية قد ذاقت مرارتها وقسوتها ، وقد عانى الأنبياء والرسل من ضلال شعوبهم ومن استعمار الشيطان لعقولهم وتضليله لأفكارهم ، ويحكي القرآن الكريم قصصاً كثيرة عن أشكال هذا الانحراف البشري عن الحق المبين ، الذي أوضحته الرسل والأنبياء . فظاهرة الاستعمار لها وجود تاريخي مثل وجود قوة الشر التي توازي قوة الخير .

وعندما تكلم (مالك بن نبي) عن مظاهر الحضارة وترديها ، فقد أطلق على ذلك عبارة : مرض (القابلية للاستعمار) .

ومن الملاحظ أن ظاهرة الاستعمار قد تطورت في وسائلها وطرقها مع تطور وسائل العصر الحديث ومتطلباته ؛ وتسخير كثير من الوسائل الحضارية – سواء المادية منها كالحاسبات والتكنولوجيا .. وغيرها أم التنظيمات الدولية الحديثة – حيث هيمنت على كثير من المشاريع كالمشاريع الغذائية التي تمنح لفقراء العالم ، حيث تعطى هذه المساعدات وتستخدم للضغط على الشعوب لاتباع سياسات الدول المانحة .

ونستطيع أن نقول أيضاً ، إن الحضارة الغربية ، بتفوق نظمها واتجاهاتها نحو العالمية ، قد استخدمها الاستعمار فيما يحقق أغراضه في النيل من شعوبنا والشعوب الضعيفة عامة .

كما أن تضليل المعرفة أسلوب قديم اعتاده الاستعمار ؛ لتشويه المعرفة القديمة ، وتلويث المعرفة الجديدة . بجراثيمه الفكرية التي تشتت شمل الجماعة وتجعلهم فرقاً وشيعاً ليصبح العلم بغياً بينهم ، بدل أن يوحّد صفوفهم ويقوي صناعاتهم ، وخصوصاً ما يتعلق بعقيدة التوحيد وأعمالها وخبراتها .

الاستعمار والمعرفة العلمية

يعمل الاستعمار على سلب المعرفة من الشعوب ليضلل مسيرتها ، وإن سلب المعرفة وتضليلها يؤديان بالتالي إلى سلب الحرية[1] ؛ فالمعرفة السليمة هي وسيلة هامة ومرتكز أساسي لاستخدام الحرية من أجل بلوغ الأهداف . إن اغتراب المعرفة يجعل رؤيا الإنسان غير واضحة ، كما يجعل توقعاته غير سليمة ، وكذلك الحال بالنسبة لاستخدام وسائله لبلوغ الأهداف .

ومن مظاهر سلب المعرفة التي يتبعها ، أن يسلب الأشياء معناها الحقيقي[2] بما تتضمنه هذه الأشياء من علوم تتعلق بصناعات فكرية أو عملية .. . يحاول أن ينشر الظلام والتعتيم حولها كما هو الحال في صناعة الفن ، ومن مظاهر سلب المعرفة أيضاً أن تكون هذه المعرفة مفصولة عن التجربة وعن العمل . ونحن نجد أن الفكر اليوناني قد عمل على فصل الفكر عن التجربة[3] وهذا عكس ما أخذه الغرب عن الحضارة الإسلامية في منهجها التجريبي في المعرفة والعلم .

كما أن الاستعمار عمل – وما زال يعمل – على تصدير المعرفة وصناعاتها التي ترتبط بأعمال الترف والاستهلاك والرفاهية ، ويوهمنا بأننا نحل مشكلاتنا ، وأن هذه المعرفة وصناعاتها هما من الركائز الأساسية التي تبنى عليها حضارتنا ، وفي الحقيقة ، فإن هذه المعرفة التي يصدرها إلينا إنما تقودنا إلى أن نبقى خارج الحضارة والعلم الحقيقي ، وفي مرحلة الضعف والانحطاط والاستهلاك الحضاري .

ومن أساليب الاستعمار أيضاً نشر العلم المضلل الذي يفصل المعرفة عن أصولها وعن تاريخها وعن بيئاتها[4] ، وعن نشأتها ومراحل تطورها ؛ وبهذا يتم له بسط

---

(١) د / علي شتا (نظرة الاغتراب) ارجع لمفهوم هيجل عن الاغتراب ص ٣٥

(٢) مالك بن نبي (في مهب المعركة) ص ٥٤

(٣) د علي الوردي (منطق ابن خلدون) في ضوء حضارته وشخصيته ، ص٤

(٤) د . علي شريعتي (العودة إلى الذات) ص ١١

التعتيم على المعرفة التاريخية التي تدل على الحقيقة .

وحين يحصل انقطاع العلم ، عندها يحاول الجهل أن يبني قصوراً وجسوراً من الأوهام والظنون ؛ لهذا فمن الضروري أن تظل الطريق موصولة بين بدء العلم ونهايته كما أن الجهل بماضي العلم لا يمكّن من الاستفادة منه في مجال القياس والاعتبار .

أما نتيجة ذلك الضلال العلمي فهو أنه ينشر اليأس ، ويخلق الفرقة والاختلاف بين طالبي العلم ، كما يفرق المجتمع إلى شيع وأحزاب ، ويثير الأحقاد والضغائن في النفوس ، ويفرق بين الأخوة الأشقاء ، وقد يصل أن يكون سبباً في سفك الدماء في الأرض بين الإخوة[1]

وبشكل عام ، فإن نشر الجهل والضلال يعود بالإنسان إلى دوافعه الغريزية لما قبل العقل والعلم .

وبعودة العلم الحقيقي تعود الآمال ، وتتوحد الأمة ، وتنتشر الأخلاق التي تسمو بالجماعة أو المجتمع الإسلامي والبشري عن النزعات الأنانية ! !

الثقافة الإسلامية وفكرة التطور :

لقد بينا سابقاً كيف أنه في أواخر عهد الخلافة الإسلامية قد أصيب البناء الاجتماعي للحضارة الإسلامية بالترهّل والشيخوخة الحضارية ؛ من جراء انحراف ثقافاتها عن المنهج الإلهي ؛ مما جعلها تسير في طريق الانحدار والهبوط والضعف والتفكك .

لقد كان عالم أفكارها منسجماً مع المرحلة التي أصيبت بها عناصر الثقافة بالجمود والتقوقع والاتجاه نحو الكمون والضمور ؛ فعندما تسير الحضارة نحو الهبوط فإن ما يحدث هو انقطاع صلة بعض الأفكار بالوسط الاجتماعي ذاته ؛

(١) جودت سعيد (اقرأ وربك الأكرم) ص ١٣٦ - ١٤٧

أي تنقطع هذه الأفكار عن ينابيع خلقية وعقلية صدرت عنها ، فتكسب هذه الأفكار وجوداً صناعياً غير تاريخي ، وبذلك تفقد كل معنى اجتماعي . ومن أمثلة ذلك أن تراث ابن خلدون قد ظهر في العالم الإسلامي وهو مع ذلك لم يسهم في تقدمه العقلي والاجتماعي ؛ لأن هذا التراث في ذلك العصر كان يمثل فكرة لا صلة لها إطلاقاً بالوسط الاجتماعي[1] أي إن الأفكار والأشياء في تلك المرحلة فقدت معناها الثقافي وقدرتها على إبداع الأشياء وإنتاج الأفكار .

وكما حدث بالنسبة لمقدمة ابن خلدون ، فقد حدث لفكرة التطور التي جاءت عن الغرب ولها جذورها الواضحة في كثير من الآيات في قرآننا الكريم يقول تعالى في كتابه العزيز : ﴿ **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق** ﴾[2] ويقول تعالى : ﴿ **يزيد في الخلق ما يشاء** ﴾[3] ﴿ **ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكّرون** ﴾[4]

وبالرجوع إلى المعلومات التي ذكرها الفكر الغربي عن نظرية التطور المادية وتأثيرها الاستعماري فإننا نلاحظ أن العالم الإسلامي لم يستطع أن يتعامل مع هذه النظرية من واقع رصيده المعرفي من كتاب الله ، فإذا رجعنا إلى التاريخ نجد أن فكر الإنسان قد تطور نحو العلم واستخدام العقل ، كما أن كثيراً من العلوم قد تحررت من الشعوذة والسحر ؛ ودخلت نطاق العلم ، كما هو الحال بالنسبة لصناعة الطب والفلك والكيمياء .. وغيرها .

ولابد للإنسان أن يتحرر فكره من الضلال شيئاً فشيئاً عن علم الأنفس ، وذلك بعد بلوغ ملكة العلم الحقيقي في مجال دراسة آيات الآفاق والأنفس وينحسر بعدها الفكر الاستعماري المضلل للمعرفة البشرية التي تتعلق بالسلوك البشري .

---

(١) مالك بن نبي (مشكلة الثقافة) ص ٤٦

(٢) سورة العنكبوت الآية : ٢٠

(٣) سورة فاطر ، الآية : ١

(٤) سورة الواقعة ، الآية : ٦٢

إن السبب الحقيقي في هذا الجمود ، الذي أصاب الأمة الإسلامية في فكرها وصناعاتها أنه قد ترسّخ في أذهان المسلمين كيفيَّة معيّنة لنشوء الخلق من خلال الوقوف عند حرفية النصوص المقدسة ، وليس من السير في الأرض . وإن هذا الرسوخ كان سبباً في موقف المسلمين العدائي من فكرة التطور[1] التي دخلت العالم الإسلامي منذ مائة سنة وبمعنى آخر ، فإن إهمالهم وعدم التفاتهم إلى الآية الواضحة التي تحدد مصدر المعرفة (كيف بدأ الخلق عن طريق السير في الأرض) هو سبب جمود أفكار العالم الإسلامي ، فإننا لانجد عند المسلمين بحثاً واحداً أدخل هذه الآية بالموضوع . وإن الموضوع الأهم من إثبات فكرة التطور تحديد منهج البحث[2]

إننا إذا فكرنا بتطور التاريخ البشري ، نجد أن فكرة التطور[3] تترك أثرها لتشمل كثيراً من معاني الحياة البشرية التي تحتاج من الإنسان إلى أن يدرس ويتعرف مبتدأها ، لكي يحيط بالعلم الحقيقي البعيد عن التشويه والتضليل .

---

(١) يعتبر ابن خلدون هو أول عالم كان له فضل السبق في المناداة بالنظرية التطورية . فقد سبق الانثروبولوجيين المحدثين بقرون (١٧٩٨ وما بعده) أمثال هربرت سبنسر وأوجست كونت ، حينما قرر في مقدمته أن الاجتماع البشري لا يستقر على حالة واحدة ، وإنما يتغير ويتطور نتيجة ما يلحقه من الأحوال ، وفي هذا يقول : « إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ؛ إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة ، وانتقال من حال إلى حال . إلخ » (ارجع إلى مقدمة ابن خلدون تحقيق د / علي عبد الواحد وافي ص ٢٠٠ وما بعدها) ويرجع علماؤنا أسباب عدم استفادتنا من أفكار ابن خلدون في مقدمته إلى الشروط النفسية والعقلية والخلقية التي تمر بها دورتنا الحضارية منذ عصر العنف الذي ألم بأمتنا العربية والإسلامية .

(٢) جودت سعيد (اقرأ وربك الأكرم) ص ١٤٨

(٣) وبالتأكيد فنحن نسلم بخلق الله على منهج (كن فيكون) لكننا لا نعرف ، ويجب أن نعمل على أن نعرف كما علمنا القرآن الكريم ، كيف تم التكوين ؟ وما مراحله . ؟ وكيف بدأ الخلق .. وهذا هو موضوعنا ! !

علم الثقافة والدورات الحضارية

كيف نستفيد من هذا العلم :

إن أي علم يعمل الإنسان على تفهم أبعاده وعناصره ويسيطر على خبراته ويستطيع أن يسخره ، متعاوناً مع العلوم الأخرى من أجل البناء الحضاري ؛ فيما يحقق الأهداف والغايات السامية .

وإن علم الثقافة هو العلم الذي يدرس الثقافات المختلفة ، ويقوم بالمقارنة الموسعة فيما يحقق شمولية المعرفة العلمية عن أوضاع الثقافات وأعمال الإنسان وخبرته البشرية ؛ فعن طريق تحقيق المعرفة ، بهذا العلم تستطيع أن نعرف طريقنا في المعرفة العلمية المتعلقة بحضارة الإنسان وأعماله على هذه البسيطة .

وبتعبير آخر ، فإنه بالاستفادة من ميزة هذا العلم في شمولية معرفته نستطيع أن نوجه صناعات الإنسان الفكرية والعملية لكي تؤدي غاياتها المطلوبة منها في تناسق وانسجام بين روابطها ووظائفها ؛ لتحقيق الغايات القريبة منها ، والتي تنسجم مع الغاية الكبرى من وجود الإنسان في هذا الكون ، وهي إقامة العمران البشري في الأرض ، مستعيناً بوظائف العقل البشري ، الذي يعمل جاهداً للوصول إلى العلم الحقيقي ؛ مستهدياً برسالة خالق الإنسان وفاطر السماء والأرض .

إن الإنسان ؛ بما يتميز به عقله من القدرة على نطق اللغة ووضع الأسماء دون سائر الكائنات هو الكائن الذي رفعه الله إلى مرتبة العلم ، والذي يستطيع أن يتغلب . ، بواسطته على الفساد في الأرض .

ثم إن إحاطة الإنسان العربي المسلم بعلم الثقافة وعطائه في مجاله ، وحصوله على خبراته في دراسة الثقافات البشرية ، وما يتفرع عن هذا العمل من عمليات تثاقف وخطط تربوية لأعمال ثقافية – إن كل ذلك يمكّنه من أن يقوم بتوجيه

صناعات المجتمع الفكرية والعملية لتحقيق وظائفها التي توصلها بالغايات السليمة ، وبمعنى آخر أن توكن أعمال الإنسان وصناعاته مستظلة بهدي شريعته ، لتتمكن من الحصول على ملكة العلم الحقيقي ، الذي يقود الحضارة صناعاتها نحو البناء والسمو بغاياتها المرتبطة بالغايات الكبرى من خلق هذا الكون ومخلوقاته ..

لقد وضع العلماء آمالهم على أهمية دراسة علم الثقافة البشري واعتبروه أهم من دراسة الذرة أو دراسة الأدب والأعمال المصرفية .. إذ إنه من خلال عطاء هذا العلم يستعيد الإنسان تحقيق توازنه في توجيه أعماله ونشاطاته ، التي تتمثل في صناعاته الفكرية العملية التي يبني بها حضارته ؛ فيخلصه من وجهته المادية المفرطة التي طوقت إنسانيته وقيدت أعماله وجعلته أسيراً لها ووضعته في المناخ الذي يقضي على إنسانيته .

ثقافة الإنسان في ضوء الدورات الحضارية

لو نظرنا إلى الماضي التاريخي نجد أن كثيراً من الحضارات قامت وسادت ثم بادت ، كما هو الحال في الحضارة الفرعونية والحضارة اليونانية والرومانية الفارسية وغيرها .

وسنحاول التركيز ، في هذا المجال ، على دورة الحضارة الإسلامية ودورة النهضة الأوربية . فلو تأملنا الدورة الحضارية التي مرت بها أمتنا العربية والإسلامية ، ودورة النهضة الأوربية ، فإننا نجدها قد أقامت بنيانها العمراني على حيوية فائقة في الأفكار حققت الثورة الروحية الكبرى ، وتجسدت بفضلها الواقعية والسلوك اليومي في الحياة اليومية .

وبمعنى آخر فقد تمثل فيها عاملان هامان وهما الحيوية النابضة بالقوة من ناحية والدين الذي قدم للعالم ما يسمى اليوم (بأيديولوجية)[١] ، وهذه الأقلية الواعية في المدينة المنورة ومكة المكرمة هي التي أمسكت بتلابيب الجزيرة ، فلم تمض سنوات قليلة حتى عادت الخراف الشاردة من القطيع[٢] وانطلق هذا البنيان يلعب دوره الحضاري في إقامة الصناعات العملية والفكرية ، التي تشمل علوم عصرها وأعماله .

ولكن مسيرة هذه الحضارة ما لبثت أن انحرفت — في مجال السياسة — عن قواعد التشريع الإلهي في سنن الحضارة ، واتبع الإنسان في هذه المسيرة أهواءه ، مما طبع أثر ذلك في صناعاته وأعماله وعلومه . وقد أتاح مثل هذا الانحراف الفرصة للاستعمار أن يتسرب بجراثيمه الفكرية وأفكاره المدمرة إلى هذه

---

(١) مع إدراكنا لشمولية الدين عن (الايديولوجية) واختلافه عن بعض مفاهيمها المعاصرة

(٢) رمضان لاوند (لماذا نحن المهزومون حتى اليوم)

الحضارة ، مما سبب خلخلة البناء في هذه الحضارة وتفكك أواصر العلاقات الاجتماعية ، وكثرة سفك الدماء . وهذا بالتالي جعل الحضارة تتجه نحو الانحطاط والترهل ؛ ومن ثم الشيخوخة شيئاً فشيئاً ونرى ذلك واضحاً في أواخر العصر العباسي ، وقد عبر عن مثل هذه الحالة العلامة ابن خلدون في مقدمته عندما تحدث عن سنن الحضارة .

إن تردي هذا الوضع الحضاري قد ساعد الاستعمار أكثر فأكثر في الحصول على الامتيازات ، وتمثل ذلك في أواخر عهد الخلافة العثمانية ، ثم أحكم خطته الاستعمارية في القضاء عليها في أواخر هذا العهد .

كان سبب ذلك أن إنسان هذه الحضارة قد اتبع أهواءه التي تعارضت مع التشريع الإلهي وقوانين الحضارة ؛ مما جعل واقع ثقافته يتجه الوجهة التي تنتهي فيها دورته الحضارية .

تأثير أعمال الاستعمار :

ويمكن لنا أن نفسر هذا التردي الذي وصلت إليه حالة الأمة العربية الإسلامية بالمفهوم العصري لعلم الاستعمار وأعماله على النحو التالي :

لقد درس العلماء الظاهرة الاستعمارية ووجودها منذ القديم ؛ ودرسوا أسلوبها في تغيير أنظمة المجتمع وصناعاته وتحويلها عن وظيفتها الأساسية التي تقوم بها داخل البناء الحضاري الذي يجمعها ؛ ويشبهها بعضهم بنشوء جماعة من الحيوان أو النبات تطفلاً على أخرى ومع مرور الزمن لابد أن تتأثر الخلايا التي تم التطفل عليها كما يتأثر أساسها البنيوي بالمزيج الجديد من الأفكار أو الآراء ، أو النظم ؛ مما يؤثر بالتالي في نشأتها ونموها ، فتصاغ في قالب جديد يجعلها مختلفة عن طبيعتها الأصلية .

فالاستعمار ظاهرة قديمة لها طرقها في إفساد نظرة الإنسان نحو صناعاته التي دعا إليها رسله وأنبياؤه الذين أعطوا المثل والقدوة الحسنة ؛ في مزاولة النافع من

الصناعات التي تقوى بها حضارته ويشمل هذا الإفساد أعماله المتعلقة بعقائده وتشريعاته .

وبالنسبة لدور الاستعمار مع الحضارة الإسلامية في أواخر عهدها .. . لقد كان الاستعمار يتحسس مواطن الضعف في البناء الاجتماعي للحضارة الإسلامية وما أسماه العلامة مالك بن نبي بمرض (القابلية للاستعمار) ، ثم أخذ يعمل للحصول على امتيازاته داخل الكيان الإسلامي ؛ ومن ثم انقضّ على هذا البناء يهدمه ثم يتقاسم تركته ويتحكم في مقدراته حسب ما تمليه عليه مصلحته وأهواؤه .

وفي هذه المرحلة من التحكم الاستعماري بدأ بعمل جديد هو تغيير أنظمته التعليمية المهنية والتشريعية فحافظ على عوامل الجمود في القديم منها وعمل على تفتيته وإحلال قوالبه الفكرية والعملية الجديدة ، التي تناسب تحقيق مصالحه وتزيل هوية المجتمع .. . كان كل ذلك قد حصل مع تقدم الحضارة الأوربية وما دعمها من تقدم مادي في أساليبها ووسائلها .

وإذا نظرنا إلى مستويات الثقافة الأوربية المعاصرة وما كانت عليه من نهضة في عالم أفكارها ونظرياتها ، نجد أن هذه قد اصطبغت بالصبغة الاستعمارية ، كما هو عليه الحال في نظرية (سوردل) التي حدد فيها علاقة الرجل الشرقي بالغربي .. . على أساس تفوق الرجل الغربي عنصرياً على الإنسان الآخر الأدنى .. وغيرها من النظريات .

أي إن الإنسان الأوربي عندما أقدم على صياغة ثقافته الجديدة ، فقد شكلها وفق أيديولوجية تتناسب مع أغراضه وغاياته.أيديولوجية علمانية ، قِسْمٌ منها يتنكر لوجود الله أصلاً وموضوعاً ، كما هو الحال في النظام الاشتراكي أما النظام الرأسمالي فإن نظام أعماله وأفكاره أيضاً يتناقض في مبادئه مع ما عليه الشرائع السماوية كأن يقدم العلم على أنه مناقض للدين وبهذا فإن محتوى نظرية

سوردل[1] ، التي حددت علاقة الغربي مع الشرقي ومع شعوب العالم الثالث ينطلق أساسها من مبادىء العنصرية والتحكم ؛ فهي تؤكد على أن الأوربي هو الرجل الأعلى المتفوق الصانع للحضارة ؛ ومن حقه أن يستعمر الشعوب الأخرى المستضعفة وما على الشعوب الأخرى إلا أن تبقى مستهلكة لنتائج صناعاته وحضاراته .

إن الحضارة الأوربية المعاصرة،مع كل ما تتمتع به من حيوية في الأفكار.توجه نشاط الإنسان لاستغلال أخيه الإنسان ، كما توجه صناعاتها نحو تكنولوجيا تفوق حاجات الإنسان الحقيقية ؛ لتطغى بنظامها الرأسمالي على الصناعات التقليدية للشعوب الأخرى ، وتحاول أن تقتلها وتفتت أعمالها ، كما تحاول أن تجعل إنسانها يلبي حاجاته المادية على حساب الجوانب الأخرى من حياته ، وتسخر الإعلام الحديث لتدعيم ذلك .. وإن مثل هذا بالتالي يقود الإنسان والإنسانية نحو اغتراب الذات الحضارية .

والثقافة الإسلامية توثق الروابط بين العلم والحكمة وغايات الحياة ، ولكن الثقافة الأوربية المعاصرة فصلت العلوم والصناعات عن الحكمة ، واتبعت وجهتها المادية وأهواء النفس في السيطرة على الشعوب الأخرى بأعمالها وصناعاتها ، وتنكرت كلياً للمنهج الإلهي وانحرفت عنه ؛ ومن ثم أصبح العلم الحديث عاجزاً كلياً عن الإدراك السليم لغاية الحياة[2] ، وذلك لانهدام العلاقة بين العلوم باعتبارها وسائل ، والحكمة التي تمثل الغايات.يقول الجاحظ : (حياة الحلم بالعلم وحياة العلم بالبيان).

والثقافة الإسلامية شملت دائرة العلم فيها كل جوانب الحضارة وصناعاتها ، من جوانب أخلاقية ودينية إلى جانب الصناعات العملية العلمية الأخرى[3] كما

(١) د / علي شريعتي (العودة إلى الذات) ص ٤١ - ٤٣

(٢) جودت سعيد (اقرأ وربك الأكرم) ص (١٤ - ١٦)

(٣) المرجع نفسه . لقد انحرف فكر الاسلام بعد اتصاله بالغرب ص ١٤ ، ٨٩

رأينا ذلك في تعريف ابن خلدون للحضارة بينما نجد أن الثقافة الأوربية المعاصرة ، التي طغى تأثيرها على ثقافتنا قد حصرت العلم في العلوم التي تتجه لدراسة الآفاق كعلم الفلك والكيمياء والطب وأمثالها . ، وتناولت مفاهيم الدين والأخلاق والسلوك البشري ، من منطلق مفهوم التطور الذي يبتعد عن قوانين العلم ، حيث تطمس العلاقة الحقيقية بين أعمال الاستعمار وآثارها ونتائجها حيث نرى ذلك واضحاً في عملية المساعدات الغذائية للشعوب ؛ فنتائج أعمال البنك الدولي للتنمية مبعدة تماماً عن دراسات علماء الاجتماع لأعمال البنك ونتائجها[1]

ونستنتج مما سبق أن من أهم نتائج أعمال الثقافة الأوربية الحديثة – باتجاهها المادي الذي ابتعد عن هدى الله أنْ أساء الإنسان فيها لعلاقته مع أخيه الإنسان كما أساء لنفسه ولبيئته في أشكال صناعاته التي بنى بها حضارته ؛ حيث قضى على ارتباطه بالطبيعة ، ومن نماذجها ما كان عليه المنزل من ارتباط بالطبيعة ، فأصبحت البيوت مثل علب « السردين » ؛ كما قضى على مجتمعه المحلي ووسع مدنه حتى أصبح الفرد كالذرة فما أساء لعطاء عقله وفرديته واحتياجاتها لروابط سليمة لا تقوم على أساس المادة فقط وهذا مما أفقده حياته الاجتماعية التي كانت تمنحه التفكير السليم المتوازن مع البيئة والمجتمع .. .

كما لاحظنا أن الحضارات هي سلسلة متصلة من أعمال الإنسان وخبراته من خلال تتابع دوراته الحضارية فبالأمس أقام الإنسان العربي المسلم أعماله وصناعاته وفق المنهج الإلهي ، وأبرز مفهوم الحضارة العربية الإسلامية في التاريخ البشري خلال حقب من الزمن ، وكان هناك العطاء الخير في الصناعات وعلومها وفنونها ، التي شمل خيرها الإنسانية جمعاء .

ولكن انحراف الإنسان في الحضارة الإسلامية عن المنهج الإلهي ، مستجيباً لتحقيق أهوائه[1] وشهواته ، جعل هذه الصناعات من ثم تنحرف عن وظيفتها

(١) فرانسيس مورلابييه (صناعة الجوع) ص ٤٣٠

(١) حدثنا ابن خلدون عن بعض الصناعات التي راجت في عصر كساد الحضارة والتي لا =

داخل المنظومة الاجتماعية التي ترتبط بشكل منظم بالغايات الكبرى ، فتصبح هذه الصناعات غاية بحد ذاتها ، كما يساعد على أن تروج داخل الحضارة الصناعات ذات الصبغة المادية الضارة ، كما هو الحال في صناعة السحر أو الصناعات التي لن تبني أو تساهم في بناء الحضارة[1]

إن مثل هذا الاهتمام بالحضارة يجعل علومها وصنائعها الأساسية الهامة تكسد ، كما تتجمد وظائفها في عالم أفكارها ؛ لأنها فقدت روابطها مع الغايات السامية والنفحات الإلهية ، وانحرفت بالتالي عن المنهج الإلهي الذي ينهى عن إضاعة الطاقات من ثم فقد توقفت مرحلة الاجتهاد وسرت روح اللهو والخور والتقليد والتمسك بالتقاليد ، ولم تعد الكلمات أمارات على المعاني[2] مما أفقد الكلمة وظيفتها وأبعد اللغة عن أداء دورها داخل المنظومة الاجتماعية التي يبرز من خلالها مفهوم البناء الاجتماعي .

ونتيجة لما سبق نجد أن دورة الثقافات البشرية التي تتابعت منذ عهد الدعوة الإسلامية – وإن اختلفت في صياغة وجهتها أي درجة انحرافها وتاريخه خلال دورتها الحضارية – فإن الحضارتين كلتيهما (الإسلامية والأوربية) تشتركان في صفة واحدة هي الانجراف نحو اتباع أهواء النفس وشهواتها والانحراف عن المنهج الإلهي ، الذي يقود الإنسانية نحو التفكير المادي البعيد عن الرسالة السماوية

ففي كلا الدورتين الحضاريتين أقدم الإنسان على جعل الوسائل الحضارية ، بما تتضمنه من صناعات فكرية وعملية ، أهدافاً بحد ذاتها منفصلة عن النهج الإلهي ، كما تم تسخيرها لتكن خاضعة لأهواء النفس وأعمال الترف الحضاري . بينما نجد أنه كان من الأفضل أن تكون هذه الصناعات جادةً في وظائفها وأن

= تساهم في بناء الحضارة ؛ كصناعة تعليم الطيور الإنسية ؛ والقفز على الحبال ، وما شابه ذلك ونجد في عصرنا الحالي كثيراً من الصنائع الجديدة التي تستهلك الطاقة الإنسانية والمادية دون أن تساهم بشكل فعال في بناء الحضارة .

(١) السابق نفسه .

(٢) جودت سعيد (اقرأ وربك الأكرم) ص١٤ ، ٤٩

تكون سائل إلى غيرها وتتعاون في تطلعاتها نحو المنهج الالهي وتنتظم داخل النسيج الكلي لهذه الثقافة ؛ لأداء عمل مشترك تتجه تطلعاته نحو الغايات الكبرى من إقامة العمران البشري ، كما تسترشد مسيرته بالقوانين الإلهية التي تنتظم بها الأعمال البنائية لمسيرة الحضارات .

إن اتباع هوى النفس[1] والانحراف عن المنهج الإلهي هو من الأمراض القلبية وقد بين الله في آياته أخطار مثل هذه الأمراض وحذر المسلمين منها .

يقول تعالى : ﴿ **يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** ﴾[2]

وما يهمنا الآن هو حاضر الثقافة الإنسانية اليوم وصناعاتها الفكرية والعملية التي أصبحت مادية الهدف والمحتوى وقد أصبح العلم الذي تأثرنا به عن الغرب عاجزاً عن معالجة شؤون اليوم ، وعاجزاً عن الهداية إلى الحق ، بل هو علم يعود بالإنسانية إلى الدوافع الغريزية التي كانت مستشرية ما قبل عهد العقل .. . وعهد العلم هذا وقد أصبحنا أمام مشلكة التشكل الكاذب للعلم والتبجيل الظاهر له ، مع فقدان ملكة العلم الحقيقي ؛ ندقق في جزئياته وصغائره ونتغافل عن الأخطاء الكبيرة فيه قال تعالى : ﴿ **وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم** ﴾[3]

وقد اكتشف الاستعمار طريقة نفسية ذكية لكي يفصل الأمم ذوات التاريخ العميق والثقافة العالية عن تاريخها وجذورها ، وذلك لإخلاء ذواتها وجعلها غريبة عن ثقافتها وبعيدة عن نفسها عن طريق العلوم الحديثة مثل علم الاجتماع المعقد

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٦

(٢) سورة ص : ٢٦

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ٣

الذكي وكثير من العلوم الإنسانية والاجتماعية ، المرتبطة ببيئته وتاريخه فقام بتفريغها من عناصرها ، وبذلك استطاع أن يمسخ ثقافتها وتاريخها وكل قيمها المعنوية ويجعلها تحتقرها ومن هنا استطاع الاستعمار أن يوقع الشعوب والثقافات في شباك أسره وسيطرته[1] .

فلابد من دراسة أعمال الإنسان ونتائجها على ضوء أسبابها ومسبباتها ، حتى يتيقن الإنسان من العلم الحق فيتبعه ويتمسك به ويكتشف العلم الضال وأعماله فيبتعد عنها ، وفي هذا اتباع لوعد الحق بقوله تعالى : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أَوَلَمْ يكفِ بربك أنه على كل شيء شهيد** ﴾ [2]

---

(١) د. علي شريعتي (العودة إلى الذات) ص ١٠٨.

(٢) لقد من الله على المؤمنين بنعمة الايمان؛ لكي يكونوا أمناء على منهاجه وشرعه، وجعل الله قيادة الحياة إليهم، وأورثهم مقاليد الحضارة، وأخرج لهم أسباب العزة والتأييد. وإذا تحول المؤمنون فضيعوا شرعة الله ومنهاجه، ولم يخلصوا أفئدتهم لدواعي ألسنتهم، وشغلتهم النعم عن شكر المنعم ومراقبته، جعل الله قيادة الحياة وعمارتها إلى الأمم الأخرى، ثم سلطها عليهم بالقهر والتمزيق والاذلال.

ارجع إلى ص ١٧٦، من كتاب (منهاج الحضارة الانسانية في القرآن) للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥١.

واقع المسلمين اليوم وواجبهم

لقد ضل المسلمون طريقهم عندما قصروا العلم على معرفة ما في أسطر الكتاب[1] دون السير في الأرض والنظر في آيات الآفاق والأنفس وتطبيق ما جاء في الكتاب على الحياة .

كما أن انحراف المسلمين عن المنهج الإلهي في إقامة الحضارة واتباعهم هوى النفس عندما تعاملوا مع الصناعات الحضارية سبب انفصال هذه الصناعات عن غاياتها السامية وانتشرت الصناعات والعلوم الحضارية الضارة منها أو المرتبطة بالرفاهية والترف وسفاسف الأمور ، وهذا مما زاد من عوامل ضعف الحضارة وانحدارها .

وكان ما كان من تمكن أعداء الأمة من السيطرة على مقدراتها وإسقاط عهد الخلافة الإسلامية ، وإدراج ثقافتنا الإسلامية في عداد القوميات الحضارية .

كما تمكنت الدول الأوربية من العلوم والصناعات وسلبت المعرفة من مجالها وأحلت بدلاً من المعرفة الأصيلة الإيمانية معرفة مضللة عنها ، تسلبها وظائفها النافعة وتتركها في عداد الترف الفكري والصناعي . وقد تم تحويل التغير الثقافي في مجتمعاتنا بما يؤدي إلى اغتراب المعرفة في وسائلنا الثقافية الأصلية ؛ عند احتكاكنا مع الثقافة الأوربية المعاصرة التي تقدمت علينا بالعلوم والمعارف الجديدة والتكنولوجيا الحديثة .

ولكن آيات الله تذكّرنا دائما كيف يستدرك الإنسان أمره عندما يرد كشف ضلالات العلم الجديد أو القديم في كل قطاع : قال تعالى : ﴿ **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق** ﴾[2]

(١) جودت سعيد (اقرأ وربك الأكرم) ص ١٤٨ ، ١٤٩

(٢) سورة العنكبوت ، الآية : ٢٠

ولهذا فإن من واجبنا أن نبحث عن كل الصناعات وعلومها في مكتبات أوربا ومتاحفها ، وفي كل مكان من أنحاء العالم ؛ لنرى شواهد آثارها في الحفريات التاريخية .إن من أهم الأمور في عصرنا الحاضر هو تسخير رحلاتنا وأسفارنا وبعثاتنا العلمية لتحقيق هذا الغرض وهو السير في الأرض الذي تسبقه القراءة الواعية من أجل بلوغ الأهداف .

كما أن من واجبنا أن ندرس العلوم الجديدة ونعرف كيف نشأت وكيف تطورت حتى نتوصل إلى العلم الحقيقي بشأنها ، ثم نزيل ظلام هذه العلوم الاستعمارية المضللة ، وإذا احتاج الأمر إلى التفرغ لتعلم اللغات الأجنبية فلتحقيق ذلك ؛ فأجدادنا الأوائل عندما وجدوا من الضرورة الاطلاع على العلم الجديد الذي أطل على العرب المسلمين من خلال ترجمة العلوم . فقد عمل علماؤنا على دراسة هذه العلوم ودرسوا لغتها اليونانية[١] . وتابعوا نشأتها وتطورها وبعد ان تمكنوا منها أخضعوها لسيطرتهم وتسخيرهم من الجانب الذي يمكن أن يستفيد المسلمون من المنطق في الفلسفة كميزان يوزن به الأمور .

كما نبذوا الضارّ من هذه الفلسفات ثم كانت لهم الفلسفة الإسلامية النابعة من القرآن الكريم والمستقلة عن الفلسفة اليونانية .

وإن كثيراً من العلوم الحديثة تحتاج منا إلى أن ندرس كيف نشأت وكيف تطورت حلقاتها ؛ لكي نحصل على العلم الحقيقي من هذه العلوم الجديدة مثل علوم الإدراة والاقتصاد والسياسة والفن.. .

تطور المعرفة البشرية إلى عهد الآلية :

لقد ختم عهد الأمية وفتح عهد القراءة في الحياة البشرية[١] مع عهد خاتم النبيين ، فمن المفروض أن يُحسن الإنسان وظيفة القراءة وطلب العلم لتكون هذه الأمور نعمة للانسان تمنحه بلوغ مرتبة أحسن تقويم كما أرادها الله تعالى وقد

---

(١) د/علي الوردي (حول منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته) ص ٤٧ وما بعدها

(٢) جودت سعيد (اقرأ وربك الأكرم) ص ٦٩

بات من المعروف أن المعرفة البشرية قد تقدمت وتطورت مع مسيرة التاريخ البشري وأن علماء المسلمين والمفكرين قد قدموا الكثير في تقدم المعرفة وعلومها وتطبيقاتها على يد المسلمين وأن آثارهم ومخطوطاتهم شاهدة على أعمالهم هذه التي طبقوها منطلقين من توجيه القرآن : ﴿ **ن . والقلم وما يسطرون**[(١)] وجاء القرن التاسع عشر الذي انتهى فيه وقت الزرع والحصاد وجاء موعد الخزن[(٢)] حيث يتم جمع الثمرات فبالإضافة إلى دوائر المعارف والمعاجم والموسوعات فقد تم وضع الإتقان في علوم القرآن والمزهر في علوم اللغة ونهاية الأرب وصبح الأعشى وأمثالها . وقد استفاد علماء النهضة الأوربية من جمع المعرفة التي توصل إليها المسلمون وبنوا عليها نهضتهم العلمية والحضارية ، مع التنكر لأصولها الإسلامية ، ووصل أعمالهم بالأصول اليونانية الرومانية وقد برزت مع تقدم العصر الاكتشافات الحديثة في مختلف المجالات ، وأصبح الرمز أكثر فاعلية وكفاءة[(٣)] وسرعة وسهولة في الحصول عليه بعد اكتشاف الآلات الحاسبة وبنوك المعلومات التي هي في حقيقتها استمرار لاختزال المعلومات وتقديمها بسرعة ، وهي إحدى نعم الله الكبرى في أمر التسخير .

ولكن مع الأسف فإن هذا التقدم العلمي وهذا الاختزال في المعرفة البشرية وهذه النعمة التي سخرها الله للإنسان صارت على يد الاستعمار تستعمل أداة ضد الأمة الإسلامية .

فما يذكر أن الولايات المتحدة تملك مراكز عديدة للبحث العلمي التي تتابع أحداث العالم الخارجي عامة والعالم الإسلامي خاصة ، وأن الاتحاد السوفيتي يملك مثل هذه المراكز في بلاده ويستند إليها في وضع خططه الخاصة .

---

(١) سورة القلم ، الآيتان : ١ - ٢

(٢) الشيخ علي الطنطاوي - موقفنا من الحضارة الغربية - الشرق الأوسط - دين وتراث العدد (٣٤٩٥)

(٣) جودت سعيد ، اقرأ وربك الأكرم ، ص٧ .

وقد بلغ عدد مراكز البحوث في الولايات المتحدة خمسين مركزاً يتخصص فيها الباحثون في دراسة العالم الإسلامي وتحليل مسيرته من كل جوانبها المادية والفكرية والروحية[1]

ومن هذا نستنتج أن هذه المخترعات وهذا التقدم العلمي في اختزال المعرفة والرمز بالعلم تستخدم ضد أمتنا الإسلامية وضد مسيرتها الحضارية .

ولقد كان الأولى بنا أن تتعامل أمتنا الإسلامية مع آيات الآفاق والأنفس وتستغل الرمز لكي تتحول بسرعة إلى حقائق ومعطيات علمية تتسخر لهم أو ما في السموات والأرض لنشر السلام البشري الحقيقي والأخوة الحقيقية بين أبناء الجنس البشري . ولكن ما تفعله أعمال الاستعمار في الوقت الحالي هو التعتيم والتضليل على نتائج أعمال التسخير لهذه المعرفة ، بل إبعادها عن الدراسات العلمية لعلماء الاجتماع ؛ لكي يستمر الاستعمار بأعماله في الظلام يوهم الناس أنه يساعد بالمعونات الغذائية[1] والفنية وغيرها ، وهو يعمل على التحكم في مقدراتهم واحتياجاتهم ؛ لكي تتم له التبعية السياسية والاجتماعية ؛ ومزيد من إضعاف الشعوب وطمس مبادئها وتحويل سياستها عنه ونشر الجهالة بحقوقها هذه لكي يحول ذلك دون تحقيق ذاتيتها ووجودها .

إن العالم الإسلامي اليوم – وهو يعاني من الأمية – يعاني أيضاً من نقص فاعلية الإنسان[٣] فالإنسان فيه منزوع منه الشريان الذي يمده بالسلطان ؛ لأنه مفصول عن تجارب البشر . ويمكن القول إن بينه وبين بلوغ الرشد حواجز وحواجز تحتاج عملية إزالتها إلى عمل كبير وطاقة ضخمة .

وبالقراءة والأسفار التي تحقق وظائفها بلوغ الغايات ، يمتلك إنسان مجتمعاتنا طاقة مختزلة مليئة بالعلم ؛ مختزلة في حجم إنسان اختزل حجم آلاف السنين في

---

(١) رمضان لاوند لماذا نحن المهزومون .

(٢) فرانسيس مورلابييه – (صناعة الجوع خرافة الندرة) ،ص١٩٢ – ٢٠٠

(٣) جودت سعيد (اقرأ وربك الأكرم) ص٧٠

عمر إنسان واحد ، فيصبح عندها قادراً على حيازة تجارب آلاف السنين ، لآلاف البشر[1] وبهذا يتم له اختزال التاريخ واختزال عصور المعرفة والتجارب ، وعندها يتمكن الإنسان من تسخير العلوم والقبض على ناصيتها وتسخيرها من أجل الأهداف السامية وليس لغايات الاستعمار وأهدافه وأغراضه فتكتشف حيل علم الاجتماع الاستعماري[2] وغيره من العلوم وتكتشف شخصيتنا الحضارية بعيدة عن علاقتها الثقافية الإنسانية مع المستعمر ، كما أوضحها سوردل وإيما سيزار ، والتي تقوم على فصل شخصيته عن جذور ثقافتها التاريخية ، ومسخ هذا التاريخ وهذه الثقافة وكل ما تحتويه من قيم معنوية وتقليدية ، فتصبح هذه الثقافة ، وأصحابها كالطفل الذي يرتمي في أحضان المستعمر يفتتن بثقافته ، ومثاليات قيمه ، بعد أن فقد خصائصه الأصيلة ، وأصبحت شخصيته خالية ومفتقرة إلى من تلجأ إليه لتحتمي به عن طريق التقليد والتعويض عن النقص وهذه الناحية النفسية هي التي اكتشفها المستعمر واستغلها في ثقافات الشعوب المستعمرة .

إن لكل عصر آياته ، وإن آية هذا العصر أن نقوم بتوجيه فاعلية الإنسان الذي يطلب العلم ؛ لكي يكون علمه أكثر عمقاً وشمولية وقدرة على الحصول على ملكة العلم الحقيقي وآيات الآفاق والأنفس التي خصّها القرآن ببالغ الاهتمام والتركيز . والإلحاح لجعلها في مركز الصدارة فلابد أن يعيش إنساننا أحداث العالم وواقع الحياة ويحدق في ملكوت الله في الآفاق والأنفس ، ويدرس أمراض القلوب وأمراض العصر ويسيطر على علومها ؛ حتى يشرق علينا صبح هذا العالم الجديد الذي لا نبلغه إلا بشق الأنفس .

إننا بحاجة إلى مراكز للأبحاث العلمية التي تتخصص بدراسة أمراض القلوب وأمراض الحضارة ، بالقدر الذي أولينا فيه الاهتمام لمراكز البحث ومستشفيات

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٩

(٢) د . علي شريعتي (العودة إلى الذات) ص ١٠٨

(٣) جودت سعيد (اقرأ وربك الأكرم) ٩٦

الأمراض الجسمية ، ونحاول أن نبدأ بتغيير ما بالأنفس حتى نبلغ آفاق هذا العصر .

إن دخول عصر آيات الآفاق والأنفس لا يبلغه الإنسان إلا بصعوبة تتناسب مع إرادة التغيير التي نبدؤها بحشد الطاقات العلمية والمعرفية لنضج هذه العلوم وتتويجها بقيم الحضارة .. . عندها تتم نعمة الله تعالى على الخلق أجمعين . والآية الكريمة تؤكد معرفة خالقنا بقدرة الإنسان على بلوغ هذه النعمة بعد تسخير علمه وقراءته ورحلاته وأسفاره لبلوغ الغايات السامية يقول عز وجل مخاطباً نبيه ومبشراً له ببلوغ الرسالة وتبليغها للعالمين :﴿ **ن ، والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون** ﴾[1]

إننا بحاجة إلى أن نحول جامعاتنا إلى متخرجين بعيدين عن أنصاف العلوم ، متسلحين بالبطولة وإرادة الحياة والاستعداد للعيش في الخطر واقتحام المجاهيل من حولهم ؛ وأن نبتعد عن تخريج الكثرة الساحقة من الأجيال من خريجي الجامعات والمدارس التي تسعى للحصول على الوظيفة الرسمية إيثاراً للعافية ورغبة في الفوز بعيش نمطي ليله كنهاره[2]

وإننا بحاجة إلى أن ننظم طاقات أبناء الأمة للقيام برحلات علمية ، وقراءة ماسحة لتجارب الأمم ، وكشف حال البشر ومعاناتهم بالسير في الأرض والنظر إلى الذين خلوا من قبل ، لنخرج بالبصيرة ولنمنع تكرار الخطأ ؛ فالتاريخ هو مختبر القيم وميزان الحكم على الحضارات[3]

---

(١) سورة القلم ، الآيات : ١ - ٣

(٢) رمضان لاوند - (لماذا نحن المهزومون)

(٣) جودت سعيد ، المرجع السابق ، ص١٣٢ .

واقع المسلمين اليوم

يرى بعض علمائنا أن العالم الإسلامي لا يمكن أن يدخل المجتمع البشري باعتباره (مجتمعا مسلما) ؛ لأنه قد فقد صفة المجتمع المسلم ، وإنما يدخل المجتمع العالمي باعتباره مجتمعا قومياً أو وطنيا ! ! .

وهذا الوضع قد قضى على شهود الشخصية المعنوية ومن ثم أسقط وجوده في الأسرة الدولية ، فكيف يمكن أن يتحدث عن مهمته ، وهو لم يولد بعد ؟ ولم يولد حضوره ، مع أن البحث في أية قضية يأتي بعد وجود صاحبها .

إن فهم هذه النفسية ليس مبعثاً للتشاؤم ؛ ولكن من أجل الأخذ بيد الثقافة الإسلامية إلى موقع المتصدرين على مائدة الذين يقررون مصير العالم ومشكلاته ، وحتى لا يظل العالم الإسلامي عاجزاً عن أن يحول دون التآمر العالمي عليه .

ومن أجل إحياء هذه الشخصية ؛ من خلال هذا الواقع الذي أمكن فيه نفي الشخصية الإسلامية من الوجود الفعلي ؛ فإن عليها أن توضح ما يمكن أن تساهم به (بعد إحيائها) في بناء عالم اليوم[1]

والمسلم لا يدرك كيف يرفع هذا الضغط وهذه الأثقال وكيف يزيل الأوضاع التي يعيشها في أفكاره ووجوده وعدم الاعتراف به في المجتمع الدولي .

والمشكلة كامنة في الأمية الفكرية التي يعيشها العالم الإسلامي ، فهذا الوضع الفكري هو الذي يشل قواه ، ويجعل طاقاته معطلة ومسخرة لمصالح غيره . إن المسلم لم يدرك بعد أن جهده اليومي هو الذي يمكن أن يغير هذا الوضع .

يقول الأستاذ مالك بن نبي : « إن التاريخ لا يبدأ من مرحلة الحقوق ، بل

---

(١) جودت سعيد (فقدان التوازن الاجتماعي) دار الثقافة للجميع ، دمشق ط٢ ، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م .

من مرحلة الواجبات المتواضعة – في أبسط معنى الكلمة – الواجبات الخاصة بكل يوم ، بكل ساعة ، بكل دقيقة وليس في معناها المُعقّدْ كما يُعَقِّدُه عن قصد أولئك الذين يعطلون جهود البناء اليومي بكلمات جوفاء ، وشعارات كاذبة ، يعطلون بها التاريخ ، بدعوى أنهم ينتظرون الساعات الخطيرة والمعجزات الكبيرة »[1]

إن من واجبنا أن نَعْرِف الأفكار الموجهة لحل مشكلات العالم في سوق الأفكار العالمية ؛ فالذي لا يعرف قيمة الأفكار المعروضة وأهميتها في حل مشكلات العالم ، ويعرف الحلول التي يقترحها أصحاب الرأي في هذا المجال ونتيجة التطبيقات ، لا يمكنه أن يعرف قيمة ما عنده ، ولا أن يعرف كيف يتم له تعريف العالم بما عنده من بضاعة وأفكار .

ويرى الأستاذ جودت سعيد أن اجتياز عقبة المجتمع العالمي يحتاج إلى الإحاطة بأرقى ما وصل إليه نمو الضمير العالمي وذكائه ؛ أي في أخلاقه وعلمه وليس المراد معرفة ما وصل إليه فقط ، لأن هذا لا يكفي زاداً من أجل التمكن من اجتياز العقبة ، بل لابد من تحصيل أعلى ، وتطلعٍ أسمى ، يمكن معه كشف النقص والاستدراك الذي يبين بوضوح حاجة العالم إلى هذا الفهم الجديد .

إن المسلم اليوم يحصر اهتمامه كله في الإيمان بعالم الغيب ، وفي ترسيخ هذا الجانب فقط ، والتأكيد عليه والاكتفاء به ، وعدم المبالاة بأهميته أثر عالم الشهادة[2] .

إن احترام المبدأ من قبل الآخرين لا يكون إلا بما يتضمنه عنصر عالم الشهادة في الإيمان بالغيب . لهذا يؤكد القرآن الكريم دائماً أن عالم الشهادة (آيات الآفاق والأنفس) سوف يشهد لهذا القرآن في المستقبل ! !

والإيمان بالغيب المفتقر إلى عالم الشهادة لا يجلب احترام الآخرين وإعجابهم ، وإن جلب شيئاً فإنما يجلب التعجب من شدة الإيمان .

---

(١) مالك بن بني (في مهب المعركة) ص١٠١

(٢) جودت سعيد (اقرأ وربك الأكرم) ص ٣٩ وما بعدها .

كما ان التمسك الناشيء عن الإيمان بالغيب فقط يستطيع صاحبه أن ينقذ نفسه ، أما أن يؤثر في الآخرين فهذا مما ليس في الإمكان عمله ؛ إذ إن الإيمان يبدأ بإنقاذ الذات وينتهي بإنقاذ المجتمع ، أما الإيمان الذي يقتصر على المرحلة الأولى فيكون إيماناً سلبياً .

وهذا مما يؤكد مقولة العالم (كوون) الذي ذكر أن من الأمور الحيوية أن تقوم الشعوب العربية بالمشروعات الخاصة بها ، وأن تجد الوسائل التي ترفع مستويات المعيشة لجميع السكان ، لا لمصلحتهم هم فحسب بل لصالح العالم كله .

إن مجتمع اليابان كان في السابق ؛ مثل كل المجتمعات الشرقية ؛ محل اختبار من أصحاب الأناقة ، إلى أن استطاع الوصول إلى تحقيق أسباب القوة ومن ثم إثبات الذات والوقوف بثقل مماثل أو أشد أمام الآخرين .

وفيما يتعلق بمسؤولية الثقافة الإسلامية ، فإن الحضارة الإسلامية ليست قضيتها الانشغال بالصراع مع الحضارة الغربية بشقيها الليبرالي والماركسي ، بل إن مسؤولية الحضارة الإسلامية ترتكز على بناء الإنسان الشامل القادر على أن يجد مكاناً بحضارته على مائدة المتصدرين في القرن الحادي والعشرين ، بإعطاء نموذج للإنسان المسلم الطموح إلى القمة ؛ والبحث من خلال جامعاته ومراكز العلم عن التفوق بين الأخرين بالصلاح والصلاحية معاً[1]

كما يطلب من الإنسان العربي أن يسهر على لغة القرآن ؛ لتصبح لغته ثقافة للمسلمين في كل مكان ، وتذوب الحساسيات المفتعلة التي يتاجر بها البعض .

وفيما يتعلق بدور الشباب المسلم في الحفاظ على رموزه الحضارية ؛ يشير د / رشدي فكار إلى أن الأمة الإسلامية في أشد الحاجة إلى الشباب المؤهل للحفاظ

---

(١) (٢) د / رشدي فكار (الفكر الإسلامي أساسه لغة القرآن) - جريدة الشرق الأوسط العدد ٣٣٣٣ ، تاريخ ١٩٨٨/١/١٣

على رموز حضارته . والمقصود بالمؤهَّل هنا هو التأهل بالإسلام .

كما يطالب الشباب بالتفتح على العصر وعلى الحضارات الأخرى ؛ ليتعرف على تناقضاتها بأرضية صلبة وكيان حضاري قوي ؛ وألاّ ينتظر الشباب من الآخرين أن يُمْلُوا عليه كيف يرى واقعه ؛ فهو واقع مشرِّف وأن إدراك الشباب لحضارته الإسلامية شيء مهم ، وفي الوقت نفسه على الشباب ان يستوعب حضارة العصر ؛ حتى لا يكون غائباً في عصره ؛ فاستيعابه لواقعه يدفع بحضارته ومجتمعه للأمام[1]

---

(١) المرجع السابق نفسه.

العلماء ورثة الأنبياء

إن توضيح مهمة علمائنا ، يساعد على تصحيح الخلل الذي أصابنا في مفهومنا الحضاري(١) حول مسألة القيادات الفكرية فقبل أن نتكلم عن مسؤولية العلماء نحو السير في الأرض لدراسة كيف بدأ الخلق وإظهار ، آيات الله في الآفاق والأنفس ، لابد لنا من توضيح للمعنى الذي اختلط علينا في هذا العصر ، من أن العلماء هم ورثة الأنبياء ، والذي كان سبباً في تأخرنا الحضاري .

والحقيقة أن هذه الصفة لا تقتصر على تخصصات العلوم الشرعية ، كما يحاول البعض أن يحصر نطاقها به ، بما يسبب من ضرر في فعاليات الإسلام نحو إقامة هذا الدين وتمكينه في الأرض ، وجعله مفصولاً عن خبرة الإنسان البشرية نحو الصناعات الفكرية والعملية المختلفة وبمعنًى آخر جعله مفصولاً عن أوجه نشاط الإنسان في جوانب حياته المختلفة ابتداءً من علم الفلك ، وانتهاءً بإقامة الترويح السليم وطلب الزينة في الحياة الدنيا .

إن مثل هذا جعل أعداء الدين الإسلامي يلجؤون إلى محاصرة الإسلام وسلخه عن جوانب الحياة ، وتحقيق انعزالية وتحجيم نشاطه وفعاليته في الحياة ، مما يجعلنا نسير نحو اغتراب الإسلام ، أكثر فأكثر .

إن قصر هذه الصفة على تخصصات العلوم الشرعية ؛ دون تحقيق شمولية المعرفة ، هو حصر لا دليل عليه ؛ فقد يكون من علماء الطب والطبيعة والفلك مَنْ يصلون إلى حقائق تعمُّق الإيمان وتفرسه ، فيصبح هؤلاء أيضاً علماء شرعيين وقد يعمل علماء الاقتصاد على إثبات مشروعية النظام الإسلامي ؛ وفشل نظام الربا بالأدلة القاطعة ؛ فيصبحون علماء شرعيين ؛ حتى لو لم يطلق عليهم لقب

---

(١) د . عبد الحليم عويس (الخلل الحضاري في القيادات الفكرية) مجلة (المسلم المعاصر) الكويت ، العدد ٥٤ ، ١٤٠٩هـ .

علماء شرعيين .

إن نجاح العلوم الشرعية في تحقيق عبادة الله يكمن في قدرتها على تمكين هذا الدين في الأرض في جوانب الحياة المختلفة ، وخدمة ما يهدف إليه من إحقاق الحق ، ومن ثم الكشف عن عظمة الخالق ؛ مما يجعل هذه الجهود ، مجتمعةً ومتعاونةً ، تؤدي وظيفتها الفردية ، ومن ثم الاجتماعية ، لبيان رسالة الإسلام نحو البشرية جمعاء ، في إقامة الحضارة الإنسانية .

العلماء ومسيرة العلم :

إن تهيئة مؤسساتنا العلمية للبدء في المسيرة العلمية الثقافية لدراسة كيف بدأ الخلق .. إن ذلك يضعنا على طريق العلم الحقيقي في قوانين آيات الآفاق والأنفس ، مع التركيز على نتائج علم الأنفس وما يرتبط به من علوم الأخلاق والقيم المتعلقة بالدين والتي لها علاقة بعلم الحضارة

إنها مسيرة يتقدمها العلماء والمؤرخون للسير في الأرض والنظر والدراسة والاعتبار لكشف سنن الله في الكون والسيطرة على العلوم التي تمسك زمام النفس ؛ فبالعلم والقراءة الجيدة للسير في الأرض تحصل النتائج لتساعد إرادة التغيير ، فالواقع لا يتغير إلا إذا بدأنا بالتغيير بما في الأنفس ، وإن شهادة العالم مقرونة بشهادة الله وملائكته .

والعالم يكشف الصلة بين ما في الأنفس والواقع وإن طمس هذه الصلة والتعتيم عليها وتشويهها هو مصدر كل ضلال .

إن معرفة كيف بدأ الخلق تضعنا على طريق العلم الحقيقي ؛ بما يتضمن تطور مختلف العلوم والصناعات المرتبطة بها وأصولها الحقيقية ؛ ثم يأتي دور علم الثقافة ليحيط بها وَيُوحِّد أجزاءها ، بما تتطلب خاصيته من شمولية في المعرفة ، تساعد على كشف الأمراض في السلوك البشري والأمراض القلبية .

---

(١) جودت سعيد – (اقرأ وربك الأكرم) ص ٨٩ وما بعدها.

عندما يكون لمثل هؤلاء العلماء وللعلم مكانة في مجتمعنا ، وقدم ذات جذور راسخة ، عندها يصبح العلم شفاءً للنفوس الجريحة ، والعلماء هم ورثة الأنبياء .

إن السير في الأرض والقراءة الماسحة لبلوغ العلم الحقيقي هو مبتدأ الطريق ، ثم تأتي بعدها الخطوط التالية في كشف هذه العلوم وبيانها ، عن طريق تبسيطها وإيجازها ، وإيصالها بالحكمة والموعظة الحسنة . قال تعالى : ﴿ **خلق الإنسان ، علّمه البيان** ﴾[1]

فعندما نوجه أعمالنا وعلومنا لتكون مستهدية بما جاء في سطور الآيات من المعاني ، ليكون علم الله مرتبطاً بالحقائق الخارجية عن مختلف جوانب الحياة من آيات الآفاق والأنفس ، ولتحرَّر العلوم من وثنية الأشخاص والصور الذهنية – عندها نحصل على ملكة العلم الحقيقي ونسير في طريقه وعندما تكتمل العلوم والصناعات كمًّا وكيفاً ، بما يحقق غاية البحث في الوصول إلى قوانين علمية لإقامة العلاقات السليمة وتنظيم نشاط الإنسان نحو العمران البشري وصناعاته – عندما يتحقق ذلك نكون قد وصلنا إلى ما يخدم مجتمعاتنا الإسلامية والإنسانية جمعاء .

إننا ننتقل من عهد سيطرة (مادية) الحضارات ، وما فيها من الفساد وسفك الدماء ، نحو عصر ﴿ **ويخلق مالا تعلمون** ﴾ ؛ حيث يدفع فيه العالم إلى مخاضٍ شديد لبلوغ وحدة العالم ووحدة الحضارة والمصير الواحد ، الذي يجعل النجاة الفردية محالة في هذه الدنيا .

إنه عهد لابد أن يتخلى فيه الإنسان عن ذاته وأنانيته ، ليدخل إلى عهد الحب والإيثار والعدل والإحسان والعلم . وإنه الخروج من عهد الفساد وسفك الدماء والثارات وإثارة الأحقاد ؛ إلى عهد الأمن والاطمئنان .

ولكن هذا الزمن له أخلاقياته التي لابد منها ؛ والتي يقودها العلماء للخروج من عهد النرجسية والأنانية وفكرة الشعب المختار[2]

---

(١) سورة الرحمن ، الآيتان : (٢ ، ٣)

(٢) جودت سعيد (اقرأ وربك الأكرم) ص ٢٤١

يقول تعالى : ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً** ﴾[1]

إن الدخول في دين الله أفواجاً لايكون بتفضيل النفس ؛ ولكن بالتبشير بالعطاء لإدخال الناس في دين الله أفواجا ؛ ليس بقهرهم وإنما بالثقة المتواضعة وبمعرفة طبيعة الإنسان الذي إنما يتم أسره بالإحسان إليه والإعفاء عن سيئاته وإبراز حسناته .. . وهذا قانون وسنة ونظام علوي للبشر يساعد على تجاوز حالة الفساد وسفك الدماء[2]

إن الإسلام قائم على الرفق واللين والبعد عن الغلظة والفظاظة ، كما يقوم على التسامح والتراحم والإثار ، الذي ينم عن غنى نفسي وفكري واثق .

إنه تسامحُ عَفٌّ مع نكران للذات وإبراز لفضائل الآخرين ؛ إلى درجة الحياء ومن إبراز ما يمتاز به عليهم .

وهذا الإسلام لا يُسأل فيه عن الحقوق بقدر ما يسأل عن الأعمال التي تجعل هذه الحقوق تأتي إلى الإنسان بطبيعة الحال[3]

إنه العمل الإنساني الذي يعترف بسنن الأنفس مثل اعترافه بسنن الآفاق وتظهر منه وظيفة التوحيد الاجتماعية في إبداع السلوك الذي تتحقق به إنسانية الإنسان ووحدة الدين والكرامة البشرية .

---

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٦٣

(٢) جودت سعيد المرجع السابق ، ص ٢٤٢

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧٦

المصادر والمراجع

(١) أحمد حلمي العلاف ، دمشق في مطالع القرن العشرين ، دمشق ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٧٦م .

(٢) أحمد الشيباني ، سنريهم آياتنا في الآفاق ، الرياض ، . جريدة الرياض ، العدد ٧٦١٦ ، رمضان ١٤٠٩هـ .

(٣) أحمد مصطفى المراغي ، تفسير المراغي ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الثانية ١٩٨٥م .

(٤) أنور الجندي ، شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٩٧٨م .

(٥) أنور الجندي ، الطريق إلى الأصالة والخروج من التبعية ، القاهرة ، دار الصحوة للنشر ، مطبعة دار التأليف ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م .

(٦) بهاء الدين أبو الفتح محمد بن أحمد الأبشيهي ، المستظرف من كل فن مستطرف بيروت ، دار إحياء التراث العربي .

(٧) جريدة رسالة الجامعة ، العمارة علم وفن ، الرياض ، العدد ٣٦٨ ، ١٦ /٤ /١٩٨٨ .

(٨) جريدة الرياض ، طلقات الفن النارية ، الرياض ، العدد ٧٤٥٠ ، ٦ /٣ /١٤٠٩ هـ .

(٩) جريدة الشرق الأوسط ، الأدباء العرب لم يحسموا قضية الأصالة والمعاصرة ، العدد ٣٣٨٢ ، ٨ /٣ /١٩٨٨م .

(١٠) جريدة الشرق الأوسط ، دور التجسس في فتح الأندلس ، العدد ٣٥٠٧ ، ١٩٨٨م .

(١١) جودت سعيد ، فقدان التوازن الاجتماعي ، دمشق ، دار الثقافة للجميع ، الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ /١٩٨٠م .

(١٢) جودت سعيد ، اقرأ وربك الأكرم دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
(١٣) جودت سعيد ، العمل قدرة وإرادة ، دمشق ، دار الثقافة للجميع ، ١٩٨٠م .
(١٤) د . حسين فهيم ، قصة الأنثروبولوجيا ، الكويت ، المجلس الوطني للثقافة والآداب ، سلسلة المعرفة ، ١٩٨٦م .
(١٥) ابن خلدون ، عبد الرحمن أبو زيد ، المقدمة (مقدمة كتاب العبر. .) ، بيروت ، ط . دار العودة .
(١٦) ابن خلدون ، عبد الرحمن أبو زيد ، المقدمة ، شرح وتعليق د . علي عبد الواحد وافي ، مصر ، دار نهضة مصر ، الطبعة الثالثة .
(١٧) د . رشدي فكار ، الفكر الإسلامي أساسه لغة القرآن ، جريدة الشرق الأوسط ، العدد ٣٣٣٣ ، ١٣ /١/ ١٩٨٨م .
(١٨) رمضان لاوند ، لماذا نحن مهزومون حتى اليوم ؟ ! الكويت ، مجلة النهضة ، العدد ٨٤٤ ، ٧ /١/ ١٩٨٤م .
(١٩) رينيه دوبو ، إنسانية الإنسان. نقد علمي للحضارة المادية ، تعريب د . نبيل صبحي الطويل ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .
(٢٠) زكريا إبراهيم ، فلسفة الفن في الفكر المعاصر ، القاهرة ، مكتب مصر ١٩٦٦ .
(٢١) د . زكي محمد إسماعيل ، الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي ، الرياض وجدة مكتبات عكاظ ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
(٢٢) ساطع الحصري ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الثالثة ، ١٣٧٨٣هـ .
(٢٣) د . سعد الصويان ، محاولة أولية نحو تحديد مفهوم عربي للمأثور الشعبي[١] ، الرياض ، جريدة الجزيرة ، ٢٥٨٧ ، ٢١ /٧/ ١٤٠٧هـ .
(٢٤) د . سعد الصويان ، محاولة أولية نحو تحديد مفهوم عربي للمأثور

الشعبي الرياض ، جريدة الرياض ، العدد ٦٨٤٧و ٢٣ / /٧/ ١٤٠٧هـ .
(٢٥) د . السيد علي شتا ، نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع ، الرياض ، دار عالم الكتب للتوزيع والنشر ، ١٤٠٤هـ /١٩٨٤م .
(٢٦) سيف الدين الكاتب ، الأوائل في حضارة الإسلام ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م .
(٢٧) صفوت كمال ، فنوننا الشعبية ، مجلة أسرتي ، الكويت ، العدد ١٤
(٢٨) د . عائشة عبد الرحمن ، تراثنا بين ماضٍ وحاضر ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٣٨٩هـ /١٩٧٠م .
(٢٩) د . عبد الحليم عويس ، قصة إحراق طارق للسفن. بين التاريخ والأسطورة ، القاهرة ، دار الصحوة ، ١٩٨٨م .
(٣٠) د . عبد الحليم عويس ، الخلل الحضاري في القيادات الفكرية ، مجلة المسلم المعاصر ، الكويت ، العدد ٥٤ ، ١٤٠٩هـ .
(٣١) د . عبد الحميد لطفي ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، مصر ، دار المعارف ، ٢١ /٩ /١٩٧٤م .
(٣٢) د . عبد الحميد يونس ، معجم الفولكلور ، مجلة الحرس الوطني ، الرياض ، العدد ٤
(٣٣) عبد الرحمن المزين ،موسوعة التراث الفلسطيني بيروت ، دار صامد ، ١٩٨١م .
(٣٤) عبد العزيز بن إبراهيم العمري ، الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول ﷺ ، رسالة ماجستير ، الرياض ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٥هـ /١٩٨٥م .
(٣٥) د . عبد الملك مرتاض ، الأمثال الزراعية ، الجزائر ، جامعة وهران ، ديوان المطبوعات الجامعية .
(٣٦) د . عفيف بهنسي ، جمالية الفن العربي ، الكويت ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، سلسلة المعرفة ، ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م .

(٣٧) د . علي شريعتي ، العودة إلى الذات ، القاهرة ، مدينة نصر ، الزهراء للإعلام العربي ، ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م .
(٣٨) د . علي الوردي ، منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته ، تونس ، الشركة التونسية للتوزيع ، ١٩٧٧م .
(٣٩) عمر عثمان خضر ، المأثورات الشعبية في المملكة ، الرياض ، مجلة الدارة ، العدد ٢ ،١٣٩٦هـ .
(٤٠) فرانسيس فورلابييه ، جوزيف كولينز ، صناعة الجوع. خرافة الندرة ، الكويت ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، سلسلة المعرفة ، ١٩٨٣م .
(٤١) فوزية المري ، لا تذبحوا الفنون الشعبية واتركوها تتنفس ، الرياض ، جريدة الرياض ، العدد ٨٥٨٧ .
(٤٢) كمال النجمي ، محمود محمد شاكر يكتب رسالة إليَّ ثقافتنا ، جريدة الشرق الأوسط ، العدد ٣٢٩٤ ، ٥ /١٢/ ١٩٨٧م .
(٤٣) لؤلؤة العماري ، الاسبوع الثقافي للخليج العربي ، الرياض ، مجلة اليمامة ، العدد ٦٤٢ ، ١٤٠١هـ /١٩٨١م .
(٤٤) مالك بن نبي ، شروط النهضة دمشق ، دار الفكر ، ١٩٧٩م .
(٤٥) مالك بن نبي ، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، طرابلس — لبنان ، دار الفكر ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .
(٤٦) مالك بن نبي مشكلة الثقافة ، طرابلس — لبنان ، دار الفكر ، ١٩٧٩م .
(٤٧) مالك بن نبي ، في مهب المعركة ، دمشق دار الفكر ١٤٠٢هـ /١٩٨١م .
(٤٨) مجلة سيدتي ، الأزياء الفلسطينية الشعبية : تاريخ وحضارة يحاولون طمسها ، العدد ٧١ ، ١٤٠٤هـ /١٩٨٤م .
(٤٩) مجلة الوطن العربي ، الفكر الإسلامي أساس النهضة الأوربية المعاصرة ، باريس ، مدير أكاديمية العلوم الإنسانية بنيويورك العدد ٢٠٨ ، ١٩٨١م .

(٥٠) د . محمد رجب النجار ، مصادر الموروث الشعبي في التراث العربي ، الرياض ، جريدة الرياض ، الأعداد (٦٨٤٩ ، ٦٨٥٠ ، ٦٨٥١) ، ٢٥ – ٢٧ /٧ /١٤٠٧هـ .
(٥١) محمد عطية الإبراشي ، التربية الإسلامية وفلاسفتها ، مصر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، الطبعة الثالثة ١٣٩٥ هـ /١٩٧٥م .
(٥٢) محمد على الصابوني ، صفوة التفاسير بيروت ، دار القرآن ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٢ هـ /١٩٨١م .
(٥٣) د . محمد عمارة ، التراث في ضوء العقل ، بيروت ،دار الوحدة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٠م .
(٥٤) محمد محمد حسين ، حصوننا مهددة من الداخل ، المكتب الاسلامي ، الطبعة الخامسة ، ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨م .
(٥٥) د . محمد محمود الجوهري ؛ د . علياء شكري ، عبد الحميد حواس الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية ، القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٦٩م .
(٥٦) د . محمد محمود الجوهري ، علم الفولكلور ، القاهرة ، دار المعارف ، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٨م .
(٥٧) د . محمود محمد سفر ، دراسة في البناء الحضاري ، قطر ، مطابع مؤسسة الخليج للنشر والطباعة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ /١٩٨٩م .
(٥٨) د . معروف الدواليبي ، الإسلام والتيارات القومية والعلمانية ، جريدة الشرق الأوسط ، العدد ٣١٤٠٥١ /١٢ /١٩٨٩م .
(٥٩) المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، الوجيز في إسلامية المعرفة ، سلسلة إسلامية المعرفة ٣ ، الولايات المتحدة الأمريكية ، ١٤٠٨ هـ /١٩٨٧م .
(٦٠) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الفنون التشكيلية في الوطن العربي ، القاهرة ، ١٩٧٥م .
(٦١) ندوة التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية ، الرياض ، جامعة الإمام محمد

بن سعود الإسلامية ، ٥ -٦ /٦ /١٤٠٧ هـ .
(٦٢) هيام الملقي ، المرأة بين التعليم والعمل ، بيروت ، دار الكاتب العربي ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧ هـ /١٩٨٧م .
(٦٣) د . وجيه كوثراني ، بلاد الشام : السكان والاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين. قراءة في الوثائق ، بيروت ، معهد الإنماء العربي ، الجزء الأول ١٩٨٠م .
(٦٤) د . وليد محمود الجادر ، الأزياء الشعبية في العراق ، بغداد ، وزارة الثقافة والفنون ، دار الرشيد للنشر ، السلسلة الفولكلورية ١٧ ، ١٩٧٩م .

الفهـــرس

الباب الثاني

الباب الثالث

الباب الرابع

مفهوما الثقافة والحضارة.. النشأة والتطور

الباب الخامس

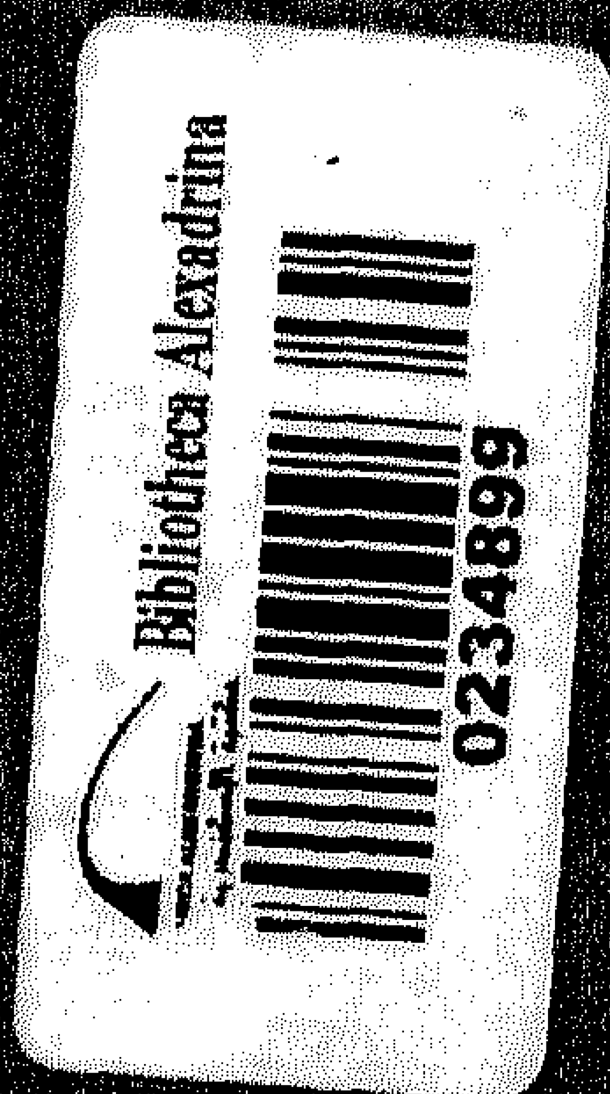
مسؤوليتنا نحو العالم

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٩	١٢	بل	نعم
٧٤	٦	بفساد	بفساده
١١١	١٩	رسم	اسم
١٣٢	٢	النسبة الثقافية	النسبية الثقافية
١٤٤	٨	الأساس	الأساسي
١٤٨	١٠	أهداف التقريب	أهداف التغريب
١٦٤	١٢	يتم	ينم
١٦٥	الثاني والثالث قبل الأخير	الإرادة	الإدارة
١٦٧	السطر الأخير	الفردية	القروية
١٦٨	٢ ، ٣	الفردية	القروية
١٦٨	١٠	المركسي	الماركسي
١٨٠	الهامش	لفائق فهيم	لحسين فهيم
١٨٨	١٣	فردم	فروم
١٩٠	١٧	الملوك	الملاك
١٩٢	١٤	ثقافية	ثقافته
٢٠٢	١٧	وتقوها	وتقولبها
٢١٥	قبل الأخير	لا الإسلامي	الإسلامي
٢٢٧	١٧	دولوره	دولور
٢٢٧	١٨	العظيم	العظم
٢٢٧	١٨	الرقص	الرقش
٢٣٧	١٤	التقريب	التغريب
٢٥٩	١٠	، دون	، ودون

تابـع جـدول الخطـأ والصـواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٦٦	الأخير	غناء	عناء
٢٦٧	٣	للتأكد	للتأكيد
٢٧٠	١٢	تجبير	تحيير
٢٧٢	٨	أي أنه يخضع	أي أنه ، بصورة عامة ، يجب أن يخضع
٢٧٧	٢١	الموضع	الموضوع
٢٩٥	١٦	الضنائع .	الصنائع .... » .
٣٠٥	١٧	جهة أخرى .	من جهة أخرى .
٣١٨	٢ + ٣	لاحتياجاتها التي تقبع	لاحتياجاتها ، ونقبع
٣٣٤	١٣	بالحية	بالحياة
٣٧٤	١٢	الادراه	الإرادة
٣٨١	قبل الأخير	الأنشطة ،	الأمشاط ،
٣٨٩	٢	لأ ربع	الأ ربع
٣٩٨	١٢	الصوء	الضوء
٤٠٧	١٢	رمت	مرت
٤٠٨	٦	إاهد	شاهد
٤٠٨	١٩	عذه	هذه
٤١٢	١٥	عبارة التراث	عبادة التراث
٤٥٩	٢	توكن	تكون
٤٦٤	١٣	فما	مما
٤٩٤	١٨	٣٣٤	٣٤٣
٤٩٦	١٦	٤٥٠	٤٥٨



دار الصواف للنشر والتوزيع شارع الثلاثين - العليا
رياض - المملكة العربية السعودية - هاتف : ٤٦٢٢٦٣٠ - ٤٦٢٢٦٦٧